فهرست الجزء الاول من كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى

صحيفة

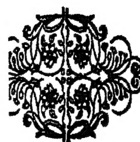
صحيفة

﴿تمت﴾

الجـزء الاوّل

من كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى

تأليف العالم العلامة المحقق الفهامة وحيـد
الاوان وفريد الزمان بحر العلوم الراوى
الشيخ أحمد بن خالد الناصرى
السلاوى حفظه الله
وأدام علاه
آمين



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الحمد لله﴾ الملك المعبود * الرؤف الرحيم الودود * المخرج للخلق من ظلمة العدم الى نور الوجود * الفائح عليهم بمعرفته * والتحقق بوحدانيته * كل باب مسدود * الدال لهم على باهر حكمته * وعظيم قدرته * بالمعنى المعقول والحس المشهود * فلا يرتاب فى انه الواحد القدير * العليم الخبير * الا الكفور الكنود * خالق العباد وقدر آجالهم * وأحصى أنفاسهم وأعمالهم * وأوقفهم من شرعه على نهج سوى وحد محدود * فمن وقف عنده وأطاع * فقد فاز من ثمرة الايجاد بالمقصود * ومن حاد عنه واستكبر * فقد أورد نفسه الردى وبئس الورد المورود * نحمده تعالى على ما أسبغ من النعم البيض وكسا من البرود * وأزاح من العلل ووقى من النوب السود (ونشهد) أن لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة تتبوأ بها من الجنان السدر المخضود * والطلح المنضود * والظل الممدود (ونشهد) أن سيدنا ونبينا ومولانا محمدا عبده ورسوله أكرم مبعوث وأشرف مولود * صاحب المقام المحمود * واللواء المعقود * والحوض المورود * صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين هم فى محافل السلم بدور * وفى جحافل الحرب أسود * ولهم فى اتباعه ونصرته اليد البيضاء والباع الممدود * والدعاء لامير المؤمنين مولانا الحسن ابن أمير المؤمنين مولانا محمد ابن أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمن كوكب السعود * ومنبع الكرم والجود * والمنير بطلعته الغراء * وامامته البيضاء * الاغوار والنجود * لا زالت به ملة الاسلام بحول الله فى صعود * تردى الكفر وتنفى البغى وتذود * وتصول على الضلال وتسود * آمين ﴿وبعد﴾ فيقول مؤلفه أحمد بن خالد الناصرى السلاوى عفا الله عنه هذا بعون الله كتاب الاستقصا * لاخبار دول المغرب الاقصى * كتاب جمعته لنفسى * ولمن شاء الله من أبناء جنسى * ذكرت فيه دول هذا القطر المغربى من لدن الفتح الاسلامى الى وقتنا هذا الذى هو آخر القرن الثالث عشر سالكا فيما أنقله من ذلك سبيل الاختصار * آتيا منه بما تسمو اليه النفوس من حوادث الاعصار * ملمعا بما لا بد منه من وفيات بعض الائمة المقتدى بهم فى الدين * متبركا أولا بذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين * متحريا من النقول أصحها * ومن العبارات أفصحها * والله تعالى المسؤل * فى بلوغ المأمول * فمنه سبحانه المنة والطول * وبيده تعالى القوة والحول *

﴿الحمد لله﴾ يقول مؤلف هذا الكتاب أحمد الناصرى عفا الله عنه انى ألتمس ممن يقف عليه من سادتنا العلماء وفرهم الله أن ينظر فيه بعين الانصاف حسب الامكان بل وبعين الاغضاء عما لا يكاد يسلم منه انسان وأن يعاملنا فيه بمقتضى قول القائل
ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها
كفى المرء نبلا أن تعد معايبه
وقد قال الامام مالك رضى الله عنه كل كلام منه مقبول ومردود الا كلام صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم واذا كان الشيخ خليل رضى الله عنه على علو قدره فى العلم والتحقيق وطول باعه فى التحرير والتدقيق يقول وأسأل بلسان التضرع والخشوع وخطاب التذلل والخضوع أن ينظر بعين الرضا والصواب الخ فماذا عسى نقول نحن حثالة الحثالة فى هذا الزمان الذى امحى فيه من العلم حقيقته ورسمه ولم يبق منه الا اسمه اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا واغفر زلاتنا وارحم بفضلك يا أرحم الراحمين يارب العالمين آمين وكتب فى أواسط رجب الفرد الحرام عام ١٣٠٦

﴿مقدمة فى فضل علم التاريخ﴾

اعلم ان علم التاريخ من أجل العلوم قدرا وأرفعها منزلة وذكرا وأنفعها عائدة وذخرا وكفاه شرفا ان الله تعالى شحن كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من أخبار الامم الماضية والقرون الخالية بما أفحم به أكابر أهل الكتاب وأتى من ذلك بما لم يكن لهم فى ظن ولا حساب ثم لم يكتف تعالى بذلك حتى امتن به على نبيه الكريم وجعله من جملة ما أسداه اليه من الخير العميم فقال جل وعلا تلك القرى نقص عليك من أنبائها وقال وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وقال لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يحدث أصحابه باخبار الامم الذين قبلهم ويحكى من ذلك ما يشرح به صدورهم ويقوى ايمانهم ويؤكد فضلهم وكتاب بدء الخلق من صحيح البخارى رحمه الله كفيل بهذا الشان وآت من القدر المهم منه بما يبرد غلة العطشان (قال بعضهم) احتج الله تعالى فى القرآن على أهل الكتابين بالتاريخ فقال تعالى يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون (وحكى بدر الدين القرافى رحمه الله) ان الامام الشافعى رضى الله عنه كان يقول ما معناه دأبت فى قراءة علم التاريخ كذا وكذا سنة وما قرأته الا لاستعين به على الفقه ﴿قلت﴾ معنى كلام الشافعى هذا ان علم التاريخ لما كان مطلعا على أحوال الامم والاجيال ومفصحا عن عوائد الملوك والاقيال ومبينا من أعراف الناس وأزيائهم ونحلهم وأديانهم ما فيه عبرة لمن اعتبر وحكمة بالغة لمن تدبر وافتكر كان معينا على الفقه ولا بد وذلك ان جل الاحكام الشرعية مبنى على العرف وما كان مبنيا على العرف لا بد أن يطرد باطراده وينعكس بانعكاسه ولهذا ترى فتاوى الفقهاء تختلف باختلاف الاعصار والاقطار بل والاشخاص والاحوال وهذا السبب بعينه هو السر فى اختلاف شرائع الرسل عليهم الصلاة والسلام وتباينها حتى جاء موسى بشرع وعيسى بآخر ومحمد بسوى ذلك صلى الله على جميعهم وسلم ثم فائدة التاريخ ليست محصورة فيما ذكرناه بل له فوائد أخر جليلة لو قيل بعدم حصرها ما بعد (قال الجلال السيوطى رحمه الله) من فوائد التاريخ واقعة رئيس الرؤساء المشهورة مع اليهود ببغداد وحاصلها انهم أظهروا رسما قديما يتضمن ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر باسقاط الجزية عن يهود خيبر وفيه شهادة جماعة من الصحابة منهم على بن أبى طالب رضى الله عنه فرفع الرسم الى رئيس الرؤساء وعظمت حيرة الناس فى شأنه ثم عرض على الحافظ أبى بكر الخطيب البغدادى فتأمله وقال هذا مزور فقيل له بم عرفته قال فيه شهادة معاوية وهو انما أسلم عام الفتح سنة ثمان من الهجرة وخيبر فتحت سنة سبع وفيه شهادة سعد بن معاذ وهو مات يوم بنى قريظة وذلك قبل فتح خيبر فسر الناس بذلك وزالت حيرتهم اه (قال العلامة القادرى فى الازهار الندية) وفى حدود صدر هذه المائة أعنى المائة الحادية عشر ظهر نحو هذا الكتاب المزور بمعناه والرفع على مخطوطه بتاريخ سبع وعشرين وسبعمائة بالموحدة ثم ظهر أيضا بتاريخ ست وثمانمائة ثم تعدد ظهوره مرارا آخرها سنة اثنتين وأربعين وألف مسمى فيه جماعة ممن شهرتهم بالدين والعلم قاطعة بالتقول عليهم فى ذلك انظر بقية كلامه ﴿قلت﴾ وقد وقفت فى بعض التقاييد المظنون بها الصحة على كلام الاديب أبى عبد الله اليفرنى المعروف بالصغير فى هذا المعنى قال جرى بمجلس شيخنا قاضى الجماعة فلان الفلانى ذكر علم التاريخ فقال ان علم التاريخ يضر جهله وتنفع معرفته لا كما قيل انه علم لا ينفع وجهالة لا تضر قال وانظر ما وقع فى هذا الوقت فى حدود عشر ومائة وألف من ان نفرا من يهود فاس الجديد امتنعوا من أداء الجزية وأخرجوا ظهيرا قديما مضمنه أن النبى صلى الله عليه وسلم عقد لموسى بن حيى بن أخطب أخى صفية رضى الله عنها ولاهل بيت صفية الامان لا يطأ أرضهم جيش ولا عليهم نزل ولهم ربط العمائم فعلى من أحب الله ورسوله ان يؤمنهم وكتب على بن أبى طالب وشهد عتيق بن أبى قحافة وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان

قال مؤلفه عفا الله عنه الذى لابن حزم فى صدر الجمهرة وكذا لابن عبد البر فى صدر كتاب النسب هو علم النسب لا علم التاريخ كما هنا وأنكر ابن حزم ان يكون ذلك أعنى ان علم النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر مرويا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورده ببرهانين فانظره ولكن علم النسب وعلم التاريخ متلازمان والله أعلم

وتاريخ شهادتهم في ذي القعدة سنة تسع من الهجرة قال شيخنا فظهر لي ولعلماء العصر ان ذلك زور وافتراء لا شك فيه ولا امتراء لان التاريخ بالهجرة انما حدث زمن عمر سنة سبع عشرة لاسباب اقتضت ذلك كما في ابن حجر ولان أهل التاريخ لم يذكروا لصفية أخا اسمه موسى وانما المروي في الاحاديث انه عليه الصلاة والسلام قتل أبا صفية وزوجها ولان الظهير الذي استظهروا به نسخة من الاصل الذي فيه خطوط الصحابة وقد أرخوا الاستنساخ من الاصل بسنة ثلاث وعشرين وسبعمائة فقد تأخر خط الصحابة بزعمهم الى المائة الثامنة وكيف يتوصل في المائة الثامنة الى ان ذلك خط الصحابة هذا خلاصة ما كتبه أهل فاس في ابطال الظهير ولما رفع ذلك الى السلطان المولى اسمعيل رحمه الله عاقب اليهود عقابا شديدا اهـ (وبالجملة) ففضيلة علم التاريخ شهيرة وفائدته جليلة خطيرة ومادحه محمود غير ملوم والحديث بفضله حديث معلوم ولله در ابن الخطيب اذ يقول

وبعد فالتاريخ والاخبار * فيه لنفس العاقل اعتبار
وفيه للمستبصر استبصار * كيف أتى القوم وكيف صاروا
يجري على الحاضر حكم الغائب * فيثبت الحق بسهم صائب
وينظر الدنيا بعين النبل * ويترك الجهل لاهل الجهل

وقال الآخر

ليس بانسان ولا عاقل * من لا يعي التاريخ في صدره
ومن روى أخبار من قد مضى * أضاف أعمارا الى عمره

ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الاربعة رضي الله عنهم

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن اد بن أدد بن اليسع بن الهميسع بن سلامان ابن نبت بن حمل بن قيدار بن اسمعيل بن ابراهيم عليهما السلام ابن تارح وهو آزر بن ناحور بن ساروغ ابن ارغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح عليه السلام ابن لامك بن متوشلخ بن حنوخ ابن يرد بن مهلاييل بن قينان بن انوش بن شيث بن آدم عليهما السلام فاما ما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين عدنان فمتفق عليه عند علماء الاسلام وأما ما بين عدنان واسمعيل فمختلف فيه اختلافا كثيرا ما بين سبعة آباء الى نحو الاربعين والمختار ما ذكرناه تبعا لابي الفداء وأما ما بين اسمعيل وآدم عليهما السلام فمتفق عليه عند أهل الكتاب وهي أسماء أعجمية يكثر تغييرها الصعوبة النطق بحروفها والله أعلم *قال ابن خلدون* ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الاول لاربعين سنة من ملك كسرى انوشروان وقيل لثمان وأربعين ولثمانمائة واثنتين وثمانين سنة لذي القرنين ومات أبوه عبد الله وأمه حامل به وكفله جده عبد المطلب واسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر اسمها حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية فكان عندها نحو أربع سنين وشق صدره صلى الله عليه وسلم وهو عندها في السنة الرابعة من مولده فخافت عليه وردته الى أمه ثم ماتت أمه عقب ذلك واستمر في كفالة جده عبد المطلب الى ان توفي أيضا لمضي ثمان سنين من مولده صلى الله عليه وسلم فاوصى به عبد المطلب الى ابنه أبي طالب فكفله أبو طالب أحسن كفالة وقام بشأنه أتم قيام ونشأ صلى الله عليه وسلم نشأة طيبة يحفظه ربه ويكلؤه لما يريد به من كرامته ويهيء له من نبوته ورسالته *وتزوج خديجة بنت خويلد بن أسد ابن عبد العزى بن قصي وهو ابن خمس وعشرين سنة وشهد بناء الكعبة وهو ابن خمس وثلاثين سنة ووضع الحجر الاسود بيده الشريفة في موضعه بعد ان تراضت قبائل قريش عليه ثم آتاه الله الكتاب والحكم

والنبوة على رأس أربعين سنة من عمره صلى الله عليه وسلم ﴿أخرج﴾ البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت أوّل ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة ولمسلم الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب اليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه والتحنث التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع الى أهله ويتزوّد لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزوّد لمثلها حتى جاءه الوحي وفي رواية حتى فجئه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ فقال ما أنا بقارئ قال فاخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ قلت ما أنا بقارئ فاخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال زمّلوني زمّلوني فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع ثم قال لخديجة اى خديجة مالي وأخبرها الخبر وقال لقد خشيت على نفسي قالت له خديجة كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن أسد بن عبد العزى وهو ابن عم خديجة وكان امرأ تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الانجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمي فقالت له خديجة اى ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة يا ابن أخي ماذا ترى فاخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى ياليتني فيها جذعا ليتني أكون حيا اذ يخرجك قومك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أومخرجيّ هم قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودي وان يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا ثم لم يلبث ورقة ان توفي وفتر الوحي زاد البخاري قال وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا حزنا غدا منه مرارا كي يتردى من رؤس شواهق الجبال فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال يا محمد انك رسول الله حقا فيسكن لذلك جأشه وتقر عينه فيرجع فاذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فيتبدى له جبريل فيقول له مثل ذلك ثم نزل عليه بعد فترة الوحي سورة المدثر (قال العلماء) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول الوحي عليه نبيا فقط ثلاث سنين لم يؤمر فيها بانذار ثم أتاه جبريل عليه السلام برسالة من ربه عز وجل فكان فيما أنزل عليه في ذلك قوله تعالى وأنذر عشيرتك الاقربين ﴿روى﴾ محمد بن اسحق بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا عليّ ان الله أمرني أن أنذر عشيرتي الاقربين فضقت بذلك ذرعا وعرفت اني متى أباديهم بهذا الامر أرى منهم ما أكره فصمت عليها حتى جاءني جبريل فقال يا محمد ان لا تفعل ما تؤمر يعذبك ربك فاصنع لنا طعاما واجعل لنا عليه رجل شاة واملأ لنا عسا من لبن ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أبلغهم ما أمرت به ففعلت ما أمرني به ثم دعوتهم له وكانوا يومئذ نحو أربعين رجلا يزيدون رجلا أو ينقصونه فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب فلما اجتمعوا دعاني بالطعام الذي صنعت فجئت به فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم جذبة من اللحم فشقها باسنانه ثم ألقاها في نواحي الصحفة ثم قال كلوا باسم الله فاكل القوم حتى مالهم بشئ من حاجة وأيم الله ان كان الرجل الواحد ليأكل مثل ما قدمت لجميعهم ثم قال اسق القوم فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا جميعا وايم الله ان كان الرجل الواحد ليشرب مثله فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم بدره أبو لهب فقال سحركم صاحبكم فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الغد يا عليّ ان هذا الرجل قد سبقني الى ما سمعت من القول فتفرق القوم قبل ان أكلمهم فاعدد لنا من الطعام مثل ما صنعت ثم اجمعهم ففعلت ثم جمعتهم ثم دعاني بالطعام فقربته ففعل كما فعل بالامس

فاكلوا وشربوا ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا بني عبد المطلب اني قد جئتكم بخيري الدنيا والآخرة وقد أمرني الله عز وجل ان أدعوكم اليه فأيكم يوازرني على أمري هذا ويكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاحجم القوم عنها جميعا وأنا أحدثهم سنا فقلت يا رسول الله أنا أكون وزيرك عليه فأخذ برقبتي ثم قال هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا فقام القوم يضحكون ويقولون لابي طالب قد أمرك ان تسمع لعلي وتطيع (وأخرج) البخاري ومسلم عن ابن عباس قال لما نزلت وأنذر عشيرتك الاقربين صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي يا بني فهر يا بني عدي لبطون من قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل اذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش فقال أرأيتكم لو أخبرتكم ان خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي قالوا نعم ما جربنا عليك كذبا قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فنزلت تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ربه صابرا محتسبا فيما يناله من المحن وضروب الاذى معلنا بالتذكير والانذار داعيا الى الله آناء الليل وأطراف النهار وأسلم معه جماعة من السابقين الى الاسلام كخديجة وعلي وأبي بكر وزيد بن حارثة وعثمان وسائر العشرة سوى عمر ابن الخطاب فان اسلامه كان قد تأخر قليلا ونصبت قريش العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وافترقت كلمتهم عليه وانحاز بنو هاشم وبنو المطلب الى أبي طالب وتعاهد قريش على ألا ينا كحوهم ولا يبايعوهم ولا ينفعوهم بشئ ونال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين آمنوا معه من الاذى فوق ما يوصف وهاجر جماعة منهم الى النجاشي بالحبشة فرارا بدينهم من الفتنة وحدب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أبو طالب وقام دونه وذب عنه سفهاء قريش ومنعه منهم ما استطاع وكانت خديجة رضي الله عنها توازره على أمره وتسليه وتهون عليه ما يلقاه من قومه فكان صلى الله عليه وسلم يرتاح لذلك ويخف عليه بعض ما يجد ثم توفي أبو طالب في شوال سنة عشر من النبوة وتوفيت خديجة بعد ذلك بيسير وكانت وفاتهما قبل الهجرة بثلاث سنين فعظمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصيبة وتتابعت عليه المحن حتى كان يسمى ذلك العام عام الحزن ونالت قريش منه ما لم تكن تطمع في نيله قبل ذلك فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الثلاث سنين اذا حضر الموسم خرج الى قبائل العرب يتبعهم وطاف عليهم قبيلة قبيلة يدعوهم الى الله تعالى ويعرض عليهم نفسه ويسألهم النصرة له والقيام معه حتى يبلغ رسالة ربه فان قريشا قد عتت على الله وكذبت رسوله وردت عليه كرامته ويقول فيما يقول يا بني فلان اني رسول الله اليكم يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيأ وان تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الانداد وان تؤمنوا بي وتصدقوني ولقي صلى الله عليه وسلم في هذه المدة من الشدائد ما رفع الله به في عليين درجته وأجزل به كرامته وشرف منزلته وحازبه في جوار الله تعالى أكرم نزل وصار امام أولى العزم من الرسل صلى الله على جميعهم وسلم * ولما أراد الله اظهار دينه واعزاز نبيه خرج صلى الله عليه وسلم في بعض المواسم يعرض نفسه على القبائل كما كان يصنع فبينما هو عند العقبة بمنى اذ لقي ستة نفر من الخزرج من أهل مدينة يثرب وأهلها يومئذ قبيلتان الاوس والخزرج ويجمعهم أب واحد وهم من عرب اليمن والنفر الستة هم أبو امامة أسعد بن زرارة وعوف بن الحرث وهو ابن عفراء ورافع بن مالك ابن العجلان وقطبة بن عامر بن حديدة وعقبة بن عامر بن نابي وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنتم قالوا نفر من الخزرج قال أمن موالي يهود وكانوا يحالفون قريظة والنضير قالوا نعم قال أفلا تجلسون حتى أكلمكم قالوا بلى فجلسوا معه فدعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم الاسلام وتلا عليهم القرآن قال وكان مما صنع الله لهم في الاسلام ان اليهود كانوا معهم ببلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم وهم أهل أوثان وشرك وكانوا اذا كان بينهم شئ قالوا ان نبيا الآن مبعوث

قد أظل زمانه سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وارم فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم الى الله عز وجل قال بعضهم لبعض يا قوم تعلموا والله انه النبي الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم اليه فاجابوه وصدقوه وأسلموا معه وقالوا انا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى الله ان يجمعهم بك وسنقدم عليهم وندعوهم الى أمرك فان يجمعهم الله عليك فلا أحد أعز منك ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين الى بلادهم فلما قدموا المدينة ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم الى الاسلام حتى فشا فيهم فلم تبق دار من دور الانصار الا وفيها ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا كان العام المقبل وافى الموسم من الانصار اثنا عشر رجلا منهم خمسة من الستة الذين ذكرناهم آنفا عدى جابر بن عبد الله فانه لم يحضرها وسبعة من غيرهم وهم معاذ بن الحرث أخو عوف بن الحرث المذكور وذكوان بن عبد القيس ويزيد بن ثعلبة البلوى وعبادة بن الصامت والعباس بن عبادة بن نضلة وهؤلاء العشرة من الخزرج ومن الاوس أبو الهيثم مالك بن التيهان وعويم ابن ساعدة فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة فبايعوه بيعة النساء ألا يشركوا بالله شيأ ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم الى آخر الآية فقال صلى الله عليه وسلم فان وفيتم فلكم الجنة وان غشيتم شيأ من ذلك فاخذتم بحده فى الدنيا فهو كفارة لكم وان ستر عليكم فامركم الى الله عز وجل ان شاء عذبكم وان شاء غفر لكم قال وذلك قبل ان تفرض الحرب فلما انصرف القوم بعث معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى ومعه عمرو بن أم مكتوم الاعمى ليعلمهم القرآن وشرائع الاسلام ويفقههم فى الدين فكان مصعب بالمدينة يسمى المقرئ وكان منزله على أسعد بن زرارة فاسلم على يده كثير من الاوس والخزرج منهم أسيد بن حضير وسعد بن معاذ سيد الاوس وسعد هذا هو الذى يقول فيه حسان بن ثابت رضى الله عنه

وما اهتز عرش الله من أجل هالك * سمعنا به الا لسعد أبى عمرو

ولم تبق دار من دور الانصار الا فيها رجال ونساء مسلمون الا ما كان من دار بنى أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف بطون من الاوس وكانوا فى عوالى المدينة وكان فيهم أبو قيس بن الاسلت الشاعر سيدا مطاعا فوقف بهم عن الاسلام حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة ومضى بدر وأحد والخندق فاسلموا كلهم ثم ان مصعب بن عمير رجع الى مكة من العام المقبل وذلك سنة ثلاث عشرة من المبعث وخرج معه من الانصار الذين أسلموا ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان بعضهم من الاوس وبعضهم من الخزرج مع حجاج قومهم من أهل الشرك فلما وصلوا الى مكة واعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يجتمعوا به ليلا فى أوسط أيام التشريق بالعقبة من منى وجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه الا أنه أحب ان يتوثق لابن أخيه فقال يا معشر الخزرج ان محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا وهو فى عز ومنعة من قومه وبلده وانه قد أبى الا الانحياز اليكم واللحوق بكم فان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه فانتم وما تحملتم من ذلك وان كنتم ترون انكم مسلموه وخاذلوه فمن الآن فدعوه فقالوا قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك ولربك ما شئت فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ودعا الى الله عز وجل ورغب فى الاسلام ثم قال أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم ونساءكم وأبناءكم قال فاخذ البراء بن معرور بيده ثم قال والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعنك مما نمنع منه ازرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن أهل الحرب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو الهيثم بن التيهان فقال يا رسول الله ان بيننا وبين الناس حبالا يعنى عهودا وانا قاطعوها فهل عسيت ان فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ان ترجع الى قومك وتدعنا فتبسم رسول

الله صلى الله عليه وسلم ثم قال بل الدم الدم والهدم الهدم أنتم مني وأنا منكم أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اخرجوا الي منكم اثني عشر نقيبا يكونون كفلاء على قومهم بما فيهم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم فأخرجوا له اثني عشر نقيبا تسعة من الخزرج وثلاثة من الاوس قال عاصم بن عمر بن قتادة ان القوم لما اجتمعوا للبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العباس ابن عبادة بن نضلة يا معشر الخزرج هل تدرون على ما تبايعون هذا الرجل انكم تبايعونه على حرب الاحمر والاسود فان كنتم ترون انكم اذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن فهو والله خزي الدنيا والآخرة وان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه اليه على نهكة الاموال وقتل الاشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة قالوا فانا نأخذه على مصيبة الاموال وقتل الاشراف فما لنا بذلك يارسول الله ان نحن وفينا قال الجنة قالوا ابسط يدك فبسط يده فبايعوه وأول من ضرب على يده البراء ابن معرور ثم تتابع القوم ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انفضوا الى رحالكم فقال العباس بن عبادة ابن نضلة والذي بعثك بالحق لئن شئت لنميلن غدا على أهل منى بأسيافنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني لم أومر بذلك ولكن ارجعوا الى رحالكم ثم انصرف القوم راجعين الى المدينة وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة الى المدينة فخرجوا ارسالا وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر الاذن من ربه في الهجرة وبقي معه أبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب الى أن أذن الله لنبيه في الهجرة فهاجر كما هو معلوم في كتب الحديث والسير * ولما استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة أظهر الاسلام وشرع الاحكام وبين الحلال والحرام ونزل عليه من القرآن السبع الطوال سوى سورة الانعام فانها نزلت بمكة ونزل عليه قوله تعالى أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله فكانت هذه أول آية نزلت بالاذن في القتال فجاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الله حق جهاده ونال من نصرة الدين واعلاء كلمة الله غاية مراده وانثالت عليه وفود العرب من كل ناحية ولبت دعوته من أماكنها الدانية والقاصية وضرب الاسلام بجرانه في جزيرة العرب كلها وأجمع على التمسك بدينه أهل عقدها وحلها (قال القاضي عياض رحمه الله في كتاب الشفا) فتح على رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته بلاد الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب وما دانا ذلك من الشام والعراق وجبي اليه من أخماسها وجزيتها وصدقاتها ما لا يجبى للملوك الا بعضه وهادته جماعة من ملوك الاقاليم فما استأثر بشيء منه ولا أمسك منه درهما بل صرفه مصارفه وأغنى به غيره وقوى به المسلمين صلى الله عليه وسلم * ولما حصل المقصود من بعثته صلى الله عليه وسلم وأظهر الله دينه على الدين كله أنزل الله تعالى عليه اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا قال المفسرون نزلت هذه الآية في يوم الجمعة بعد العصر يوم عرفة والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على ناقته العضباء فكادت عضد الناقة تندق وبركت لثقل الوحي وذلك في حجة الوداع سنة عشر من الهجرة روى انه لما نزلت هذه الآية بكى عمر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما يبكيك يا عمر فقال أبكاني انا كنا في زيادة من ديننا فاما اذ كمل فانه لم يكمل شيء الا نقص قال صدقت فكانت هذه الآية نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم عاش بعدها احدى وثمانين يوما ومات صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الاول وقيل لاثنتي عشرة ليلة قال الخازن في تفسيره وهو الاصح سنة احدى عشرة من الهجرة فجموع عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث وستون سنة على الصحيح (أخرج) البخاري ومسلم عن ابن عباس قال أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة فمكث ثلاث عشرة سنة يوحى اليه ثم أمر بالهجرة فهاجر الى المدينة فمكث بها عشر سنين ثم توفي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وستين سنة (قال الشيخ محيي الدين النووي) ورد في عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث روايات احداها انه صلى الله عليه وسلم توفي وهو ابن ستين

سنة الثانية خمس وستون سنة والثالثة ثلاث وستون سنة وهي أصحها وأشهرها اهـ وفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم أشهر من ان يشرح و يبين فهو حجة الله فى الارض وشهيده على الخلق ومصطفاه من البشر والمخصوص بمزية النبوة وآدم بين الماء والطين ولله در ابن الخطيب اذ يقول

يا مصطفى من قبل نشأة آدم * والكون لم تفتح له أغلاق
أيروم مخلوق ثناءك بعدما * أثنى على أخلاقك الخلاق

﴿خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه﴾

هو أبو بكر واسمه عبد الله وقيل عتيق ابن أبي قحافة واسمه عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم ابن مرة بن كعب التيمي المعروف بالصديق يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرة بن كعب ولي الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم باجماع من الصحابة ومن تأخر عنها أولا رجع اليها ثانيا الا ما كان من سعد بن عبادة الانصاري فانه توقف عن بيعته وذلك انه لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمعت الانصار في سقيفة بني ساعدة وهموا ببيعة سعد بن عبادة سيد الخزرج لانهم كانوا يرون انهم أحق بالامر لانهم الذين آووا ونصروا وتبوؤا الدار والايمان من قبل المهاجرين ولما انتهى الخبر الى أبي بكر وعمر أفزعهما ذلك وبادرا الى السقيفة ومعهم أبو عبيدة بن الجراح فوجدوا الانصار بها على ما بلغهم من العزم على بيعة سعد فحاجهم أبو بكر رضي الله عنه وقال نحن أولياء رسول الله صلى الله عليه وسلم وعشيرته وأحق الناس بالامر بعده فنحن الامراء وأنتم الوزراء فقال الحباب بن المنذر لا والله لا نفعل منا أمير ومنكم أمير وان شئتم أعدناها جذعة أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب فقام بشير ابن سعد الانصاري فقال ألا ان محمدا صلى الله عليه وسلم من قريش وان قومه أحق وأولى بالامر بعده ونحن وان كنا أولى فضل في الجهاد وسابقة في الدين فما أردنا بذلك الا رضى الله وطاعة نبيه فلا نبتغي به من الدنيا عوضا ولا نستطيل به على الناس ثم أشار أبو بكر بان يبايعوا أحد الرجلين اما عمر بن الخطاب واما أبا عبيدة بن الجراح فكرها ذلك وبايعا أبا بكر وسبقهما اليه بشير بن سعد ثم تناجى الاوس فيما بينهم وكان فيهم أسيد بن حضير أحد النقباء فكرهوا امارة الخزرج عليهم ومالوا الى بيعة أبي بكر فبايعوه وأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر حتى كادوا يطؤن سعد بن عبادة وهو مضطجع بينهم يوعك فقال رجل من أصحابه قتلتم سعد بن عبادة فقال عمر قتله الله فقال أبو بكر مهلا يا عمر الرفق هنا أبلغ ثم لحق سعد بالشام فلم يزل هناك حتى توفي أيام عمر رحم الله جميعهم وكانت بيعة أبي بكر يوم الثلاثاء الثاني من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل دفنه ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت عامة العرب لان كلمة الاسلام لم تكن رسخت في قلوبهم على ما ينبغي ومنع آخرون منهم الزكاة وقالوا انصلي ولا نؤدي الزكاة ظنا منهم ان ذلك كان واجبا عليهم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم فقط واضطرب أمر المسلمين عند وفاته صلى الله عليه وسلم لقلتهم وكثرة عدوهم (قالت عائشة رضي الله عنها) لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب ونجم النفاق واشرأبت اليهودية والنصرانية ونزل بابي بكر ما لو نزل بالجبال الراسية لهاضها وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم (وقال أبو بكر بن عياش) سمعت أبا حصين يقول ما ولد بعد النبيين أفضل من أبي بكر الصديق لقد قام مقام نبي من الانبياء في قتال أهل الردة (وفي الصحيح) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر يا أبا بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فمن قال لا اله الا الله فقد عصم مني ماله ونفسه الا بحقه وحسابه على الله قال أبو بكر والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها قال عمر فوالله ما هو الا ان رأيت ان قد شرح

الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت انه الحق (وحكى ابن خلدون) ان أبا بكر رضي الله عنه لما عزم على قتال أهل الردة استخلف أسامة بن زيد بعد رجوعه من بعثه الذي كان بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه قبل وفاته فبقي بالمدينة حتى أنفذه أبو بكر بعد وفاته صلى الله عليه وسلم فخرج أبو بكر في جماعة من المسلمين الى ذي خشب والى ذي القصة موضعين قرب المدينة ثم سار حتى نزل على أهل الربذة بالابريق وبها عبس وذبيان وبنو بكر بن عبد مناة بن كنانة وثعلبة بن سعد وغيرهم فقاتلهم أبو بكر وهزمهم ورجع الى المدينة ثم خرج الى ذي القصة ثانيا فعقد فيه أحد عشر لواء على احد عشر جند القتال أهل الردة وأمر كل واحد باستنفار من يليه من المسلمين من كل قبيلة وعقد للامراء على تلك الاجناد منهم خالد بن الوليد وخالد بن سعيد بن العاص وعمرو بن العاص وغيرهم وكتب لهم عهودهم بنص واحد بسم الله الرحمن الرحيم هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الاسلام وعهد اليه ان يتقي الله ما استطاع في أمره كله سره وجهره وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الاسلام الى أماني الشيطان بعد ان يعذر اليهم فيدعوهم بدعاية الاسلام فان أجابوه أمسك عنهم وان لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم فان أجاب الى أمر الله تعالى وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف وانما يقاتل من كفر بالله على الاقرار بما جاء من عند الله فاذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به ومن لم يجب الى داعية الله قوتل وقتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل الله من أحد شيأ مما أعطى الا الاسلام فمن أجابه وأقر به قبل منه وأعانه ومن أبى قاتله فان أظهره الله عليه قتلهم فيه كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ما أفاء الله عليه الا الخمس فانه يبلغناه ويمنع أصحابه العجلة والفساد وأن لا يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم لئلا يكونوا عيونا ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم وان يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول اهـ وكتب الى كل من بعث اليه الجنود من المرتدين كتابا واحدا أيضا وجعله في نسخ متعددة بيد رسل تقدموا أمام الامراء يأمرهم فيه بالتمسك بكلمة الاسلام وينهاهم عن الارتداد ويحذرهم عاقبته وسوء أثره تركناه كراهة اختصارا (وكان) أول ما بدأ به خالد بن الوليد رحمه الله من القتال قتال طليحة بن خويلد الاسدي أسد خزيمة وكان كاهنا وادعى النبوة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبعه أفاريق من قومه بني أسد ومن غيرهم فوجه اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرار بن الازور ليقاتله فبينما ضرار يريد مناجزته اذ ورد عليه الخبر بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ففت ذلك في عضد ضرار وانكفأ راجعا بمن معه من المسلمين الى المدينة وعظم أمر طليحة حينئذ واستطار شرره وانضمت اليه غطفان وبعض طيء وأخلاط من العرب على ماء من مياه بني أسد يقال له بزاخة فسار اليهم خالد رحمه الله فأوقع بهم وقعة شنعاء فل بها جمعهم وقتل من قتل منهم ونجا طليحة الى الشام برأس طمرة ولجام وبقي هنالك الى ان أسلم وحسن اسلامه وكانت له في قتال فارس والروم زمان الفتح اليد البيضاء ثم تتبع خالد رحمه الله أهل الردة قبيلة قبيلة وجمعا جمعا فقتل وحرق ورضخ بالحجارة ورمى من رؤس الجبال وأبلغ في النكاية بكل وجه فخشعت نفوس المرتدين وخامر قلوبهم الرعب وقوم اعوجاجهم الطعن والضرب حتى راجعوا الاسلام كرها وكان من أعظمهم شوكة وأشدهم قوة بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب وكان موطنهم باليمامة وهي بلاد واسعة ذات نخل وزرع على أربعة أيام من مكة وكان مسيلمة هذا قد قدم على النبي صلى الله عليه وسلم في وفد بني حنيفة فأسلم ثم ارتد وادعى النبوة استقلالا ثم مشاركة مع النبي صلى الله عليه وسلم وشهد له بذلك الرجال ابن عنفوة أحد أشراف بني حنيفة وكان قد هاجر الى النبي صلى الله عليه وسلم وأقام عنده وقرأ القرآن

وتفقه

وتفقه في الدين فلما ارتد مسيلمة بعثه النبي صلى الله عليه وسلم معلما لاهل اليمامة ومشغباعلى مسيلمة فكان من أعظم الفتن على بني حنيفة فانه شهد لمسيلمة بالنبوة وأتبعه على شأنه وصار مؤذناله يشهد له بالرسالة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فعظم شأنه فيهم وكان مسيلمة ينتهي الى رأيه وكان يأتي باسجاع كثيرة يزعم انها قرآن ينزل عليه ويأتي بمخارق من الشعبذة ويقول انها معجزاته فتقع على خلاف المقصود اهانة من الله له فنهض خالد رحمه الله بعد الفراغ من طليحة وغيره من أهل الردة الى بني حنيفة وهم يومئذ كثير يقال كانوا أربعين ألف مقاتل ولما سمعوا بدنو خالد منهم خرجوا وعسكروا في منتهى ريف اليمامة واستنفروا الناس فنفروا معهم وأقبل خالد وعلى مقدمته شرحبيل بن حسنة ونازل بني حنيفة وكان الرجال بن عنفوة على مقدمة مسيلمة فالتقوا واقتتلوا واشتدت الحرب وانكشف المسلمون حتى دخل بنو حنيفة خباء خالد ثم تراجع المسلمون وكروا على بني حنيفة وقاتل ثابت بن قيس بن شماس حتى قتل ثم زيد ابن الخطاب أخو عمر كذلك ثم أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ثم مولاه سالم ثم البراء أخو أنس بن مالك وكان تأخذه عند الحرب رعدة حتى ينتفض ويقعد عليه الرجال حتى يبول ثم يثور كالاسد فقاتل ذلك اليوم وفعل الافاعيل واستحر القتل في المسلمين خصوصا قراء القرآن وأهل السابقة ﴿قال ابن خلدون﴾ قتل يوم اليمامة من الانصار ما ينيف على الثلاثمائة وستين ومن المهاجرين مثلها ومن التابعين لهم مثلاها أو يزيدون وفشت الجراحات فيمن بقي ثم هزم الله العدو وألجأهم المسلمون الى حديقة كانت هنالك وفيها مسيلمة فقال البراء بن مالك ألقوني عليهم من أعلى الجدار فاقتحم وقاتلهم على باب الحديقة حتى دخل بعض المسلمين عليهم واقتحم الباقون من أعلى الحيطان فقتل من بني حنيفة يومئذ سبعة عشر ألف مقاتل فسميت الحديقة حديقة الموت وأما مسيلمة فقتله وحشي بالحربة التي قتل بها حمزة بن عبد المطلب يوم أحد وشاركه في قتله رجل من الانصار ثم صالح خالد بني حنيفة في خبر طويل وهذه الوقعة من أعظم الوقعات التي كانت في زمن أبي بكر رضي الله عنه وهي كانت السبب الداعي الى جمع القرآن في الصحف واستمر كذلك الى ان جمعه عثمان بن عفان رضي الله عنه الجمع الثاني في المصحف ﴿وفي الصحيح﴾ عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال أرسل الي أبو بكر مقتل أهل اليمامة فاذا عمر بن الخطاب عنده قال أبو بكر رضي الله عنه ان عمر أتاني فقال ان القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن واني أخشى ان يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن واني أرى ان تأمر بجمع القرآن قال أبو بكر قلت لعمر كيف أفعل شيأ لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر هو والله خير فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري ورأيت الذي رأى عمر قال زيد بن ثابت وعمر عنده جالس لا يتكلم فقال أبو بكر انك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن قلت كيف تفعلان شيأ لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر هو والله خير فلم أزل أراجعهم حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والاكتاف والعسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الانصاري لم أجدها مع أحد غيره لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر اه ولما فرغ خالد من أمر اليمامة بعث اليه أبو بكر في المحرم سنة ثنتي عشرة يأمره بالسير الى العراق وذلك عندما أجمعت العرب على الاسلام واتفقوا على التمسك بكلمته وأخلصوا الطاعة لله ولخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمت لابي بكر رضي الله عنه همة في قتال فارس والروم أهل الدولتين العظيمتين في العالم يومئذ فتوجه خالد رحمه الله نحو فارس وكان عذابا من عذاب الله أرسله على أهل الكفر والضلال وما مثله الا قول المتنبي

وما كان الا النار فى كل موضع * يثير غبارا فى مكان دخان

فتوجه خالد رحمه الله وفتح الحيرة وما وراءها من أعمال العراق وفتح الانبار وعين التمر وأوقع الوقائع العظيمة بمسالح أهل فارس وجيوشهم حتى أخافهم فى بلادهم وهموا بالاقتحام عليهم ومقاتلتهم فى عقر دارهم وكتب اليهم بكتابين يتوعدهم ويتهددهم ثم صرفه أبو بكر رضى الله عنه الى الشام فشهد اليرموك مع جيوش المسلمين الذين كانوا هناك ﴿وفى الاكتفاء﴾ عن عبد الله بن أبى أوفى الخزاعى وكانت له صحبة قال لما أراد أبو بكر أن يجهز الجنود الى الشام دعا عمر وعثمان وعلى بن أبى طالب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ووجوه المهاجرين والانصار من أهل بدر وغيرهم فدخلوا عليه وأنا فيهم فقال ان الله لا تحصى نعمه ولا تبلغ جزاءها الاعمال فلله الحمد كثيرا على ما اصطنع عندكم ثم جمع كلمتكم وأصلح ذات بينكم وهداكم الى الاسلام ونفى عنكم الشيطان فليس يطمع ان تشركوا بالله ولا ان تتخذوا الها غيره فالعرب اليوم بنو أم وأب وقد رأيت ان أستنفرهم الى الروم بالشام فمن هلك منهم هلك شهيدا وما عند الله خير للابرار ومن عاش منهم عاش مدافعا عن الدين مستوجبا على الله ثواب المجاهدين هذا رأيى الذى رأيت فليشر على امرؤ بمبلغ رأيه فاجاب كل من الحاضرين باستصواب رأيه وتقوية عزمه فجهز أبو بكر رضى الله عنه جيوشا وأمر عليهم أمراء كخالد بن سعيد بن العاص وعمرو ابن العاص وعكرمة بن أبى جهل والوليد بن عقبة ويزيد بن أبى سفيان وأمر أبا عبيدة بن الجراح على جميعهم وعين له حمص وأوصى كل واحد منهم بما تنبغى الوصية به فكان بسبب تلك الجموع وقعة اليرموك بين المسلمين والروم فى رجب سنة ثلاث عشرة من الهجرة بعد وفاة أبى بكر رضى الله عنه بنحو شهرلان وفاته رضى الله عنه كانت مساء ليلة الثلاثاء بين العشاءين لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال وعمره ثلاث وستون سنة رضى الله عنه ونفعنا به

﴿خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه﴾

هو أوّل من دعى أمير المؤمنين وكان أبو بكر قبله يدعى خليفة رسول الله وهو أبو حفص عمر بن الخطاب ابن نفيل مصغرا ابن عبد العزى بن رياح بكسر الراء وفتح المثناة التحتية ابن عبد الله بن قرط بضم القاف ابن رزاح بفتح الراء ابن عدى بن كعب بن لؤى يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كعب بن لؤى ولى الخلافة بعد أبى بكر رضى الله عنه بعهد منه اليه ﴿قال ابن خلدون﴾ لما احتضر أبو بكر عهد الى عمر رضى الله عنهما بالامر من بعده بعد ان شاور عليه طلحة وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم وأخبرهم بما يريد فيه فاثنوا على رأيه فاشرف على الناس وقال انى قد استخلفت عمر ولم آل لكم نصحا فاسمعوا له وأطيعوا ودعا عثمان فأمره فكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة فى الحال التى يؤمن فيها الكافر وينيب فيها الفاجر انى استعملت عليكم عمر بن الخطاب ولم آل لكم خيرا فان صبر وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه وان جار وبدل فلا علم لى بالغيب والخير أردت ولكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون فكان أوّل ما أنفذه من الامور عزل خالد بن الوليد عن امارة الجيوش بالشام وتولية أبى عبيدة وجاء الخبر بذلك والمسلمون موافقون عدوّهم باليرموك فكتم أبو عبيدة الامر كله حتى انقضى أمر اليرموك وكان فتح دمشق بعدها فحينئذ أظهر أبو عبيدة امارته وعزل خالد فسمع خالد وأطاع وقيل فى هذا الخبر غير هذا مما هو مبسوط فى كتب الفتوح ثم ان عمر رضى الله عنه سدد عزمه وأرهف حده لغزو فارس والروم فتابع عليهم الجنود وعين لكل أمير عمله وعقد لابى عبيد بن مسعود الثقفى على جيش من المسلمين وبعثه نحو العراق فاستشهد أبو عبيد بموضع يقال له قس الناطف على الفرات فولى مكانه المثنى بن حارثة

الشيبانى وكان بطلا من الابطال نظير خالد بن الوليد فى حسن النقيبة والجراءة على الاعداء فاوقع باهل فارس عدة وقعات منها وقعة البويب قتل فيها من الفرس مائة ألف أو يزيدون ثم ان عمر رضى الله عنه استأنف الجد لجهاد فارس وقال والله لاضربن ملوك العجم بملوك العرب فلم يدع رئيسا ولا ذا رأى ولا خطيبا ولا شاعرا الا رماهم به فرماهم بوجوه الناس وكتب الى المثنى يأمره ان يخرج بالمسلمين من بين العجم ويتفرق بهم على المياه بحيالهم وان يدعوا الفرسان وأهل النجدات من ربيعة ومضر ويحضرهم طوعا وكرها ثم حج عمر سنة ثلاث عشرة ورجع الى المدينة فوافته امداد العرب بها فعقد عليهم لسعد ابن أبى وقاص رضى الله عنه وولاه حرب العراق وأوصاه وقال ياسعد بن أم سعد لا يغرنك من الله ان يقال خال رسول الله وصاحب رسول الله فان الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكنه يمحو السيئ بالحسن وليس بين الله وبين أحد نسب الا بطاعته فالناس فى دين الله سواء الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ماعنده بالطاعة فانظر الامر الذى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه وعليك بالصبر ثم سرحه فى أربعة آلاف ممن اجتمع اليه فيهم وجوه العرب وأشرافها وانضاف اليه فى طريقه جموع أخر فكانت له فى هذا الوجه وقعة القادسية المشهورة دامت فيها الحرب بين المسلمين والفرس أربعة أيام بلياليها وقتل فيها رستم زعيم الفرس وصاحب حربها واستلحمت جنوده وكان الفتح الذى لم يكن له فى الاسلام نظير وذلك فى المحرم سنة أربع عشرة وقيل خمس عشرة ثم كان بعدها فتح المدائن وجلولاء وسائر بلاد العراق وغيرها من بلاد فارس والجبل وأرمينية واذربيجان وسجستان وكرمان ومكران وخراسان وغير ذلك مما يطول ذكره وكذا استولى جيوش المسلمين الذين بالشام على بلاد الشام والجزيرة وانطاكية وغيرها من بلاد الروم ومصر والاسكندرية وبرقة وطرابلس الغرب وغير ذلك (وفى سنة أربع عشرة) أمر عمر رضى الله عنه باختطاط البصرة والكوفة بعراق العرب لما بلغه من وخامة البلاد وان العرب قد تغيرت ألوانهم بالعراق فاذن لهم فى اختطاط المصرين وان لا يتجاوزوا فى بنائهما السنة ويقال ان اختطاط الكوفة كان فى سنة سبع عشرة (وفى سنة خمس عشرة) وضع عمر الديوان وفرض العطاء للمسلمين ولم يكن قبل ذلك وروى الزهرى عن ابن المسيب ان ذلك كان فى المحرم سنة عشرين (قال ابن خلدون) يقال وضع عمر الديوان لسبب مال أتى به أبو هريرة من البحرين فاستكثروه وتعبوا فى قسمه فسموا الى احصاء الاموال وضبط العطاء والحقوق فاشار خالد بن الوليد بالديوان وقال رأيت ملوك الشام يدونون فقبل منه عمر وقيل بل أشار عليه به الهرمزان لما رآه يبعث البعوث بغير ديوان فقال له ومن يعلم بغيبة من يغيب منهم فان من تخلف أخل بمكانه وانما يضبط ذلك الكتاب فاثبت لهم ديوانا فامر عمر رضى الله عنه عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من كتاب قريش فكتبوا ديوان العساكر الاسلامية مرتبا على الانساب مبتدأ فيه بقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الاقرب فالاقرب بعد ان قال على وعبد الرحمن بن عوف لعمر ابدأ بنفسك فقال لا بل بعم رسول الله صلى الله عليه وسلم فبدأ بالعباس ثم بالاقرب فالاقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرض لاهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف وفرض لمن بعدهم الى الحديبية أربعة آلاف أربعة آلاف ثم لمن بعدهم ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ثم ألفين وخمسمائة ثم لاهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ألفا ألفا ولروادفهم خمسمائة خمسمائة ثم ثلاثمائة ثم مائتين وخمسين ثم مائتين وأعطى نساء النبى صلى الله عليه وسلم لكل واحدة عشرة آلاف وفضل عائشة بالفين وجعل النساء على مراتب فلاهل بدر خمسمائة ثم أربعمائة ثم ثلاثمائة ثم مائتين والصبيان مائة مائة والمساكين جريبين فى الشهر ولم يترك فى بيت المال شيأ وسئل فى ذلك فابى وقال هى فتنة لمن بعدى ثم سأل رضى الله عنه الصحابة فى قوته هو من بيت المال فاذنوا له وسألوه فى الزيادة على لسان ابنته حفصة متكتمين عنه فغضب

وامتنع (وفى سنة ست عشرة) قدم جبلة بن الايهم ملك غسان على عمر رضى الله عنه فى جماعة من أصحابه مسلمين فتلقاه المسلمون ودخل فى زى حسن وبين يديه جنائب مقادة وعلى أصحابه الديباج حتى تطاول النساء من خدورهن لرؤيته وأكرم عمر وفادته وأحسن نزله وأجله بارفع رتب المهاجرين ثم خرج عمر للحج فى هذه السنة فحج معه جبلة فبينا جبلة يطوف بالبيت اذ وطئ رجل من فزارة فضل ازاره فلطمه جبلة فهشم أنفه فاقبل الفزارى الى عمر وشكاه فاحضره عمر وقال له افتد نفسك والا أمرته بلطمك فقال جبلة كيف ذلك وأنا ملك وهو سوقة فقال عمر ان الاسلام جمعكما وسوى بين الملك والسوقة فى الحد فقال جبلة كنت أظن انى بالاسلام أعز منى فى الجاهلية فقال عمر دع عنك هذا فقال جبلة انى أتنصر فقال عمر ان تنصرت ضربت عنقك فقال انظرنى ليلتى هذه فانظره فلما جاء الليل سار جبلة بخيله ورجله الى الشام ثم منها الى القسطنطينية وتبعه خمسمائة رجل من قومه فتنصروا عن آخرهم وفرح هرقل به وأكرمه ثم ندم جبلة على فعلته تلك وقال

تنصرت الاشراف من عار لطمة * وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
تكنفنى فيها لجاج ونخوة * وبعت لها العين الصحيحة بالعور
فياليت أمى لم تلدنى وليتنى * رجعت الى القول الذى قاله عمر
وياليتنى أرعى المخاض بقفرة * وكنت أسيرا فى ربيعة أو مضر
وياليت لى بالشام أدنى معيشة * أجالس قومى ذاهب السمع والبصر
أدين بما دانوا به من شريعة * وقد يحبس العير الدجون على الدبر

وكان قد مضى رسول عمر الى هرقل وشاهد ما هو فيه جبلة من النعمة فارسل جبلة بخمسمائة دينار الى حسان بن ثابت وأمضاها له عمر فمدحه حسان بن ثابت بابيات منها

ان ابن جفنة من بقية معشر * لم يغذهم آباؤهم باللوم
لم ينسنى بالشام اذ هو ربها * كلا ولا متنصرا بالروم
يعطى الجزيل ولا يراه عنده * الا كبعض عطية المذموم

(وفى سنة سبع عشرة) جئ الى عمر بالهرمزان ملك الاهواز أسيرا ومعه وفد فيهم أنس بن مالك والاحنف ابن قيس فلما وصلوا به الى المدينة ألبسوه كسوته من الديباج المذهب ووضعوا على رأسه تاجه وهو مكلل بالياقوت ليراه عمر والمسلمون على هيئته التى يكون عليها فى ملكه فطلبوا عمر فلم يجدوه فسألوا عنه فقيل هو فى المسجد فاتوه فاذا هو نائم فجلسوا دونه فقال الهرمزان أين هو عمر قالوا هو ذا قال فاين حرسه وحجابه قالوا ليس له حارس ولا حاجب فنظر الهرمزان الى عمر وقال عدلت فأمنت فنمت واستيقظ عمر لجلبة الناس فقال الهرمزان قالوا نعم يا أمير المؤمنين فقال الحمد لله الذى أذل بالاسلام هذا وأشباهه وأمر بنزع ما عليه فنزعوه وألبسوه ثوبا ضيقا فقال عمر كيف رأيت عاقبة أمر الله فيك فقال الهرمزان لما خلى الله بيننا وبينكم فى الجاهلية غلبناكم ولما كان الله الآن معكم غلبتمونا (وفى سنة ثمان عشرة) كانت مجاعة الرمادة وطاعون عمواس وحلف عمر لا يذوق السمن واللبن حتى يحيى الناس واستسقى عمر بالعباس عم النبى صلى الله عليه وسلم فسقوا وهلك بالطاعون أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبى سفيان والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وابنه عتبة فى آخرين أمثالهم وتفانى الناس بالشام وبالبصرة أيضا ولما خف أثر الطاعون بالشام أجمع عمر المسير اليه ليقسم مواريث المسلمين ويتطوف على الثغور ففعل ورجع وكانت له خرجة أخرى قبل هذا الفتح بيت المقدس (وفى سنة عشرين) فتح عمرو بن العاص مصر والاسكندرية وشهد الفتح معه الزبير بن العوام وجماعة من كبار الصحابة (وفى سنة اثنتين وعشرين) سار عمرو بن العاص الى برقة فصالحه أهلها على الجزية ثم سار الى طرابلس الغرب فحاصرها وفتحها عنوة

(وفى سنة ثلاث وعشرين) كانت وفاة عمر رضى الله عنه على ما سيأتى فى الصحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه قال مازلنا أعزة منذ أسلم عمر *وعنه أيضا* قال لما أسلم عمر كان الاسلام كالرجل المقبل لا يزداد الا قوة ولما مات عمر كان الاسلام كالرجل المدبر لا يزداد الا ضعفا وعند ابن أبى شيبة عنه رضى الله عنه قال كان اسلام عمر عزا وهجرته نصرا وامارته رحمة *وفى الصحيح أيضا* عن ابن عمر وأبى هريرة رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينا أنا نائم رأيتنى على قليب وعليها دلو فنزعت منها ما شاء الله ثم أخذها ابن أبى قحافة فنزع منها ذنوبا أو ذنوبين وفى نزعه ضعف والله يغفر له ثم استحالت غربا فاخذها عمر بن الخطاب فلم أر عبقريا من الناس ينزع نزع عمر وفى رواية فلم أر عبقريا من الناس يفرى فريه حتى ضرب الناس بعطن قال النووى رحمه الله قالوا هذا المنام مثال لما جرى للخليفتين من ظهور آثارهما الصالحة وانتفاع الناس بهما وكل ذلك مأخوذ من النبى صلى الله عليه وسلم لانه صاحب الامر فقام به أكمل قيام وقرر قواعد الدين ثم خلفه أبو بكر فقاتل أهل الردة وقطع دابرهم ثم خلفه عمر فطالت مدة خلافته عشر سنين وزيادة واتسع الاسلام فى زمانه فشبه أمر المسلمين بقليب فيه الماء الذى فيه حياتهم وصلاحهم وأميرهم بالمستقى لهم منها وسعته هى قيامه بمصالحهم اهـ *(قلت)* من تأمل أمر عمر رضى الله عنه علم انه كان عجبا من العجب فانه عمد الى ثلاث دول هى أعظم دول العالم فى ذلك الوقت دولة الفرس ودولة الروم ودولة القبط فحاربهم فى نفس واحد وفرق جيوشه عليهم مع قلة المسلمين اذ ذاك وشظف عيشهم فغلبهم على ممالكهم وأزال عزهم وكسر كراسيهم وأمات نخوتهم بحيث ضرب الجزية على رقابهم طول أحقابهم فلم يطل البوابعدها بثار ولا عادوا الى جماح ونفار بل أعطوا المقادة وأسلموا أنفسهم للصغار ثم لم يكتف بذلك حتى أغزى خيل المسلمين أطراف المعمور من خراسان والترك وبلاد النوبة وبلاد البربر ولعمرى ما أمر الاسكندر الذى تضرب الامم به المثل فى الغلبة والتمكن فى الارض الادون أمر عمر بكثير فان الاسكندر كان غازيا بجميع جيشه متوليا ذلك بنفسه جوالا فى الارض غير مقيم ووجهته فى حروبه وجهة واحدة كلما فرغ من مملكة انتقل الى غيرها تاركا للتى خلف وراءه غير ملتفت اليها وكأنه كان لا غرض له الا فى اظهار القوة والبطش والغلبة على الامم دون ما سوى ذلك من تصريف الممالك طوع الامر والنهى *ولذا قال حمزة الاصبهانى فى كتابه تواريخ الامم وما رواه القصاص من ان الاسكندر بنى بارض ايران عدة مدن منها اصبهان ومرو وهراة وسمرقند فحديث لا أصل له لان الرجل كان مخربا لا عامرا اهـ فاما عمر رضى الله عنه فانه لما استولت جيوشه على أكثر المعمور صرف ممالكها طوع أمره حتى جبى اليه خراجها وثبتت استقامتها وزال اعوجاجها أقوى ما كانوا شوكة وأشد قوة وأكثر حامية ولم يمت رحمه الله حتى انتهت خيله فى جهة الشرق الى نهر بلخ وفى جهة الشمال على مائتى فرسخ من بلنجر وفى جهة المغرب الى تخوم الروم وبلاد برقة وطرابلس الغرب كل ذلك فى مدة يسيرة لم يجاوز معظمها الثلاث سنين وهو مع ذلك فى جوف بيته مترددا فيما بين منزله ومسجده لم يستعمل لذلك كثير أسباب ولا أجلب بنفسه بخيل ولا ركاب انما هو الرأى الميمون والنصر المضمون والامر الجارى بين الكاف والنون والوعد المنجز بقوله تعالى ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (فاما) وفاة عمر رضى الله عنه فروى ابن سعد باسناد صحيح ان عمر كان لا يأذن لمن احتلم من أولاد العجم فى دخول المدينة حتى كتب اليه المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة فذكر له ان عنده غلاما صنعا وهو يستأذنه ان يدخله المدينة ويقول ان له أعمالا تنفع الناس انه حداد نقاش نجار فاذن له عمر وضرب عليه مولاه كل شهر مائة فشكى الى عمر شدة الخراج فقال له ما خراجك بكثير فى جنب ما تعمل فانصرف ساخطا فلبث عمر ليالى فمر به العبد فقال عمر ألم أحدث انك تقول لو شئت لصنعت رحى تطحن بالريح فالتفت اليه عابسا فقال لأصنعن لك رحى يتحدث الناس بها فاقبل عمر على من معه فقال توعدنى العبد فلبث ليالى ثم اشتمل على

خنجر ذي رأسين نصابه في وسطه فكمن في زاوية من زوايا المسجد في الغلس حتى خرج عمر يوقظ الناس للصلاة وكان عمر يفعل ذلك فلما دنا عمر وثب عليه فطعنه ثلاث طعنات احداهن تحت السرة قد خرقت الصفاق وهي التي قتلته ﴿وفي صحيح البخاري﴾ عن عمرو بن ميمون قال رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل أن يصاب بايام بالمدينة وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف قال كيف فعلتما يعني في أرض السواد أتخافان ان تكونا قد حملتما الارض مالا تطيق يعني من الخراج قالا حملناها أمراهي له مطيقة مافيها كبير فضل قال انظرا ان تكونا حملتما الارض مالا تطيق قالا لا فقال عمر لئن سلمني الله تعالى لأدعن أرامل أهل العراق لا يحتجن الى رجل بعدي أبدا قال فما أتت عليه رابعة حتى أصيب قال عمرو بن ميمون اني لقائم ما بيني وبينه الا عبد الله بن عباس غداة أصيب وكان اذا مر بين الصفين قال استووا حتى اذا لم ير فيهن خللا تقدم فكبر وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الاولى حتى يجتمع الناس فما هو الا ان كبر فسمعته يقول قتلني أو أكلني الكلب حين طعنه أبو لؤلؤة واسمه فيروز فطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يمينا ولا شمالا الا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا مات منهم سبعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين واسمه حطان التميمي اليربوعي طرح عليه برنوسا فلما ظن العلج انه مأخوذ نحر نفسه وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه فمن يلي عمر فقد رأى الذي أرى وأما نواحي المسجد فانهم لا يدرون غير انهم قد فقدوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله فصلى بهم عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة فلما انصرفوا قال يا ابن عباس انظر من قتلني فجال ساعة ثم جاء فقال غلام المغيرة قال ألصنع قال نعم قال قاتله الله لقد أمرت به معروفا الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدعي الاسلام قد كنت أنت وأبوك تحبان ان تكثر العلوج بالمدينة وكان العباس أكثرهم رقيقا قال ان شئت فعلنا أي ان شئت قتلنا قال كذبت بعدما تكلموا بلسانكم وصلوا الى قبلتكم وحجوا حجكم فاحتمل الى بيته فانطلقنا معه وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ فقائل يقول لا بأس وقائل يقول أخاف عليه فاتي بنبيذ فشربه فخرج من جوفه ثم أتي بلبن فشربه فخرج من جرحه فعلموا انه ميت فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه وجاء رجل شاب فقال ابشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم في الاسلام ما قد علمت ثم وليت فعدلت ثم شهادة قال وددت ان ذلك كفاف لا علي ولا لي فلما أدبر الشاب اذا ازاره يمس الارض قال ردوا علي الغلام قال يا ابن أخي ارفع ثوبك فانه أتقى لثوبك وأتقى لربك يا عبد الله بن عمر انظر ماذا علي من الدين فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه قال ان وفى له مال آل عمر فأده من أموالهم والا فاسأل في بني عدي بن كعب فان لم تف أموالهم فاسأل في قريش ولا تعدهم الى غيرهم فأد عني هذا المال انطلق الى عائشة أم المؤمنين فقل يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين فاني لست اليوم للمؤمنين أميرا وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت كنت أريده لنفسي ولاوثرنه به اليوم على نفسي فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء قال ارفعوني فاسنده رجل اليه فقال ما لديك قال الذي تحب يا أمير المؤمنين أذنت قال الحمد لله ما كان من شيء أهم علي من ذلك فاذا أنا قضيت فاحملوني ثم سلم فقل يستأذن عمر بن الخطاب فان أذنت لي فادخلوني وان ردتني ردوني الى مقابر المسلمين وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء تسير معها فلما رأيناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة واستأذن الرجال فولجت خلالهم فسمعنا بكاءها من الداخل فقالوا أوص يا أمير المؤمنين استخلف قال ما أجد أحدا أحق بهذا الامر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الامر شيء كهيئة التعزية له فان أصابت الامارة سعدا فهو ذاك

والا

والا فليستعن به أيكم ما أمّر فانى لم أعزله عن عجز ولا خيانة وقال أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الاولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم وأوصيه بالانصار خيرا الذين تبوّؤا الدار والايمان من قبلهم ان يقبل من محسنهم وان يعفى عن مسيئهم وأوصيه بالامصار خيرا فانهم ردء الاسلام وجباة المال وغيظ العدوّ وان لا يؤخذ منهم الا فضلهم عن رضاهم وأوصيه بالاعراب خيرا فانهم أصل العرب ومادة الاسلام ان يؤخذ من حواشى أموالهم وترد على فقرائهم وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ان يوفى لهم بعهدهم وان يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا الا طاقتهم فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشى فسلم عبد الله ابن عمر وقال يستأذن عمر بن الخطاب قالت أدخلوه فادخل فوضع هنالك مع صاحبيه فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط فقال عبد الرحمن اجعلوا أمركم الى ثلاثة منكم فقال الزبير قد جعلت أمرى الى على فقال طلحة قد جعلت أمرى الى عثمان وقال سعد قد جعلت أمرى الى عبد الرحمن بن عوف فقال عبد الرحمن أيكما يتبرأ من هذا الامر فنجعله اليه والله عليه والاسلام لينظرنّ أفضلهم فى نفسه فاسكت الشيخان فقال عبد الرحمن أفتجعلونه الىّ والله علىّ ان لا آلو عن أفضلكم قالا نعم فاخذ بيد أحدهما فقال لك من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والقدم ما قد علمت فالله عليك لئن أمرتك لتعدلنّ ولئن أمّرت عثمان لتسمعنّ ولتطيعنّ ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك فلما أخذ الميثاق قال ارفع يدك يا عثمان فبايعه وبايع له علىّ وولج أهل الدار فبايعوه اهـ (وكانت وفاة عمر رضى الله عنه) يوم السبت سلخ ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين ودفن يوم الاحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين وكانت مدّة خلافته عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام كذا لابى الفداء وفى حديث عائشة مما خرّجه أبو عمر بن عبد البر ناحت الجنّ على عمر رضى الله عنه قبل أن يموت بثلاث فقالت

أبعد قتيل بالمدينة أظلمت * له الارض تهتز العضاة باسوق
جزى الله خيرا من امام وباركت * يد الله فى ذاك الاديم الممزق
فمن يسع أو يركب جناحى نعامة * ليدرك ما قدمت بالامس يسبق
قضيت أمورا ثم غادرت بعدها * بوائق من أكمامها لم تفتق

﴿خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه﴾

هو أبو عمرو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف ولى الخلافة بعد عمر رضى الله عنه باختيار أهل الشورى له وقد تقدم خبر ذلك مستوفى ولما بويع رقى المنبر وقام خطيبا فحمد الله وتشهد ثم ارتج عليه فقال ان أوّل كل أمر صعب وان أعش فستأتيكم الخطب على وجهها ان شاء الله ثم نزل وأقرّ عمال عمر كلهم الا ما كان من المغيرة ابن شعبة أمير الكوفة فانه عزله واستبدل به سعد بن أبى وقاص لوصية عمر بذلك ثم بعد مدّة نحو سنة عزل من عزل من عمال عمر واستبدل بهم آخرين كان فيهم من هو من قرابته فعزل سعد بن أبى وقاص عن الكوفة وولى عليها الوليد بن عقبة وكان أخا عثمان من أمه وعزل عمرو بن العاص عن مصر وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبى سرح العامرى وكان أخاه من الرضاعة ثم عزل بعد ذلك أبا موسى الاشعرى عن البصرة وولى عليها عبد الله بن عامر بن كريز وهو ابن خاله واستكتب مروان بن الحكم بن أبى العاص وهو ابن عمه كل ذلك كان لمصلحة اقتضاها الحال وضم حمص وقنسرين وفلسطين وغيرها من بلاد الشام الى معاوية بن أبى سفيان أمير دمشق ومضى رضى الله عنه على سنن عمر فى الجهاد وتجهيز الجيوش وتكتيب الكتائب حتى اتسعت خطة الاسلام اتساعا أعظم منه فى خلافة عمر رضى الله عنه وكان لاوّل خلافة عثمان قد انتقض بعض الثغور والجهات مثل الاسكندرية وبعض بلاد العجم وفارس ونحو ذلك فتلافاها بالغزو والبعوث حتى عادت الى الطاعة وأدّت ما كانت تؤديه أيام عمر أو أكثر وفتح عليه

بلاد أرمينية مثل تفليس وقاليقلا وخلاط والسيرجان وعدة حصون وانتهى الفتح الى مدينة الباب وكان ذلك على يد سلمان بن ربيعة الباهلي سنة أربع وعشرين وغزا معاوية صاحب الشام أيضا بلاد الروم حتى بلغ عمورية ووجد ما بين انطاكية وطرطوس من حصون الروم خاليا فجمع فيها العساكر حتى رجع وخربها وكذا استتم المسلمون في خلافة عثمان رضي الله عنه فتح مدن خراسان والجوزجان والطالقان وطخارستان وما وراء النهر الى فرغانة في الشرق وانتهى الفتح أيضا الى كابل وزابلستان وهي بلاد غزنة من ثغور الهند في الجنوب وفتح في خلافة عثمان رضي الله عنه افريقية أيضا من بلاد المغرب وكان من خبرها انه لما كانت سنة ست وعشرين من الهجرة عزل عثمان رضي الله عنه عمرو ابن العاص رضي الله عنه عن خراج مصر واستعمل مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح رضي الله عنه فلما قدم ابن أبي سرح مصر كان على خراجها وعمرو بن العاص على حربها فكتب ابن أبي سرح الى عثمان يشكو عمرا فاستقدمه عثمان واستقل ابن أبي سرح بالخراج والحرب معا ثم أمره عثمان بغزو افريقية بعد ان كان عمرو بن العاص استشار عمر رضي الله عنه في غزوها فمنعه من ذلك وقال له تلك المفرقة وليست بافريقية أو كلاما هذا معناه ولما أمر عثمان ابن أبي سرح بغزوها قال له ان فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم فعقد ابن أبي سرح لعقبة بن نافع بن عبد القيس على جند ولعبد الله بن نافع ابن الحرث على آخر وسرحهما فخرجوا الى افريقية في عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة أهلها ثم ان ابن أبي سرح استأذن عثمان في ذلك واستمده فاستشار عثمان الصحابة رضي الله عنهم فأشاروا به فجهز العساكر من المدينة وفيهم جماعة من الصحابة منهم ابن عباس وابن عمر وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسين رضي الله عنهم وساروا مع ابن أبي سرح سنة ست وعشرين ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة ثم ساروا الى طرابلس فنهبوا الروم عندها ثم ساروا الى افريقية وبثوا السرايا في كل ناحية وكان ملكهم جرجير يملك ما بين طرابلس وطنجة تحت ولاية هرقل ويحمل اليه الخراج فلما بلغه الخبر جمع مائة وعشرين ألفا من العساكر ولقيهم على يوم وليلة من سبيطلة دار ملكهم وأقاموا يقتتلون ودعوه الى الاسلام أو الجزية فاستكبر ولحقهم عبد الله بن الزبير مددا بعثه عثمان لما أبطأت أخبارهم وسمع جرجير بوصول المدد ففت في عضده وشهد ابن الزبير معهم القتال وقد غاب ابن أبي سرح فسأل عنه فقيل انه سمع مناديا جرجير يقول من قتل ابن أبي سرح فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي فخاف وتأخر عن شهود القتال فقال له ابن الزبير تنادي أنت بان من قتل جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده فخاف جرجير أشد منه ثم قال عبد الله بن الزبير لابن أبي سرح الرأي ان تترك جماعة من أبطال المسلمين المشاهير متأهبين للحرب وتقاتل الروم بباقي العسكر الى ان يضجروا فتركبهم بالآخرين على غرة لعل الله ينصرنا عليهم ووافق على ذلك أعيان الصحابة ففعلوا ذلك وركبوا من الغد الى الزوال وألحوا عليهم حتى أتعبوهم ثم افترقوا وأركب عبد الله الفريق الذين كانوا مستريحين فكبروا وحملوا حملة رجل واحد حتى غشوا الروم في خيامهم فانهزموا وقتل كثير منهم وقتل ابن الزبير جرجير وأخذت ابنته سبية فنفلها ابن أبي سرح ابن الزبير ثم حاصر ابن أبي سرح سبيطلة حتى فتحها وكان سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألفا وبث جيوشه في البلاد الى قفصة فسبوا وغنموا وبعث عسكرا الى حصن الاجم وقد اجتمع به أهل البلاد فحاصره وفتحه على الامان ثم صالحه أهل افريقية على ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار وأرسل عبد الله بن أبي سرح عبد الله بن الزبير بخبر الفتح وبالخمس الى عثمان رضي الله عنه فاشتراه مروان ابن الحكم بخمسمائة ألف دينار ثم وضعها عنه عثمان وأعطى ابن أبي سرح خمس الخمس من الغزوة الاولى ثم بعد تمام الصلح رجع عبد الله بن أبي سرح الى مصر بعد مقامه بافريقية سنة وثلاثة أشهر ويقال

انه لما فتحت افريقية أمر عثمان رضى الله عنه عبد الله بن نافع ان يسير الى جهة الاندلس فغزا تلك الجهة وعاد الى افريقية فاقام بها واليا من قبل عثمان ورجع ابن أبى سرح الى مصر والله أعلم ﴿وفى سنة ثمان وعشرين﴾ استأذن معاوية عثمان فى غزو البحر فاذن له وقد كان معاوية وهو بحمص أيام عمر رضى الله عنه كتب اليه فى شأن جزيرة قبرس يقول ان قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلاب قبرس وصياح ديوكهم فكتب عمر الى عمرو بن العاص يقول صف لى البحر وراكبه فكتب اليه عمرو يقول هو خلق كبير يركبه خلق صغير ليس الا السماء والماء ان ركد أقلق القلوب وان تحرك أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة وراكبه دود على عود ان مال غرق وان نجا فرق فكتب عمر الى معاوية والذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا وقد بلغنى ان بحر الشام يشرف على أطول جبل بالارض فيستأذن الله كل يوم وليلة فى ان يغرق الارض فكيف أحمل الجنود على هذا البحر الكافر وبالله لمسلم واحد أحب الى مما حوت الروم فاياك ان تعرض لى فى ذلك فقد علمت مالقى العلاء منى ثم لما كانت خلافة عثمان ألح معاوية عليه فى غزو البحر فاجابه على خيار الناس وطوعهم فاختار الغزو جماعة من الصحابة فيهم أبو ذر وأبو الدرداء وشداد بن أوس وعبادة بن الصامت وزوجه أم حرام بنت ملحان واستعمل عليهم عبد الله ابن قيس حليف بنى فزارة وساروا الى قبرس وجاء عبد الله بن أبى سرح من مصر فاجتمعوا عليها وصالحهم أهلها على سبعة آلاف دينار لكل سنة ويؤدون مثلها للروم ولا منعة لهم على المسلمين ممن أرادهم من سواهم وعلى أن يكونوا عينا للمسلمين على عدوهم ويكون طريق الغزو للمسلمين عليهم وكانت هذه الغزاة سنة ثمان وعشرين كما قدمنا وقيل غير ذلك وفيها توفيت أم حرام بنت ملحان سقطت عن دابتها حين خرجت من البحر وكان النبى صلى الله عليه وسلم أخبرها بذلك وهو نائم عندها كما فى الصحيح وأقام عبد الله بن قيس على البحر فغزا خمسين غزوة لم ينكب فيها أحد الى ان نزل فى بعض الايام فى ساحل المرفاء من أرض الروم فثاروا اليه فقتلوه ونجا الملاح وكان استخلف سفيان بن عوف الازدى على السفن فجاء الى أهل المرفاء وقاتلهم حتى قتل وقتل معه جماعة من المسلمين ﴿وفى سنة ثلاثين﴾ جمع عثمان القرآن الجمع الثانى فى المصاحف وفيها هلك يزدجرد كسرى فارا من جيوش المسلمين بمدينة مرو من خراسان وهو آخر الاكاسرة وبموته انقرضت دولة آل ساسان وكان من خبر جمع القرآن ما أخرجه البخارى عن ابن شهاب ان أنس بن مالك حدثه ان حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية واذربيجان مع أهل العراق فافزع حذيفة اختلافهم فى القراءة فقال حذيفة لعثمان يا أمير المؤمنين ادرك هذه الامة قبل ان يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فارسل عثمان الى حفصة ان ارسلى الينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها اليك فارسلت بها حفصة الى عثمان فامر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام فنسخوها فى المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شئ من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانما نزل بلسانهم ففعلوا حتى اذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف الى حفصة فارسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف ان يحرق قال ابن شهاب وأخبرنى خارجة بن زيد بن ثابت انه سمع أباه زيد بن ثابت قال فقدت آية من الاحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الانصارى من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فألحقناها فى سورتها فى المصحف ﴿وفى سنة ثلاث وثلاثين﴾ تكلم جماعة من أهل الكوفة فى عثمان بانه ولى جماعة من أهل بيته لا يصلحون للولاية ونقموا عليه أمورا أخر لا حاجة بنا الى ذكرها مع انه كان فيها مجتهدا وذلك ان عثمان رضى الله عنه كان فيه مزيد حياء ورأفة وبرور باقاربه وكان عمر رضى الله عنه مرهوب الجانب عند

الخاصة والعامة له عين كالئة على الرعية بصيرا بما يأتون ويذرون محدثا في ذلك كما أخبر عنه صلى الله عليه وسلم وكان من الحزم والضبط على ما وصفته به عائشة رضي الله عنها اذ قالت رحم الله عمر كان أحوذيا نسيج وحده قد أعد للامور أقرانها فكان عثمان ألين جانبا من عمر فتوسع الناس في زمانه في أمور الدنيا أكثر مما كانوا عليه في زمان عمر واستعملوا النفيس من الملبس والمسكن والمطعم واقتنوا الضياع والاثاث ❊قال المسعودي في مروج الذهب❊ وفي أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائتا ألف دينار وخلف ابلا وخيلا كثيرة وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وخلف ألف فرس وألف أمة وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفا وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الاموال والضياع بمائة ألف دينار وبنى الزبير داره بالبصرة وكذلك بنى بمصر والاسكندرية والكوفة وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج وبنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن وخلف يعلى بن منية خمسين ألف دينار وغير ذلك مما قيمته ثلاثمائة ألف درهم اه كلام المسعودي فاستحالت الاحوال في زمان عثمان كما ترى ولما رأى ذلك بعض الناس ممن لم يكن له رسوخ في الفقه والدين ولا هو من أهل السابقة من فضلاء الصحابة والمسلمين صاروا ينقمون على عثمان بأنه أهمل أمر الرعية وخالف سيرة العمرين مع ما انضاف الى ذلك من توليته أقاربه وحاشاه من ذلك رضي الله عنه فان الرجل كان مجتهدا وهو أهل للاجتهاد وما تخيلوه من اهماله أمر الرعية حتى استحال أمرها الى ما ذكر تخيل باطل اذ ليس ذلك في طوقه ولا بسببه وانما طبيعة العمران البشري تقتضي ذلك بسبب ما فتح على المسلمين من الاقاليم والممالك والاقطار والنواحي والامصار وترادف الجبايات الفائقة الحصر وانثيال كنوز كسرى وقيصر وغيرهم من ملوك الارض عليهم فأنى يبقى الامر على حاله مع هذا الفتح العجيب والنصر الغريب وقد قيل دوام الحال من المحال والناس ليسوا على قدم واحد في الزهد في الدنيا فالحق الذي لا عوج فيه ولا أمت ان عثمان رضي الله عنه كان على الحق حتى لقي ربه وما يعتدون به عليه من مخالفة سيرة الشيخين رضي الله عنهما ان صح فحمله الاجتهاد كما قلنا ومعلوم ان أحكام الشرع تدور مع المصالح والمفاسد وتختلف باختلاف الازمان والاحوال كما لا يخفى على من له أدنى مساس بالفقه ❊قال ابن خلدون❊ اختلاف الصحابة والتابعين انما يقع في الامور الدينية وينشأ عن الاجتهاد في الادلة الصحيحة والمدارك المعتبرة والمجتهدون اذا اختلفوا فان قلنا ان الحق في المسائل الاجتهادية في واحد من الطرفين ومن لم يصادفه فهو مخطئ فان جهته لا تتعين باجماع فيبقى الكل على احتمال الاصابة والتأثيم مدفوع عن الكل اجماعا وان قلنا ان الكل حق وان كل مجتهد مصيب فأحرى بنفي الخطإ والتأثيم ثم استمر أولئك الناقمون على عثمان رضي الله عنه وتمادوا في طعنهم وتشغيبهم حتى تفاقم الامر وسرى الداء وأعوز الدواء واختلط المرعي بالهمل

وكان ما كان مما لست أذكره ❊ فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

وآخر الامر انه لما كانت سنة خمس وثلاثين قدم من مصر جمع قيل ألف وقيل سبعمائة وقدم من الكوفة جمع آخر ومن البصرة كذلك وحاصروا عثمان رضي الله عنه في داره وكانت خطوب وقطعوا عنه الماء واستمر الحصار نحو أربعين يوما ثم تسور عليه جماعة من أهل مصر داره فقتلوه وسال دمه على المصحف يقال ان الذي تولى قتله كنانة بن بشر التجيبي وطعنه عمرو بن الحمق طعنات وجاء عمير بن ضابئ

البرجمي وكان أبوه قدمات في سجن عثمان فوثب عليه حتى كسر ضلعا من أضلاعه وكان قتله لثمان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وكانت مدة خلافته اثنتي عشرة سنة الا اثنى عشر يوما وقيل انه قتل صبيحة عيد الاضحى من السنة المذكورة وهو الذى عند ابن الخطيب في رقم الحلل وابن بدرون في شرح العبدونية ويؤيده قول حسان بن ثابت يرثيه

ضحوا باشمط عنوان السجود به * يقطع الليل تسبيحا وقرآنا
لتسمعن وشيكا في ديارهم * الله أكبر يا ثارات عثمانا

﴿وقول الفرزدق بعده﴾

عثمان اذ قتلوه وانتهكوا * دمه صبيحة ليلة النحر

رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به

﴿خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه﴾

هو أبو الحسن علي بن أبي طالب واسمه عبد مناف بن عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم واسمه شيبة وفيه يجتمع مع النبي صلى الله عليه وسلم بويع بعد مقتل عثمان رضي الله عنه باتفاق من يعتبر من أهل الحل والعقد بعد امتناعه من ذلك ﴿قال ابن خلدون﴾ لما قتل عثمان اجتمع طلحة والزبير والمهاجرون والانصار وأتوا عليا يبايعونه فأبى وقال أكون وزيرا لكم خير من أن أكون أميرا ومن اخترتم رضيته فألحوا عليه وقالوا لا نعلم أحق منك ولا نختار غيرك حتى غلبوه في ذلك فخرج الى المسجد وبايعوه وأول من بايعه طلحة ثم الزبير بعد ان خيرهما ويقال انهما ادعيا الاكراه بعد ذلك باربعة أشهر وتخلف عن بيعة علي رضي الله عنه ناس من الصحابة وغيرهم فلم يبغضهم وقال أولئك قوم قعدوا عن الحق ولم يقوموا مع الباطل ولما ولي الخلافة رضي الله عنه أحيا السنة وأمات البدعة وأوضح منار الحق وأخمد نار الباطل ولم تأخذه في الله لومة لائم ولما دخلت سنة ست وثلاثين فرق عماله على النواحي فبعث الى الكوفة عمارة بن شهاب وكان من المهاجرين وولي على البصرة عثمان بن حنيف الانصاري وعلى اليمن عبيد الله بن عباس وكان من الاجواد وعلى مصر قيس بن سعد بن عبادة الانصاري وكان من أهل الجود والشجاعة والرأي وعلى الشام سهل بن حنيف الانصاري فلما وصل سهل الى تبوك لقيته خيل فقالوا من أنت قال أمير على الشام فقالوا ان كان بعثك غير عثمان فارجع فرجع الى علي ومضى قيس بن سعد الى مصر فوليها واعتزلت عنه فرقة كانوا عثمانية وأبوا ان يدخلوا في طاعة علي حتى يقتل قتلة عثمان ومضى عثمان بن حنيف الى البصرة فدخلها واتبعته فرقة وخالفته أخرى ومضى عمارة بن شهاب الى الكوفة فلقيه طلحة بن خويلد الاسدي الذى كان ادعى النبوة زمان الردة فقالوا له ان أهل الكوفة لا يستبدلون باميرهم أحدا وكان عليها أبو موسى الاشعري من قبل عثمان رحمه الله تعالى فرجع عمارة الى علي ومضى عبيد الله بن عباس الى اليمن فوليها وكان العامل بها من قبل عثمان يعلى بن منية فاخذ ما كان بها من المال ولحق بمكة ومعه ستمائة بعير وصار مع عائشة رضي الله عنها وذلك ان عائشة كانت خرجت الى مكة زمان حصار عثمان فقضت نسكها وانقلبت تريد المدينة فلقيها الخبر بمقتل عثمان فاعظمت ذلك ودعت الى الطلب بدمه ولحق بها طلحة والزبير وعبد الله بن عامر وجماعة من بني أمية واتفق رأيهم على المضي الى البصرة للاستيلاء عليها وكان عبد الله بن عمر قد قدم مكة من المدينة فدعوه الى المسير معهم فابى وأعطى يعلى بن منية عائشة الجمل المسمى بعسكر وكان اشتراه بمائة دينار فركبته وساروا فمروا في طريقهم بماء يقال له الحوءب فنبحتهم كلابه فقالت عائشة أي ماء هذا فقيل ماء الحوءب فصرخت بأعلى صوتها وقالت انا لله وانا اليه راجعون سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وعنده نساؤه ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوءب ثم ضربت عضد الجمل فأناخته وقالت ردوني أنا والله صاحبة ماء الحوءب وأقامت بهم يوما وليلة الى ان قيل النجاء

النجا فقد أدركم على بن أبى طالب وغلبوها على رأيها فارتحلوا نحو البصرة فاستولوا عليها بعد قتال مع أميرها عثمان بن حنيف ولما بلغ عليا رضى الله عنه مسير عائشة وطلحة والزبير الى البصرة سار نحوهم فى أربعة آلاف من أهل المدينة فيهم أربعمائة ممن بايع تحت الشجرة وثمانمائة من الانصار وكانت رايته مع ابنه محمد بن الحنفية وعلى ميمنته الحسن وعلى ميسرته الحسين وعلى الخيل عمار بن ياسر وعلى الرجالة محمد بن أبى بكر الصديق وعلى مقدمته عبد الله بن العباس وكان مسيره فى ربيع الآخر سنة ست وثلاثين ولما وصل على الى ذى قار لقيه أمير البصرة عثمان بن حنيف وأخبره الخبر فقال على ان الناس وليهم قبلى رجلان فعملا بالكتاب والسنة ثم وليهم ثالث فقالوا فى حقه وفعلوا ثم بايعونى وبايعنى طلحة والزبير ثم نكثا ومن العجب انقيادهما لابى بكر وعمر وعثمان وخلافهما على والله انهما ليعلمان انى لست بدون رجل ممن تقدم ثم سار على يؤم البصرة فيمن معه من أهل المدينة وأهل الكوفة وانضم الى عائشة وطلحة والزبير جمع آخر والتقوا بمكان يقال له الخريبة عند موضع قصر عبيد الله بن زياد يوم الخميس النصف من جمادى الآخرة من السنة المذكورة ولما تراآ الجمعان خرج طلحة والزبير وجاءهم على حتى اختلفت أعناق دوابهم فقال على لقد أعددتما سلاحا وخيلا ورجالا ان كنتما أعددتما عند الله عذرا ألم أكن أخا كما فى دينكما تحرمان دمى وأحرم دمكما فهل من حدث أحل لكما دمى قال طلحة ألبت على عثمان قال على يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق فلعن الله قتلة عثمان يا طلحة أما بايعتنى قال والسيف على عنقى ثم قال للزبير أتذكر يوم قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم لتقاتلنه وأنت له ظالم قال اللهم نعم ولوذكرت ذلك قبل مسيرى ماسرت ووالله لا أقاتلك أبدا وافترقوا وكان على رضى الله عنه قد بعث اليهم قبل اللقاء القعقاع بن عمرو التميمى وأمره ان يشير بالصلح ما استطاع فقدم القعقاع على عائشة أولا وقال أى أماه ما أشخصك قالت أريد الاصلاح بين الناس قال فابعثى الى طلحة والزبير فاسمعى منى ومنهما فبعثت اليهما فجاآ فقال لهما القعقاع انى سألت أم المؤمنين ما أقدمها فقالت الاصلاح فقال طلحة والزبير كذلك هو قال القعقاع فاخبرانى ما هو قالا قتلة عثمان فان تركهم ترك للقرآن قال فقد قتلتم منهم عددا من أهل البصرة يعنى حين قاتلوا أميرها عثمان بن حنيف قال وغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وطلبتم حرقوص بن زهير فمنعه ستة آلاف فان قاتلتم هؤلاء كلهم اجتمع ربيعة ومضر على حربكم فاين الاصلاح قالت عائشة فماذا تقول أنت قال هذا الامر دواؤه التسكين فاذا سكن الامر اختلجوا أى أخذوا على غرة فقالوا قد أصبت وأحسنت فارجع الى على فان كان على مثل رأيك صلح الامر فرجع القعقاع الى على فاعجبه وأشرف القوم على الصلح وعلم بذلك جماعة ممن كان سعى فى قتل عثمان أو رضى به فقالوا ان يصطلح هؤلاء فعلى دمائنا يصطلحون ثم تعاقدوا على انهم اذا التقوا بجيش عائشة وطلحة والزبير أنشبوا القتال حتى يشتغل الناس عما عزموا عليه من الصلح فكان كذلك فانه لما كانت صبيحة الليلة التى اجتمع فيها على بطلحة والزبير غلس أولئك المتعاهدون على انشاب الحرب وما يشعر بهم أحد وصمدت مضر منهم الى مضر وربيعة الى ربيعة واليمن الى اليمن فوضعوا فيهم السلاح على حين غفلة فثار الناس وتسابقوا الى خيولهم وزحف البعض الى البعض واشتبكت الحرب فكانت الوقعة العظمى المعروفة بوقعة الجمل يوم الخميس لعشر بقين من الشهر المذكور أعنى جمادى الاخيرة سنة ست وثلاثين وقتل طلحة فى المعركة والزبير وهو راجع الى المدينة وعقر الجمل الذى كانت عليه عائشة وأمر على رضى الله عنه بنقل هودجها الى دار عبد الله بن خلف الخزاعى ونادى منادى على يوم الجمل وكذا يوم صفين الا لا تتبعوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح ولا تدخلوا الدور ثم صلى على القتلى من الجانبين وأمر بالاطراف فدفنت فى قبر عظيم وجمع ما كان فى العسكر من الاثاث وبعث به الى مسجد البصرة وقال من عرف شيأ فليأخذه الا سلاحا عليه ميسم السلطان وأحصى القتلى من الجانبين فكانوا عشرة آلاف منهم من ضبة ألف رجل وبلغ

عليا ان بعض الغوغاء عرض لعائشة رضي الله عنها بالقول السيء فاحضر البعض منهم وأوجعهم ضربا ثم جهزها الى المدينة بما احتاجت اليه وبعث معها أخاها محمد بن أبي بكر في أربعين امرأة من نساء البصرة اختارهن لمرافقتها وجاء يوم ارتحالها فودعها واستعتب لها واستعتبت له ومشى معها أميالا وشيعها بنوه مسافة يوم وذلك غرة رجب فذهبت الى مكة وأقامت بها حتى حجت تلك السنة ثم رجعت الى المدينة واستعمل علي رضي الله عنه على البصرة عبد الله بن عباس وسار الى الكوفة فنزل بها وانتظم له الامر بالعراق ومصر واليمن والحرمين وفارس وخراسان ولم يبق خارجا عن طاعته الا أهل الشام وأميرهم معاوية بن أبي سفيان فبعث اليه علي رضي الله عنه جرير بن عبد الله البجلي يأمره بالدخول فيما دخل فيه المهاجرون والانصار فلما قدم جرير على معاوية ماطله حتى قدم عليه عمرو بن العاص من فلسطين فاستشاره فاشار عليه بترك البيعة والطلب بدم عثمان وان يقاتل معه على انه اذا ظفر ولاه مصر فاجابه معاوية الى ذلك ورجع جرير الى علي رضي الله عنه بالخبر فسار علي من الكوفة قاصدا معاوية ومن معه بالشام وقدم عليه عبد الله بن عباس ومن معه من أهل البصرة فقال علي رضي الله عنه

لاصبحن العاص وابن العاص * سبعين ألفا عاقدي النواصي

مجنبين الخيل بالقلاص * مستحقبين حلق الدلاص

وسار معاوية ومعه عمرو بن العاص وأهل الشام من دمشق يريد عليا وتأنى معاوية في مسيره وخرجت سنة ست وثلاثين ودخلت سنة سبع بعدها فاجتمع الجيشان بصفين وتراسلوا وتداعوا الى الصلح فلم يقض الله بذلك وكانت حرب يسيرة بالنسبة لما بعدها ولما دخل صفر وقع بينهما القتال فكانت وقعات كثيرة بصفين يقال انها تسعون وقعة وكانت مدة مقامهم على الحرب مائة يوم وعشرة أيام وعدة القتلى بصفين من أهل الشام خمسة وأربعون ألفا ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفا منهم ستة وعشرون من أهل بدر وكان علي رضي الله عنه قد تقدم الى أصحابه أن لا يقاتلوهم حتى يبدؤهم بالقتال وأن لا يقتلوا مدبرا ولا يكشفوا عورة ولا يأخذوا من أموالهم شيأ وقاتل عمار بن ياسر رضي الله عنه مع علي قتالا عظيما وكان عمره قد نيف على تسعين سنة وكانت الحربة في يده ويده ترتعد فقال هذه راية قاتلت بها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات وهذه الرابعة ودعا بقدح من لبن فشرب منه ثم قال صدق الله ورسوله اليوم ألقى الاحبه محمدا وحزبه قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ان آخر رزقي من الدنيا ضيحة لبن وروى انه كان يرتجز نحن قاتلنا كم على تأويله * كما قتلنا كم على تنزيله

ضربا يزيل الهام عن مقيله * ويذهل الخليل عن خليله

ولم يزل عمار يقاتل ذلك اليوم حتى استشهد رضي الله عنه * وفي الصحيح المتفق عليه * ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ويح عمار تقتله الفئة الباغية وبعد قتل عمار رضي الله عنه انتخب علي اثني عشر ألفا بعد ان روى لهم حديث عمار وحمل بهم على عسكر معاوية فلم يبق لاهل الشام صف الا انتقض ثم نادى يامعاوية علام تقتل الناس بيننا هلم أحاكمك الى الله فاينا قتل صاحبه استقام له الامر فقال له عمرو ابن العاص انصفك فقال معاوية لكنك ما أنصفت ثم تقاتلوا ليلة الهرير شبهت بليلة القادسية وكانت ليلة الجمعة واستمر القتال الى الصباح وكان علي يسير بين الصفوف ويحرض كل كتيبة على التقدم حتى أصبح والمعركة كلها خلف ظهره (وروى) انه كبر تلك الليلة سبعمائة تكبيرة وكانت عادته انه كلما قتل قتيلا كبر ودام القتال الى ضحى يوم الجمعة وقاتل الاشتر النخعي قتالا عظيما حتى انتهى الى معسكرهم وقتل صاحب رايتهم وأمده علي بالرجال فلما رأى عمرو شدة الامر قال لمعاوية مر الناس يرفعون المصاحف على الرماح ويقولون كتاب الله بيننا وبينكم فان قبلوا ذلك ارتفع عنا القتال وان أبى بعضهم وجدنا في افتراقهم راحة ففعلوا ذلك فقال الناس نجيب الى كتاب الله فقال علي ياعباد الله امضوا على حقكم في قتال عدوكم فان

عمرا ومعاوية وابن أبي معيط وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن وأنا أعرف بهم منكم ويحكم والله مارفعوها الا خديعة ومكيدة فقالوا لا يسعنا ان ندعى الى كتاب الله فلا نقبل فقال علي انما قاتلناهم ليدينوا بكتاب الله فانهم نبذوه فقال جماعة من القراء الذين صاروا خوارج ياعلي أجب الى كتاب الله والا دفعناك برمتك الى القوم أو فعلنا بك مافعلنا بابن عفان فقال علي رضي الله عنه ان تطيعوني فقاتلوا وان تعصوني فافعلوا مابدا لكم وآخر الامر انهم اتفقوا على ان يحكموا رجلين من الجانبين وما حكما به عليهم صاروا اليه فاختار أهل الشام عمرو بن العاص داهية العرب واختار أهل العراق أبا موسى الاشعري بعد مراجعات وقعت بين علي وبينهم واجتمع الحكمان عند علي لتكتب القضية بحضوره فكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فقال عمرو ابن العاص انما هو أميركم وليس هو باميرنا فقال الاحنف لا تمحوا اسم أمير المؤمنين وقال الاشعث أمحها فقال علي الله أكبر سنة بسنة والله اني لكاتب القضية يوم الحديبية فكتبت محمد رسول الله فقالت قريش لست برسول الله ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فامرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بمحوه فقلت لا أستطيع قال فارنيه فاريته اياه فمحاه بيده فقال لي انك ستدعى الى مثلها فتجيب ثم كتب الكتاب هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضى علي على أهل الكوفة ومن معهم وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم انا ننزل عند حكم الله وكتابه وأن لا يجمع بيننا غيره وان كتاب الله بيننا من فاتحته الى خاتمته نحيي ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان في كتاب الله وهما أبو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عملا به ومالم يجدا في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين العهود والمواثيق انهما آمنان على أنفسهما وأهلهما والامة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه ان يحكما بين هذه الامة ولا يرداها في حرب ولا فرقة وأجلا القضاء الى رمضان من السنة وان أحبا ان يؤخرا ذلك أخراه وان مكان قضيتهما مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام وشهد رجال من أهل العراق ورجال من أهل الشام ووضعوا خطوطهم في الصحيفة ودعي الاشتر النخعي ليشهد فقال لاصحبتني يميني ولا نفعتني بعدها شمالي ان وضع لي فيها اسم وكتب الكتاب في يوم الاربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين وعينوا موضع الحكم بدومة الجندل فوقع الاجتماع للاجل المذكور (وحاصل ما كان من ذلك) ان الحكمين اتفقا على خلع علي ومعاوية ويكون الامر شورى بين الناس حتى يختاروا من يقدمونه للامر وقدم عمرو بن العاص أبا موسى على نفسه في الكلام فتكلم أبو موسى على رؤس الناس بما اتفقا عليه من خلع علي ومعاوية حتى ينظر الناس لانفسهم فلما سكت أبو موسى قام عمرو فقال أيها الناس ان هذا قد خلع صاحبه وقد خلعته كما خلعه وأثبت معاوية فهو ولي ابن عفان وأحق الناس بمقامه فكذبه أبو موسى وتنازعا وتشاتما ومرج أمر الناس ولم يحصلوا على طائل وانسل أبو موسى الاشعري الى مكة فاقام بها ولم يرجع الى علي حياء منه ومضى عمرو بن العاص في أهل الشام فسلموا على معاوية بالخلافة ولام علي أصحابه فيما كان منهم من عصيانه أولا وانخداعهم لاهل الشام آخرا وقال فيما قال كأني واياكم كما قال أخو جشم

أمرتهم أمري بمنعرج اللوا * فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد

وقال ان هذين الحكمين اللذين اخترتموهما تركا حكم الله وحكما بهوى النفس واختلفا في حكمهما فلم يرشدهما الله فتأهبوا للجهاد واستعدوا للسير وأصبح علي رضي الله عنه غاديا يريد الشام في ثمانية وسبعين ألفا وكانت الخوارج قد خرجوا عليه واعتزلوه وقالوا احكمت الرجال في دين الله ولا حكم الا لله وبلغه ان الخوارج قد اجتمعوا بالنهروان وتعاهدوا على حرب المسلمين ثم بلغه ان خوارج البصرة لقوا عبد الله

ابن

ابن خباب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريبا من النهروان فعرفهم بنفسه فسألوه عن أبي بكر وعمر فأثنى خيرا ثم عن عثمان في أول خلافته وآخرها فقال كان محقا في الاول والآخر فسألوه عن عن علي قبل التحكيم وبعده فقال هو أعلم بالله وأشد توقيا على دينه فقالوا انك توالي الرجال على أسمائها ثم ذبحوه وبقروا بطن امرأته وقتلوا معهما ثلاث نسوة من طيئ ومن عجيب أمرهم انهم لقوا مسلما ونصرانيا فقتلوا المسلم وقالوا احفظوا ذمة نبيكم في النصراني فسار اليهم علي رضي الله عنه وأرسل اليهم ان ادفعوا الينا قتلة اخواننا منكم فنكف عنكم حتى نلقى أهل المغرب فلعل الله يردكم الى خير فارسلوا اليه كلنا قد قتلهم وكلنا يستحل دماءكم فأتاهم علي رضي الله عنه فقال أيتها العصابة التي أخرجها المراء من الحق الى الباطل وأصبحت في اللبس والخطب العظيم اني نذير لكم ان تصبحوا تلقاكم الامة غدا صرعى بأثناء هذا النهر بغير بينة منكم ولا برهان ألم تعلموا اني قد نهيتكم عن الحكومة الي وأخبرتكم ان القوم انما طلبوها خديعة فعصيتموني وحملتموني على ان حكمت ولما حكمت شرطت وأخذت على الحكمين ان يحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات فانقلبا وحكما بغير حكم الكتاب فنبذنا أمرهما ونحن على أمرنا الاول فما الذي أصابكم ومن أين أتيتم قالوا حكمنا وكنا بذلك كافرين وقد تبنا فان تبت كما تبنا فنحن قومك والا فاعتزلنا ونحن ننابذك على سواء ان الله لا يحب الخائنين فقال علي رضي الله عنه صبحكم حاصب ولا بقي منكم وافد أبعد ايماني برسول الله صلى الله عليه وسلم وجهادي في سبيل الله وهجرتي مع رسول الله أشهد على نفسي بالكفر قد ضللت اذا وما أنا من المهتدين ﴿وروي﴾ انه لما كلمهم واحتج عليهم تنادوا لا تخاطبوهم ولا تكلموهم وتهيؤا للقاء الرب الرواح الرواح الى الجنة فخرج علي رضي الله عنه فعبأ الناس ميمنة وميسرة ووقف هو في القلب في مضر وجعل على الخيل أبا أيوب الانصاري وعلى أهل المدينة وكانوا سبعمائة قيس بن سعد بن عبادة وعبأت الخوارج على نحو هذه التعبية ورفع علي رضي الله عنه مع أبي أيوب الانصاري راية الامان فنادى أبو أيوب من أتى هذه الراية ولم يقاتل ولم يستعرض فهو آمن ومن انصرف الى الكوفة أو المدائن فهو آمن ومن انصرف عن هذه الجماعة فهو آمن فاعتزل فروة بن نوفل الاشجعي في خمسمائة وقال أعتزل حتى يتضح لي الامر في قتال علي فنزل الدسكرة وخرج آخرون الى الكوفة ورجع آخرون الى علي رضي الله عنه وكانوا أربعة آلاف فبقي منهم ألف وثمانمائة فحمل عليهم علي والناس وزحفوا اليهم الى علي رضي الله عنه ينادون الرواح الرواح الى الجنة فاستقبلتهم الرماة وعطفت عليهم الخيل من المجنبتين ونهض اليهم الرجال بالسلاح فهلكوا كلهم في ساعة واحدة كأنما قيل لهم موتوا فماتوا وكان جملة من قتل من أصحاب علي رضي الله عنه سبعة نفر فطلب علي رضي الله عنه المخدج في القتلى فلم يوجد فقام رضي الله عنه وعليه أثر الحزن لفقده فانتهى الى قتلى بعضهم فوق بعض فقال افرجوا ففرجوا يمينا وشمالا فاستخرجوه فقال الله أكبر والله ما كذبت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وانه لناقص اليد ما فيها عظم طرفها مثل ثدي المرأة عليها خمس شعرات أو سبع رؤسها معقفة ثم قال ائتوني به فنظر الى منكبه فاذا اللحم مجتمع على منكبه كثدي المرأة عليه شعرات سود اذا مدت اللحمة امتدت حتى تحاذي بطن يده الاخرى ثم تترك فتعود الى منكبه فقال أصحاب علي رضي الله عنه قد قطع الله دابرهم آخر الدهر فقال علي والذي نفسي بيده انهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء لا تخرج خارجة الا خرجت بعدها مثلها حتى تخرج خارجة بين الفرات ودجلة يقال لهم الشمط فيخرج اليهم رجل منا أهل البيت فيقتلهم فلا تخرج لهم بعدها خارجة الى يوم القيامة ﴿وفي الصحيح﴾ عن سويد بن غفلة قال قال علي رضي الله عنه اذا حدثتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا فوالله لان أخر من السماء أحب الي من أن أكذب عليه واذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فان الحرب خدعة واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيخرج قوم في آخر الزمان أحداث الاسنان سفهاء

الاحلام يقولون من خير قول البرية لايجاوز ايمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فاينما القيتموهم فاقتلوهم فان فى قتلهم أجرا لمن قتلهم ثم ان عليا رضى الله عنه ندب أصحابه الى غزو الشام فتثاقلوا عليه ولما وصلوا الى الكوفة تسللوا الى بيوتهم وتركوا المعسكر خاليا ولما رأى على ذلك دخل الكوفة ثم ندبهم ثانيا فلم ينفروا ثم ثالثا فلم ينشط منهم الا القليل فخطبهم وأغلظ فى عتابهم وأعلمهم بماله عليهم من الطاعة فى الحق والنصح فتثاقلوا وسكتوا واستمر الحال الى ان استأثر به ربه وأراحه من شغبهم وقبضه اليه ونقله الى كرامته وجنته سابق مضمار الايمان والهجرة والنصرة والنجدة والصهر والقربى والقناعة والجهاد والعلم والزهد رضى الله عنه (وكان من خبر وفاته) ان ثلاثة من الخوارج ممن نجا من وقعة النهروان وهم عبد الرحمن بن ملجم المرادى وعمرو بن بكر التميمى السعدى والحجاج بن عبد الله التميمى الصريمى ويلقب بالبرك اجتمعوا بمكة فذكروا اخوانهم الذين قتلوا بالنهروان وقالوا ما نصنع بالبقاء بعدهم فلو شرينا أنفسنا وقتلنا أئمة الضلال وأرحنا منهم الناس فقال ابن ملجم وكان من مصر أنا أكفيكم عليا وقال البرك انا أكفيكم معاوية وقال عمرو بن بكر أنا أكفيكم عمرو بن العاص وتعاهدوا وأن لا يرجع أحد منهم عن صاحبه حتى يقتله أو يموت دونه وتواعدوا السبع عشرة ليلة تمضى من رمضان من هذه السنة أعنى سنة أربعين وانطلقوا فاتى ابن ملجم أصحابه بالكوفة فطوى خبره عنهم الا انه جاء الى شبيب بن شجرة الاشجعى ودعاه الى الموافقة على شأنه فقال شبيب ثكلتك أمك فكيف تقدر على قتله فقال أكمن له فى المسجد عند صلاة الغداة فان قتلناه والا فهى الشهادة قال ويحك لا أجد فى أن أشرح لقتله مع سابقته وفضله قال ألم يقتل العباد الصالحين أصحاب النهروان قال بلى قال فنقتله بمن قتله منهم فاجابه ثم اتى امرأة من تيم الرباب فائقة الجمال اسمها قطام قتل أبوها وأخوها يوم النهروان فخطبها ابن ملجم فشرطت عليه ثلاثة آلاف درهم وعبدا وقينة وأن يقتل عليا وقالت فان قتلته شفيت النفوس والا فهى الشهادة قال والله ما جئت الا لذلك ولك ما سألت وفى ذلك قيل

ثلاثة آلاف وعبد وقينة * وضرب على بالحسام المصمم
فلا مهر أغلى من على وان غلا * ولا فتك الا دون فتك ابن ملجم

ثم قالت سأبعث معك من يشد ظهرك ويساعدك وبعثت معه رجلا من قومها اسمه وردان فلما كانت الليلة التى واعد ابن ملجم أصحابه فيها وكانت ليلة الجمعة جاء الى المسجد ومعه شبيب ووردان وجلسوا قبالة السدة التى يخرج منها على للصلاة فلما خرج ونادى للصلاة علاه شبيب بالسيف فوقع فى عضادة الباب وضربه ابن ملجم على مقدم رأسه وقال الحكم لله يا على لا لك ولا لاصحابك وهرب وردان الى منزله وهرب شبيب مغلسا ونجا فى غمار الناس وقبض على ابن ملجم فجىء به مكتوفا الى على وقد حمل الى بيته فقال اى عدو الله ما حملك على هذا ثم قال ان هلكت فاقتلوه كما قتلنى وان بقيت رأيت فيه رأيى يا بنى عبد المطلب لا تخوضوا على دماء المسلمين وتقولوا قتل أمير المؤمنين لا تقتلوا الا قاتلى يا حسن ان أنا مت من ضربتى هذه فاضربه بسيفه ولا تمثلن بالرجل فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اياكم والمثلة وقال له جندب بن عبد الله أنبايع الحسن ان فقدناك فقال ما آمركم به ولا أنهاكم عنه أنتم أبصر ولما حضرته الوفاة كتب وصيته العامة ثم لم ينطق الا بلا اله الا الله حتى قبض رضى الله عنه ولما قبض أخرج عبد الرحمن بن ملجم من السجن فقطع عبد الله بن جعفر يده ثم رجله ثم لسانه وكحلت عيناه بمسمار محمى وأحرق لعنه الله وأما البرك فوثب على معاوية تلك الليلة وضربه بالسيف فوقع فى اليته وأخذ البرك فقال لمعاوية عندى بشرى أتنفعنى ان أنا أخبرتك بها قال نعم قال ان أخا لى قتل عليا هذه الليلة فقال معاوية لعله لم يقدر عليه فقال بلى ان عليا ليس معه من يحرسه فقتله معاوية وقيل قطع يده ورجله وأقام الى أيام زياد فقتله بالبصرة وأما عمرو بن بكر التميمى فانه جلس تلك الليلة لعمرو بن العاص فلم

يخرج عمرو الى الصلاة لمرض أصابه واستناب خارجة بن حذافة العدوى فى الصلاة فشد عليه عمرو بن بكر وهو يظن انه عمرو بن العاص فقتله فلما أخذوه وأدخلوه على عمرو قال فمن قتلت اذا قالوا قتلت خارجة بن حذافة فقال أردت عمرا وأراد الله خارجة فارسلها مثلا وأمر به عمرو فقتل ويرحم الله ابن عبدون اذ يقول   وليتها اذ فدت عمرا بخارجة * فدت عليا بما شاءت من البشر

(وكانت وفاة على رضى الله عنه) صبيحة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربعين كما ذكرنا وكانت مدة خلافته خمس سنين الا ثلاثة أشهر واختلف فى موضع قبره فقيل دفن مما يلى قبلة المسجد بالكوفة وقيل عند قصر الامارة بها وقيل نقله ابنه الحسن الى المدينة ودفنه بالبقيع عند زوجته فاطمة رضى الله عنها (قال أبو الفداء) والاصح وهو الذى ارتضاه ابن الاثير وغيره ان قبره هو المشهور بالنجف وهو الذى يزار اليوم   وفضائل على رضى الله عنه ومناقبه فى العدل وحسن السيرة أجل من أن يحاط بها من ذلك مشاهده المشهورة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومؤاخاته له وسبق اسلامه   وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم من كنت مولاه فعلى مولاه   وقوله عليه الصلاة والسلام يوم خيبر لأبعثن الراية غدا مع رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله   وقوله عليه الصلاة والسلام له أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى   وقال صلى الله عليه وسلم أقضاكم على   والقضاء يستدعى معرفة أبواب الفقه كلها بخلاف قوله عليه السلام أفرضكم زيد وأقرؤكم أبى ولم يضع رضى الله عنه لبنة على لبنة حتى لقى الله وكان يقسم ما فى بيت المال كل جمعة حتى لا يترك فيه شيأ   ودخل مرة بيت المال فوجد الذهب والفضة فقال يا صفراء اصفرى ويا بيضاء ابيضى وغرى غيرى لا حاجة لى فيك *وروى* ابن عبد البر فى الاستيعاب بسنده الى مجمع التيمى ان عليا رضى الله عنه قسم ما فى بيت المال بين المسلمين ثم أمر به فكنس ثم صلى فيه رجاء أن يشهد له يوم القيامة *وروى* أيضا بسنده الى عاصم بن كليب عن أبيه قال قدم على على مال من أصبهان فقسمه سبعة أسباع ووجد فيه رغيفا فقسمه سبع كسر وجعل على كل جزء كسرة ثم أقرع بينهم أيهم يعطى أولا   قال ابن عبد البر وأخباره رضى الله عنه فى مثل هذا من سيرته لا يحيط بها كتاب   ويرحم الله من قال

أحسن من عود ومن ضارب * ومن فتاة ناهد كاعب
ومن مدام فى قواريرها * يسعى بها ساق الى شارب
ومن جياد الخيل فى مهمه * وضارب يسطو على ضارب
أحسن من ذلك وهذا وذا * حب على بن أبى طالب
لو فتشوا قلبى لالفوا به * سطرين قد خطا بلا كاتب
العلم والتوحيد فى جانب * وحب آل البيت فى جانب
ان كنت فيما قلته كاذبا * فلعنة الله على الكاذب

ولما توفى على رضى الله عنه بايع الناس ابنه الحسن رضى الله عنه وأول من بايعه قيس بن سعد بن عبادة قال له ابسط يدك على كتاب الله وسنة رسوله وقتال المحلين فقال الحسن على كتاب الله وسنة رسوله ويأتيان على كل شرط ثم بعد ذلك نزل لمعاوية عن الامر فى خبر طويل نذكر منه ما فى الصحيح فعن الحسن البصرى رحمه الله قال استقبل والله الحسن بن على معاوية بكتائب أمثال الجبال فقال عمرو بن العاص انى لارى كتائب لا تولى حتى تقتل أقرانها فقال له معاوية وكان والله خير الرجلين اى عمرو ان قتل هؤلاء هؤلاء وهؤلاء هؤلاء فمن لى بأمور الناس من لى بنسائهم من لى بضيعتهم فبعث اليه رجلين من قريش من بنى عبد شمس عبد الرحمن بن سمرة وعبد الله بن عامر بن كريز فقال اذهبا الى هذا الرجل فاعرضا عليه وقولا له واطلبا اليه فأتياه فدخلا عليه فتكلما وقالا له وطلبا اليه فقال لهما الحسن بن على

رضى الله عنهما انا بنى عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال وان هذه الامّة قد عاثت فى دمائها فقال لا فانه يعرض عليك كذا وكذا و يطلب اليك و يسألك قال فمن لى بهذا قال نحن لك به فما سألهما شيأ الا قالا نحن لك به فصالحه قال الحسن البصرى رحمه الله ولقد سمعت أبا بكرة يقول رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر والحسن بن على الى جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى و يقول ان ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين وهاهنا فائدتان (الاولى) هذه الحروب التى وقعت بين الصحابة رضى الله عنهم محملها الاجتهاد كما قدّمنا والذب عن الدين وكان الناس من السذاجة فى الدين والتمسك به على ما عهد منهم فكانوا اذا رأوا ما يظنونه منكرا غيروه ولو باتلاف مهجهم الا انهم كان منهم المجتهد المصيب وهو ذو الاجرين كما فى الحديث ومنهم المجتهد المخطئ وهو ذو الاجر الواحد كما فى الحديث أيضا وكان على رضى الله عنه مصيبا فى جميع أمره من أوّله الى آخره فعلى العاقل المحتاط لدينه أن يظن بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الظن الجميل و يعمل بوصيته فيهم اذ قال عليه الصلاة والسلام الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضا بعدى فمن أحبهم فبحبى أحبهم ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم الحديث واياى واياه ان يجرح من زكاهم الله تعالى بقوله كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله وزكاهم رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم اللهم احشرنا فى زمرتهم وأمتنا على سنتهم وطريقتهم يا أكرم الاكرمين ويا أرحم الراحمين ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم (الفائدة الثانية) أطبق السلف على ان ترتيب الخلفاء الاربعة رضى الله عنهم فى الفضل على حسب ترتيبهم فى الخلافة وذهب بعض السلف الى تقديم على على عثمان وممن قال به سفيان الثورى لكن قيل انه رجع عنه وقالت الشيعة وكثير من المعتزلة الافضل بعد النبى صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب والحق هو القول الاوّل وهل التفضيل بين الخلفاء قطعى أو ظنى فالذى مال اليه الاشعرى وهو الاوّل والذى مال اليه القاضى أبو بكر الباقلانى واختاره امام الحرمين فى الارشاد هو الثانى وعبارته لم يقم عندنا دليل قاطع على تفضيل بعض الائمة على بعض اذ العقل لا يدل على ذلك والاخبار الواردة فى فضائلهم متعارضة ولكن الغالب على الظن ان أبا بكر أفضل الخلائق بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ثم عمر أفضلهم بعده وتتعارض الظنون فى عثمان وعلى * وهاهنا انتهى بنا القول فيما قصدناه من التبرك بذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر خلفائه الاربعة رضى الله عنهم ولنرجع الى ما نحن بصدده من ذكر أخبار المغرب الاقصى مقدمين القول أوّلا فى بيان نسب البربر و بيان حالهم قبل الاسلام و بعده على الجملة لنتخلص بعده للمقصود والله تعالى يعصمنا من الزلل بمنه وكرمه

* القول فى نسب البربر و بيان أصلهم *

اعلم ان الناس اختلفوا فى تحقيق نسب البربر والى أى أصل من أصول الخليقة يرجعون فذكر صاحب كتاب الجمان فى أخبار الزمان ونقله عن أهل العلم بالسير ان بنى حام تنازعوا مع بنى سام فانهزم بنو حام أمامهم الى المغرب وتناسلوا به واتصلت شعوبهم من أرض مصر الى آخر المغرب الى تخوم السودان وكان بسواحل المغرب الافارقة والافرنج فكانت ذرية حام فى المداشر والخيام والاعاجم الاول فى البلدان وبقى أكثر أولاد حام فى بلاد فلسطين من أرض الشام الى زمن داود عليه الصلاة والسلام وكان ملكهم يسمى جالوت فلما قتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء أمر باجلائهم من بلاد كنعان وفلسطين الى أرض المغرب فساروا نحو افريقية والزاب وانتشروا هنالك حتى ضاقت بهم تلك البلاد وامتلأت منهم الجبال والكهوف والرمال وصاروا يتبعون مواقع القطر بالابل و بيوت الشعر ولم تقدر الفرنج على ردهم ودفاعهم فانحازت الاعاجم للمدن و بقى البربر فيما عدى المدن وهم مع ذلك على أديان

مختلفة يدين كل واحد منهم بما شاء من الاديان الفاسدة فمنهم من تمجس ومنهم من تهوّد ومنهم من تنصر واستمروا على ذلك الى زمان الاسلام وكان فيهم رؤساء وملوك وكهان ولهم حروب وملاحم عظام مع من قارعهم من الامم (وقال الطبري وغيره) ان البربر أخلاط من كنعان والعماليق وغيرهم فلما قتل داود جالوت تفرّقوا فى البلاد (وقال الكلبي) اختلف الناس فيمن أخرج البربر من الشام فقيل داود بالوحي قيل يا داود اخرج البربر من الشام فانهم جذام الارض وقيل يوشع بن نون عليه السلام وقيل افريقش الحميري واختلف فى افريقش هذا فقال المسعودي هو افريقش بن ابرهة ذى المنار أحد التبابعة المشهورين (وقال ابن حزم) هو افريقش بن قيس بن صيفي أخو الحرث الرائش منهم وهو الذى ذهب بقبائل العرب الى افريقية وبه سميت وساق البربر اليها من أرض كنعان مرّ بها عندما غلبهم يوشع ابن نون وقتلهم فاحتمل الفل منهم وساقهم الى افريقية فانزلهم بها وقتل ملكها جرجير ويقال انه الذى سمى البربر بهذا الاسم لانه لما فتح المغرب وسمع رطانتهم قال ما أكثر بربرتهم فسموا البربر والبربرة فى لغة العرب اختلاط أصوات غير مفهومة ومنه بربرة الاسد وينسبون اليه فى ذلك شعرا وهو قوله

بربرت كنعان لما سقتها * من بلاد الضنك للخصب العجيب
أى أرض سكنوها ولقد * فازت البربر بالعيش الخصيب

ولما قفل افريقش من غزو المغرب ترك هنالك حامية من قبائل حمير صنهاجة وكتامة فهما بها الى الآن وليسوا من نسب البربر قاله الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والسهيلي وجميع النسابين من العرب (وقال أبو عمر بن عبد البر فى كتاب التمهيد له) اختلف الناس فى نسب البربر اختلافا كثيرا وأنسب ما قيل فيهم انهم من ولد قبط بن حام وانه لما نزل مصر خرج بنوه يريدون المغرب فسكنوا من آخر عمالة مصر وذلك فيما وراء برقة الى البحر الاخضر مع بحر الاندلس الى منقطع الرمل متصلين بالسودان وقيل ان البربر صنفان البرانس والبتر وان البتر منهم من ولد بر بن قيس بن عيلان بن مضر واختلفوا فى توجيه ذلك فقال الطبري خرج بر بن قيس بن عيلان ينشد ضالة له باحياء البربر فرأى جارية منهم فخطبها من أبيها وتزوجها فولدت له (وقال فى كتاب الجمان) وأما تسميتهم بالبربر فانه لما صار ملك مضر لقيس بن عيلان كان له ولد اسمه بر فخرج مغاضبا لابيه واخوته الى جهة المغرب فقال الناس برّ بر أى توحش فى البرارى فسموا بربرا ونقل ابن أبى زرع وابن خلدون عن النسابين من البربر وحكاه أيضا البكري وغيره انه كان لمضر بن نزار ولدان الياس وعيلان أمهما الرباب بنت حيدة بن عمرو بن معد بن عدنان فولد عيلان ابن مضر ولدين وهما قيس ودهمان ابنا عيلان أما دهمان فولده قليل وهم أهل بيت من قيس يقال لهم بنو امامة وأما قيس بن عيلان فولد أربعة بنين وجارية وهم سعد وعمرو وخصفة أمهم مزنة بنت أسد ابن ربيعة بن نزار ثم برّ وأخته تماضر أمهما تمريغ بنت مجدول بن عمار بن مصمود البربري الجدولي وكانت قبائل البربر اذ ذاك يسكنون الشام ويجاورون العرب فى المساكن والاسواق والمساعى ويشاركونهم فى المياه والمسارح والمراعى ويصاهر بعضهم بعضا وكانت البهاء بنت دهمان بن عيلان ابن مضر من أجمل نساء زمانها وأكملهن ظرفا وأدبا فكثر خطابها من سائر قبائل العرب فقال بنو عمها وهم عمرو وسعد وخصفة وبر لا يتزوج ابنة عمنا الا أحدنا ولا تخرج منا الى غيرنا فخيروها فيمن شاءت منهم فاختارت برا وكان أصغرهم سنا وأكملهم شبابا فتزوجها دون اخوته فحسدوه عليها وهموا بقتله من أجلها وكانت أمه تمريغ من دهاة النساء فبعثت الى أبيها دهمان وأعلمته الخبر وواطأته على الخروج بولدها الى أرض قومها من البربر حيث تأمن عليه ثم بعثت الى قومها فأتوها سرا فارتحلت معهم هى وولدها برّ وكنتها البهاء بنت دهمان فلحقوا ببلاد البربر وهم يومئذ متوطنون فلسطين واكناف الشام فنزل برّ على اخواله واعتزبهم وبنى بابنة عمه البهاء فولدت له هنالك ولدين علوان ومادغيس ابنى برّ بن قيس

ابن عيلان فاما علوان فمات صغيرا ولم يعقب وأما مادغيس فكان يلقب الابتر وهو أبو البتر من البربر واليه يرفعون أنسابهم ومن ولده جميع زناتة كما سيأتى ويزعمون ان تماضر أخت برّ بكته بعد فرقته بشعر تقول فيه

لتبك كل باكية أخاها * كما أبكى على برّ بن قيس
تحمل عن عشيرته فاضحى * ودون لقائه انضاء عنس

ومما ينسب اليها أيضا قولها

وشطت ببرّ داره عن بلادنا * وطوّح برنفسه حيث يمما
وأزرت ببرّ لكنة أعجمية * وما كان برّ فى الحجاز باعجما
كانا وبرا لم نقف بجيادنا * بنجد ولم نقسم نهابا ومغنما

وأنشد علماء البربر لعبيدة بن قيس العقيلى

ألا أيها الساعى لفرقة بيننا * توقف هداك الله سبل الاطايب
فاقسم انا والبرابر اخوة * تناوانا جد كريم المناسب
أبونا أبوهم قيس عيلان فى الذرى * له حومة تشفى غليل المحارب
وبرّ بن قيس عصبة مضرية * وفى الفرع من أحسابها والذوائب
فنحن وهم ركن منيع واخوة * على رغم أعداء لئام المناقب

فى أبيات غير هذه وينشد أيضا ليزيد بن خالد يمدح البربر قوله

أيها السائل عنا أصلنا * قيس عيلان بنو العزّ الاوّل
نحن ما نحن بنو برّ الندى * طارد الازمة نحار الابل
قد بنى المجد فاورى زنده * وكفانا كل خطب ذى جلل
ان قيسا يعتزى برّ له * ولبرّ يعتزى قيس الاجل
فلنا الفخر بقيس انه * جدّنا الاكبر فكالك الكبل
ان قيسا قيس عيلان هم * معدن الخير على الخير دلل
حسبى البربر قومى انهم * ملكوا الارض باطراف الاسل

فى أبيات أخر واعلم ان الخلاف فى نسب البربر طويل وقد تركناه جله اختصارا وأشبه هذه الاقوال بالصحة ما نقلناه أوّلا مما يدل على ان جيل البربر من ولد حام وانهم جيل قديم قد سكنوا المغرب عند ما تناسلت ذرية نوح عليه السلام وانتشرت الخليقة على وجه الارض ثم تلاحقت بهم بقية بنى كنعان من الشام عند ما أجلاهم يوشع بن نون عليه السلام أوّلا ثم داود عليه السلام ثانيا * قال ابن خلدون * بعد تزييف القول بان البربر من ولد جالوت بالخصوص أو من العرب ما نصه والحق الذى لا ينبغى التعويل على غيره فى شأنهم انهم من ولد كنعان بن حام بن نوح عليه السلام وان اسم أبيهم مازيغ اه ومما يستملح من النوادر المقولة فى نسب البربر قول خلف بن فرج السميسير من شعراء الاندلس يهجو البربر

رأيت آدم فى نومى فقلت له * أبا البرية ان الناس قد حكموا
ان البرابر نسل منك قال اذا * حوّاء طالق ان كان الذى زعموا

وهذا من ملح الشعراء وشيطنتهم والا فالبربر جيل معروف من أعظم الاجيال وأعزها ولهم الفخر الذى لا يجهل والذكر الذى لا يهمل وقد تعددت فيهم الدول وكثرت فيهم الملوك العظام وكان لهم القدم الراسخ فى الاسلام واليد البيضاء فى الجهاد ومنهم الائمة والعلماء والاولياء والشعراء وأهل المزايا والفضائل وستقف على كثير من ذلك عن قريب ان شاء الله

القول فى تقسيم شعوب البربر على الجملة

اعلم ان أمّة البربر أمّة عظيمة قد ملأت ما بين برقة والبحر المحيط شرقا وغربا وما بين بلاد السودان والبحر الرومي جنوبا وشمالا ومع عظمها فيجمعها شعبان عظيمان بحيث لا يخرج بربري عنهما (قال ابن خلدون) علماء النسب متفقون على ان البربر يجمعهم جذمان عظيمان وهما برنس ومادغيس ويلقب مادغيس بالابتر فلذلك يقال لشعوبه البتر ويقال لشعوب برنس البرانس وبين النسابين خلاف هل هما لاب واحد أم لا فعند ابن حزم انهما لاب واحد والجميع من نسل كنعان بن حام وقال سابق بن سليمان المطماطي وغيره من نساب البربر ان البرانس فقط من نسل كنعان * وأما البتر فهم بنو بر بن قيس بن عيلان بن مضر وهذا القول قد تقدم ما فيه فالحق ان الشعبين معا عريقان في البربرية وان الجميع من ولد مازيغ ومازيغ هو من ولد كنعان بن حام كما مر * فاما البرانس فتنقسم الى سبع قبائل اوربة وصنهاجة وكتامة ومصمودة وعجيسة وأوريغة واراداجة ويقال ورداجة بالواو بدل الهمزة وزاد سابق المطماطي وغيره ثلاث قبائل أخر وهم لمطة وهسكورة وجزولة فتكون عشرا * فاما أوربة فكان منهم كسيلة بن اغز الاوربي قاتل عقبة بن نافع رضي الله عنه زمان الفتح ومنهم اسحق بن محمد بن عبد الحميد الاوربي القائم بدعوة ادريس بن عبد الله رضي الله عنه * وأما صنهاجة فهم أكبر قبائل البربر حتى زعم كثير من الناس انهم مقدار الثلث منهم وكان منهم بنو زيري بن مناد ملوك افريقية والملثمون ملوك مراكش والاندلس (وأما كتامة) فهم القائمون بدعوة العبيديين بافريقية ومصر * وأما المصامدة فمنهم غمارة وكان منهم يليان النصراني صاحب سبتة وطنجة أيام دخول عقبة بن نافع للمغرب الاقصى وهم القائمون أيضا بدعوة بني ادريس في دولتهم الثانية بعد بني أبي العافية ومن المصامدة أيضا برغواطة أهل تامسنا وما اتصل بها ومنهم أهل جبل درن القائمون بدعوة محمد بن تومرت مهدي الموحدين وأما باقي قبائل البرانس فلم يكن لهم ملك يذكر وقد تقدم لنا ان النسابين من العرب يقولون ان صنهاجة وكتامة من حمير وان افريقش الحميري تركهم حامية بافريقية فتناسلوا بها واستحال لسانهم الى البربرية لكن المحققون من نساب البربر كسابق المطماطي وغيره ينكرون ذلك ويجزمون بانهما قبيلتان عريقتان في البربر * وأما البتر وهم بنو مادغيس الابتر فينقسم شعبهم الى أربع قبائل وهم ضريسة ونفوسة وأداسة وبنو لواي وهم لواتة فاما ضريسة فمنهم مكناسة ومن مكناسة بنو مدرار ملوك سجلماسة وبنو أبي العافية ملوك فاس ومن ضريسة أيضا زناتة كلها ومن زناتة جراوة قوم الكاهنة داهيا صاحبة جبل اوراس التي أوقعت بحسان بن النعمان عامل الخليفة عبد الملك بن مروان ومن زناتة أيضا بنو خزر المغراوي ملوك تلمسان والمغرب الاوسط ومنهم مغراوة ملوك فاس وبنو يفرن ملوك سلا وتادلا ومنهم بنو زيان ملوك تلمسان وبنو مرين ملوك فاس أيضا فهؤلاء كلهم من زناتة وزناتة هو زانا بن يحيى بن ضري بن زجيك ابن مادغيس الابتر * وأما نفوسة واداسة ولواتة فلم يكن لهم ملك يذكر واعلم ان كل قبيلة من هذه القبائل الاربع عشرة تشتمل على عمائر وبطون وأفخاذ وفصائل لا حصر لها وفيما ذكرناه كفاية وبالله التوفيق

* الخبر عن حال البربر قبل الاسلام وذكر بعض أمصار المغرب القديمة وما قيل في ذلك *

قد تقدم لنا ان البربر أمة قديمة سكنوا أرض المغرب في قديم الزمان وانهم لما عمروا بلاده وملؤا أكنافه انحازت الفرنج عنهم الى السواحل والثغور وبقي البربر فيما سوى ذلك من الضواحي والجبال والكهوف وهم مع ذلك على أديان مختلفة يدين كل واحد منهم بما شاء من الاديان الفاسدة الى آخر ما مر فهذا كان حالهم على الجملة * وقال ابن خلدون * لم تزل بلاد المغرب الى طرابلس بل والى الاسكندرية عامرة بهذا الجيل ما بين البحر الرومي وبلاد السودان منذ أزمنة لا يعرف أولها ولا ما قبلها وكان دينهم دين المجوسية شأن الاعاجم كلها بالمشرق والمغرب الا في بعض الاحايين يدينون بدين من غلب عليهم من الامم فان الامم أهل الدول العظيمة كانوا يتغلبون عليهم فقد غزتهم ملوك اليمن من قرارهم مرارا على ما ذكر

مؤرخوهم فاستكانوا لغلبهم ودانوا بدينهم (ذكر ابن الكلبي) ان حميرا أبا القبائل اليمانية ملك المغرب مائة سنة وانه الذي ابتنى مدائنه مثل افريقية وصقلية واتفق المؤرخون من العرب على غزو افريقش الحميري من التبابعة أرض المغرب اهـ وما نقله عن ابن الكلبي من غزو حمير أرض المغرب قد نقل أيضا انكاره عن الحافظين أبي عمر بن عبد البر وأبي محمد بن حزم وانهما قالا ما كان لحمير طريق الى بلاد البربر الا في تكاذيب مؤرخي اليمن ثم ذكر ان البعض من البربر كانوا قد دانوا بدين اليهودية وأخذوه عن بني اسرائيل عند استفحال ملكهم لقرب الشام وسلطانه منهم كما كان جراوة أهل جبل اوراس قبيلة الكاهنة وكما كانت نفوسة من برابرة أفريقية وفندلاوة ومديونة وبهلولة وغياثة وبنو فازاز من برابرة المغرب الاقصى حتى محا ادريس الاكبر جميع ما كان في نواحيه من بقايا الاديان والملل وقال غير واحد من المؤرخين كان أهل المغرب الاقصى يضرون بأهل الاندلس لاتصال الارض بينهم ويلقون منهم الجهد الجهيد في كل وقت الى ان اجتاز بهم الاسكندر فشكوا حالهم اليه فأحضر المهندسين وأتى الى الزقاق يعني زقاق سبتة فأمرهم بوزن سطح الماء من البحر المحيط والبحر الرومي فوجدوا المحيط يعلو الرومي بشيء يسير فأمر برفع البلاد التي على ساحل البحر الرومي ونقلها من الحضيض الى الاعلى ثم أمر بحفر ما بين طنجة وبلاد الاندلس من الارض فحفرت حتى ظهرت الجبال السفلية وبنى عليها رصيفا بالحجر والجيار بناء محكما وجعل طوله اثني عشر ميلا وهي المسافة التي كانت بين البحرين وبنى رصيفا آخر يقابله من ناحية طنجة وجعل بين الرصيفين سعة ستة أميال فلما كمل الرصيفان حفر من جهة البحر الاعظم وأطلق فم الماء بين الرصيفين فدخل في البحر الرومي ثم ارتفع الماء فاغرق مدنا كثيرة وأهلك أمما عظيمة كانت على الشطين وطمى الماء على الرصيفين باحدى عشرة قامة فأما الرصيف الذي يلي بلاد الاندلس فانه يظهر في بعض الاوقات اذا نقص الماء ظهورا بينا مستقيما على خط واحد وأهل الجزيرة يسمونه القنطرة وأما الرصيف الذي من جهة العدوة فان الماء حمله في صدره واحتفر ما خلفه من الارض بنحو اثني عشر ميلا وعلى طرفه من جهة المغرب قصر المجاز وسبتة وطنجة وعلى طرفه من الناحية الاخرى جبل طارق بن زياد وجزيرة طريف بن مالك والجزيرة الخضراء وما بين سبتة والخضراء هو عرض البحر المسمى بالزقاق وبالبوغاز أيضا اهـ وما ذكروه من ان أرض المغرب كانت متصلة بأرض الاندلس نحوه في تواريخ الفرنج القديمة غير انهم يسمون الملك الذي فتح البوغاز هرقول الجبار وعند ابن سعيد انه كان فيما بين قصر المجاز وطريف قنطرة عظيمة قد وصلت ما بين البرين يزعم الناس ان الاسكندر بناها ليعبر عليها من بر الاندلس الى بر العدوة والله تعالى أعلم بحقيقة الامر (وفي تواريخ الفرنج المقطوع بصحتها عندهم) ان ملوك الروم الاولى حاربوا القرطاجنيين من أهل أفريقية والمغرب وغلبوهم على البلاد وهدموا في بعض تلك الحروب مدينة قرطاجنة الشهيرة الذكر (قال الشيخ رفاعة في بداية القدماء ما نصه) قرطاجنة مدينة بأرض افريقية وهي احدى مدن الدنيا الشهيرة وقد هدمها الروم قبل ميلاد المسيح عليه السلام بمائة وست وأربعين سنة ثم أسست ثانية وخربها العرب حتى انه لا يرى الآن شيء من آثارها الا بغاية الجهد وبقرب موضعها مدينة تونس اهـ (وقال ابن خلدون) في كتاب طبيعة العمران حين تكلم على قيادة الاساطيل ما نصه وقد كانت الروم والافرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطيله ولما أسف من أسف منهم الى ملك العدوة الجنوبية مثل الروم الى أفريقية والقوط الى المغرب أجازوا اليها في الاساطيل وملكوها وتغلبوا على البربر بها وانتزعوا من أيديهم أمرها وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسبيطلة وجلولاء ومرناق وشرشال وطنجة وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة ويبعث الاساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد فكانت هذه عادة لاهل هذا البحر الساكنين

حفافيه معروفة في القديم والحديث انتهى ﴿قلت﴾ الفرنج اليوم جازمون بان ملوك الروم الاولى كانوا مستولين على أرض المغرب باسرها قد ملكوها مدة طويلة من الزمان قبل ميلاد المسيح عليه السلام بكثير وان الامصار القديمة بالمغرب مثل سبتة وطنجة وسلا وشالة ووليلي ونحوها هي من بنائهم أو بناء القرطاجنيين قبلهم ولقد قال لي بعض أهل الخبرة منهم ان مدينة سلا كانت موجودة في ذلك العصر وانه رآها مذكورة بهذا الاسم في تواريخ الروم القديمة المذكورة فيها أخبار المغرب وأمصاره وحققت عليه ذلك فجزم به ولم يرجع وما يقال من ان سبتة وسلا من بناء بعض أولاد نوح عليه السلام فقول بعيد عن الصحة نعم قد ذكر في التوراة عند الكلام على ذرية نوح وتناسلهم بالارض انه كان منهم سبتة بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام ويبعد أن تكون المدينة من بناء هذا الرجل أو بناء بعض بنيه لبعد العهد وطول المدة وعدم نقل ذلك من وجه صحيح وان كانت أرض المغرب هي لاولاد حام من قديم الزمان والله أعلم * ولما أخذ الروم بدين النصرانية في زمن قسطنطين الملك وكانت لهم اليد العالية على من جاورهم من الامم مثل الحبشة والقبط والفرنج والقوط وغيرهم حملوهم على الاخذ به فدانوا به معهم وتلقنوه عنهم وبثوه في بلادهم ورعاياهم وكان الفرنج مجاورين للبربر في المغرب الادنى والقوط مجاورين لهم في الاقصى ليس بينهم وبينهم الا خليج البحر فحملوا أهل السواحل منهم على الاخذ بذلك الدين فدانوا به أيضا ونظر القياصرة يومئذ منسحب على الجميع وأمرهم نافذ في الكل واستمر الحال على ذلك حتى جاء الله بالاسلام وأظهره على الدين كله فدانت به البربر على ما نذكره ان شاء الله فلهذا السبب كان كسيلة الاوربي ويليان الغماري وغيرهما من كبار البربر نصارى ﴿وقال ابن خلدون﴾ كان البربر في الضواحي وراء ملك الامصار المرهوبة الحامية ما شاء الله من قوة وعدة وعدد وملوك ورؤساء وأقيال وأمراء لا يرامون بذل ولا تنالهم الروم والفرنج في ضواحيهم تلك بسخطة ولا اساءة ثم قال وكانوا يؤدون الجباية لهرقل ملك القسطنطينية كما كان المقوقس صاحب مصر والاسكندرية وبرقة يؤدي الجباية له وكما كان صاحب طرابلس ولبدة وصبرة وصاحب صقلية وصاحب الاندلس من القوط لما كان الروم قد غلبوا على هؤلاء الامم أجمع وعنهم أخذوا دين النصرانية وكان الفرنجة هم الذين ولوا أمر أفريقية ولم تكن للروم فيها ولاية وانما كان كل من كان منهم بها جندا للفرنج ومن حشودهم وما يسمع في كتب الفتح من ذكر الروم في فتح أفريقية فمن باب التغليب لان العرب يومئذ لم يكونوا يعرفون الفرنج وما قاتلوا في الشام الا الروم فظنوا انهم هم الغالبون على أمم النصرانية فان هرقل هو ملك النصرانية كلها فغلبوا اسم الروم على جميع أمم النصرانية ونقلت الاخبار عن العرب كما هي فجرجير المقتول عند الفتح من الفرنج وليس من الروم وكذا الامة الذين كانوا بأفريقية غالبين على البربر ونازلين بمدنها وحصونها انما كانوا من الفرنجة اهـ

﴿القول في تحديد المغرب وذكر حال البربر بعد الاسلام﴾

اعلم ان لفظ المغرب يطلق في عرف أهله على ناحية من الارض معروفة بعينها حدها من جهة مغرب الشمس البحر المحيط المعروف بالكبير ومن جهة مشرق الشمس بلاد برقة وما خلفها الى الاسكندرية ومصر فبرقة خارجة عن بلاد المغرب بهذا الاعتبار وبلاد طرابلس وما دونها الى جهة البحر المحيط داخلة فيه وحدها من جهة الشمال البحر الرومي المتفرع عن المحيط ويعرف هذا الرومي بالصغير ومن جهة الجنوب جبال الرمل الفاصلة بين بلاد السودان وبلاد البربر وتعرف عند العرب الرحالة هنالك بالعرق ﴿ثم هذا المغرب﴾ يشتمل على ثلاث ممالك مملكة أفريقية وهي المغرب الادنى وقاعدتها في صدر الاسلام مدينة القيروان وفي هذا العصر مدينة تونس وسمي أدنى لانه أقرب الى بلاد العرب ودار الخلافة بالحجاز ﴿ثم بعد أفريقية﴾ مملكة المغرب الاوسط وقاعدتها تلمسان وجزائر بني مزغنة وهذه المملكة اليوم في يد

فرنج افرانسة ملكوها فى سنة ست وأربعين ومائتين وألف وأهلها مسلمون ﴿ثم بعد ذلك﴾ مملكة المغرب الاقصى وسمى أقصى لانه أبعد الممالك الثلاث عن دار الخلافة فى صدر الاسلام وحد هذا الاقصى من جهة المغرب البحر المحيط ومن جهة المشرق وادى ملوية مع جبال تازا ومن جهة الشمال البحر الرومى ومن جهة الجنوب جبل درن قاله ابن خلدون * وفى تقاسيم الفرنج ان المغرب الاقصى يشتمل على خمس عمالات عمالة فاس وعمالة مراكش وعمالة السوس وعمالة درعة وعمالة تافيلالت ودار الملك به تارة فاس وتارة مراكش وهو فى الاغلب ديار المصامدة من البربر ويساكنهم فيه عوالم من صنهاجة ومضغرة وأوربة وغيرهم لكنهم قليل بالنسبة الى المصامدة ويساكنهم فيه أيضا عالم من العرب أهل الخيام انتقلوا من جزيرة العرب الى أفريقية ثم من أفريقية اليه أواخر المائة السادسة أيام الخليفة يعقوب المنصور الموحدى وهم اليوم قبائل عديدة يرجعون فى نسبهم الى رياح وجشم فأما رياح فهم من بنى هلال بن عامر بن صعصعة وأما جشم فهم بنو جشم بن معاوية بن بكر وكلهم ينتهى نسبهم الى مضر ويضاف اليهم قبائل أخر تحقق الكلام فيهم بعد هذا ان شاء الله ﴿ثم قد علمت﴾ ان كلامنا بالقصد الاول فى هذا الكتاب انما هو على المغرب الاقصى لكنا نتكلم أولا على أخبار المغرب مطلقا ونذكر أمراءه الموجهين من قبل الخلفاء بالمشرق على التفصيل مادام نظرهم منسحبا عليه وظلهم ممتد اليه اذ كان أمر الخلافة فى صدر الاسلام متحدا وحكمها مجتمعا وكلمتها نافذة فى جميع ممالك الاسلام شرقا وغربا بحيث لا يخرج قطر من الاقطار ولا مصر من الامصار فيما بعد أودنا من الارض عن نظر الخليفة الاعظم وقد كان ذلك دينا متبعا وحكما مجتمعا عليه ولا تصح لاحد امارة أو ولاية الا بالاستناد اليه حتى اذا طال العهد وضعف أمر الخلافة وتقلص ظلها عن القاصية تفرقت ممالك الاسلام البعيدة عن دارها وتوزعها الثوار من بنى هاشم وغيرهم واستبد الامراء النازحون عنها كل بما غلب عليه وصار أمر الوحدة الى الكثرة وحكم الاجتماع الى الفرقة فلهذا نتكلم الآن على أخبار المغرب مطلقا ونذكر ولاته الموجهين اليه من قبل الخلفاء واحدا بعد واحد الى زمن ادريس بن عبد الله المستبد بملك المغرب الاقصى والمقتطع له عما عداه من الممالك الاسلامية فحينئذ نفرد الكلام عليه بخصوصه على ما شرطناه فاما الآن فلا يمكننا الكلام عليه وحده لانه والحالة هذه مندرج فى غيره من ممالك المغرب اذ الوالى الموجه من قبل الخليفة فى صدر الاسلام كان يكون واليا على أفريقية وما بعدها من بلاد المغرب الى البحر المحيط وقد تضاف الى نظره الاندلس بل كان الوالى بمصر قد يكون نظره شاملا لجميع بلاد المغرب حسبما تقف عليه فاعرف هذه الجملة ولتكن منك على بال وأما حال البربر بعد الاسلام فيعرف من أخبار الولاة التى نسردها الآن وبالله التوفيق

﴿ولاية عمرو بن العاص رضى الله عنه وفتحه برقة وطرابلس﴾

لما كانت خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفتح عمرو بن العاصى مصر والاسكندرية وفرغ منهما سار فى سنة احدى وعشرين من الهجرة الى برقة وكانت تسمى فى القديم انطابلس فصالحه أهلها على الجزية ثم سار بعدها الى طرابلس فحاصرها شهرا وكانت مكشوفة السور من جانب البحر وسفن الروم فى مرساها فحسر الماء فى بعض الايام وانكشف أمرها لبعض المسلمين المحاصرين لها فاقتحموا البلد فيما بين البحر والبيوت فلم يكن للروم ملجأ الا سفنهم وارتفع الصياح فأقبل عمرو بعساكره فدخل المدينة ولم يفلت الروم الا بما خف فى المراكب ثم عطف عمرو رضى الله عنه على مدينة صبرة وكانوا قد أمنوا بمنعة طرابلس واشتغال المسلمين بحصارها فصبحهم فى جيش المسلمين واقتحمها عليهم عنوة وكمل الفتح ورجع عمرو الى برقة فصالحه أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار جزية وكان أكثر أهل برقة لواتة وهم بنو لوى الاكبر وأكثر أهل طرابلس وصبرة نفوسة وكلتا القبيلتين من البتر

ولما فرغ عمرو رضي الله عنه من أمر طرابلس وما معها استأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في التقدم الى أفريقية فنعه وقال تلك المفرقة وليست بافريقية أو كلاما هذا معناه فامتثل وعاد الى مصر فكان عمرو بن العاصي أول أمير للمسلمين وطئت خيله أرض المغرب لكنه لم يصل الى أفريقية ولا كان من البربر اسلام غير ان صاحب كتاب الجمان نقل انه لما كانت خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه واستفتحت مدينة مصر وكان عليها عمرو بن العاصي قدم عليه ستة نفر من البربر محلقة الرؤس واللحى فقال لهم عمرو وما أنتم وما الذي جاء بكم قالوا رغبنا في الاسلام فجئناه لان جدودنا قد أوصونا بذلك فوجههم عمرو الى عمر رضي الله عنهما وكتب اليه بخبرهم فلما قدموا عليه وهم لا يعرفون لسان العرب كلمهم الترجمان على لسان عمر فقال لهم من أنتم قالوا ونحن بنو مازيغ فقال عمر لجلسائه هل سمعتم قط بهؤلاء فقال شيخ من قريش يا أمير المؤمنين هؤلاء البربر من ذرية برّ بن قيس بن عيلان خرج مغاضبا لابيه واخوته فقالوا بر برّ أي أخذ البرية فقال لهم عمر رضي الله عنه ما علامتكم في بلادكم قالوا نكرم الخيل ونهين النساء فقال لهم عمر ألكم مدائن قالوا لا قال ألكم أعلام تهتدون بها قالوا لا قال عمرو والله لقد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض مغازيه فنظرت الى قلة الجيش وبكيت فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عمر لا تحزن فان الله سيعز هذا الدين بقوم من المغرب ليس لهم مدائن ولا حصون ولا أسواق ولا علامات يهتدون بها في الطرق ثم قال عمر فالحمد لله الذي من علي برؤيتهم ثم أكرمهم ووصلهم وقدمهم على من سواهم من الجيوش القادمة عليه وكتب الى عمرو بن العاصي أن يجعلهم على مقدمة المسلمين وكانوا من أنحاذشتي اه والله أعلم

﴿ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح وفتحه أفريقية﴾

لما كانت خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه عزل عمرو بن العاصي عن مصر وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري أخاه من الرضاعة وأمره بغزو أفريقية سنة ست وعشرين من الهجرة وقال له ان فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم فأمر ابن أبي سرح عقبة بن نافع بن عبد قيس على جند وعبد الله بن نافع بن الحرث على آخر وسرّحهما فخرجوا الى أفريقية في عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة أهلها ثم ان عبد الله بن أبي سرح استأذن عثمان في ذلك واستمده فاستشار عثمان الصحابة فأشاروا به فجهز العساكر من المدينة وفيهم جماعة من الصحابة منهم ابن عباس وابن عمر وابن عمرو بن العاصي وابن جعفر والحسن والحسين وابن الزبير وقيل لحقهم مددا وساروا مع عبد الله بن سعد سنة ست وعشرين ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة ثم ساروا الى طرابلس فنهبوا الروم عندها ثم تجاوزوها الى أفريقية وبثوا السرايا في كل ناحية وكان ملكهم جرجير الفرنجي يملك ما بين طرابلس وطنجة تحت ولاية هرقل ويحمل اليه الخراج فلما بلغه الخبر جمع مائة وعشرين ألفا من العساكر ولقيهم على يوم وليلة من سبيطلة دار ملكهم وأقاموا يقتتلون ودعوه الى الاسلام أو الجزية فاستكبر ولحقهم عبد الله بن الزبير مددا بعثه عثمان رضي الله عنه لما أبطأت عليه أخبارهم وسمع جرجير بوصول المدد ففت ذلك في عضده وشهد ابن الزبير معهم القتال وقد غاب ابن أبي سرح فسأل عنه فقيل له انه سمع منادي جرجير يقول من قتل ابن أبي سرح فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي فخاف وتأخر عن شهود القتال فقال له ابن الزبير تنادي أنت بان من قتل جرجير نفلته مائة ألف وزوّجته ابنته واستعملته على بلاده فخاف جرجير أشدّ منه ثم أشار ابن الزبير على ابن أبي سرح أن يترك جماعة من أبطال المسلمين المشاهير متأهبين للحرب ويقاتل الروم بباقي العسكر الى أن يضجروا فيركبهم بالآخرين على غرة لعل الله ينصرنا عليهم ووافق على ذلك أعيان الصحابة ففعلوا وركبوا من الغد الى الزوال وألحوا عليهم حتى أتعبوهم ثم افترقوا وأركب عبد الله الفريق الذي كانوا مستريحين

فكبروا وحملوا حملة رجل واحد حتى غشوا الروم فى خيامهم فانهزموا وقتل كثير منهم وقتل ابن الزبير جرجير وحيزت ابنته سبية فنفلها ابن أبى سرح ابن الزبير ثم حاصر ابن أبى سرح سبيطلة ففتحها وخربها وكان سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألفا وبث جيوشه فى البلاد الى قفصة فسبوا وغنموا وبعث عسكرا الى حصن الاجم وقد اجتمع به أهل البلاد فحاصره وفتحه على الامان ثم صالحه أهل أفريقية على ألفى ألف وخمسمائة ألف دينار وأرسل ابن الزبير بخبر الفتح وبالخمس الى المدينة فاشتراه مروان بن الحكم بخمسمائة ألف دينار وبعض الناس يقول أعطاه اياه عثمان رضى الله عنه ولا يصح وانما أعطى ابن أبى سرح خمس الخمس من الغزوة الاولى وانحاز الفرنجة ومن معهم من الروم بعد الهزيمة والفتح الى حصون أفريقية وانساح المسلمون فى البسائط بالغارات ووقع بينهم وبين أهل الضواحى من البربر زحوف وقتل وسبى حتى لقد أسروا يومئذ من ملوك البربر صولات بن وزمار الزناتى ثم المغراوى جد بنى خزر ملوك تلمسان فرفعوه الى عثمان رضى الله عنه فاسلم على يده فمن عليه وأطلقه وعقد له على قومه ويقال انما وصله وافدا فأكرم وفادته والله أعلم ثم رغب الفرنج والبربر فى السلم وسألوا الصلح وشرطوا لابن أبى سرح ثلاثمائة قنطار من الذهب على أن يرحل عنهم بالعرب ويخرج من بلادهم ففعل ورجع المسلمون الى المشرق بعد مقامهم بافريقية سنة وثلاثة أشهر ولما بلغ هرقل ملك الروم ان أهل أفريقية صالحوا المسلمين بذلك المال الذى أعطوه غضب عليهم وبعث بطريقا يأخذ منهم مثل ذلك فنزل قرطاجنة وأخبرهم بما جاء له فأبوا وقالوا قد كان ينبغى له أن يساعدنا فيما نزل بنا فقاتلهم البطريق وهزمهم وطرد الملك الذى ولوه عليهم بعد جرجير فلحق بالشام وقد اجتمع الناس على معاوية ابن أبى سفيان رضى الله عنه فاستجاشه على أفريقية فبعث معه معاوية بن حديج السكونى على ما نذكره

﴿ولاية معاوية بن حديج على المغرب﴾

هو معاوية بن حديج بالحاء المهملة مصغرا الكندى ثم السكونى له صحبة وممن شهد مع عمرو بن العاصى فتح مصر وقدم بخبر الفتح على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولما قدم علج أفريقية على معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه وشكا اليه ما ناله من صاحب قيصر بعث معه معاوية بن حديج هذا فى عسكر ضخم سنة خمس وأربعين فلما وصل الى الاسكندرية هلك العلج ومضى معاوية فقدم أفريقية فى عشرة آلاف فنزل قونية فسرح اليه البطريق ثلاثين ألف مقاتل كان قيصر قد وجهها من القسطنطينية فى البحر لمدافعة العرب عن أفريقية فلم تغن شيأ وقاتلهم معاوية فهزمهم عند حصن الاجم ثم بث السرايا ودوخ البلاد فبعث عبد الله بن الزبير الى سوسة فافتتحها ثم بعث عبد الملك بن مروان الى جلولاء فافتتحها كذلك ﴿وقال ابن خلدون﴾ ان معاوية حاصر حصن جلولاء فامتنع عليه حتى سقط ذات يوم سوره فملكه المسلمون وغنموا ما فيه ثم وجه جيشا فى البحر الى صقلية فى مائتى مركب فأثخنوا فيها ثم فتح بنزرت وظهر الاسلام فى البربر ثم عاد الى مصر بعد ان خلد آثارا حسنة وبنى بمحل القيروان آبارا ثم عزله معاوية ابن أبى سفيان عن أفريقية وأقره على مصر فقط ثم عزله عنها فى خبر ليس ذكره من غرضنا

﴿ولاية عقبة بن نافع الفهرى على المغرب وبناؤه مدينة القيروان﴾

هو عقبة بن نافع بن عبد القيس القرشى الفهرى صحابى بالمولد وهو آخر من ولى المغرب من الصحابة وكان عمرو بن العاصى وهو أمير على مصر قد استعمل عقبة هذا وهو ابن خالته على أفريقية فانتهى الى لواتة ومزاتة فاطاعوا ثم كفروا فغزاهم وقتل وسبى ثم افتتح سنة اثنتين وأربعين غدامس من تخوم السودان وفى السنة بعدها افتتح ودان وكورا من كور السودان وأثخن فى تلك النواحى وكان له فيها جهاد وفتوح فظهر غناؤه وعرفت نجدته وكفايته فلما كانت سنة خمسين ولاه معاوية رضى الله عنه على افريقية استقلالا وبعث معه عشرة آلاف فارس فدخل عقبة افريقية بعد رجوع معاوية بن حديج عنها

وانضاف اليه مسلمة البربر فكثر جمعه ووضع السيف فى أهلها لانهم كانوا اذا جاءت عساكر المسلمين أسلموا فاذا رجعوا عنها ارتدوا ثم رأى عقبة رحمه الله أن يتخذ مدينة يعتصم بها جيش المسلمين من البربر وتقام بها الجمع والاعياد فاستشار من معه فقالوا نحن أصحاب ابل ولا حاجة لنا بمجاورة البحر فتسطو علينا الفرنج فانظر لنا بنظر الله ﴿وقال صاحب الجمان﴾ وكانت بقعة القيروان غيضة لا يأوى اليها الا الوحوش والسباع فصاح بها عقبة أن اخرجى أيتها الوحوش والهوام باذن الله عز وجل فبقيت أرض القيروان أربعين سنة لا يرى فيها شئ من الهوام المؤذية ولا السباع العادية ثم شرع فى بنائها وقال هذه أوسع لابلكم وآمن عليكم من روم القسطنطينية وافرنج الجزيرة ﴿وعن الليث بن سعد﴾ أن عقبة رحمه الله غزا افريقية فأتى وادى القيروان فبات عليه هو وأصحابه حتى اذا أصبح وقف على رأس الوادى فقال يا أهل الوادى اظعنوا فانا نازلون قال ذلك ثلاثا فجعلت الحيات تنساب والعقارب وغيرها مما لا يعرف من الدواب تخرج ذاهبة وهم قيام ينظرون اليها من حين أصبحوا حتى أوجعتهم الشمس وحتى لم يروا منها شيأ فنزلوا الوادى عند ذلك ﴿قال الليث﴾ فحدثنى زياد بن عجلان ان أهل افريقية أقاموا بعد ذلك أربعين سنة ولو التمست حية أو عقرب بالف دينار ما وجدت اهـ ﴿وفى الجمان﴾ لما شرع عقبة رحمه الله فى بناء جامعها تنازعوا فى القبلة فأتى عقبة آت فى النوم فوضع له علامة على سمت القبلة فلما انتبه أعلم الناس بذلك فأتوا الى الموضع فوجدوا العلامة كما قال فوقف عقبة ينظر الى القبلة فسمع تكبيرة فى الجو من ناحية القبلة فنظر فرأى الكعبة عيانا ورآها كل من كان حوله ﴿وقال ابن خلدون﴾ اختط عقبة رضى الله عنه القيروان وبنى بها المسجد الجامع وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم وكان دورها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع وكملت فى خمس سنين وكان يغزو ويبعث السرايا للاغارة والنهب ودخل أكثر البربر فى الاسلام واتسعت خطة المسلمين ورسخ الدين اهـ ﴿وقال صاحب الخلاصة النقية﴾ اختط عقبة ابن نافع القيروان سنة خمسين وجعل دور سورها اثنى عشر ميلا وبنى بها الجامع الاعظم وقاتل البربر وشردهم ثم عزله معاوية عنها والله أعلم

﴿ولاية أبى المهاجر دينار وفتحه المغرب الاوسط﴾

كان معاوية رضى الله عنه قد ولى على مصر وافريقية مسلمة بن مخلد بن زيد بن محمد الانصارى فاستعمل مسلمة على افريقية مولاه أبا المهاجر المذكور ويقال مولى بنى مخزوم فقدمها سنة خمس وخمسين وأساء عزل عقبة واستخف به لشئ كان بينهما وكره نزول القيروان فبنى مدينة قربها وأخلى قيروان عقبة فدعا عقبة الله تعالى أن يمكنه منه وكان رجلا صالحا مجاب الدعوة فاستجيب له فيه على ما نذكره ثم ان أبا المهاجر بعث حنش بن عبد الله الصنعانى صنعاء الشام الى جزيرة شريك وهى المعروفة الآن بالجزيرة القبلية واليها يسلك من باب الجزيرة أحد أبواب تونس فافتتحها وكان كسيلة بن لمزم البرنسى ثم الاوربى من أهل المغرب الاقصى من عظماء البربر وكان نصرانيا قد جمع الجموع من البربر والفرنج وزحف الى المسلمين فزحف اليهم أبو المهاجر فهزمهم حول تلمسان وتمكن من البلاد وظفر بكسيلة فاظهر الاسلام فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه ﴿وقال ابن خلدون﴾ لم أقف لتلمسان على خبر أقدم من خبر ابن الرقيق من ان أبا المهاجر لما قدم افريقية توغل فى ديار المغرب ووصل الى تلمسان وبه سميت العيون القريبة منها عيون أبى المهاجر اهـ فهو أول أمير للمسلمين وطئت خيله المغرب الاوسط * ثم ان عقبة بن نافع لما قفل الى المشرق شكا الى معاوية رضى الله عنه ما ناله من أبى المهاجر فاعتذر اليه ووعده برده الى عمله ثم ولاه ابنه يزيد على المغرب سنة اثنتين وستين ﴿وذكر الواقدى﴾ ان عقبة ولى المغرب سنة ست وأربعين فاختط القيروان ثم عزله يزيد سنة اثنتين وستين بابى المهاجر فحينئذ قبض على عقبة وضيق عليه فكتب اليه يزيد يأمره ببعثه فبعثه اليه ثم أعاده واليا على افريقية والله أعلم

﴿ولاية عقبة بن نافع الثانية وفتحه المغرب الاقصى ومقتله﴾

لما توفى معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه وولى بعده ابنه يزيد بعث عقبة بن نافع واليا على المغرب فقدمه في التاريخ المتقدم واعتقل أبا المهاجر وخرب مدينته وعمر القيروان وعزم على الجهاد فاستخلف زهير بن قيس البلوى على القيروان ويقال ولاه على مقدمة جيشه وخرج في جيش كثيف ففتح حصن لميس ومدينة باغاية المطل عليها جبل أوراس وفتح بلاد الجريد فتحا ثانيا وصالح أهل فزان وسار الى الزاب وتاهرت فشتت جموع البربر ومن انضم اليهم من الفرنج ثم تقدم الى المغرب الاقصى فأثخن في أهله الى ان وصل الى البحر المحيط فكان عقبة رحمه الله أول أمير للمسلمين وطئت خيله المغرب الاقصى ﴿وقال ابن خلدون﴾ قدم عقبة بن نافع المغرب في ولايته الثانية سنة اثنتين وستين فاضطغن على كسيلة صحبته لابي المهاجر ونكبه وتقدم أبو المهاجر الى عقبة في اصطناعه فلم يقبل ثم زحف الى المغرب وعلى مقدمته زهير بن قيس البلوى فدوخه واتقى ملوك البربر ومن انضم اليهم من الفرنجة بالزاب وتاهرت فهزمهم واستباحهم وأذعن له يليان أمير غمارة ولاطفه وهاداه ودله على عورات البربر وراءه بمدينة وليلى وبلاد المصامدة والسوس ﴿وقال صاحب الجمان﴾ افتتح عقبة المغرب ونزل على طنجة فحاصرها واستنزل ملكها يليان الغماري وكان نصرانيا فنزل على حكمه بعد ان أعطاه أموالا جليلة ثم أراد عقبة اللحاق بالجزيرة الخضراء من عدوة الاندلس فقال له يليان أتترك كفار البربر خلفك وترمى بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج ويقطع البحر بينك وبين المدد فقال عقبة وأين كفار البربر قال ببلاد السوس وهم أهل نجدة وبأس قال عقبة وما دينهم قال ليس لهم دين ولا يعرفون ان الله حق وانما هم كالبهائم وكانوا على دين المجوسية يومئذ فتوجه عقبة نحوهم فنزل على مدينة وليلى بازاء جبل زرهون وهي يومئذ من أكبر مدن المغرب فيما بين النهرين العظيمين سبو وورغة وهذه المدينة هي المسماة اليوم في لسان العامة بقصر فرعون فافتتحها عقبة وغنم وسبى ثم توجه الى بلاد درعة والسوس فلقيته جموع البربر فاقتتلوا قتالا شديدا ثم انهزمت البربر بعد حروب صعبة وقتلهم المسلمون قتلا ذريعا واتبعوا آثارهم الى صحراء لمتونة لا يلقاهم أحد الا هزموه ثم عطف عقبة على ساحل البحر المحيط الغربي فانتهى الى بلاد آسفى وأدخل قوائم فرسه في البحر ووقف ساعة ثم قال لاصحابه ارفعوا أيديكم ففعلوا وقال اللهم انى لم أخرج بطرا ولا أشرا وانك لتعلم انما أطلب السبب الذى طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تعبد ولا يشرك بك شئ اللهم انا معاندون لدين الكفر ومدافعون عن دين الاسلام فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والاكرام ثم انصرف راجعا ﴿وقال ابن خلدون أيضا﴾ وصل عقبة الى جبال درن وقاتل المصامدة بها فكانت بينه وبينهم حروب وحاصروه بجبل درن فنهضت اليهم جموع زناتة وكانوا خالصة للمسلمين منذ اسلام مغراوة فافرجت المصامدة عن عقبة وأثخن فيهم حتى حملهم على طاعة الاسلام ودوخ بلادهم ثم أجاز الى بلاد السوس لقتال من بها من صنهاجة أهل اللثام وهم يومئذ على دين المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية فأثخن فيهم وانتهى الى تارودنت وهزم جموع البربر وقاتل مسوفة من وراء السوس ودوخهم وقفل راجعا ﴿وكان﴾ كسيلة الاوربى في جيش عقبة قد استصحبه في غزواته هذه وكان يستهين به ويمتهنه فأمره يوما بسلخ شاة بين يديه فدفعها كسيلة الى غلمانه فاراده عقبة على ان يتولاها بنفسه وانتهره فقام اليها كسيلة مغضبا وجعل كلما دس يده في الشاة مسح بلحيته والعرب يقولون ما هذا يا بربرى فيقول هو أجير فيقول لهم شيخ منهم ان البربرى يتوعدكم وبلغ ذلك أبا المهاجر وهو معتقل عند عقبة فبعث اليه ينهاه ويقول كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة العرب وأنت تعمد الى رجل جبار في قومه وبدار عزه حديث عهد بالشرك فتستفسده وأشار عليه بان يتوثق منه وخوفه غائلته فتهاون عقبة بقوله فلما قفل من غزاته هذه وانتهى الى طبنة من أرض الزاب وكسيلة

أثناء هذا كله في صحبته صرف العساكر الى القيروان أفواجا ثقة بما دوّخ من البلاد وأذل من البربر حتى بقي في قليل من الجند فلما وصل الى تهودة وأراد أن ينزل بها الحامية نظر اليه الفرنجة وطمعوا فيه فراسلوا كسيلة ودلوه على الفرصة فيه فانتهزها وراسل بني عمه ومن تبعهم من البربر فاتبعوا أثر عقبة وأصحابه حتى اذا غشوهم بتهودة ترجل القوم وكسروا أجفان سيوفهم ونزل الصبر واستلحم عقبة وأصحابه فلم يفلت منهم أحد وكانوا زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين استشهدوا في مصرع واحد وفيهم أبو المهاجر كان عقبة قد استصحبه في اعتقاله كما قلنا فأبلى رضي الله عنه في ذلك اليوم البلاء الحسن ﴿قال ابن خلدون﴾ وأجداث الصحابة رضي الله عنهم أولئك الشهداء أعني عقبة وأصحابه بمكانهم من أرض الزاب لهذا العهد وقد جعل على قبورهم أسنمة ثم جصصت واتخذ على المكان مسجد عرف باسم عقبة وهو في عداد المزارات ومظان البركات بل هو أشرف مزور من الاجداث في بقاع الارض لما توفر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذين لا يبلغ أحد مدّ أحدهم ولا نصيفه وأسر من الصحابة يومئذ محمد بن أوس الانصاري ويزيد بن خلف العبسي ونفر معهما ففداهم ابن مصاد صاحب قفصة وبعث بهم الى القيروان ثم زحف كسيلة بعد الوقعة الى جهة القيروان اذ هي دار الامارة بالمغرب يومئذ بها جمهور العرب ووجوه الاسلام فبلغهم الخبر وعظم عليهم الامر فقام زهير بن قيس البلوي فيهم خطيبا وقال يا معشر المسلمين ان أصحابكم قد دخلوا الجنة فاسلكوا سبيلهم أو يفتح الله عليكم فخالفه حنش بن عبد الله الصنعاني لما علم أنه لا طاقة للمسلمين بما دهمهم من أمر البربر ورأى ان النجاة بمن معه من المسلمين أولى ونادى في الناس بالرحيل الى مشرقهم فاتبعوه الا قليلا منهم وبقي زهير في أهل بيته فاضطر الى الخروج وسار الى برقة فأقام بها مطلا على المغرب ومنتظر المدد من الخلفاء واجتمع الى كسيلة جميع أهل المغرب من البربر والفرنجة وعظم أمره وتقدم الى القيروان فاستولى عليها في المحرم سنة أربع وستين وفرّ منها بقية العرب فلحقوا بزهير ولم يقم بها الا أصحاب الذراري والاثقال فأمنهم كسيلة وثبتت قدمه بالقيروان واستمر أميرا على البربر ومن بقي بها من العرب خمس سنين وقارن ذلك مهلك يزيد بن معاوية وفتنة الضحاك بن قيس مع مروان بن الحكم بمرج راهط من أرض الشام وحروب آل الزبير فاضطرب أمر الخلافة بالمشرق واضطرم المغرب نارا وفشت الردة في زناتة والبرانس الى ان استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة وأذهب آثار الفتنة من المشرق فالتفت الى المغرب وتلافى أمره على ما نذكره

﴿ذكر من دخل المغرب من الصحابة مرتبة أسماؤهم على حروف المعجم﴾

منهم بلال بن حارث بن عاصم المزني أبو عبد الرحمن من أهل المدينة أقطعه النبي صلى الله عليه وسلم العقيق كان صاحب لواء مزينة يوم الفتح ذكره صاحب الخلاصة النقية فيمن دخل المغرب * ومنهم جهد بن خويلد الاسدي أو الاسلمي ذكر صاحب الاشراق انه من جملة من دخل افريقية من أرض المغرب * ومنهم جبلة بن عمرو بن ثعلبة بن أسيد الانصاري أخو أبي مسعود البدري قال في التجريد شهد أحدا وشهد فتح مصر وصفين مع عليّ وغزا افريقية مع معاوية بن حديج سنة خمسين وكان فاضلا من فقهاء الصحابة روى ابن منده ومحمد بن الربيع من طريق مالك بن أبي عمران عن سليمان بن يسار انه سئل عن النفل في الغزو فقال لم أر أحدا يعطيه غير ابن حديج نفلنا في افريقية الثلث بعد الخمس ومعنا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين الاوّلين ناس كثير فأبى جبلة بن عمرو الانصاري أن يأخذ منه شيأ * ومنهم الحسنان رضي الله عنهما على ما ذكره ابن خلدون وهما سيدا شباب أهل الجنة وريحانتا الرسول صلى الله عليه وسلم أشهر من أن يعرّف بهما * ومنهم الحرث بن حبيب بن خزيمة القرشي العامري ذكره خليفة بن خياط فيمن نزل مصر من الصحابة قال وقتل بافريقية مع معبد بن

العباس بن عبد المطلب * ومنهم حمزة بن عمرو الاسلمي ذكره في الاشراف * ومنهم حبان بالكسر
وموحدة ابن أبي جبلة قال في الاصابة له ادراك قال ابن يونس بعثه عمر بن الخطاب الى أهل مصر
يفقههم وذكره ابن حبان في ثقات التابعين وقال غيره مات بافريقية * ومنهم خالد بن ثابت العجلاني
الفهمي قال ابن يونس شهد فتح مصر وولى بحر مصر سنة احدى وخمسين وأغزاه مسلمة بن مخلد
افريقية سنة أربع وخمسين قال في الاصابة ذكرته اعتمادا على انهم كانوا لا يأمرون في الفتوح الا
الصحابة * ومنهم ربيعة بن عباد الديلي ذكره الواقدي فيمن دخل مصر من الصحابة لغزو المغرب قال مالك
وأبوه بكسر المهملة وتخفيف الموحدة على الصواب ويقال بالفتح والتشديد ذكر خليفة وابن سعد أنه
مات في خلافة الوليد * ومنهم رويفع بن ثابت بن السكن الانصاري ثم النجاري ولاه معاوية على
طرابلس سنة ست وأربعين فغزا افريقية قال ابن يونس توفي ببرقة وهو أميرعليها من قبل مسلمة
ابن مخلد سنة ست وخمسين * ومنهم زهير بن قيس البلوي أبو شداد الآتي ذكره بعد قال ابن يونس
يقال له صحبة * ومنهم سفيان بن وهب الخولاني أبو أيمن له صحبة ورواية شهد حجة الوداع وفتح مصر
وافريقية وسكن المغرب مات سنة احدى وتسعين * ومنهم ساكان بن مالك قال محمد بن الربيع ذكره
الواقدي فيمن دخل مصر من الصحابة لغزو المغرب * ومنهم سلمة بن الاكوع الاسلمي الصحابي المشهور
ذكره الواقدي فيمن دخل مصر لغزو المغرب مات بالمدينة سنة سبع وسبعين وهو ابن ثمانين سنة وكان
شجاعا راميا سابقا يسبق الفرس شدا على قدميه * ومنهم العبادلة الاربعة رضي الله عنهم * فمنهم عبد الله
ابن عباس ترجمان القرآن أشهر من أن يعرّف به وهو الذي قسم غنائم افريقية يوم الفتح * ومنهم عبد الله
ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما من أعلام الصحابة وعبادهم وزهادهم والمتمسكين بالسنة منهم رضي
الله عنه * ومنهم عبد الله بن الزبير بن العوّام الشجاع المشهور والبطل المذكور وهو أوّل مولود ولد في
الاسلام بعد الهجرة وهو قاتل جرير يوم الفتح كما مر * ومنهم عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أحد أجواد
الدنيا وأبطالها ذكر ابن خلدون انه ممن دخل افريقية غازيا فهؤلاء العبادلة الاربعة * ومنهم عبد الله
ابن سعد بن أبي سرح الامير المعروف وقد تقدّم ذكره * ومنهم عبد الله بن عمرو بن العاصي الصحابي المشهور
أسلم قبل أبيه وهو أكثر الناس حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصواب أن يجعل أحد
العبادلة الاربعة بدل ابن جعفر والله أعلم قال أبو هريرة رضي الله عنه ما كان أحد أكثر مني حديثا
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الا ما كان من عبد الله بن عمرو فانه كان يكتب ولا أكتب عدّه ابن ناجي
فيمن دخل المغرب مع ابن أبي سرح * ومنهم عبد الرحمن بن العباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله صلى
الله عليه وسلم ولد على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وقتل بافريقية * ومنهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب ذكره
في الخلاصة النقية وكان صحابيا بالمولد قتل يوم صفين مع معاوية * ومنهم أخوه عاصم بن عمر وصحبته
بالمولد ذكره صاحب الخلاصة أيضا * ومنهم عبد الله بن نافع بن الحصين وجهه عثمان رضي الله عنه مع
ابن أبي سرح لشدّة بطشه واصابة رأيه * ومنهم عقبة بن نافع الفهري الامير المشهور فاتح المغرب
الاقصى وهو صاحب الترجمة * ومنهم عثمان بن عوف المزني على خلاف فيه وأما عمرو بن العاصي
رضي الله عنه فقد تقدّم انه انتهى الى طرابلس ولم يصل الى افريقية * ومنهم مروان بن الحكم بن أبي
العاصي الاموي ولد بعد الهجرة بسنتين ولم تحصل له رواية لانه خرج مع أبيه الى الطائف فأقام به ذكره
صاحب الخلاصة فيمن دخل المغرب * ومنهم مسعود بن الاسود البلوي وقيل العدوي قال الذهبي
بايع تحت الشجرة يعدّ في المصريين وغزا افريقية * ومنهم المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري له ولابيه
صحبة قال محمد بن الربيع دخل مصر لغزو المغرب مات سنة أربع وستين * ومنهم المسيب بن حزن بن أبي
وهب المخزومي والد سعيد بن المسيب له ولابيه صحبة ورواية ذكره الواقدي فيمن دخل مصر لغزو المغرب

ومنهم

* ومنهم المطلب بن أبى وداعة القرشى السهمى له ولابيه صحبة وهما من مسلمة الفتح قال محمد بن الربيع دخل مصر لغزو المغرب فيما ذكره الواقدى * ومنهم معاوية بن حديج السكونى أحد الامراء وقد تقدم ذكره * ومنهم معبد بن العباس بن عبد المطلب ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم قال الذهبى ولد على عهد النبى صلى الله عليه وسلم واستشهد بافريقية شابا فى زمن عثمان رضى الله عنه *وحكى المؤرخون* ان معاوية بن أبى سفيان أغزا سعيد بن عثمان بن عفان خراسان ومعه قثم بن العباس بن عبد المطلب فعبر سعيد النهر الى سمرقند فاستشهد قثم بها وكان أخوه الفضل بن عباس قد مات باجنادين من أرض الشام وعبد الله الترجمان مات بالطائف وعبيد الله الاصغر مات باليمن ومعبد بافريقية فقال الناس لم ير مثل بنى أم واحدة أبعد قبورا من بنى العباس * ومنهم المقداد بن الاسود الكندى وليس الاسود أباه وانما تبناه الاسود بن عبد يغوث وهو صغير فعرف به وانما اسم أبيه عمرو بن ثعلبة الكندى كان المقداد أحد السابقين شهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها ولم يثبت ان أحدا شهد بدرا فارسا سواه غزا افريقية مع ابن أبى سرح فلما رجعوا الى مصر قال له ابن أبى سرح فى دار بناها كيف ترى فقال له المقداد ان كان من مال الله فقد أفسدت وان كان من مالك فقد أسرفت فقال ابن أبى سرح لولا ان يقال افسدت مرتين لهدمتها * ومنهم المنيذر الاسلمى قال ابن يونس له صحبة وكان بافريقية وقال عبد الملك ابن حبيب لم يدخل الاندلس من الصحابة الا المنيذر الافريقى وأما المشتهرون بكنيتهم * فنهم أبو ذؤيب الهذلى الشاعر المشهور واسمه خويلد بن خالد أسلم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ولم يره وقدم المدينة يوم وفاته فشهد السقيفة وبيعة أبى بكر والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ودفنه قال ابن كثير توفى غازيا بافريقية فى خلافة عثمان رضى الله عنه *قلت* وهلك له خمسة أولاد بمصر بالطاعون فقال قصيدته العينية يرثيهم وهى مشهورة * ومنهم أبو رمثة البلوى قيل اسمه رفاعة بن يثربى وقيل بالعكس له صحبة ورواية قال الذهبى سكن بمصر ومات بافريقية * ومنهم أبو زمعة البلوى قال الذهبى اسمه عبد وقيل عبيد بن أرقم بايع تحت الشجرة ونزل مصر وغزا افريقية مع ابن حديج روى حديث الذى قتل تسعة وتسعين نفسا وسأل هل من توبة مات بافريقية ودفنت معه شعرات من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسبما هو مشهور وهو صاحب المقام خارج القيروان * ومنهم أبو ضبيس البلوى قال الذهبى له صحبة وقال محمد بن الربيع الجيزى دخل مصر لغزو المغرب * ومنهم أبو المبتذل خلف له صحبة ونزل افريقية وقيل أبو المنيذر كذا فى التجريد وغيره هؤلاء ممن لم يحضرنا ذكرهم *أخرج ابن عبد الحكم* عن سليمان بن يسار قال غزونا افريقية مع ابن حديج ومعنا بشر كثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والانصار اهـ رضى الله عنهم ونفعنا بهم وحشرنا فى زمرتهم آمين

ذكر اختلاف العلماء فى أرض المغرب هل فتحت عنوة أو صلحا أو غير ذلك

قال الشيخ أبو الحسن القابسى رحمه الله فى شرح الموطأ فى كتاب الجهاد منه اختلف الناس فى أرض المغرب هل فتحت عنوة أو صلحا أو مختلطة أى البعض عنوة والبعض صلحا على ثلاثة أقوال *الاول* وهو الذى يظهر من رواية ابن القاسم عن مالك انها فتحت بالسيف عنوة لانه جعل النظر فى معادنها للامام ولو صح ذلك لم يجز لاحد بيع شئ منها كأرض مصر لانها فتحت بالسيف *الثانى* انها فتحت صلحا صالح أهلها عليها فان كان كذلك جاز بيع بعضهم من بعض *الثالث* انها مختلطة هرب بعضهم عن بعض وتركوها فمن بقى بيده شئ كان له وهو الصحيح والله أعلم *ويحكى* ان أحد عمال المنصور بن أبى عامر صاحب الاندلس حين تغلب على أرض فاس قال لهم اخبرونى عن أرضكم أصلح هى أم عنوة فقالوا والله لا جواب لنا حتى يأتى الفقيه يعنون الشيخ أبا جيدة فجاء الشيخ المذكور فسأله العامل فقال ليست بصلح ولا عنوة انما أسلم أهلها عليها فقال خلاكم الرجل وأبو جيدة هذا هو دفين باب بنى مسافر أحد أبواب

فاس المحروسة رحمه الله

﴿ولاية زهير بن قيس البلوى على المغرب ومقتل كسيلة وما يتبع ذلك﴾

لما استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة كان زهير مقيما ببرقة منذ مهلك عقبة بن نافع كما مر فبعث اليه عبد الملك بالمدد وولاه حرب البربر وأمره باستنقاذ القيروان ومن بها من المسلمين من يد كسيلة المتغلب عليها وحضه على الطلب بدم عقبة فراجعه زهير يعلمه بكثرة الفرنج والبربر فأمده بالمال ووجوه العرب وفرسانها فزحف زهير الى المغرب سنة تسع وستين فى آلاف من المقاتلة وجمع له كسيلة البرانس وسائر البربر ولقيه بممس من نواحى القيروان واشتد القتال بين الفريقين ثم انهزمت البربر بعد حروب صعبة وقتل كسيلة ووجوه من معه من البربر ومن لا يحصى من عامتهم واتبعهم العرب الى مرماجنة ثم الى وادى ملوية وفى هذه الوقعة ذل البربر وفنيت فرسانهم ورجالهم وخضدت شوكتهم واضمحل أمر الفرنجة فلم يعد وخاف البربر من زهير والعرب خوفا شديدا فلجؤا الى القلاع والحصون وكسرت شوكة أوربة من بينهم واستقر جمهورهم بديار المغرب الاقصى وملكوا مدينة وليلى وكانت فيما بين موضع فاس ومكناسة بجانب جبل زرهون ولم يكن لهم بعد هذه الوقعة ذكر الى ان قدم عليهم ادريس بن عبد الله رضى الله عنه فقاموا بدعوته على ما نذكره ان شاء الله ﴿وأما زهير﴾ فانه لما رأى ما منحه الله من الظفر والنصر وساق اليه من العز والملك خشى على نفسه الفتنة وكان من العباد المخبتين فترك القيروان آمن ما كانت وارتحل الى المشرق وقال انما جئت للجهاد فى سبيل الله وأخاف على نفسى أن تميل الى الدنيا فلما وصل الى برقة وجد اسطول الروم على قتالها فى جموع عظيمة من قبل قيصر وبأيديهم أسرى من المسلمين فاستغاثوا به وهو فى خف من أصحابه فصمد اليهم فيمن معه وقاتل الروم حتى قتل وقتل معه جماعة من أشراف أصحابه ونجا الباقون الى دمشق فاخبروا الخليفة عبد الملك بما وقع فاسفه ذلك

﴿ولاية حسان بن النعمان على المغرب وتخريبه قرطاجنة﴾

لما رحل زهير بن قيس الى المشرق واستشهد ببرقة كما قدمنا اضطربت بلاد المغرب بعده واضطرمت بها نار الفتن وافترق أمر البربر وتعدد سلطانهم فى رؤسائهم وكان من أعظمهم شوكة يومئذ الكاهنة داهيا الزناتية ثم الجراوية صاحبة جبل أوراس وكبيرة قومها جراوة والبتر فبعث عبد الملك بن مروان الى عامله على مصر حسان بن النعمان الغسانى وكان يقال له الشيخ الامين يأمره أن يخرج الى جهاد البربر وبعث اليه بالمدد فزحف اليهم سنة تسع وستين فى أربعين ألف مقاتل ولما دخل القيروان سأل الا فارقة عن أعظم ملوكهم فقالوا صاحب قرطاجنة وهى المدينة العظمى قريعة رومة وضرتها واحدى عجائب الدنيا وكان بها يومئذ من جموع الفرنج أمم لا تحصى فصمد اليها حسان وافتتحها وقتل أكثر من بها ونجا فلهم فى المراكب الى صقلية والاندلس ولما انصرف حسان عنها دخلها أقوام من أهل الضواحى والبادية وتحصنوا بها فرجع اليهم وقاتلهم أشد قتال فافتتحها عنوة وأمر بتخريبها واعفاء رسمها وكسر قنواتها فذهبت كأمس الدابر ولم يبق بها الآن الا آثار خفية تدل على ما كان بها من عجيب الصنعة واحكام العمل وبانقاضها عمرت مدينة تونس كما فى القاموس ثم بلغ حسان ان البربر والفرنج قد عسكروا فى جموع عظيمة ببلاد صطفورة وبنزرت فصمد اليهم وهزمهم وشرد بهم من خلفهم وانحاز فلهم الى باجة وبونة ورجع حسان الى القيروان فاراح بها أياما ثم سأل عن بقية الملوك المخالفة فدلوه على الكاهنة داهيا وقومها جراوة وهم ولد جراو بن الديديت بن زاناو زاناهو أبو زناتة وكان لهذه الكاهنة بنون ثلاثة ورثوا رياسة قومهم عن سلفهم وربوا فى حجرها فاستبدت عليهم واعتزت على قومها بهم وبما كان لها من الكهانة والمعرفة بغيب أحوالهم وعواقب أمورهم فانتهت اليها رياستهم ووقفوا عند اشارتها ﴿قال هانى بن بكور الضريسى﴾ ملكت عليهم خمسا وثلاثين سنة وعاشت مائة وسبعا وعشرين سنة وكان قتل

عقبة

عقبة بن نافع وأصحابه فى البسيط قبلة جبل أوراس باغرائها برابرة الزاب عليه وكان المسلمون يعرفون ذلك منها فلما قتل كسيلة وانفضت جموع البربر رجعوا الى هذه الكاهنة بمعتصمها من جبل أوراس وقد انضم اليها بنو يفرن ومن كان بافريقية من قبائل زناتة وسائر البترة فسار اليها حسان حتى نزل وادى مليانة وزحفت هى اليه فاقتتلوا بالبسيط أمام جبلها اقتتالا شديدا ثم انهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير وأسر خالد بن يزيد القيسى فى ثمانين رجلا من وجوه العرب ولم تزل الكاهنة والبربر فى اتباع حسان والعرب حتى أخرجوهم من عمل قابس ولحق حسان بعمل طرابلس فلقيه هنالك كتاب عبد الملك يأمره بالمقام حيث يصله كتابه فاقام ببرقة وبنى قصوره المعروفة لهذا العهد بقصور حسان ثم رجعت الكاهنة الى مكانها من الجبل وأطلقت أسرى المسلمين سوى خالد فانها اتخذت عنده عهدا بارضاعه مع ولديها وصيرته أخالهما وأقامت فى سلطان افريقية والبربر خمس سنين بعد هزيمة حسان ونفت العرب عن بلاد المغرب وقالت لقومها انما تطلب العرب من المغرب مدنه وما فيها من الذهب والفضة ونحن انما نريد المزارع والمراعى فالرأى أن نخرب هذه المدن والحصون ونقطع أطماع العرب عنها ﴿قال ابن خلدون﴾ وكانت المدن والضياع من طرابلس الى طنجة ظلا واحدا فى قرى متصلة فخربت الكاهنة ديار المغرب وعضدت أشجاره ومحت جماله وجاست بالفساد خلاله فشق ذلك على البربر واستأمنوا الى حسان وكان عبد الملك قد بعث اليه بالمدد فأمنهم ووجد السبيل الى تفريق أمرها ثم دس الى خالد بن يزيد يستعمله أمرها فاطلعه على كنه خبرها واستحثه فزحف الى المغرب سنة أربع وسبعين وبرزت اليه فاوقع بها وبجموعها وقتلها واحتز رأسها عند البئر المعروفة بها لهذا العهد من جبل أوراس ثم اقتحم الجبل عنوة واستلحم فيه زهاء مائة ألف من البربر واستأمن اليه باقيهم على الاسلام والطاعة وشرط عليهم حسان أن يكون معه منهم اثنا عشر ألفا لا يفارقونه فى مواطن جهاده فاجابوا وأسلموا وحسن اسلامهم وعقد للأكبر من ولدى الكاهنة على قومه من جراوة وعلى جبل أوراس فقالوا اقد لزمتنا الطاعة وسبقنا اليها وبايعناه عليها وكان ذلك باشارة من الكاهنة لاثارة من علم كانت لديها بذلك من شياطينها وانصرف حسان الى القيروان مؤيدا منصورا وثبت ملكه واستقام أمره فدوّن الدواوين وكتب الخراج على عجم افريقية ومن أقام معهم على النصرانية من البربر ثم أوعز اليه الخليفة عبد الملك باتخاذ دار الصناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية حرصا على مراسم الجهاد ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله الاوّل من بنى الاغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيا وصاحب الامام ابن القاسم بعد ان كان معاوية ابن حديج أغزا صقلية أيام ولايته على المغرب فلم يفتح الله عليه وفتحت على يد ابن الاغلب وقائده ابن الفرات كما قلنا واستمر حسان واليا على المغرب الى ان عزله عبد الله بن مروان صاحب مصر وكان أمر المغرب اذ ذاك اليه فاستخلف حسان على المغرب رجلا من جنده اسمه صالح وارتحل الى المشرق بما جمعه من ذريع المال ورائع السبى ونفيس الذخيرة فلما انتهى الى مصر أهدى الى عبد الله مائتى جارية من بنات ملوك الفرنج والبربر فلم يقنعه ذلك وانتزع كثيرا مما بيده ولما قدم على الخليفة بدمشق وهو يومئذ الوليد بن عبد الملك شكا اليه ما صنع به عمه عبد الله فغاظه ذلك وأنكره ثم أهدى اليه حسان من غريب النفائس التى أخفاها عن عبد الله ما استعظمه الوليد وشكره عليه ووعده برده الى عمله فحلف حسان أن لا يلى لبنى أمية عملا أبدا ﴿وذكر البكرى﴾ ان حسان بن النعمان هذا هو فاتح تونس وقال غيره بل فاتحها زهير بن قيس البلوى ولم تتوفر الدواعى على تحقيق ذلك لانها لم تكن يومئذ قاعدة ملك وانما عظم أمرها فى دولة الحفصيين فمن بعدهم والله تعالى أعلم

﴿ولاية موسى بن نصير على المغرب وفتحه الاندلس﴾

لما ارتحل حسان بن النعمان الى المشرق اختلفت أيدى البربر فيما بينهم على افريقية والمغرب فكثرت

الفتن وخلت أكثر البلاد حتى قدم موسى بن نصير فقلا في أمرها ولم شعثها ﴿وقال الحافظ أبو عبد الله الحميدى في جذوة المقتبس﴾ ولى موسى بن نصير افريقية والمغرب سنة سبع وسبعين وقال غيره سنة سبع وثمانين ﴿وقال ابن خلكان﴾ كان موسى بن نصير من التابعين وروى عن تميم الدارى رضى الله عنه وكان عاقلا كريما شجاعا ورعا متقيا لله تعالى لم يهزم له جيش قط ولما قدم المغرب وجد أكثر مدنه خالية لاختلاف أيدى البربر عليها وكانت البلاد في قحط شديد فأمر الناس بالصوم والصلاة واصلاح ذات البين وخرج بهم الى الصحراء ومعه سائر الحيوانات ففرق بينها وبين أولادها فوقع البكاء والصراخ والضجيج وأقام على ذلك الى منتصف النهار ثم صلى وخطب الناس ولم يذكر الوليد بن عبد الملك فقيل له ألا تدعو لامير المؤمنين فقال هذا مقام لا يدعى فيه غير الله عز وجل فسقوا حتى رووا ﴿وقال ابن خلدون﴾ كتب الخليفة الوليد بن عبد الملك الى عمه عبد الله بن مروان وهو على مصر ويقال عبد العزيز أن يبعث بموسى بن نصير الى افريقية وكان أبوه نصير من حرس معاوية فبعثه عبد الله فقدم القيروان وبها صالح خليفة حسان فعزله ورأى ان البربر قد طمعت في البلاد فوجه البعوث في النواحى وبعث ابنه عبد الله في البحر الى جزيرة ميورقة فغنم وسبا وعاد ثم بعثه الى ناحية أخرى وبعث ابنه مروان كذلك وتوجه هو الى ناحية فغنموا وسبوا وعادوا وبلغ الخمس من المغنم سبعين ألف رأس من السبى ﴿وقال أبو شبيب الصدفى﴾ لم يسمع في الاسلام بمثل سبايا موسى بن نصير ونقل الكاتب أبو اسحق ابراهيم بن القاسم القروى المعروف بابن الرقيق ان موسى بن نصير لما فتح سقوما كتب الى الوليد بن عبد الملك انه صار لك من سبى سقوما مائة ألف رأس فكتب اليه الوليد ويحك انى أظنها من بعض كذباتك فان كنت صادقا فهذا محشر الامة ثم خرج موسى غازيا أيضا وتتبع البربر وقتل فيهم قتلا ذريعا وسبا سبيا عظيما وتوغل في جهات المغرب حتى انتهى الى السوس الادنى ثم تقدم الى سبتة فصانعه صاحبها يليان الغمارى بالهدايا وأذعن للجزية وكان نصرانيا فاقره عليها واسترهن ابنه وأبناء قومه على الطاعة فلما رأى بقية البربر ما نزل بهم استأمنوا لموسى وبذلوا له الطاعة فقبل منهم وولى عليهم ﴿وقال ابن خلدون أيضا﴾ غزا موسى بن نصير طنجة وافتتح درعة وصحراء تافيلالت وأرسل ابنه الى السوس فاذعن البربر لسلطانه وأخذ رهائن المصامدة فانزلهم بطنجة وذلك سنة ثمان وثمانين وولى عليها طارق بن زياد الليثى قال وأنزل معه سبعة وعشرين الفا من العرب واثنى عشر ألفا من البربر وأمرهم أن يعلموا البربر القرآن والفقه قال ثم أسلم بقية البربر على يد اسمعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر سنة احدى ومائة أيام عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه اهـ ولما استقرت القواعد لموسى بالمغرب كتب الى طارق وهو بطنجة يأمره بغزو الاندلس فغزاها في اثنى عشر ألفا من البربر وخلق يسير من العرب وعبر البحر من سبتة الى الجزيرة الخضراء وصعد الجبل المنسوب اليه المعروف اليوم بجبل طارق يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنتين وتسعين للهجرة وذكر عن طارق انه كان نائما وقت العبور في المركب فرأى النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الاربعة يمشون على الماء حتى مروا به فبشره النبى صلى الله عليه وسلم بالفتح وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد ذكر ذلك ابن بشكوال ﴿وقال ابن خلدون﴾ في أخبار الاندلس ان أمة القوط ملكوا جزيرة الاندلس نحو أربعمائة سنة الى ان جاء الله بالاسلام والفتح وكان ملكهم لذلك العهد يسمى لذريق وهو سمة ملوكهم كجرجير سمة ملوك صقلية وكانت لهم خطوة وراء البحر في هذه العدوة الجنوبية خطوها من زقاق البحر الى بلاد البربر واستعبدوهم وكان ملك البربر بذلك القطر الذى هو اليوم جبال غمارة يسمى يليان وكان يدين بطاعتهم وبملتهم وموسى بن نصير أمير العرب اذ ذاك عامل بافريقية من قبل الوليد بن عبد الملك ومنزله بالقيروان وكان قد أغزى لذلك العهد عساكر المسلمين بلاد المغرب الاقصى ودوخ أقطاره وأوغل في جبال طنجة حتى وصل الى خليج الزقاق واستنزل يليان لطاعة الاسلام وخلف

مولاه

مولاه طارق بن زياد واليا بطنجة وكان يليان ينقم على لذريق ملك القوط بالاندلس فعلة فعلها زعموا بابنته الناشئة فى داره على عادتهم فى بنات بطارقتهم فغضب لذلك وأجاز الى لذريق فاخذ ابنته منه ﴿قلت﴾ يعنى انه كان من عادة أكابر العجم بالاندلس ان يبعثوا أولادهم الذين يريدون التنويه بهم الى دار الملك الاكبر بطليطلة ليصيروا فى خدمته ويتأدبوا بآدابه وينالوا من كرامته حتى اذا بلغوا أنكح بعضهم بعضا وتحمل صدقاتهم وتولى تجهيز اناثهم استئلافا لآبائهم فاتفق ان فعل ذلك يليان عامل لذريق على سبتة وكان أهلها نصارى فبعث بابنة له بارعة الجمال تكرم عليه الى دار لذريق فوقعت عينه عليها فاعجبته وأحبها ولم يتمالك ان استكرهها فافتضها فاحتالت حتى أعلمت أباها سرا فاحفظه ذلك وحمى أنفه وقال ودين المسيح لأزيلن ملكه ولاحفرن ماتحت قدميه فكان امتعاضه من فاحشة ابنته هو السبب فى فتح الاندلس مع سابق القدر ثم ان يليان عبر البحر من سبتة فى صنبر قلب الشتاء وأصعب الاوقات فقدم طليطلة واجتمع بالملك فانكر مجيئه فى ذلك الوقت وسأله عن السبب فذكر خيرا واعتل بان زوجته قد اشتد شوقها الى رؤية ابنتها وانه أحب اسعافها بطلبتها وسأل الملك تمكينه منها وتعجيل سراحه الى عمله ففعل وأحسن جائزة الجارية وتوثق منها بالكتمان وأفضل على أبيها وانقلب راجعا وذكروا انه لما ودعه قال له لذريق اذا قدمت علينا فاستفره لنا من الشذانقات التى لم تزل تطرفنا بها فانها أثر جوارحنا الدينا يعنى بذلك طيورا فارهة كانت تتخذ للاصطياد فقال له أيها الملك وحق المسيح لئن بقيت لادخلن عليك شذانقات مادخل عليك مثلها قط يعرض له بما أضمره من ادخال العرب عليه ثم لحق يليان بطارق بن زياد وهو بطنجة فكشف له عورة القوط فانتهز طارق الفرصة لوقته وأجاز البحر سنة ثنتين وتسعين من الهجرة باذن أميره موسى بن نصير فى نحو ثلاثمائة من العرب واحتشد معهم من البربر زهاء عشرة آلاف وصيرهم عسكرين أحدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح فسمى جبل طارق به والآخر على طريف بن مالك النخعى ونزل بمكان مدينة طريف فسميت به وأداروا الاسوار على أنفسهم للتحصن وبلغ الخبر لذريق فنهض اليهم بجر أمم الاعاجم وأهل ملة النصرانية فى زهاء أربعين ألفا فالتقوا بفحص شريش فهزمه الله ونفلهم أموال أهل الكفر ورقابهم وكتب طارق الى موسى بالفتح والغنائم فحركته الغيرة وكتب الى طارق يتوعده ان توغل بغير اذنه ويأمره أن لايتجاوز مكانه حتى يلحق به واستخلف على القيروان ولده عبد الله وخرج معه حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى ونهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين فى عسكر ضخم من وجوه العرب والموالى وعرفاء البربر فوافى خليج الزقاق مابين طنجة والجزيرة الخضراء فاجاز الى الاندلس وتلقاه طارق فانقاد واتبع ويقال ان موسى لما سار الى الاندلس عبر البحر اليها من ناحية الجبل المنسوب اليه المعروف اليوم بجبل موسى وتنكب النزول على جبل طارق وتمم الفتح وتوغل فى الاندلس الى برشلونة فى جهة المشرق وأربونة فى الجوف وصنم قادس فى الغرب ودوخ أقطارها وجمع غنائمها وأجمع أن يأتى المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاوز الى الشام دروب الاندلس ودروبه ويخوض اليه مابينهما من بلاد أعاجم وأمم النصرانية مجاهدا فيهم ومستلحما لهم الى ان يلحق بدار الخلافة من دمشق ونمى الخبر الى الخليفة الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ورأى ان ماهم به موسى تغرير بالمسلمين فبعث اليه بالتوبيخ والانصراف وأسر الى سفيره ان يرجع بالمسلمين ان لم يرجع هو وكتب له بذلك عهده ففت ذلك فى عزم موسى وقفل عن الاندلس بعد ان أنزل الرابطة والحامية بثغورها واستعمل ابنه عبد العزيز لسدها وجهاد عدوها وأنزله بقرطبة فاتخذها دار امارة واحتل موسى بالقيروان سنة خمس وتسعين وارتحل الى المشرق سنة ست بعدها بما كان معه من الغنائم والذخائر والاموال على العجل والظهر يقال ان من جملتها ثلاثين ألف رأس من السبي وولى على افريقية ابنه عبد الله واندرجت ولاية الاندلس يومئذ فى ولاية المغرب فكان

صاحب القيروان ناظرا في الجميع وقدم موسى على سليمان بن عبد الملك وقد ولي الخلافة بعد الوليد فسخطه ونكبه وثارت عساكر الاندلس بابنه عبد العزيز فقتلوه لسنتين من ولايته باغراء الخليفة سليمان وكان خيرا فاضلا وافتتح في ولايته مدائن كثيرة وكان الذي تولى قتله حبيب بن أبي عبيدة الفهري وكان سبب غضب سليمان على موسى انه لما توجه الى المشرق وانتهى الى مصر وصل أشرافها وفقهاءها وبلغه الخبر بمرض الوليد ووافاه كتابه يستحثه على القدوم ووافاه كتاب آخر من أخيه سليمان يثبطه فاسرع موسى اللحاق بالوليد فقدم عليه قبل وفاته بثلاثة أيام ودفع اليه ما معه من الذخائر والاموال فغاظ ذلك سليمان وأساء مكافأته حين أفضى الامر اليه فنكبه ونكب آل بيته أجمع وكانت وفاة موسى رحمه الله بالمدينة المنورة سنة ثمان وتسعين وقيل غير ذلك ﴿قال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد القيرواني﴾ ارتدت البربر اثنتي عشرة مرة من طرابلس الى طنجة ولم يستقر اسلامهم حتى عبر موسى بن نصير البحر الى الاندلس وأجاز معه كثيرا من رجالات البربر برسم الجهاد فاستقروا هنالك فحينئذ استقر الاسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه وتناسوا الردة ثم نبضت فيهم عروق الخارجية بعد على ما نذكره

﴿ولاية محمد بن يزيد على المغرب﴾

لما ارتحل موسى بن نصير الى المشرق ونكبه الخليفة سليمان كما قلنا عزل ابنه عبد الله عن المغرب وولى مكانه محمد بن يزيد مولى قريش ويقال مولى الانصار فقدم القيروان سنة سبع وتسعين وكان سليمان قد أمره باستئصال آل موسى بن نصير واصطلام نعمتهم فاتى على ذلك ثم لما قتل أهل الاندلس أميرهم عبد العزيز بن موسى ولوا عليهم أيوب بن حبيب اللخمي وهو ابن أخت موسى فوجه محمد بن يزيد الحر ابن عبد الرحمن بن عثمان الثقفي واليا من قبله على الاندلس فقدمها واستقر أميرا بها سنتين وثمانية أشهر قالوا وكان محمد بن يزيد هذا عادلا حسن السيرة قاتل المخالفين بثغور المغرب وغنم وسبا ولم يزل واليا عليه حتى مات سليمان فكانت ولايته سنتين وأشهرا والله أعلم

﴿ولاية اسمعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر على المغرب﴾

لما توفي سليمان بن عبد الملك رحمه الله وولي الخلافة بعده عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه استعمل على المغرب اسمعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم فقدم القيروان سنة مائة وكان خير أمير وخير وال لم يزل حريصا على دعاء البربر الى الاسلام حتى تم اسلامهم على يده وبث فيهم من فقههم في دينهم * وذكر أبو العرب محمد بن تميم في تاريخ افريقية ان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أرسل عشرة من التابعين يفقهون أهل المغرب في الدين منهم حبان بن أبي جبلة ولما توفي عمر بن عبد العزيز سنة احدى ومائة وبويع يزيد بن عبد الملك وجه يزيد بن أبي مسلم الثقفي واليا على المغرب على ما نذكره

﴿ولاية يزيد بن أبي مسلم على المغرب﴾

هو يزيد بن أبي مسلم دينار مولى الحجاج بن يوسف الثقفي الظالم المشهور وكان يزيد هذا كاتبه وصاحب شرطته ﴿قال ابن خلكان﴾ كانت فيه كفاية ونهضة قدمه الحجاج بسببهما وكان من خبره ان الحجاج لما حضرته الوفاة استخلف يزيد هذا على خراج العراق فاقره الوليد بن عبد الملك واغتبط به وقال ما مثلي ومثل الحجاج وابن أبي مسلم بعده الا كرجل ضاع منه درهم فوجد دينارا ولما مات الوليد وولي بعده أخوه سليمان عزل ابن أبي مسلم وأمر به فاحضر بين يديه في جامعة وكان رجلا قصيرا دميما قبيح الوجه عظيم البطن تحتقره العين فلما نظر اليه سليمان قال أنت يزيد بن أبي مسلم قال نعم أصلح الله أمير المؤمنين قال لعن الله من أشركك في أمانته وحكمك في دينه قال لا تفعل يا أمير المؤمنين فانك رأيتني والامر عني مدبر ولو رأيتني والامر علي مقبل لاستعظمت ما استصغرت ولاستجللت ما احتقرت فقال سليمان قاتله

الله فما أربط جأشه وأعضب لسانه ودارت بينه وبين سليمان محاورات غير هذه ثم كشف عنه فلم يجد عليه خيانة فهم باستكتابه فقال له عمر بن عبد العزيز أنشدك الله يا أمير المؤمنين ان لا تحيى ذكر الحجاج باستكتاب كاتبه فقال انى كشفت عنه فلم أجد عليه خيانة يا أبا حفص فقال عمر أنا أوجدك من هو أعف عن الدينار والدرهم منه فقال سليمان من هو قال ابليس ما مس دينارا ولا درهما قط وقد أهلك هذا الخلق فتركه سليمان ✽ وحدث جويرية بن أسماء ان عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة بلغه أن يزيد بن أبى مسلم خرج فى جيش من جيوش المسلمين فكتب الى عامل الجيش برده وقال انى لاكره ان أستنصر بجيش هو فيهم فلما توفى عمر رضى الله عنه وأفضت الخلافة الى يزيد بن عبد الملك عزل اسمعيل بن عبيد الله عن المغرب وولى مكانه يزيد بن أبى مسلم فأساء السيرة قالوا ووجه عنبسة بن سحيم الكلبى واليا من قبله على الاندلس فاستقام على يده أمرها ثم ثار أهل المغرب بابن أبى مسلم فقتلوه سنة ثنتين ومائة لاشهر من ولايته ✽ قال الطبرى ✽ وكان سبب ذلك انه كان قد عزم ان يسير فى أهل المغرب بسيرة الحجاج فى أهل العراق فان الحجاج كان وضع الجزية على رقاب الذين أسلموا من أهل السواد وأمر بردهم الى قراهم ورساتيقهم على الحالة التى كانوا عليها قبل الاسلام فلما عزم يزيد على ذلك تآمر البربر فيه واجتمعوا على قتله فقتلوه وولوا عليهم محمد بن يزيد الذى كان قبله فيما ذكره الطبرى وكان غازيا بصقلية فلما قدم بغنائمه ولوه أمرهم ✽ وقال ابن عساكر ✽ ولوا بعده اسمعيل بن عبيد الله والله أعلم ✽ ثم كتب أهل المغرب الى الخليفة يزيد انا لم نخلع يدا من طاعة ولكن يزيد بن أبى مسلم سامنا ما لا يرضى به الله ورسوله فقتلناه وأعدنا عاملك فكتب اليهم يزيد انى لم أرض ما صنع ابن أبى مسلم وأقر محمد بن يزيد على المغرب وذلك فى سنة اثنتين ومائة كما قلنا وحدث الوضاح بن أبى خيثمة وكان حاجب عمر بن عبد العزيز قال أمرنى عمر بن عبد العزيز يعنى فى مرض موته باخراج قوم من السجن وفيهم يزيد بن أبى مسلم فاخرجتهم وتركته فحقد على فلما مات عمر هربت الى افريقية خوفا منه قال فبينما أنا بافريقية اذ قيل قدم يزيد بن أبى مسلم واليا فاختفيت فاعلم بمكانى وأمر بى فحملت اليه فلما رآنى قال طالما سألت الله تعالى ان يمكننى منك فقلت وأنا والله لطالما سألت الله أن يعيذنى منك فقال ما أعاذك الله والله لاقتلنك ولو سابقنى فيك ملك الموت لسبقته ثم دعا بالسيف والنطع فاتى بهما وأمر بالوضاح فاقيم عليه مكتوفا وقام السياف وراءه ثم أقيمت الصلاة فتقدم يزيد اليها فلما سجد أخذته السيوف ودخل على الوضاح من قطع كتافه وأطلقه فسبحان اللطيف الخبير

✽ ولاية بشر بن صفوان على المغرب ✽

لما كتب أهل المغرب الى الخليفة يزيد بن عبد الملك بما كان منهم الى ابن أبى مسلم وما اعتذروا به فى شأنه أقر عليهم محمد بن يزيد أو اسمعيل بن عبيد الله على الخلاف المتقدم ما شاء الله ثم ولى عليهم بشر بن صفوان الكلبى وكان واليا على مصر فقدم القيروان سنة ثلاث ومائة فهدأ المغرب وسكن أرجاءه واستصفى بقايا آل موسى بن نصير ثم وفد على يزيد بن عبد الملك فوجده قد مات وبويع هشام بن عبد الملك فرده هشام الى عمله من المغرب فاستقر بالقيروان واستدعى منه أهل الاندلس واليا يقوم بأمرهم وذلك بعد مقتل عنبسة بن سحيم الكلبى شهيدا فى بعض غزوات الفرنج فولى عليهم يحيى بن سلمة الكلبى فقدم الاندلس آخر سنة سبع ومائة فاصلح شأنها ثم غزا بشر بن صفوان صقلية بنفسه سنة تسع ومائة فاصاب سبيا كثيرا ورجع الى القيروان منصورا فكانت منيته عقب ذلك

✽ ولاية عبيدة بن عبد الرحمن على المغرب ✽

لما توفى بشر بن صفوان وانتهى الخبر الى الخليفة هشام بن عبد الملك ولى على المغرب عبيدة بن عبد الرحمن السلمى وهو ابن أخى أبى الاعور السلمى وقيل ابن ابنه فقدم القيروان سنة عشر ومائة ونظر فى أمر المغرب والاندلس معا وولى من قبله على الاندلس ولاة أربعة واحدا بعد واحد وهم عثمان بن أبى نسعة

الخثعمى وحذيفة بن الاحوص القيسى والهيثم بن عبيد الكلابى ومحمد بن عبد الله الاشجعى وكان عبيدة بن عبد الرحمن قد أخذ عمال بشر بن صفوان قبله وعذبهم فكتب بعضهم بذلك الى الخليفة هشام فعزله لاربع سنين وستة أشهر من ولايته

﴿ولاية عبيد الله بن الحبحاب على المغرب﴾

عبيد الله هذا هو مولى بنى سلول وكان رئيسا نبيلا وأميرا جليلا وخطيبا مصقعا ولاه هشام بن عبد الملك على المغرب بعد عزل عبيدة بن عبد الرحمن عنه وأمره أن يمضى اليه من مصر فاستخلف عبيد الله على مصر ابنه أبا القاسم وسار الى المغرب فقدم القيروان فى ربيع الآخر سنة أربع عشرة ومائة واستعمل عمر بن عبيد الله المرادى على طنجة والمغرب الاقصى واستعمل ابنه اسمعيل بن عبيد الله معه على السوس وماوراءه واستعمل على الاندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى فكانت له فى الفرنجة وقائع وأصيب جيشه فى رمضان من السنة المذكورة فى موضع يعرف ببلاط الشهداء وبه عرفت الغزوة ثم ولى عبيد الله على الاندلس عبد الملك بن قطن الفهرى ثم بعده عقبة بن الحجاج السلولى فكان محمود السيرة وتمكن سلطان عبيد الله بالمغرب وبنى جامع الزيتونة بتونس لكن صحح صاحب المؤنس ان أول مختط للجامع المذكور حسان بن النعمان وتممه عبيد الله هذا واتخذ بها دار صناعة لانشاء المراكب البحرية ثم بعث حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى غازيا أرض المغرب فانتهى الى السوس الاقصى وقاتل مسوفة ثم تخطاهم الى تخوم السودان وأصاب من مغانم الذهب والفضة والسبى شيأ كثيرا ودوّخ بلاد البربر وقبائلها ورجع ثم أغزاه ثانية جزيرة صقلية فركب البحر اليها سنة اثنتين وعشرين ومائة ومعه ابنه عبد الرحمن بن حبيب فنازل سرقوسة أعظم مدن صقلية وضرب على أهلها الجزية وأثخن فى سائر الجزيرة وكان عمر بن عبيد الله فى هذه المدة بطنجة قد أساء السيرة فى برابرة المغرب الاقصى وأراد أن يخمس من أسلم منهم وزعم انه الفئ فنفرت قلوب البربر عنه وأحسوا بانهم طعمة للعرب وثقلت عليهم وطأة عمال ابن الحبحاب جملة بما كانوا يطالبونهم به من الوظائف البربرية مثل الادم العسلية الالوان وأنواع طرف المغرب فكانوا يتغالون فى جمع ذلك وانتخابه حتى كانت الصرمة من الغنم تهلك ذبحا لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها ولا يوجد فيها مع ذلك الا الواحد وما قرب منه فكثر عيثهم بذلك فى أموال البربر فاجمعوا الانتقاض وبلغهم مسير العساكر مع حبيب بن أبى عبيدة الى صقلية فجرّأهم ذلك على مرادهم وثار ميسرة المضغرى باحواز طنجة على ماذكره وكانت بدعة الخارجية يومئذ قد سرت فى البربر وتلقنها رؤسهم عن عرب العراق الساقطين الى المغرب نزعوا بها الى الاطراف داعين أغمار الامم اليها عسى أن تكون لهم دولة فاستحكمت صبغتها فى طغام البربر وشجت فيهم عروقها فكان ذلك من أقوى البواعث والاسباب فى خرق حجاب الهيبة على الخلفاء وانتقاض البربر على العرب ومزاحمتهم لهم فى سلطانهم ﴿ولنذكر هنا﴾ أصل الخوارج وفرقهم على الجملة ثم نعود الى موضوعنا الذى كنا فيه فنقول قد تقدّم لنا فى خلافة علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ما كان من أمر التحكيم وما نشأ عنه من خروج طائفة من القراء عليه وقالوا حكمت الرجال فى دين الله ولا حكم الا لله وان عليا رضى الله عنه استأصلهم بالنهروان فقال له بعض أصحابه قد قطع الله دابرهم آخر الدهر فقال علىّ رضى الله عنه والذى نفسى بيده انهم لفى أصلاب الرجال وأرحام النساء لاتخرج خارجة الا خرجت بعدها مثلها فصدق الله قول علىّ ونبغت منهم طوائف بالعراق وغيره وتكرر خروجهم على الخلفاء وشرى داؤهم وأعيى دواؤهم وتعددت فرقهم ومذاهبهم ﴿قال ابن خلدون﴾ افترقت الخوارج على أربع فرق (الاولى الازارقة) أصحاب نافع بن الازرق الحنفى وكان رأيه البراءة من سائر المسلمين وتكفيرهم والاستعراض يعنى القتل من غير سؤال عن حال أحد وقتل الاطفال واستحلال الامانة لانه يراهم كفارا (الثانية النجدية) ويقال لهم النجدات أصحاب

نجدة بن عامر الحنفي وهم بخلاف الازارقة في ذلك كله (الثالثة الاباضية) أصحاب عبد الله بن اباض التميمي ثم الصريحي وهم يرون ان المسلمين كلهم بحكم لهم بحكم المنافقين فلا ينتهون الى الرأى الاول لا يقفون عند الثاني ولا يحرمون مناكحة المسلمين ولا موارثتهم وهم عندهم كالمنافقين ومن هؤلاء البيهسية أصحاب أبي بيهس هيصم بن جابر الضبعي (الرابعة الصفرية) وهم موافقون للاباضية الا في القعدة يعني الذين يقعدون عن القتال معهم فان الاباضية أشد على القعدة منهم وربما تشعبت هذه الآراء بعد ذلك واختلف في تسمية الصفرية فقيل نسبوا الى عبد الله بن صفار الصريحي وقيل اصفروا بما نهكتهم العبادة وفي القاموس الصفرية بالضم ويكسر قوم من الحرورية نسبوا الى عبد الله بن صفار ككتان أو الى زياد بن الاصفر أو الى صفرة ألوانهم أو لخلوهم من الدين انتهى وقد كانت الخوارج من قبل هذا الافتراق على رأى واحد لا يختلفون الا في الشاذ من الفروع وفي أصل افتراقهم مكاتبات بين نافع بن الازرق وأبي بيهس وعبد الله بن أباض ذكرها المبرد في الكامل فلتنظر هنالك وكانت خوارج المغرب أباضية وصفرية فلما كانت ولاية عبيد الله بن الحبحاب ونال عماله من البربر ما نالوا من الجور والعسف انتقضوا عليه وثار ميسرة المضغرى المعروف بالخفير باحواز طنجة ومضغرة بطن من بني فاتن ابن تامصيت بن ضرى بن زجيك بن مادغيس الابتر وكانوا على رأى الصفرية وكان شيخهم ميسرة المذكور مقدما في ذلك المذهب فحمل البربر على الخروج عن الطاعة وزحف الى عمر بن عبيد الله بطنجة فقتله سنة اثنتين وعشرين ومائة وولى عليها من قبله عبد الاعلى بن جريج الافريقي رومي الاصل ومولى للعرب كان امام الصفرية في انتحال مذهبهم فقام بأمرهم مدة ثم تقدم الى السوس فقتل عاملها اسمعيل بن عبيد الله وكان ميسرة لما استولى على طنجة والمغرب الاقصى قد بايعه البربر بالخلافة وخاطبوه بامير المؤمنين اذ الخوارج لا يشترطون في الامام الاعظم القرشية محتجين بقوله صلى الله عليه وسلم اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة وهو مؤول واضطرم المغرب نارا وفشت نحلة الخارجية في جميع قبائله وانتقض أمره على خلفاء المشرق فلم يراجع طاعتهم بعد ثم ان ابن الحبحاب بعث الى ميسرة خالد بن حبيب الفهري فيمن كان قد بقي عنده من الجيش واستقدم أباه حبيب بن أبي عبيدة من صقلية فقدم فيمن معه من عساكر المسلمين وبعثه في اثر خالد ونهض اليهم ميسرة في جموع البربر فلقيهم باحواز طنجة فاقتتلوا قتالا شديدا ثم تحاجزوا ورجع ميسرة الى طنجة فساءت سيرته في البربر ونقموا عليه ما جاءبه فقتلوه وولوا عليهم مكانه خالد بن حميد الزناتي ﴿وقال ابن عبد الحكم﴾ هو من هتورة احدى بطون زناتة فقام بامرهم واجتمع اليه البربر فزحف الى العرب وسرح اليه ابن الحبحاب عساكر الخليفة هشام بن عبد الملك وعلى مقدمتها خالد بن حبيب الفهري فكان اللقاء على وادي شلف فانهزم المسلمون وقتل خالد بن حبيب ووجوه من معه من العرب فسميت الوقعة وقعة الاشراف وانتقض المغرب على ابن الحبحاب من سائر جهاته وبلغ الخبر الى أهل الاندلس فعزلوا عاملها عقبة بن الحجاج السلولي وولوا عليهم عبد الملك بن قطن الفهري ومرج أمر الناس وانتهى الخبر بذلك كله الى الخليفة هشام بدمشق فعزل ابن الحبحاب عن المغرب ﴿وقال صاحب الخلاصة﴾ لما اختلت الامور على ابن الحبحاب اجتمع الناس وعزلوه فبلغ ذلك هشاما فغضب وكتب الى ابن الحبحاب بالقدوم فخرج في جمادى الاولى سنة ثلاث وعشرين ومائة والله أعلم

﴿ولاية كلثوم بن عياض على المغرب ومقتله﴾

لما انتهى الى الخليفة هشام ما كان من أمر خوارج البربر بالمغرب والاندلس وخلعهم للطاعة شق ذلك عليه واستضعف ابن الحبحاب فكتب اليه يستقدمه وولى على المغرب كلثوم بن عياض القشيري ووجه معه جيشا كثيفا لقتالهم كان فيه مع ما انضاف اليه من جموع البلاد التي مر بها سبعون ألفا على ما قيل

ولما انتهى كلثوم الى القيروان أساء السيرة فى أهلها فكتبوا الى حبيب بن أبى عبيدة وهو يومئذ بتلمسان مواقف للبربر يشكون منه اليه وكان لآل عقبة بالمغرب وجاهة لم تكن لغيرهم فكتب اليه حبيب ينهاه و يتوعده فاعتذر كلثوم وأغضى له عليها ثم استخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة وسار يؤم المغرب فى جموعه وعلى مقدمته ابن أخيه بلج بن بشر القشيرى فمر على طريق سبيبة وانتهى الى تلمسان فلقى حبيب بن أبى عبيدة فاقتتلا ثم اصطلحا و زحفا جميعا الى المغرب الاقصى فنهضت اليهم البربر وكان اللقاء على وادى سبو من أعمال طنجة ﴿وقال ابن خلدون﴾ فى أخبار البربر ان الخليفة هشاما ولى كلثوم ابن عياض على المغرب سنة ثلاث وعشرين ومائة وسرّحه فى اثنى عشر ألفا من أهل الشام وكتب الى ثغور مصر و برقة وطرابلس أن يمدّوه فزحف الى افريقية ثم الى المغرب حتى بلغ وادى سبو فبرز اليه خالد بن حميد الزناتى فيمن معه من البربر وكانوا خلقا لا يحصون فلقوا كلثوم بن عياض بعد ان هزموا مقدمته فاشتدّ القتال بينهم وقتل كلثوم وحبيب بن أبى عبيدة وكثير من الجند وافترقت العساكر فمضى أهل الشام الى الاندلس مع بلج بن بشر ومضى أهل مصر وافريقية الى القيروان * وماذكره من ان خالد بن حميد هو الذى هزم جيوش كلثوم فى هذه الوقعة هو مقتضى ماسبق من ان ميسرة قتل فى ولاية عبيد الله بن الحبحاب وجزم ابن حيان بان الذى هزم جيوش كلثوم هو ميسرة الخفير واقتصر عليه ابن خلدون فى أخبار بنى فاتن قال انتهت مقدمة كلثوم بن عياض الى سبو من أعمال طنجة فلقيه البربر هنالك مع ميسرة وقد فحصوا عن أوساط رؤسهم وتنادوا بشعار الخارجية فهزموا مقدمته ثم هزموه وقتلوه وكان كيدهم فى لقائهم اياه ان ملؤا الشنان بالحجارة وربطوها فى أذناب الخيل ثم أرسلوها فى جيش العرب فكانت الحجارة تقعقع فى شنانها وخيل العرب تنفر حتى اختل مصافهم وتمت الهزيمة عليهم فافترقوا وذهب بلج مع الطلائع من أهل الشام الى سبتة ورجع أهل مصر وافريقية الى القيروان وظهرت الخوارج فى كل جهة واقتطع المغرب عن طاعة الخلفاء الى أن هلك ميسرة وقام برياسة مضغرة من بعده يحيى بن حارث منهم اهـ كلام ابن خلدون فاضطرب النقل فى هذه الواقعة كما ترى والله أعلم بالصواب ﴿وقال ابن حيان﴾ ان كلثوم بن عياض لما انهزمت جيوشه تحاجز بها الى سبتة فى أهل الشام ومعه ابن أخيه بلج بن بشر بن عياض وحاصرهم البربر بها ولما اشتد حصارهم بسبتة وانقطعت عنهم الاقوات و بلغوا من الجهد الغاية استغاثوا باخوانهم من عرب الاندلس فتثاقل عنهم صاحبها عبد الملك بن قطن لخوفه على سلطانه منهم فلما شاع خبر ضررهم عند رجالات العرب أشفقوا عليهم فاغاثهم زياد بن عمرو اللخمى بمركبين مشحونين ميرة أمسكت من أرماقهم فلما بلغ ذلك عبد الملك بن قطن ضربه سبعمائة سوط ثم اتهمه بعد ذلك بتضريب الجند عليه فسمل عينيه ثم ضرب عنقه وصلب عن يساره كلبا واتفق فى هذا الوقت ان برابرة الاندلس لما بلغهم ما كان من ظهور برابرة العدوة على العرب انتقضوا على عرب الاندلس واقتدوا بما فعله اخوانهم بالمغرب وتفطنوا لما كانوا غافلين عنه قبل ذلك من الخلاف على العرب ومزاحمتهم فى سلطانهم وأصل ذلك كله النزغة الخارجية فاستفحل أمرهم بالاندلس وكثر ايقاعهم بجيوش ابن قطن فخاف ان يلقى منهم ما لقيه العرب بالمغرب من اخوانهم و بلغه انهم قد عزموا على قصده فلم ير أجدى له من الاستمداد بصعاليك عرب الشام أصحاب بلج المحصورين بسبتة فكتب الى بلج وقد مات عمه كلثوم فاسرعوا الى اجابته وكانت تلك أمنيتهم فاحسن اليهم وأسبغ النعمة عليهم وشرط عليهم أن يقيموا عنده سنة واحدة حتى اذا فرغوا له من البربر انصرفوا الى مغربهم وخرجوا له عن أندلسه فرضوا بذلك وعاهدوه وأخذ منهم الرهائن عليه ثم قدّم عليهم ابنيه قطنا وأمية والبربر فى جموع لا يحصيها غير رازقها فاقتتلوا قتالا صعب فيه المقام الى ان كانت الدبرة على البربر فقتلهم العرب باقطار الاندلس حتى ألحقوا فلهم بالثغور وخفوا عن العيون فكرّ الشاميون وقد امتلأت أيديهم من الغنائم

فاشتدت شوكتهم وثابت همتهم وبطروا ونسوا العهود وطالبهم ابن قطن بالخروج عن الاندلس فتعللوا عليه وذكروا صنيعه بهم أيام انحصارهم بسبتة وقتله الرجل الذى أغاثهم بالميرة فخلعوه وقدموا على أنفسهم أميرهم بلج بن بشر وتبعه جند ابن قطن وأغروه بقتله فأبى فثارت اليمانية وقالوا قد حميت لمضرك والله لا نطيعك فلما خاف تفرق الكلمة أمر بابن قطن فأخرج اليهم وهو شيخ كبير كفرخ نعامة قد شهد وقعة الحرة بالمدينة فجعلوا يسبونه ويقولون له أفلت من سيوفنا يوم الحرة ثم طالبتنا بتلك الترة فعرضتنا لاكل الكلاب والجلود وحبستنا بسبتة محبس الضنك حتى أمتنا جوعا فقتلوه وصلبوه فى ذى القعدة سنة ثلاث وعشرين ومائة وصلبوا عن يمينه خنزيرا وعن يساره كلبا واستولى بلج على الاندلس وكانت خطوب يطول ذكرها والله ولى العون والتوفيق

﴿ولاية حنظلة بن صفوان على المغرب﴾

لما سمع الخليفة هشام بما جرى على كلثوم وأصحابه قامت قيامته فوجه حنظلة بن صفوان الكلبى وهو أخو بشر بن صفوان المتقدم واليا على المغرب فقدم القيروان سنة أربع وعشرين ومائة فوجد هوارة وهم ولد هوار بن أوريغ بن برنس خوارج على الدولة ورئيساهم عكاشة بن أيوب الفزارى وعبد الواحد ابن يزيد الهوارى وكانا على مذهب الصفرية فلما استقر حنظلة بالقيروان لم يلبث الا يسيرا حتى زحف اليه عكاشة وعبد الواحد فى هوارة ومن تبعهم من البربر فخرج اليهم حنظلة والتقوا على القرن من ظاهر القيروان فهزمهم بعد قتال صعب واستلحمهم وقتل عبد الواحد وأخذ عكاشة أسيرا ولما جىء اليه بعكاشة فى رمته وبرأس عبد الواحد سجد شكرا لله تعالى على ما منحه من الفتح وأمر بعكاشة فقتل وأحصيت القتلى فى ذلك اليوم فكانوا مائة وثمانين ألفا وكتب حنظلة بذلك الى الخليفة هشام وسمعها الليث بن سعد فقال ما غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب الى من غزوة القرن والاصنام ثم وجه حنظلة أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبى واليا من قبله على الاندلس فركب اليها البحر من تونس سنة خمس وعشرين ومائة فدان له أهل الاندلس واستقام أمره بها حينا من الدهر ثم ثار عليه الصميل بن حاتم الكلبى وخلعه فى خبر طويل ولم يزل حنظلة على المغرب فى أحسن حال الى ان طرق الخلل الخلافة بالمشرق وخفت صوتها لما حدث فى بنى أمية من فتنة الوليد الفاسق وما كان من أمر الشيعة والخوارج مع مروان الحمار آخر خلفائهم وأفضى الامر الى الادالة منهم ببنى العباس فاجاز عبد الرحمن بن حبيب الفهرى من الاندلس الى المغرب وغلب حنظلة عليه سنة ست وعشرين ومائة على ما نذكره

﴿ذكر صالح بن طريف البرغواطى المتنبئ ومخرقته﴾

وفى هذا التاريخ كان ظهور صالح بن طريف البرغواطى الذى ادعى النبوة بتامسنا من بلاد المغرب الاقصى على ساحل البحر المحيط فيما بين سلا وآسفى وبرغواطة بطن من المصامدة على ما حققه ابن خلدون وكان أبوه طريف يكنى أبا صالح وكان من قواد ميسرة الحقير القائم بدعوة الصفرية ولما انقرض أمر ميسرة بقى طريف قائما بأمر برغواطة بتامسنا ويقال انه تنبأ أيضا وشرع لهم الشرائع ثم هلك وولى مكانه ابنه صالح هذا وقد كان شهد مع أبيه حروب ميسرة ﴿قال ابن خلدون﴾ وكان من أهل العلم والخير ثم انسلخ من آيات الله وانتحل دعوى النبوة وشرع لهم الديانة التى كانوا عليها من بعده وهى معروفة فى كتب المؤرخين ﴿قال فى القرطاس﴾ كان الضلال الذى شرع لهم انهم يقرون بنبوته وانهم يصومون شهر رجب ويأكلون شهر رمضان وفرض عليهم عشر صلوات خمسا بالليل وخمسا بالنهار وان الاضحية واجبة على كل شخص فى الحادى والعشرين من المحرم وشرع لهم فى الوضوء غسل السرة والخاصرتين وأمرهم أن لا يغتسلوا من جنابة الا من حرام وصلاتهم ايماء لا سجود فيها لكنهم يسجدون فى آخر ركعة

خمس سجدات ويقولون عند تناول الطعام والشراب باسمك ياكساى وزعم ان تفسيره بسم الله وأمرهم أن يخرجوا العشر من جميع الثمار وأباح لهم أن يتزوّج الرجل من النساء ماشاء ولا يتزوّج من بنات عمه ويطلقون ويراجعون ألف مرة فى اليوم فلا تحرم عليهم المرأة بشىء من ذلك وأمرهم بقتل السارق حيث وجد وزعم انه لا يطهره من ذنبه الا السيف وان الدية تكون من البقر وحرّم عليهم رأس كل حيوان والدجاجة مكروه أكلها وقدوتهم فى الاوقات الديكة وحرّم عليهم ذبحها وأكلها ومن ذبح ديكا أو أكله أعتق رقبة وأمرهم أن يلحسوا بصاق ولاتهم على سبيل التبرّك فكان يبصق فى أكفهم فيلحسونه ويحملونه الى مرضاهم يستشفون به ووضع لهم قرآنا يقرؤنه فى صلواتهم ويتلونه فى مساجدهم وزعم انه نزل عليه وانه وحى من الله تعالى اليه ومن شك فى ذلك فهو كافر والقرآن الذى شرّع لهم ثمانون سورة سماها لهم باسماء النبيين وغيرهم منها سورة آدم وسورة نوح وسورة فرعون وسورة موسى وسورة هرون وسورة بنى اسرائيل وسورة الاسباط وسورة أيوب وسورة يونس وسورة الجمل وسورة الديك وسورة الجمل وسورة الجراد وسورة هاروت وماروت وسورة ابليس وسورة الحشر وسورة غرائب الدنيا وفيها العلم العظيم بزعمهم حرّم فيها وحلل وشرع وفصل وتسمى فيهم بصالح المؤمنين وقال أنا صالح المؤمنين الذى ذكره الله فى كتابه الذى أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم كما حكاه البكرى عن زمور بن صالح الوافد منهم على الحكم المستنصر الخليفة بقرطبة من قبل ملكهم يومئذ أبى منصور عيسى بن أبى الانصار سنة ثنتين وخمسين وثلاثمائة وكان يترجم عنه بجميع خبره داود بن عمر المسطاسى قال وكان ظهور صالح هذا فى خلافة هشام بن عبد الملك سنة سبع وعشرين ومائة ﴿وقد قيل﴾ ان ظهوره كان لاوّل الهجرة وانه انتحل ذلك عنادا ومحاكاة لما بلغه من شأن النبى صلى الله عليه وسلم والاوّل أصح ثم زعم انه المهدى الاكبر الذى يخرج فى آخر الزمان وأن عيسى يكون صاحبه ويصلى خلفه وان اسمه فى اللسان العربى صالح وفى السريانى مالك وفى العجمى عالم وفى العبرانى روبيل وفى البربرى وارباو ومعناه الذى ليس بعده نبى ثم خرج الى المشرق بعد ان ملكهم سبعا وأربعين سنة ووعدهم انه يرجع اليهم فى دولة السابع منهم وأوصى بنيه بالتمسك بدينه فتوارثوا ضلالته من بعده الى أواسط المائة الخامسة وكان للدول فيهم ملاحم الى ان جاءت دولة المرابطين فمحوا أثر بدعتهم وسنعيد القول فيهم بابسط من هذا عند الوصول اليها ان شاء الله

﴿الخبر عن تغلب آل عقبة بن نافع على المغرب وولاية عبد الرحمن بن حبيب منهم﴾

كان عقبة بن نافع الفهرى رضى الله عنه واليا على المغرب كما مر وهو الذى افتتح الاقصى منه ولما استشهد بالزاب بقى بنوه به فكانت لهم وجاهة معروفة بين أهله لمكان أبيهم عقبة من جهاد العدوّ وما فتح الله على يده من الاقطار واختطاطه مدينة القيروان التى هى كرسى الامارة فكان ما منح الله أهل المغرب من الاسلام والدين كله فى صحيفته فنالوا بذلك شرفا خاصا زيادة على شرف القرشية وعز الفهرية فكان يكون لهم الشفوف فى بعض الاحيان حتى على الولاة فضلا عن غيرهم وقد تقدم لنا فى أخبار موسى ابن نصير انه استعمل ابنه عبد العزيز على الاندلس فثار عليه حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع وقتله باغراء سليمان بن عبد الملك وتقدم أيضا ما كان منه الى كلثوم بن عياض عند قدومه القيروان من التوعد حتى أدى ذلك الى مقاتلتهما ولما قتل حبيب هذا فى وقعة كلثوم المتقدمة كان ابنه عبد الرحمن ابن حبيب صاحب الترجمة فى جملة أصحاب بلج الناجين الى سبتة ولما قتل أصحاب بلج عبد الملك بن قطن الفهرى وصلبوه كما مر فارقهم عبد الرحمن هذا لما صنعوا بابن عمه وعزم على الطلب بدمه فاجتمع اليه نحو مائة ألف من عرب الاندلس وبربرها وعمد الى بلج فقتله فى خبر طويل ثم حاول عبد الرحمن التغلب على الاندلس فلما قدم أبو الخطار واليا عليها من قبل حنظلة بن صفوان أيس منها وركب البحر الى المغرب فاحتل بتونس فى جمادى الاولى سنة ست وعشرين ومائة وقد توفى هشام وولى الخلافة بعده الوليد بن

يزيد الفاسق فدعا عبد الرحمن أهل تونس الى نفسه فأجابوه وبلغ ذلك حنظلة صاحب القيروان فكره قتال المسلمين وسفك دمائهم فبعث اليه جماعة من وجوه الجند يدعونه الى الطاعة فلما وصلوا اليه انتهز الفرصة وأوثقهم فى الحديد وأقبل بهم الى القيروان فيمن اجتمع اليه وأرسل الى أوليائهم يحذرهم قتاله ويقول ان رميتم ولو بحجر قتلت من فى يدى فأحجموا عنه ضنا بأشرافهم عن القتل وعلم بذلك حنظلة فارتحل الى المشرق سنة سبع وعشرين ومائة ودخل عبد الرحمن القيروان فتمكن منها واستولى على المغرب وهو أول متغلب عليه قالوا ولما ولى مروان بن محمد المعروف بالحمار الخلافة بعث اليه بعهده وكان أمر البربر يومئذ قد تفاقم وداء الخارجية قد أعضل ورؤسها قد نبغت فى كل جهة فانتقضوا من أطراف البقاع وتواثبوا على الامر بكل مكان داعين الى بدعتهم وتولى كبر ذلك منهم صنهاجة فانهم التفوا على كبيرهم ثابت الصنهاجى وتغلبوا على باجة وثارت هوارة بطرابلس ملتفين على رئيسهم عبد الجبار والحارث وغير هؤلاء وكانوا على مذهب الاباضية فقتلوا عامل طرابلس بكر بن عيسى القيسى لما خرج يدعوهم الى السلم وعظم الخطب فزحف اليهم عبد الرحمن بن حبيب سنة احدى وثلاثين ومائة فظفر بالصنهاجى والهوارى وقتلهما وفل جموعهما ثم زحف الى عروة بن الوليد الصفرى وكان قد ثار بتونس فقتله واستأصل الثوار وانقطع أمر الخوارج من افريقية ثم زحف سنة خمس وثلاثين ومائة الى جموع من البربر كانوا قد تجمعوا بنواحى تلمسان فظفر بهم وفل جمعهم ورجع ثم أغزا جيشا فى البحر الى اصقلية وآخر الى سردانية فاثخنوا فى أمم الفرنج حتى أذعنوا للجزية ودوخ عبد الرحمن أرض المغرب وأذل المعاندين الى ان كان ما نذكره ﴿وأما أهل الاندلس﴾ فانهم كانوا قد خلعوا أبا الخطار وولوا عليهم ثوابة ابن سلامة الجذامى ﴿قال ابن بشكوال﴾ لما اتفقوا عليه خاطبوا بذلك عبد الرحمن بن حبيب فكتب اليه بعهده وذلك سلخ رجب سنة سبع وعشرين ومائة فضبط البلاد واستمر واليا سنتين أو نحوها ثم هلك وولى أهل الاندلس عليهم يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب وهو ابن صاحب الترجمة ﴿ذكر الرازى﴾ أن مولده كان بالقيروان وانه لما استولى أبوه على المغرب خرج يوسف هذا مغاضبا له لامر اقتضى ذلك فقدم الاندلس واستوطنها وسادبها فأقامه أهلها واليا عليهم بعد أميرهم ثوابة وقد مكثوا فوضى أربعة أشهر وكان اجتماعهم عليه باشارة الصميل بن حاتم الكلابى فاستبد يوسف بالاندلس وضبطها الى ان دخل عليه عبد الرحمن بن معاوية الاموى المعروف بالداخل فانتزعها منه وأورثها ابنيه كما سيأتى * ولما استقر قدم الدولة العباسية بالمشرق وانقرض أمر بنى أمية سنة اثنتين وثلاثين ومائة وذهبوا فى كل وجه أفلت عبد الرحمن بن معاوية هذا وقصد المغرب فاجتاز بالقيروان وبها عبد الرحمن بن حبيب صاحب الترجمة فارتاب به وعزم على قتله فنجا الاموى الى الاندلس وكان من أمره ما كان ﴿ذكر ابن حيان﴾ أن عبد الرحمن بن معاوية الاموى سار حتى أتى افريقية فنزلها وقد سبقه اليها جماعة من فل بنى أمية وكان عند صاحبها عبد الرحمن بن حبيب يهودى حدثانى قد صحب مسلمة بن عبد الملك فكان يتكهن له ويخبره بتغلب القرشى وملكه الاندلس ويرثها عقبه من بعده وان اسمه عبد الرحمن وهو ذو ضفيرتين ومن بيت الملك فاتخذ الفهرى ضفيرتين أرسلهما رجاء أن تناله الرواية فلما جىء اليه بعبد الرحمن الاموى ورأى ضفيرتيه قال لليهودى هو هذا وأنا قاتله فقال له اليهودى ان قتلته فما هو به وان غلبت عليه فانه لهو ونقل فل بنى أمية على ابن حبيب فطرد كثيرا منهم خوفا على ملكه ثم تجنى على ابنين للوليد بن يزيد كانا قد استجارا به فقتلهما وأخذ مالا كان مع اسمعيل بن أبان بن عبد العزيز بن مروان وغلبه على أخته فتزوجها غصبا وطلب عبد الرحمن الداخل فاختفى كذا لابن حيان ﴿وعند ابن خلدون﴾ ان الاخت المذكورة زوجها عبد الرحمن من أخيه الياس بن حبيب ولما قتل ابنى عمها امتعضت لذلك وأغرت زوجها واستفسدته على أخيه حتى قتله كما نذكر وذلك انه لما انتظم أمر الدولة العباسية بالمشرق

وبويع السفاح ثم المنصور بعده كتب الى عبد الرحمن بن حبيب يدعوه الى الطاعة والبيعة فاجابه ودعاله وبعث اليه بهدية فيها بزاة وكلاب وذهب قليل وذكر ان افريقية اليوم اسلامية وقد انقطع السبي فغضب المنصور وكتب اليه يتوعده وبعث اليه مع ذلك بخلعة الامارة فنزع عبد الرحمن يده من الطاعة ومزق الخلعة على المنبر فوجد أخوه الياس بذلك السبيل الى ما كان يحاوله عليه وداخل وجوه الجند في الفتك به واعادة الدعوة للخليفة المنصور ومالأه على ذلك أخوه عبد الوارث بن حبيب وأحس عبد الرحمن منهما بالشر فأمر الياس بالمسير الى تونس فاظهر الامتثال ثم جاء ليودعه ومعه عبد الوارث وكان عبد الرحمن مريضا فدخلا عليه وقتلاه على فراشه آخر سنة سبع وثلاثين ومائة لعشر سنين وسبعة أشهر من تغلبه على المغرب

﴿استيلاء الياس بن حبيب على المغرب﴾

لما فتك الياس باخيه عبد الرحمن معتمدا عليه بخلعه طاعة الخليفة فر ابنه حبيب بن عبد الرحمن الى تونس بعد ان طلبوه وضبطوا أبواب القصر ليأخذوه فلم يظفروا به وكان عمه عمران بن حبيب واليا بتونس من قبل أبيه فلحق به وتم الامر لالياس واستولى على القيروان ثم زحف اليه عمران وحبيب فيمن اجتمع اليهما وخرج الياس للقائهم فالتقوا واقتتلوا مليا ثم اصطلحوا على أن يكون لحبيب قفصة وقسطيلة وسائر بلاد الجريد ولعمران تونس وسطفورة والجزيرة ولالياس القيروان وسائر افريقية والمغرب وتم هذا الصلح سنة ثمان وثلاثين ومائة وسار حبيب الى عمله من بلاد الجريد وارتحل الياس مع أخيه عمران الى تونس ولما وصلا اليها غدر الياس بعمران فقتله وقتل جماعة من الاشراف معه وقيل غربه الى الاندلس وعاد هو الى القيروان فبعث بطاعته الى أبي جعفر المنصور مع قاضي افريقية عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وصفاله أمر المغرب وثقل عليه مكان حبيب فاحتال عليه حتى أركبه البحر الى الاندلس وأركب معه أخاه عبد الوارث فردهم قاصف من الريح الى طبرقة وكتبوا بخبرهم الى الياس فلج في طردهم وتسامعت موالي عبد الرحمن وشيعته بابن مولاهم فتسارعوا اليه وأنزلوا من السفين والتفوا عليه وزحفوا به الى تونس فملكوها وخرج الياس لقتالهم فخالفوه الى القيروان وملكوها عليه وفتقوا السجون فرجع الياس لقتالهم وقد فر أكثر من معه الى حبيب ولما تراآ الجمعان حول القيروان برز حبيب فنادى ياعم لم نقتل أولياءنا وصنائعنا وهم جنتنا فهلم للبراز فأينا غلب ملك فصاح الجيشان بتصويب رأيه فبرزا وتضاربا حتى عجب الناس من صبرهما ثم قتل حبيب الياس ودخل القيروان فملكها آخر سنة ثمان وثلاثين ومائة فكانت ولاية الياس نحو سنة ونصف وفي هذه السنة استولى عبد الرحمن ابن معاوية الاموي على جزيرة الاندلس انتزعها من يد أميرها يوسف بن عبد الرحمن الفهري وهو أخو حبيب المذكور آنفا ﴿قال ابن حيان﴾ كان تغلب عبد الرحمن بن معاوية المرواني على سرير الملك بقرطبة يوم الاضحى لعشر خلون من ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائة واستقام أمره بالاندلس وبنى المسجد الجامع والقصر بقرطبة وأنفق فيه ثمانين ألف دينار ومات قبل تمامه ووفد عليه جماعة من أهل بيته من المشرق وكان يدعو للمنصور العباسي ثم قطع دعوته ومهد الدولة بالاندلس وأثل بها الملك العظيم لبني مروان وخرجت الاندلس من يومئذ عن نظر صاحب القيروان بل وعن نظر الخليفة بالمشرق والله غالب على أمره

﴿استيلاء حبيب بن عبد الرحمن على المغرب وفتنة عاصم بن جميل المتنبئ ومقتله﴾

لما قتل حبيب بن عبد الرحمن عمه الياس وتمكن من القيروان طلب عمه عبد الوارث لمشاركته في دم أبيه كامر ففر عبد الوارث الى ورفجومة احدى بطون نفزاو بن لوى من البرابرة البتر فنزل على كبيرهم عاصم بن جميل وكان كاهنا يدعي النبوة فاجاره ثم نهض اليهم حبيب فاوقعوا به وهزموه الى قابس

واستفحل أمر عاصم وشايعه على شأنه من رجالات نفزاوة عبد الملك بن أبي الجعد الورفجومي ويزيد بن سكوم الولهاصي وكانا على رأي الاباضية وانضمت اليهم سائر نفزاوة واشتدت شوكتهم وكان قيامهم أولا بدعوة الخليفة المنصور ولما بقي أهل القيروان فوضى بسبب فرار أميرهم الى قابس كتب من بها من العرب الى عاصم هذا يدعونه للقدوم عليهم والقيام بامرهم بشرط الدعاء للمنصور فأتى وقاتلهم فهزمهم ودخل القيروان عنوة واستباح أهلها وخرب مساجدها وأهانها ثم سار الى حبيب بقابس بعد ان استخلف على القيروان ومن بقي بها من نفزاوة عبد الملك بن أبي الجعد فقاتل حبيبا وهزمه فلحق حبيب بجبل أوراس وأجاره أهله ثم زحف اليهم عاصم فهزموه وقتلوه واستلحموا جماعة من أصحابه وقام بأمر ورفجومة والقيروان من بعده عبد الملك بن أبي الجعد وأهل القيروان أثناء هذا كله في غاية المذلة والهوان مع البربر ثم زحف حبيب الى القيروان فبرز اليه عبد الملك وهزم حبيبا وقتله في المحرم سنة أربعين ومائة فكانت ولايته نحو ثلاث سنين وانقرض بقتله أمر آل عقبة من المغرب والبقاء لله وحده

﴿استيلاء عبد الملك بن أبي الجعد على المغرب﴾

لما قتل عبد الملك بن أبي الجعد الورفجومي حبيب بن عبد الرحمن الفهري ورجع في جموع البربر الى القيروان فلكها وأمر ورفجومة واستطالوا على أهل القيروان وقتلوا من بها من قريش وسائر العرب حيث وجدوا وعاملوهم معاملة المكاسيين لآل ادريس واستحلوا من الحرمات مالم يستحله عاصم بن جميل قبلهم حتى لقد ربطوا دوابهم بالمسجد الجامع واشتد البلاء على أهل القيروان وافترقوا في النواحي فرارا بانفسهم وشاع خبرهم في الآفاق فحينئذ قام أبو الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافري من رجالات العرب وكان على رأي الاباضية باحواز طرابلس منكر الفعل ورفجومة ومغيرا عليهم حسبما نذكر

استيلاء عبد الاعلى بن السمح على المغرب وظهور الصفرية من آل مدرار المكاسيين وبناؤهم مدينة سجلماسة

كان أبو الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافري من وجوه العرب وكان على رأي الاباضية كما قلنا ولما بلغه ما ارتكبته ورفجومة من أهل القيروان امتعض لذلك وقام محتسبا عليهم وشايعه على ذلك برابرة طرابلس وتولى كبر ذلك هوارة منهم وهوارة احدى بطون أوربة من البرانس فاجتمعوا اليه وتقدم بهم الى طرابلس فلكها ثم زحف الى القيروان سنة احدى وأربعين ومائة فخرج اليه عبد الملك بن أبي الجعد في جموعه فانخزل عنه أهل القيروان لما نالهم من عسفه وعسف قومه فانهزم وقتل واستولى أبو الخطاب على القيروان وأثخن في جموع عبد الملك من ورفجومة وسائر نفزاوة ثم ولى على القيروان عبد الرحمن بن رستم الفارسي وهو من أبناء رستم أمير الفرس يوم القادسية كان عبد الرحمن هذا من موالي العرب ومن رؤس هذه البدعة فاستخلفه أبو الخطاب على القيروان ورجع هو الى طرابلس للقاء العساكر القادمة من جهة الخليفة المنصور على مانذكره * ولما حصل هذا الاضطراب بالمغرب اجتمعت الصفرية من مكناسة بناحية المغرب الاقصى فنقضوا طاعة العرب وولوا عليهم عيسى ابن يزيد الاسود من موالي العرب ورؤس الخوارج واختطوا مدينة سجلماسة سنة أربعين ومائة من الهجرة ودخل سائر مكناسة من أهل تلك الناحية في دينهم واقتطعوا سجلماسة وأعمالها عن نظر الولاة بالقيروان ومن هذا الاجتماع تنشأت دولة بني مدرار ملوك سجلماسة فان صفرية مكناسة لما بايعوا عيسى بن يزيد أقام أميرا عليهم نحو خمس عشرة سنة ثم سخطوا امرته ونقموا عليه بعض أحواله فعمدوا اليه وأوثقوه كتافا ووضعوه على قنة جبل الى ان هلك سنة خمس وخمسين ومائة واجتمعوا بعده على كبيرهم أبي القاسم بن سمكو ابن واسول المكناسي الصفري كان أبوه سمكو من حملة العلم ارتحل الى المدينة فادرك التابعين وأخذ عن عكرمة مولى ابن عباس قاله عريب بن حميد القرطبي في تاريخه وكان

﴿ولاية عمر بن حفص هزارمرد على المغرب﴾

لما بلغ الخليفة المنصور مقتل الاغلب بن سالم وجه مكانه عمر بن حفص من ولد قبيصة بن أبي صفرة أخي المهلب بن أبي صفرة فقدم القيروان في خمسمائة فارس سنة احدى وخمسين ومائة فاستقامت أموره ثلاث سنين ثم خرج الى طبنة لادارة السور عليها واستخلف على القيروان حبيب بن حبيب المهلبي فثار البربر بافريقية لما علموا من بعد الحامية عنها وغلبوا على من كان بها وزحفوا الى القيروان فخرج اليهم حبيب فهزموه وقتلوه وثار البربر الاباضية بطرابلس وولوا عليهم أبا حاتم يعقوب بن لبيب المغيلي مولى كندة وتسامعت به خوارج المغرب فانتقضوا من كل ناحية ونبغت رؤس الفتنة من كل وجه وعادت هيف الى أديانها وكانت هذه الفتنة هي زبدة الفتن التي مخضتها الخوارج بالمغرب من لدن ميسرة الحقير الى الآن فانهم زحفوا الى عمر بن حفص وهو بطبنة من أرض الزاب في اثني عشر ألف عسكر فكان منهم أبو قرة اليفرني في أربعين ألفا من الصفرية وعبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت في خمسة عشر ألفا من الاباضية والمسور بن هانئ الزناتي في عشرة آلاف من الاباضية أيضا وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي في ألفين من صنهاجة الصفرية وجرير بن مسعود المديوني فيمن تبعه من مديونة وانضم اليهم غير هؤلاء من خوارج هوارة وزناتة ممن لا يحصى كثرة ولما اشتد الحصار على عمر بن حفص أعمل الحيلة في ايقاع الخلاف بينهم ودافعهم بالاموال وأرسل الى أبي قرة على يد ابنه أبي نور أن يعطيه أربعين ألفا ولابنه أربعة آلاف على ان يرتحل عنه فقبل وارتحل بقومه وانفض البربر عن طبنة ثم سار أبو حاتم يعقوب بن لبيب الى القيروان وحاصرها ثمانية أشهر حتى أكل أهلها الميتة ولما اشتد الحصار على أهل القيروان خرج عمر بن حفص من طبنة يريد أبا حاتم والاباضية الذين معه وبلغ أبا حاتم وأصحابه وهم محاصرون القيروان مسير عمر بن حفص اليهم فسار واللقائه فمال هو من الاربس الى تونس ثم جاء الى القيروان فدخلها واستعد للحصار وشحنها بالاقوات والرجال وأتبعه أبو حاتم والبربر وأبو قرة معهم في قومه وكانوا في ثلاثمائة وخمسين ألفا الخيل منهم خمسة وثمانون ألفا والباقي رجالة وأحاطوا بالقيروان وعمر بن حفص داخلها وطال الحصار ثم بلغه الخبر ان المنصور وجه لاستنقاذه ابن عمه يزيد بن حاتم المهلبي فانف من ذلك وقال لا خير في الحياة بعد ان يقال يزيد أخرجه من الحصار انما هي رقدة ثم أبعث الى الحساب وخرج عمر فقاتل حتى قتل أواسط حجة سنة أربع وخمسين ومائة وكان عمر هذا بطلا شجاعا يلقب هزارمرد وهو لفظ فارسي معناه ألف رجل ثم ولى الناس عليهم أخاه لامه حميد بن صخر وانقضى الحصار وأحرق أبو حاتم أبواب القيروان وثلم سورها وخرج أكثر الجند الى طبنة ودخل أبو حاتم القيروان فاستولى عليها ويقال ان ابن صخر وادعه على ما أحب والله تعالى أعلم

﴿ولاية يزيد بن حاتم على المغرب﴾

لما بلغ المنصور انتقاض افريقية على عمر بن حفص وحصاره بطبنة أولا ثم بالقيروان ثانيا بعث اليه يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة في ستين ألفا وبلغ خبره عمر بن حفص فحمله ذلك على الاستماتة كما تقدم وبلغ أبا حاتم وهو بالقيروان مسير يزيد بن حاتم اليه فخرج للقائه فلقيه يزيد بن حاتم بنواحي طرابلس واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم البربر وقتل أبو حاتم في ثلاثين ألفا من أصحابه وتتبعهم يزيد بالقتل طلبا بدم عمر بن حفص ثم ارتحل الى القيروان فدخلها يوم الاثنين لعشر مضت من جمادى الاولى سنة خمس وخمسين ومائة فمهدها ورتب أسواقها أفرادا كل صناعة مكانا وجدد بناء جامعها وضبط الامور أحسن ضبط وكان عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن الفهري مع أبي حاتم فلحق بكتامة فبعث يزيد في طلبه المخارق بن غفار فحاصره ثمانية أشهر ثم غلب عليه فقتل جماعة ممن معه وهرب الباقون في كل ناحية ونجى هو الى الاندلس وبعث يزيد المخارق أيضا على الزاب فنزل طبنة وأثخن في البربر وأوقع

بهم وقائع عظيمة وكانت حروب الخوارج مع العرب منذ انتقضوا على عمر بن حفص الى انقضائها ثلاثمائة وخمسا وسبعين حربا قاله ابن خلدون ثم انتقضت ورفجومة سنة سبع وخمسين وولوا عليهم رجلا اسمه أبو زرجونة فسرح اليهم يزيد بن حاتم من عشيرته يزيد بن مجزأة المهلبي فهزموه واستأذنه ابنه المهلب وكان على الزاب وطبنة في الزحف الى ورفجومة فأذن له وأمده بالعلاء بن سعيد بن مروان المهلبي من عشيرتهم أيضا فأوقع بهم وقتلهم أبرح قتل وانتقضت نفزاوة من بعد ذلك في سلطنة ابنه داود بن يزيد فاستأصلهم قتلا أيضا فركدت ريح الخوارج من البربر حينئذ وتداعت بدعتهم الى الاضمحلال * قال ابن خلدون * لم يزل أمر الخوارج بالمغرب يعني أيام يزيد هذا في تناقص الى ان اضمحلت ديانتهم وافترقت جماعتهم وبقيت آثار نحلتهم في اعقاب البربر الذين دانوا بها في صدر الاسلام ففي بلاد زناتة بالصحراء منها أثر باق لهذا العهد وكذلك في جبال طرابلس أثر باق من تلك النحلة والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء واستمر يزيد بن حاتم ضابطا الامر افريقية والمغرب الى ان توفي بها يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة سبعين ومائة في خلافة هرون الرشيد العباسي فكانت ولايته خمس عشرة سنة وثلاثة أشهر وولي الناس عليهم ابنه داود الى ان كان ما نذكره وكان يزيد رحمه الله من السمحاء الامجاد والفضلاء الانجاد وكل بني المهلب كذلك وبهم ضرب المثل أبو محمد الحريري في المقامات اذ قال وصار الادب أعلق بي من الهوى ببني عذرة والشجاعة بآل أبي صفرة وقال الشاعر الحماسي

نزلت على آل المهلب شاتيا * بعيدا عن الاوطان في الزمن المحل

فما زال بي معروفهم وافتقادهم * وبرّهم حتى حسبتهم أهلي

* فأما يزيد * هذا من بينهم فحاله في الشجاعة وجودة الرأي كما رأيت وأما الجود والسخاء فهو وفيهما المثل السائر كان ربيعة بن ثابت الرقي الشاعر مدح يزيد بن أسيد بالتصغير السلمي وهو وال على أرمينية فقصر في حقه ثم مدح يزيد بن حاتم فبالغ في الاحسان اليه فقال ربيعة من قصيدة

لشتان ما بين اليزيدين في الندى * يزيد سليم والاغر بن حاتم

يزيد سليم سالم المال والفتى * فتى الازد للاموال غير مسالم

فهم الفتى الازدي اتلاف ماله * وهم الفتى القيسي جمع الدراهم

* ولاية روح بن حاتم على المغرب *

ولما بلغ الرشيد وفاة يزيد بن حاتم وكان أخوه روح واليا على فلسطين وكان أسن من يزيد استقدمه وعزاه في أخيه وولاه على المغرب فقدم القيروان منتصف سنة احدى وسبعين ومائة وكان يزيد قبله قد أذل الخوارج ومهد البلاد كما قلنا فكانت أرض المغرب ساكنة أيام روح ورغب في موادعته عبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت فوادعه * قال ابن خلدون * وفي أيام روح انخضدت شوكة البربر واستكانوا للغلب وطاعوا للدين فضرب الاسلام بجرانه وألقت الدولة المضرية على البربر بكلكلها اه كلام ابن خلدون * وفي أيام روح أيضا اجتاز الامام ادريس بن عبد الله ببلاد مصر وافريقية ناجيا من وقعة فخ التي كانت بمكة لآل العباس على آل علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ودخل مدينة وليلى من المغرب الاقصى سنة اثنتين وسبعين ومائة كما سيأتي ان شاء الله * قال ابن خلكان * كان روح بن حاتم من الكرماء الاجواد ولي لخمسة من الخلفاء السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد ويقال انه لم يتفق مثل هذا الا لابي موسى الاشعري رضي الله عنه فانه ولي لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء الاربعة رضي الله عنهم قال وكان روح واليا على السند ولاه عليها المهدي بن المنصور فلما مات أخوه يزيد بالقيروان ودفن بباب سلم قال أهل افريقية ما أبعد ما يكون بين قبري هذين الاخوين فان أخاه بالسند وهذا هنا فاتفق ان الرشيد عزل روحا عن السند وسيره الى موضع أخيه يزيد فدخل افريقية أول رجب

سنة احدى وسبعين ومائة ولم يزل واليها الى أن توفي به الاحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة أربع وسبعين ومائة ودفن مع أخيه يزيد فى قبر واحد فعجب الناس من هذا الاتفاق بعد ذلك التباعد رحمهما الله (ثم ولى المغرب) من قبل الرشيد حبيب بن نصر المهلبي ثم عزله سنة سبع وسبعين ومائة * وولى على المغرب الفضل بن روح بن حاتم وقتله عبد الله بن الجارود منتصف سنة ثمان وسبعين ومائة وانقرضت بانقراضه دولة آل المهلب من المغرب * ثم ولى الرشيد على المغرب هرثمة بن أعين فبنى القصر الكبير بالمنستير وبنى السور على طرابلس من جهة البحر ولما رأى هرثمة ما بالمغرب من كثرة الثوار والخلاف استعفى الرشيد من ولايتها فاعفاه لسنتين ونصف من ولايته * ثم ولى الرشيد على افريقية محمد ابن مقاتل العكي وكان رضيعاله فاضطربت عليه افريقية وبلغ الرشيد ذلك وطلب أهل افريقية من ابراهيم بن الاغلب وكان من عمال محمد بن مقاتل أن يكتب الى الرشيد فى الولاية عليهم فكتب الى الرشيد فى ذلك على ان يترك المائة ألف دينار التى كانت تحمل من مصر الى افريقية اعانة للولاة بها وعلى أن يحمل هو من افريقية الى الخليفة أربعين ألفا وبلغ الرشيد غناؤه وكفايته فاستشار فيه أصحابه فأشار هرثمة بن أعين بولايته فكتب له بالعهد على افريقية منتصف أربع وثمانين ومائة فقام ابراهيم بالامر وضبط البلاد فسكنت واستراحت من الفتن وابتنى مدينة العباسية قرب القيروان وانتقل اليها بجماعته وأورث بافريقية ملكا لبنيه من بعده وفى هذه المدة انقسم المغرب الى ثلاث ممالك فكان بنو الاغلب بافريقية والقيروان وبنو خزر المغراويون بالمغرب الاوسط وتلمسان وبنو ادريس بالمغرب الاقصى وقبل ان نفرد الكلام عليه نذكر فصلا نشير فيه الى مذاهب أهل المغرب ونحلهم على الجملة والله الموفق

﴿القول فى مذاهب أهل المغرب أصولا وفروعا وما يتبع ذلك﴾

قد تقدم لنا ما قاله الشيخ ابن أبي زيد رحمه الله من ان البربر ارتدوا اثنتى عشرة مرة وانه لم تستقر كلمة الاسلام فيهم الا لعهد موسى بن نصير وبعد فتحه الاندلس ثم كمل اسلامهم على يد اسمعيل بن عبيد الله ابن أبي المهاجر وتقدم ان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أرسل عشرة من التابعين يفقهون أهل المغرب فى دينهم فكان المغاربة فى صدر الاسلام لذلك على مذهب جمهور السلف من الائمة واعتقادهم وهو المذهب الحق الى ان حدثت فيهم بدعة الخارجية لاول المائة الثانية من الهجرة نزع اليهم بها بعض أهل النفاق من خوارج العراق وبثوها فيهم فتلقوها منهم بالقبول وحسن موقعها لديهم بسبب ما كانوا يعانونه من ثقل وطأة الخلافة القرشية وجور بعض عمالها حسبما تقدمت الاشارة اليه فلقنهم أهل البدع ان الخلافة لا تشترط فيها القرشية بل ولا العربية وان كل من كان أتقى لله كان أحق بها ولو عبدا حبشيا على ظاهر الحديث ودسوا اليهم مع ذلك بعض تشديدات الخوارج وتعمقاتهم وأروهم ما هم عليه من التصلب فى دينهم فظهر للبربر ببادئ الرأى ان تعمقهم ذلك انما هو أثر من آثار الخشية لله والخوف منه وان ذلك هو عين التقوى المأمور بها شرعا وغاب عنهم ان الدين يسر كما قال صلى الله عليه وسلم وان ملة الاسلام عرفت من بين الملل بالحنيفية السمحة لذلك والله تعالى يقول ما جعل عليكم فى الدين من حرج ومن أمعن نظره فى نصوص الشريعة من الكتاب والسنة علم يقينا ان طريق النجاة انما هى سلوك الوسط وان كلا من التعمق والانحلال ضلال والى ذلك الاشارة بقوله تعالى وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله الآية وقد قرر جمع من الائمة المقتدى بهم كالغزالي فى الاحياء وغيره ان المحمود فى أمور الديانات كلها انما هو سلوك الوسط بين الافراط والتفريط وبه يتم مراد الله من خلقه وكلا طرفى قصد الامور ذميم وهذا بحث طويل نفيس وقد رمزنا اليه بهذه النبذة اليسيرة والتوفيق بيد الله وقد رسخت هذه البدعة الخارجية فى البربر زمانا طويلا الى ان اضمحلت فى أواخر المائة الثانية وما بعدها ومع ذلك فقد بقيت منها آثار

فى أعقابهم من أصحاب الاطراف كما ذكره ابن خلدون والناقد بصير ولما ظهر الخلفاء من بنى العباس المغرب من هذه النزغة الشيطانية أخذ أهله بعدها بمذاهب أهل العراق فى الاصول والفروع لان ذلك المذهب يومئذ هو مذهب الخلفاء بالمشرق والناس على قدم امامهم ﴿قال عياض فى المدارك﴾ ظهر مذهب أبى حنيفة بافريقية ظهورا كثيرا الى قرب أربعمائة سنة فانقطع منها ودخل منه شئ الى ماوراءها من المغرب قديما بمدينة فاس وبالاندلس وكذا ظهر بالاندلس أيضا مذهب عبد الرحمن الاوزاعى من أهل الشام واختلف الناس فى السبب الذى انتقل به أهل المغرب عن مذهب أبى حنيفة وغيره الى مذهب الامام مالك بن أنس الذى هو مذهب السلف من أهل الحجاز فقال ابن خلكان فى ترجمة المعز بن باديس الصنهاجى المتوفى فى أواسط المائة الخامسة مانصه كان مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه بافريقية أظهر المذاهب فحمل المعز المذكور جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الامام مالك رضى الله عنه وحسم مادة الخلاف فى المذاهب واستمر الحال من ذلك الوقت الى الآن اهـ ﴿قلت﴾ كان المعز هذا وأسلافه من صنهاجة بافريقية على مذاهب الرافضة من الشيعة أخذوه عن خلفائهم العبيديين أيام استيلائهم على المغرب فى صدر المائة الرابعة وحملوا الناس عليه وامتحنوهم وطاردت بدعتهم فى أقطار المغرب كله فلما أفضى الامر الى المعز بن باديس المذكور قطع دعوة الشيعة من افريقية ودعا لبنى العباس وحمل الناس على التمسك بمذهب مالك عالم المدينة وامام دار الهجرة هذا والمعروف ان مذهب مالك ظهر أوّلا بالاندلس ثم انتقل منها الى المغرب الاقصى أيام الادارسة وكذا ظهر بافريقية ظهورا بينا قبل وجود المعز بكثير بل قبل استيلاء صنهاجة والعبيديين على المغرب وذلك على يد أسد بن الفرات وعبد السلام بن سعيد التنوخى المعروف بسحنون وغيرهما من أئمة المغاربة نعم لما ظهرت دولة الشيعة بافريقية حاولوا محوه فلم يتيسر لهم ذلك وكان فقهاء المالكية فى ذلك العصر معهم فى محنة عظيمة منهم ابن أبى زيد والقابسى وأبو عمران الفاسى وطبقتهم ولم يزل الامر على ذلك الى ان نصره المعز المذكور جزاه الله خيرا قالوا وكان ظهوره بالاندلس على يد الفقيه زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون فهو أوّل من أدخله الاندلس وكانوا قبل ذلك يتفقهون على مذهب الاوزاعى امام أهل الشام لمكان الدولة الاموية منهم فلما ظهر مالك رضى الله عنه بالمدينة وعظم صيته وانتشرت فتاويه باقطار الارض رحل اليه جماعة من أهل الاندلس والمغرب كان من أمثلهم وأسبقهم شبطون المذكور وقرعوس بن العباس وعيسى بن دينار وسعيد بن أبى هند وغيرهم أيام هشام بن عبد الرحمن الداخل فلما رجعوا وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ماعظم به ذكره بالاندلس فانتشر يومئذ علمه ورأيه بها وكان رائد الجماعة فى ذلك هو شبطون كما قلنا وهو أوّل من أدخل كتاب الموطأ المغرب أتى به مكملا متقنا فأخذه عنه يحيى بن يحيى الليثى ثم رحل بعد ذلك الى مالك فقرأه عليه وعاد الى الاندلس فتمم ما كان بقى من شهرة المذهب المالكى ﴿قال ابن حزم﴾ مذهبان انتشرا فى بدء أمرهما بالرياسة والسلطان مذهب أبى حنيفة فانه لما ولى الرشيد أبا يوسف خطة القضاء كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق الى أقصى عمل افريقية ومذهب مالك عندنا بالاندلس فان يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان مقبول القول فى القضاة وكان لا يلى قاض فى أقطار الاندلس الا بمشورته واختياره ولا يشير الا باصحابه ومن كان على مذهبه والناس سراع الى الدنيا فاقبلوا على مايرجون به بلوغ أغراضهم على ان يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب اليه وكان ذلك زائدا فى جلالته عندهم وداعيا الى قبول رأيه لديهم اهـ ﴿ورأيت﴾ فى بعض التآليف فى سبب ظهور مذهب مالك بالاندلس والمغرب ان حاج المغرب والاندلس قدموا على مالك رضى الله عنه بالمدينة فسألهم عن سيرة عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل فقيل له انه يأكل الشعير ويلبس الصوف ويجاهد فى سبيل الله فقال مالك ليت الله زين حرمنا بمثله فنقم عليه بنو العباس هذه

المقالة وكان ذلك سبب توصلهم الى ضربه فى مسئلة الاكراه كما هو مشهور وبلغت مقالته صاحب الاندلس فسر بها وجمع الناس على مذهبه فانتشر فى أقطار المغرب من يومئذ والله أعلم * ومما يناسب هنا ما نقله المؤرخون ان أبا عبد الله محمد بن خيرون الاندلسى الاصل القيروانى الدار ورحل الى المشرق فى صدر المائة الرابعة فأخذ عن علمائه وقرائه وعاد الى افريقية بقراءة نافع بن أبى نعيم وكان الغالب عليهم القراءة بحرف حمزة فشاع حرف نافع من يومئذ فى أقطار المغرب بعد ان كان لا يقرأ به الا الخواص واستمر الحال على ذلك الى اليوم فهذا حال أهل المغرب فى الفروع وأما حالهم فى الاصول والاعتقادات فبعد ان طهرهم الله تعالى من نزغة الخارجية أولا والرافضية ثانيا أقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة مقلدين للجمهور من السلف رضى الله عنهم فى الايمان بالمتشابه وعدم التعرض له بالتأويل مع التنزيه عن الظاهر وهو والله أحسن المذاهب وأسلمها ولله در القائل

عقيدتنا ان ليس مثل صفاته * ولا ذاته شئ عقيدة صائب
نسلم آيات الصفات بأسرها * وأخبارها للظاهر المتقارب
ونؤيس عنها كنه فهم عقولنا * وتأويلنا فعل اللبيب المراقب
ونركب للتسليم سفنا فانها * لتسليم دين المرء خير المراكب

واستمر الحال على ذلك مدة الى أن ظهر محمد بن تومرت مهدى الموحدين فى صدر المائة السادسة فرحل الى المشرق وأخذ عن علمائه مذهب الشيخ أبى الحسن الاشعرى ومتأخرى أصحابه من الجزم بعقيدة السلف مع تأويل المتشابه من الكتاب والسنة وتخريجه على ما عرف فى كلام العرب من فنون مجازاتها وضروب بلاغاتها مما يوافق عليه النقل والشرع ويسلمه العقل والطبع ثم عاد محمد بن تومرت الى المغرب ودعا الناس الى سلوك هذه الطريقة وجزم بتضليل من خالفها بل بتكفيره وسمى أتباعه الموحدين تعريضا بان من خالف طريقته ليس بموحد وجعل ذلك ذريعة الى الانتزاء على ملك المغرب حسبما تقف عليه مفصلا بعد ان شاء الله لكنه ما أتى بطريقة الاشعرى خالصة بل مزجها بشئ من الخارجية والشيعية حسبما يعلم ذلك باعمال النظر فى أقواله وأحواله وأحوال خلفائه من بعده ومن ذلك الوقت أقبل علماء المغرب على تعاطى مذهب الاشعرى وتقريره وتحريره درسا وتأليفا الى الآن وان كان قد ظهر بالمغرب قبل ابن تومرت فظهورا ما والله أعلم * وقد كان * عبد المؤمن بن على وبنوه من بعده قد منعوا الناس من التقليد فى الفروع وحملوا الائمة على أخذ الاحكام الشرعية من الكتاب والسنة مباشرة على طريقة الاجتهاد المطلق وحرقوا أشياء كثيرا من كتب الفروع الحديثية التصنيف ووقع ذلك من بعض علماء عصرهم موقع الاستحسان منهم الامام الحافظ أبو بكر بن العربى فقد ذكر فى كتاب القواصم والعواصم له ما يشعر بذلك قال بعد ذكره ما وقع بالمغرب من الفتن ما نصه عطفنا عنان القول الى مصائب نزلت بالعلماء فى طريق الفتوى لما كثرت البدع وذهب العلماء وتعاطت المبتدعة منصب الفقهاء وتعلقت أطماع الجهال به فنالوه بفساد الزمان ونفوذ وعد الصادق صلى الله عليه وسلم فى قوله اتخذ الناس رؤساجهالا فسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا وبقيت الحال هكذا فماتت العلوم الا عند آحاد الناس واستمرت القرون على موت العلم وظهور الجهل وذلك بقدرة الله تعالى وجعل الخلف منهم يتبع السلف حتى آلت الحال الى أن لا ينظر فى قول مالك وكبراء أصحابه ويقال قد قال فى هذه المسئلة أهل قرطبة وأهل طلمنكة وأهل طليطلة وصار الصبى اذا عقل وسلكوا به أمثل طريقة لهم علموه كتاب الله تعالى ثم نقلوه الى الادب ثم الى الموطأ ثم الى المدونة ثم الى وثائق ابن العطار ثم يختموا له باحكام ابن سهل ثم يقال قال فلان الطليطلى وفلان المجريطى وابن مغيث لا أغاث الله ثراه فيرجع القهقرى ولا يزال يمشى الى ورا ولولا ان الله تعالى من بطائفة تفرقت فى ديار العلم وجاءت بلباب منه كالقاضى أبى الوليد الباجى وأبى محمد

الاصيلي فرشوا من ماء العلم على هذه القلوب الميتة وعطروا أنفاس الائمة الذفرة لكان الدين قد ذهب ولكن تدارك البارى تعالى بقدرته ضرر هؤلاء بنفع هؤلاء وربما سكنت الحال قليلا والحمد لله اهـ والله تعالى ولى التوفيق

﴿تتمة مهمة﴾

قد ظهر ببلاد المغرب وغيرها منذ أعصار متطاولة لاسيما فى المائة العاشرة ومابعدها بدعة قبيحة وهى اجتماع طائفة من العامة على شيخ من الشيوخ الذين عاصروهم أو تقدموهم ممن يشار اليه بالولاية والخصوصية ويخصونه بمزيد المحبة والتعظيم ويتمسكون بخدمته والتقرب اليه قدرا زائدا على غيره من الشيوخ بحيث يرتسم فى خيال جاهلهم ان كل المشايخ أو جلهم دونه فى المنزلة عند الله تعالى و يقولون نحن أتباع سيدى فلان وخدم الدار الفلانية لايحولون عن ذلك ولايزولون خلفا عن سلف و ينادون باسمه و يستغيثون به و يفزعون فى مهماتهم اليه معتقدين أن التقرب اليه نافع والانحراف عنه قيد شبر ضار مع ان النافع والضار هو الله وحده واذا ذكر لهم شيخ آخر أو دعوا اليه حاصوا حيصة حمر الوحش من غير تبصر فى أحواله هل يستحق ذلك التعظيم أم لا فصار الامر عصبيا وصارت الائمة بذلك طرائق قددا ففى كل بلد أو قرية عدة طوائف وهذا لم يكن معروفا فى سلف الائمة الذين هم القدوة لمن بعدهم وغرض الشارع انما هو فى الاجتماع وتمام الالفة واتحاد الوجهة وقد قال تعالى لاهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الآية وقد ذم قوما فرق قوا دينهم وكانوا شيعا وانما الشأن فى أهل الخصوصية والدين أن يكونوا عند العاقل المحتاط لدينه كاسنان المشط بحيث يحبهم لله وفى الله و يستشفع بهم الى الله و يسأله تعالى أن يكرمه بما أكرمهم به من الخير والهدى والدين وليحبهم حب التشرع لاحب التشيع وليتأدب معهم ولايقدم على مفاضلتهم بالهوى والرجم بالغيب فان ذلك متوقف على الاطلاع على منزلتهم عند الله وذلك محجوب عنا واذا نزلت به حاجة فليفزع فى قضائها الى مولاه الذى خلقه ورزقه مستشفعا اليه بنبيه الذى هداه للايمان على يده ثم بخواص الائمة الذين هم آباؤنا فى الدين فان المطلوب من العبد أن يصرف وجهته وقصده فى جميع أموره و يتعلق فيها بالله بحيث لايطلبها الا منه ولا يتكل فيها الا عليه قاطعا النظر عن كل ماسواه اللهم الا على سبيل التوسل والاستشفاع كما قلنا هذا هو التوحيد الذى بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم واليه دعا وعليه قاتل وسواه شرك ومنابذ لما جاء به ان هذا لهو القصص الحق ومامن اله الا الله الآية ثم استرسل هؤلاء الطغام فى ضلالهم حتى صارت كل طائفة تجتمع فى أوقات معلومة فى مكان مخصوص أو غيره على بدعتهم التى يسمونها الحضرة فاشتمل من طست وطار وطبل ومزمار وغناء ورقص وخبط بالرجل ونحص وربما أضافوا الى ذلك نارا أو غيرها يتعاونه على سبيل الكرامة بزعمهم و يستغرقون فى ذلك الزمن الطويل حتى يمضى الوقت والوقتان من أوقات الصلوات وداعى الفلاح ينادى على رؤسهم وهم فى حيرتهم يعمهون لايرفعون به رأسا ولايرون بما هم فيه من الضلال بأسا بل يعتقدون ان ماهم فيه من أفضل القرب الى الله تعالى الله عن جهالاتهم علوا كبيرا ولاتجد فى هذه المجامع الشيطانية غالبا الا من بلغ الغاية فى الجفاء والجهل ممن لايحسن الفاتحة فضلا عن غيرها مع ترك الصلاة طول عمره أو من فى معناه من معتوه ناقص العقل والدين فما أحوج هؤلاء الفسقة الى محتسب يغير عليهم ماهم فيه من المنكر العظيم واللبس المقيم وأعظم من هذا كله انهم يفعلون تلك الحضرة غالبا فى المساجد فانهم يتخذون الزاوية باسم الشيخ ويجعلونها مسجدا للصلاة بالمحراب والمنار وغير ذلك ثم يعمرونها بهذه البدعة الشنيعة فكم رأينا من عود ورباب ومزمار على أخش الهيآت فى محاريب الصلوات ﴿ومن بدعهم الشنيعة﴾ محاكاتهم أضرحة الشيوخ لبيت الله الحرام من جعل الكسوة لها وتحديد الحرم على مسافة معلومة بحيث يكون من دخل تلك البقعة من أهل الجرائم آمنا

وسوق الذبائح اليها على هيئة الهدى واتخاذ الموسم كل عام وهذا وأمثاله لم يشرع الا فى حق الكعبة ثم يقع فى ذلك الموسم ولاسيما مواسم البادية من المناكر والمفاسد العظام واختلاط الرجال بالنساء باديات متبرجات شأن أهل الاباحة وشأن قوم نوح فى جاهليتهم ما تصم عنه الآذان ولا منكر ولا مغير ولا ممتعض للدين لا بل للحسب فاما الدين عند هؤلاء فلا دين فانا لله وانا اليه راجعون على ضيعة الدين وغفلة أهله عنه ويالله ويا للمسلمين لهؤلاء الهمج الرعاع الذين سلبوا المروءة والحياء والغيرة والعقل والدين والانسانية جملة فليسوا فى فطنة الشياطين ولا فى سلامة صدور البهائم ولا فى نخوة السباع فيغضبوا لدينهم ومروءتهم ﴿ومن جهالاتهم القطيعة﴾ جمعهم بين اسم الله تعالى واسم الولى فى مقامات التعظيم كالقسم والاستعطاف وغيرهما فاذا أقسموا قالوا وحق الله وحق سيدى فلان واذا عزموا على أحد قالوا دخلت عليك بالله وسيدى فلان واذا سألوا قالوا من يعطينا على الله وعلى سيدى فلان فيعطفون اسم العبد على اسم مولاه بالواو المقتضية للتشريك والتسوية التامة فى مقام قد حظر الشارع أن يتجاوز فيه اسم الله الى غيره وهذا هو صريح الشرك ﴿ومن مناكرهم الجديرة بالتغيير﴾ اجتماعهم كل سنة للوقوف يوم عرفة بضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه ويسمون ذلك حج المسكين فانظر الى هذه الطامة التى اخترعها هؤلاء العامة ﴿ومن اختراعاتهم﴾ تسميتهم لبدعتهم بالحضرة كأنما أخذا من اسم حضرة الله تعالى فى اصطلاح الائمة العارفين من الصوفية كأهل رسالة القشيرى ومن فى معناهم فأوهم هؤلاء الشياطين بهذه التسمية انهم يكونون فى حال اشتغالهم بتلك البدعة فى حضرة الله تعالى ثم يذهبون فيسمون جنونهم وتخبطهم على تلك الطبول والمزامير بالحال أخذا من الحال التى تعترى السالك الى الله تعالى فى حال ترقيه فى درجات المعرفة والوصول وهذا لعمر الله من أقبح الضلالات وأشنع الجهالات الى غير هذا مما أغنى فيه العيان عن الخبر وعرفه الخاص والعام فى حالتى الورد والصدر ولسنا ننكر على أولياء الله وأهل الخصوصية منهم أو على من يسلك سبيلهم على الوجه المقرر فى كتب الائمة المقتدى بهم منهم وانما نشرح حال هؤلاء الجهلة الذين لم يأتوا الامر من بابه ولا أخذوه عن أربابه وانما طالهم ما رأيت وعلمت وهذه نفثة مصدور صاحبها عند المنصف معذور فنسأل الله العظيم المولى الكريم أن يحرك همة من له القدرة والتصرف الى حسم هذه الضلالات وقطعها عسى أن يرحمنا ربنا ويجبر كسرنا ويكبت عدونا اذ نحن راجعنا ديننا وسنة نبينا ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له وما لهم من دونه من وال * وقد آن أن نفرد الكلام على المغرب الاقصى عند ما استولى عليه المولى ادريس بن عبد الله وبنوه من بعده واقتطعوه عن نظر الخلفاء بالمشرق وصيروه مملكة مستقلة اذ كان ذلك من شرط كتابنا هذا حسبما تقدمت الاشارة اليه مقدما لذلك ما يجب تقديمه من الاشارة الى أمر الخلافة وتنازع أهل الصدر الاول فى استحقاقها ومن هو أولى بها ثم نتخلص منه الى المقصود بالذات والله الموفق

﴿الخبر عن دولة آل ادريس بالمغرب الاقصى وذكر السبب فى أوليتها﴾

اعلم انه قد ثبت فى الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان هذا الامر فى قريش لا يعاديهم أحد الا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين * وفيه أيضا انه صلى الله عليه وسلم قال لا يزال هذا الامر فى قريش ما بقى منهم اثنان وغير ذلك ﴿قال الحافظ ابن حجر﴾ لو فقد قرشى فكنانى ثم رجل من بنى اسمعيل ثم عجمى على ما فى التهذيب أو جرهمى على ما فى التتمة ثم رجل من بنى اسحق وأن يكون شجاعا ليغزو بنفسه ويعالج الجيوش ويقوى على فتح البلاد ويحمى البيضة وأن يكون أهلا للقضاء بان يكون مسلما مكلفا حرا عدلا

ذكر المجتهد اذا رأى وسمع و بصر ونطق وتنعقد الامامة ببيعة أهل الحل والعقد من العلماء ووجوه الناس المتيسر اجتماعهم وباستخلاف الامام من يعينه فى حياته ويشترط القبول فى حياته ليكون خليفة بعد موته وباستيلاء متغلب على الامامة ولو غير أهل لها كصبي وامرأة ان قهر الناس بشوكته وجنده وذلك لينتظم أمر المسلمين اهـ ثم نقول قد تقدم لنا أمر الخلفاء الاربعة رضى الله عنهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم وان السلف أطبقوا على ان ترتيبهم فى الفضل على حسب ترتيبهم فى الخلافة وتقدم لنا أيضا ما كان من على ومعاوية رضى الله عنهما وان ما صدر منهما كان اجتهادا محضا وطلبا للحق وان الصواب كان مع على رضى الله عنه والكل مأجور * ثم لما قتل على رضى الله عنه بايع أهل العراق ابنه الحسن رضى الله عنه وزحف اليه معاوية فى أهل الشام ورأى الحسن ما فى حقن دماء المسلمين وجمع كلمتهم من الثواب عند الله والكرامة لديه فاختار الاخرى على الدنيا وقدم الآجل على العاجل وسلم الامر الى معاوية على شروط معروفة وأصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين كما قال جده صلى الله عليه وسلم وحاز معاوية الخلافة وصفت له وتوارثها بنو أمية من بعده بعد مقاتلات ومنازعات كانت من بنى هاشم وغيرهم لهم يطول جلبها وكان السواد الاعظم من المسلمين يرون ان بنى هاشم أحق بالامر من بنى أمية لان بنى هاشم هم آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وعشيرته الاقربون وهم أهل العلم والدين واهل وصية الذين اجتباهم الله وأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا فهم أحق بمنصب رسول الله صلى الله عليه وسلم من غيرهم وهذا الرأى صواب غير ان ذلك ليس بطريق الوجوب عند أهل السنة بل بطريق الاحقية والاولوية اذا توفرت الشروط فيهم وفى غيرهم من سائر بطون قريش والافمن انفردت به الشروط وجب المصير اليه وكان شيعة على بن أبى طالب رضى الله عنه يوجبون الخلافة لبنيه دون من عداهم ويزعمون ان ذلك كان بوصية من النبي صلى الله عليه وسلم لعلى رضى الله عنه وهذه الوصية لم تثبت عند أهل السنة من طريق صحيح ومذاهب هؤلاء الشيعة فى كيفية سوق الخلافة فى عقب على رضى الله عنه متعددة لا حاجة لنا بذكرها وكان بنو على رضى الله عنه فى الصدر الاول كثيرا ما يثورون فى النواحى شرقا وغربا طالبين حقهم فى الخلافة منازعين فيها لبنى أمية أولا ثم لبنى العباس من بعدهم ثانيا وخبرهم فى ذلك معروف وجلبه يطول الى ان كان منهم عبد الله بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهم وكان من سادة أهل البيت يومئذ وكان له عدة أولاد منهم محمد المعروف بالنفس الزكية وابراهيم ويحيى وسليمان وادريس وغيرهم ولما صار أمر بنى أمية الى الاختلال أيام مروان الحمار آخر خلفائهم اجتمع أهل البيت بالمدينة وتشاوروا فيمن يقدمونه للخلافة فوقع اختيارهم على محمد بن عبد الله النفس الزكية فبايعوه بالخلافة وسلموا له الامر باجمعهم وحضر هذا العقد أبو جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس وهو المنصور وذلك قبل ان تنتقل الخلافة الى بنى العباس فبايع للنفس الزكية فيمن بايع له من أهل البيت وأجمعوا على ذلك لتقدمه فيهم لما علموا له من الفضل عليهم *قال ابن خلدون* ولهذا كان مالك وأبو حنيفة رحمهما الله يحتجان له حين خرج بالحجاز ويريان ان امامته أصح من امامة أبى جعفر المنصور لانعقاد هذه البيعة أولا وكان أبو حنيفة يقول بفضله ويحتج لحقه فتأدت الى الامامين المحنة بسبب ذلك أيام أبى جعفر المنصور حتى ضرب مالك رضى الله عنه على الفتيا فى طلاق المكره وحبس أبو حنيفة رضى الله عنه على القضاء ولما انقرضت دولة بنى أمية وجاءت دولة بنى العباس وصار الامر الى أبى جعفر المنصور منهم سعى عنده بآل البيت وان محمد بن عبد الله يروم الخروج عليه وان دعاته قد ظهروا بخراسان فأمر المنصور عامله على المدينة رباح بن عثمان المرى بحبس عبد الله بن حسن ومن اليه من آل الحسن بن على بن أبى طالب فحبسه فى جماعة من بنيه واخوته وبنى عمه *قال ابن خلدون* فى خمسة وأربعين من أكابرهم وقد

المنصور المدينة فى حجة حجها فساقهم معه الى العراق وحبسهم بقصر ابن هبيرة من ظاهر الكوفة حتى هلكوا فى حبسهم وجد المنصور فى طلب محمد بن عبد الله النفس الزكية وأخيه ابراهيم لكونهما تغيبا فلم يحبسا فى جملة من حبس من عشيرتهم * ثم لما كانت سنة خمس وأربعين ومائة وأرهق محمد بن عبد الله الطلب وأعيت عليه المذاهب ظهر بالمدينة المنورة ودعا الناس الى بيعته فبايعوه واستفتى أهل المدينة الامام مالكا رضى الله عنه فى الخروج مع محمد بن عبد الله وقالوا ان فى أعناقنا بيعة للمنصور فقال انما بايعتم مكرهين فتسارع الناس الى محمد وأجابوا دعوته ولزم الامام مالك بيته وخطب محمد بن عبد الله على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر المنصور بما نقمه عليه ووعد الناس واستنصر بهم وتسمى بالمهدى ولم يتخلف عن بيعته من وجوه الناس الا القليل وبلغ المنصور خبر محمد بن عبد الله وما كان منه بالمدينة فأشفق من ذلك غاية الاشفاق وكتب الى محمد كتاب أمان ويعده الجميل ان هو راجع الطاعة فاجابه محمد بعدم قبول ذلك منه ودارت بينهما مكاتبات ومحاورات فى الافضلية واستحقاق الخلافة وقد ذكر مكاتبتهما المبرد فى كامله وابن خلدون فى تاريخه وآخر الامر أن المنصور بعث لحرب محمد المهدى ابن عمه عيسى بن موسى العباسى فاستعد المهدى للقتال وأدار على المدينة الخندق الذى حفره رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاحزاب وقدمت جيوش العباسيين ونزلوا على المدينة وخرج اليهم محمد بن عبد الله فيمن بايعه واقتتل الناس قتالا شديدا وأبلى محمد المهدى فى ذلك اليوم بلاء عظيما وقتل بيده سبعين رجلا ولما اشتد القتال وعاين مخايل الاختلال انصرف فاغتسل وتحنط وجمع بين الظهر والعصر ومضى فاحرق الديوان الذى كان فيه أسماء من بايعه وجاء الى السجن فقتل رياح بن عثمان عامل المنصور على المدينة وقتل معه جماعة كانوا مسجونين عنده ثم عاد الى المعركة وقد تفرق عنه جل أصحابه ولم يبق معه الا نحو الثلاثمائة فقال له بعضهم نحن اليوم فى عدة أهل بدر ثم تقدم فقاتل حتى قتل ضرب فسقط لركبتيه وطعنه حميد ابن قحطبة فى صدره ثم احتز رأسه وأتى به عيسى بن موسى فبعث به الى المنصور وكان مقتل محمد المهدى رحمه الله فى منتصف رمضان سنة خمس وأربعين ومائة وقتل معه جماعة من أهل بيته وأصحابه ولحق ابنه على بن محمد بالسند الى ان هلك هنالك واختفى ابنه الآخر عبد الله الاشتر الى ان هلك أيضا فى خبر طويل ثم خرج ابراهيم بن عبد الله أخو المهدى المذكور بالبصرة عقب ذلك فبعث اليه المنصور عيسى ابن موسى المذكور آنفا فقاتله آخر ذى القعدة من السنة فانهزم ابراهيم وقتل رحمه الله بعد أن بايعه أكثر من مائة ألف ثم لما كانت سنة تسع وستين ومائة فى أيام موسى الهادى ابن محمد المهدى ابن أبى جعفر المنصور خرج بالمدينة الحسين بالتصغير ابن على بن الحسن المثلث ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن على بن أبى طالب رضى الله عنه وكان معه جماعة من أهل بيته منهم ادريس ويحيى وسليمان بنو عبد الله بن الحسن المثنى وهم أخو محمد النفس الزكية فاشتد أمر الحسين المذكور بالمدينة وجرى بينه وبين عامل الهادى على المدينة وهو عمر بن عبد العزيز بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب قتال فانهزم عمر المذكور وبايع الناس الحسين المذكور على كتاب الله وسنة نبيه للمرتضى من آل محمد وكانوا يكنون بذلك عن الامام المستور الى ان يقدر على اظهار أمره وأقام الحسين وأصحابه بالمدينة يتجهزون أياما ثم خرجوا الى مكة يوم السبت لست بقين من ذى القعدة فانتهى الحسين الى مكة وانضم اليه جماعة من عبيدها وكان قد حج تلك السنة جماعة من وجوه بنى العباس وشيعتهم فنهم سليمان بن أبى جعفر المنصور ومحمد بن سليمان بن على والعباس بن محمد بن على وانضم اليهم من حج من قوادهم ومواليهم واقتتلوا مع الحسين المذكور يوم التروية الثامن من ذى الحجة فانهزم الحسين وأصحابه وقتل فاحتزوا رأسه وأحضروه أمام بنى العباس وهو مضروب على قفاه وجبهته ثم جمعت رؤس أصحابه فكانت مائة ونيفا وكان فيها رأس سليمان بن عبد الله بن الحسن المثنى فى قول واختلط المنهزمون بالحاج فذهبوا فى كل وجه

وكان مقتلهم بموضع يقال له فخ على ثلاثة أميال من مكة سنة تسع وستين ومائة كما قلنا وفى ذلك يقول بعض شعراء ذلك العصر فلأبكين على الحسين * بعولة وعلى الحسن

وعلى ابن عاتكة الذى * واروه ليس له كفن

تركوا بفخ غدوة * فى غير منزلة الوطن

فى أبيات والحسن الذى ذكره فى هذه الابيات هو الحسن بن محمد بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن على بن أبى طالب وكان أسر فى ذلك اليوم فضربت عنقه صبرا وابن عاتكة الذى ذكره هو عبد الله ابن اسحق بن ابراهيم بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن على بن أبى طالب ثم حمل رأس الحسين ومعه باقى الرؤس الى الهادى فانكر عليهم حمل رأس الحسين ولم يعطهم جوائزهم غضبا عليهم

دخول ادريس بن عبد الله أرض المغرب الاقصى

قد تقدم لنا ان يحيى وادريس ابنى عبد الله حضرا وقعة فخ مع الحسين بن على المذكور آنفا * فاما يحيى فانه فر من الوقعة المذكورة الى بلاد الديلم فى جهة الشرق ودعا الناس الى بيعته فبايعوه واشتدت شوكته ثم ان الرشيد جهز اليه الفضل بن يحيى البرمكى فى جيش كثيف فكاتبه الفضل وبذل له الامان وما يختاره فاجابه يحيى بن عبد الله الى ذلك وطلب يمين الرشيد وان يكون بخطه ويشهد فيه الاكابر ففعل ذلك وحضر يحيى بن عبد الله الى بغداد فاكرمه الرشيد وأعطاه مالا كثيرا ثم حبسه حتى مات فى السجن *وأما ادريس فانه فر من الوقعة المذكورة ولحق بمصر وعلى بريدها يومئذ واضح مولى صالح بن المنصور ويعرف بالمسكين وكان واضح يتشيع لآل البيت فعلم شأن ادريس وأتاه الى الموضع الذى كان مستخفيا به ولم ير شيأ أخلص له من ان يحمله على البريد الى المغرب ففعل ولحق ادريس بالمغرب الاقصى هو ومولاه راشد فنزل بمدينة وليلى سنة ثنتين وسبعين ومائة وبها يومئذ اسحق بن محمد بن عبد الحميد أميراوربة من البربر البرانس فاجاره وأكرمه وجمع البربر على القيام بدعوته وخلع الطاعة العباسية وكشف القناع فى ذلك وانتهى الخبر الى الرشيد بما فعله واضح فى شأن ادريس فقتله وصلبه * وقال ابن أبى زرع فى كتاب القرطاس ان ادريس بن عبد الله لما قتلت عشيرته بفخ فر بنفسه متسترا فى البلاد يريد المغرب فسار من مكة حتى وصل الى مصر ومعه مولى له اسمه راشد فدخلها والعامل عليها يومئذ لبنى العباس هو على بن سليمان الهاشمى فبينما ادريس وراشد يمشيان فى شوارع مصر اذ مرا بدار حسنة البناء فوقفا يتأملانها واذا بصاحب الدار قد خرج فسلم عليهما وقال ما الذى تنظرانه من هذه الدار فقال راشد أعجبنا حسن بنائها قال وأظنكما غريبين لستما من هذه البلاد فقال راشد جعلت فداك ان الامر كما ذكرت قال فمن أى الاقاليم أنتما قالا من الحجاز قال فمن أى بلاده قالا من مكة قال واخالكما من شيعة الحسنيين الفارين من وقعة فخ فهما بالانكار ثم توسما فيه الخير فقال راشد ياسيدى أرى لك صورة حسنة وقد توسمت فيك الخير أرأيت ان أخبرناك من نحن أكنت تستر علينا قال نعم ورب الكعبة وأبذل الجهد فى صلاح حالكما فقال راشد هذا ادريس بن عبد الله بن حسن وأنا مولاه راشد فررت به خوفا عليه من القتل ونحن قاصدون بلاد المغرب فقال الرجل لتطمئن نفوسكما فانى من شيعة آل البيت وأول من كتم سرهم فانتما من الآمنين ثم أدخلهما منزله وبالغ فى الاحسان اليهما فاتصل خبرهما بعلى بن سليمان صاحب مصر فبعث الى الرجل الذى هما عنده فقال له انه قد رفع الى خبر الرجلين الذين عندك وان أمير المؤمنين قد كتب الى فى طلب الحسنيين والبحث عنهم وقد بث عيونه على الطرقات وجعل الرصاد على أطراف البلاد فلا يمر بهم أحد حتى يعرف نسبه وحاله وانى أكره ان أتعرض لدماء آل البيت فلك ولهم الامان فاذهب اليهما واعلمهما بمقالى وأمرهما بالخروج من عملى وقد أجلتهما ثلاثا فسار الرجل فاشترى راحلتين لادريس ومولاه واشترى لنفسه أخرى وصنع زادا يبلغهما الى افريقية وقال لراشد أخرج أنت مع الرفقة

على الجادة وأخرج أناوادريس على طريق غامض لا تسلكه الرفاق وموعدنا مدينة برقة فخرج راشد مع الرفقة فى زى التجار وخرج ادريس مع المصرى فسلكا البرية حتى وصلا الى برقة وأقاما بها حتى لحق بهما راشد ثم جدّد المصرى لهما زادا وودعهما وانصرف وسار ادريس وراشد يجدّان السير حتى وصلا الى القيروان فاقاما بها مدة ثم خرجا الى المغرب الاقصى وكان راشد من أهل النجدة والحزم والدين والنصيحة لآل البيت فعمد الى ادريس حين خرجا من القيروان فالبسه مدرعة صوف خشينة وعمامة كذلك وصيره كالخادم له يأمره وينهاه كل ذلك خوفا عليه وحياطة له ثم وصلا الى مدينة تلمسان فاراحا بها أياما ثم ارتحلا نحو بلاد طنجة فسارا حتى عبرا وادى ملوية ودخلا بلاد السوس الادنى وتقدما الى مدينة طنجة وهى يومئذ قاعدة بلاد المغرب الاقصى وأم مدنه فاقاما بها أياما فلما لم يجد ادريس بها مراده خرج مع مولاه راشد حتى انتهيا الى مدينة وليلى قاعدة جبل زرهون وكانت مدينة متوسطة حصينة كثيرة المياه والغروس والزيتون وكان لها سور عظيم من بنيان الاوائل يقال انها المسماة اليوم بقصر فرعون فنزل بها ادريس على صاحبها ابن عبد الحميد الاوربى فاقبل عليه ابن عبد الحميد وبالغ فى اكرامه وبرّه فعرّفه ادريس بنفسه وأفضى اليه بسره فوافقه على مراده وأنزله معه فى داره وتولى خدمته والقيام بشؤنه وكان دخول ادريس المغرب ونزوله على ابن عبد الحميد بمدينة وليلى غرة ربيع الاول سنة اثنتين وسبعين ومائة

﴿بيعة الامام ادريس بن عبد الله رضى الله عنه﴾

لما استقر ادريس بن عبد الله بمدينة وليلى عند كبيرها اسحق بن محمد بن عبد الحميد الاوربى أقام عنده ستة أشهر فلما دخل شهر رمضان من السنة جمع ابن عبد الحميد عشيرته من أوربة وعرّفهم بنسب ادريس وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرر لهم فضله ودينه وعلمه واجتماع خصال الخير فيه فقالوا الحمد لله الذى أكرمنا به وشرّفنا بجواره وهو سيدنا ونحن العبيد فما تريد منا قال تبايعونه قالوا ما منا من يتوقف عن بيعته فبايعوه بمدينة وليلى يوم الجمعة رابع رمضان المعظم سنة اثنتين وسبعين ومائة وكان أول من بايعه قبيلة أوربة على السمع والطاعة والقيام بامره والاقتداء به فى صلواتهم وغزواتهم وسائر أحكامهم وكانت أوربة يومئذ من أعظم قبائل البربر بالمغرب الاقصى وأكثرها عددا وتلتها فى نصرة ادريس والقيام بامره مغيلة وصدينة وهما معا من ولد تامزيت بن ضرى ولما بويع ادريس رحمه الله خطب الناس فقال بعد حمد الله والصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم أيها الناس لا تمدن الاعناق الى غيرنا فان الذى تجدونه من الحق عندنا لا تجدونه عند غيرنا ثم بعد ذلك وفدت عليه قبائل زناتة والبربر مثل زواغة وزواوة وسدراتة وغياثة ومكناسة وغمارة وكافة البربر بالمغرب الاقصى فبايعوه أيضا ودخلوا فى طاعته فاستتب أمره وتمكن سلطانه وقويت شوكته ولحق به من اخوته سليمان بن عبد الله ونزل بارض زناتة من تلمسان ونواحيها كذا عند ابن خلدون فى أخبار الادارسة والذى عنده فى أخبار بنى العباس وكذا عند أبى الفداء ان سليمان بن عبد الله بن حسن قتل بوقعة فخ وجمع رأسه مع رؤس القتلى والله أعلم

﴿غزو ادريس بن عبد الله بلاد المغرب الاقصى وفتحه اياها﴾

ثم ان ادريس بن عبد الله رضى الله عنه اتخذ جيشا كثيفا من وجوه زناتة وأوربة وصنهاجة وهوارة وغيرهم وخرج غازيا بلاد تامسنا ثم زحف الى بلاد تادلا ففتح معاقلها وحصونها وكان أكثر أهل هذه البلاد لازالوا على دين اليهودية والنصرانية وانما الاسلام بها قليل فاسلم جميعهم على يده وقفل الى مدينة وليلى مؤيدا منصورا فدخلها أواخر ذى الحجة سنة اثنتين وسبعين ومائة فاقام بها شهر محرم فاتح سنة ثلاث وسبعين ريثما استراح الناس ثم خرج برسم غزو من كان بقى من قبائل البربر بالمغرب على دين المجوسية واليهودية والنصرانية وكان قد بقى منهم بقية متحصنون فى المعاقل والجبال والحصون المنيعة

فلم يزل ادريس رحمه الله يجاهدهم في حصونهم ويستنزلهم من معاقلهم حتى دخلوا في الاسلام طوعا وكرها ومن أبى الاسلام منهم أباده قتلا وسبيا وكانت البلاد التى غزاها في هذه المرة حصون فندلاوة وحصون مديونة وبهلولة وقلاع غياثة وبلاد فازاز ثم عاد الى مدينة وليلى فدخلها في النصف من جمادى الآخرة من السنة المذكورة

﴿غزو ادريس بن عبد الله أرض المغرب الاوسط وفتح مدينة تلمسان﴾

لما قفل ادريس رضى الله عنه من غزو بلاد المغرب الاقصى سنة ثلاث وسبعين ومائة أقام بوليلى بقية جمادى الآخرة ونصف رجب التالى لها ريثما استراح جيشه ثم خرج منتصف رجب المذكور برسم غزو مدينة تلمسان ومن بها من قبائل مغراوة وبنى يفرن فانتهى اليها ونزل خارجها فخرج اليه صاحبها محمد ابن خزر من ولد صولات المغراوى مستأمنا ومبايعا له فأمنه ادريس وقبل بيعته ودخل مدينة تلمسان فأمن أهلها ثم أمّن سائر زناتة وبنى مسجد تلمسان وأتقنه وأمر بعمل منبر نصبه فيه وكتب عليه بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به الامام ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على رضى الله عنهم وذلك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومائة ﴿قال ابن خلدون﴾ واسم ادريس مخطوط في صفحة المنبر لهذا العهد اهـ ثم رجع ادريس رحمه الله الى مدينة وليلى فدخلها مؤيدا منصورا

﴿وفاة ادريس بن عبد الله والسبب في ذلك﴾

لما حصل لادريس رحمه الله ما حصل من التمكن والظهور واتصل خبر ذلك بالخليفة ببغداد وهو هرون الرشيد العباسى وبلغه ان ادريس قد استقام له أمر المغرب وانه قد استفحل أمره وكثرت جنوده وقد فتح مدينة تلمسان وبنى مسجدها وانه عازم على غزو افريقية خاف الرشيد عاقبة ذلك وانه ان لم يتدارك أمره الآن ربما عجز عنه في المستقبل مع ما يعلم من فضل ادريس خصوصا ومحبة الناس في آل البيت عموما فقلق الرشيد من ذلك واستشار وزيره يحيى بن خالد البرمكى وقال ان الرجل قد فتح تلمسان وهى باب افريقية ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار وقد هممت ان أبعث اليه جيشا ثم فكرت في بعد الشقة وعظم المشقة فرجعت عن ذلك فقال يحيى الرأى يا أمير المؤمنين ان تبعث اليه برجل داهية يحتال عليه ويغتاله وتستريح منه فأعجب الرشيد ذلك فوقع اختيارهما على رجل من موالى المهدى والد الرشيد واسم الرجل سليمان بن جرير ويعرف بالشماخ فاحضره يحيى وأعلمه بما يريد منه ووعده على قتل ادريس الرفعة والمنزلة العالية عند الرشيد وزوّده مالا وطرفا يستعين بها على أمره وأصحبه الرشيد كتابا منه الى واليه على افريقية ابراهيم بن الاغلب كذا عند ابن خلدون وابن الخطيب وفيه ان ابن الاغلب لم يكن واليا على افريقية في هذا التاريخ وانما وليها سنة أربع وثمانين ومائة حسبما سبق فوصل الشماخ الى والى افريقية بكتاب الرشيد فاجازه الى المغرب وقدم الشماخ على ادريس بن عبد الله مظهر النزوع اليه فيمن نزع اليه من وحدان العرب متبرئا من الدعوة العباسية منتحلا للدعوة الطالبية فاختصه ادريس رحمه الله وحلى بعينه وعظمت منزلته لديه وكان الشماخ ممتلئا من الادب والظرف والبلاغة عارفا بصناعة الجدل فكان اذا جلس الامام ادريس الى رؤساء البربر ووجوه القبائل تكلم الشماخ فذكر فضل أهل البيت وعظيم بركتهم على الامة ويقرر ذلك ويحتج لامامة ادريس وانه الامام الحق دون غيره فكان ذلك يعجب ادريس ويقع منه الموقع فاستولى الشماخ عليه حتى صار من ملازميه ولا يأكل الامعه وكان راشد كالئا لادريس ملازما له أيضا قلما ينفرد عنه لانه كان يخاف عليه من مثل ما وقع فيه لكثرة أعداء آل البيت يومئذ وكان الشماخ يترصد الغرة من راشد ويترقب الفرصة في ادريس الى ان غاب راشد ذات يوم في بعض حاجاته فدخل الشماخ على ادريس فجلس بين يديه على العادة وتحدث مليا ولما لم ير الشماخ راشدا بالحضرة انتهز الفرصة في ادريس فقيل انه كانت مع الشماخ قارورة من طيب مسموم فاخرجها

وقال لادريس هذا طيب كنت استصحبته معي وهو من جيد الطيب فرأيت ان الامام أولى به مني وذلك من بعض ما يجب له علي ثم وضع القارورة بين يديه فشكره ادريس وتناول القارورة ففتحها واشتم مافيها فصعد السم الى خياشيمه وانتهى الى دماغه فغشي عليه وقام الشماخ اللعين كأنه يريد حاجة الانسان فخرج وأتى منزله فركب فرساله عتيقا كان قد أعده لذلك وذهب لوجهه يريد المشرق وافتقد الناس الامام ادريس فاذا هو مغشي عليه لا يتكلم ولا يعلم أحد ما به وقيل ان الشماخ سمه في سنون والسنون بوزن صبور وربما سنانك به وكان ادريس يشتكي وجع الاسنان واللثة وقيل سمه في الحوت الشابل وقيل في عنب أهداه اليه في غير ابانه والله أعلم * ولما اتصل خبر ادريس بمولاه راشد أقبل مسرعا فدخل عليه وهو يحرك شفتيه لا يبين كلاما قد أشرف على الموت فجلس عند رأسه متحيرا لا يدري ما دهاه واستمر ادريس على حالته تلك الى عشي النهار فتوفي في مهل ربيع الآخر سنة سبع وسبعين ومائة وتفقد راشد الشماخ فلم يره فعلم انه الذي اغتال ادريس ثم جاء الخبر بان الشماخ قد لقي على أميال من البلد فركب راشد في جمع من البربر واتبعوه وتقطعت الخيل في النواحي وطلبوه ليلتهم الى الصباح فلحقه راشد بوادي ملوية عابرا فاشتد عليه راشد بالسيف وضربه ضربات قطع في بعضها يمناه وشجه في رأسه شجاجا ونجي الشماخ بجريعاء الذقن وأعيى فرس راشد عن اللحاق به فرجع عنه ويقال ان الشماخ رئي بعد ذلك ببغداد وهو مقطوع اليد ولما رجع راشد الى منزله أخذ في تجهيز الامام رضي الله عنه وصلى عليه ودفنه بمعين رابطة عند باب وليلي ليتبرك الناس بتربته رحمه الله ورضي عنه

﴿أمر البربر بعد وفاة ادريس بن عبد الله رحمه الله﴾

قالوا ان الامام ادريس لما توفي لم يترك ولدا الا حملا من أمة له بربرية اسمها كنزة فلما فرغ راشد من جهازه ودفنه جمع رؤساء البربر ووجوه الناس فقال لهم ان ادريس لم يترك ولدا الا حملا من أمته كنزة وهي الآن في الشهر السابع من حملها فان رأيتم ان تصبروا حتى تضع هذه الجارية حملها فان كان ذكرا أحسنا تربيته حتى اذا بلغ مبلغ الرجال بايعناه تمسكا بدعوة آل البيت وتبركا بذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم وان كان جارية نظرتم لانفسكم فقالوا له أيها الشيخ المبارك مالنا رأي الا ما رأيت فانك عندنا عوض من ادريس تقوم بامورنا كما كان ادريس يقوم بها وتصلي بنا وتقضي بيننا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ونصبر حتى تضع الجارية حملها ويكون ما أشرت به علينا ان وضعت جارية كنت أحق الناس بهذا الامر لفضلك ودينك وعلمك فشكرهم راشد على ذلك ودعا لهم وانصرفوا فقام راشد بامر البربر تلك المدة ولما تمت للجارية أشهر حملها وضعت غلاما أشبه الناس بابيه ادريس فاخرجه راشد الى رؤساء البربر حتى نظروا اليه فقالوا هذا ادريس بعينه كأنه لم يمت فسماه راشد ادريس ونشأ الصبي نشأة حسنة الى ان كان من أمره ما نذكره

﴿الخبر عن دولة ادريس بن ادريس رحمه الله﴾

كانت ولادة ادريس بن ادريس بن عبد الله يوم الاثنين ثالث رجب سنة سبع وسبعين ومائة فكفله راشد مولى أبيه وقام بامره أحسن قيام فأقرأه القرآن حتى حفظه وهو ابن ثمان سنين ثم علمه الحديث والسنة والفقه في الدين والعربية ورواه الشعر وأمثال العرب وحكمها وأطلعه على سير الملوك وعرفه أيام الناس ودربه على ركوب الخيل والرمي بالسهام وغير ذلك من مكائد الحرب فلم يمض له من العمر مقدار احدى عشرة سنة الا وقد اضطلع بما حمل وترشح للامر واستحق لان يبايع فبايعه البربر وأتوه صفقتهم عن طاعة منهم واخلاص ﴿قال ابن خلدون﴾ بايع البربر ادريس الاصغر حملا ثم رضيعا ثم فصيلا الى ان شب فبايعوه بجامع مدينة وليلي سنة ثمان وثمانين ومائة وهو ابن احدى عشرة سنة وكان ابراهيم

ابن

ابن الاغلب صاحب افريقية قد دس الى بعض البربر الاموال واستمالهم حتى قتلوا راشدا مولاه سنة ست وثمانين ومائة وحملوا اليه رأسه وقام بكفالة ادريس من بعده أبو خالد يزيد بن الياس العبدى ولم يزل على ذلك الى ان بايعوا لادريس فقاموا بامره وجددوا لانفسهم رسوم الملك بتجديد طاعته وفى القرطاس ان مقتل راشد كان فى السنة التى بويع فيها ادريس بن ادريس قال وكانت بيعة ادريس يوم الجمعة غرة ربيع الاول سنة ثمان وثمانين ومائة بعد مقتل راشد بعشرين يوما وادريس يومئذ ابن احدى عشرة سنة وخمسة أشهر قاله عبد الملك الوراق فى تاريخه وفيه بعض مخالفة لتاريخ الولادة المتقدم وفى قتل راشد يقول ابراهيم بن الاغلب فى بعض ما كتب به الى الرشيد يعرفه بنصحه وكمال خدمته

ألم ترنى بالكيد أرديت راشدا * وانى باخرى لابن ادريس راصد
تناوله عزمى على بعد داره * بمختومة يحظى بها من يكايد
فقاه أخوعك بمقتل راشد * وقد كنت فيه شاهدا وهو راقد

يريد باخى عك محمد بن مقاتل العكى والى افريقية فانه لما حاول ابن الاغلب قتل راشد وتم له ذلك كتب العكى الى الرشيد يعلمه انه هو الذى فعل ذلك فكتب صاحب البريد الى الرشيد بحقيقة الامر وان ابن الاغلب هو الفاعل لذلك والمتولى له فثبت عند الرشيد كذب العكى وصدق ابن الاغلب فعزل الرشيد العكى عن افريقية وولى ابن الاغلب عليها وانما كان قبل ذلك عاملا للعكى على بعض كورها هكذا حكى صاحب القرطاس هذا الخبر وفيه ان عزل العكى عن افريقية وتولية ابن الاغلب عليها كان فى سنة أربع وثمانين قبل وفاة راشد بسنتين أو باربع سنين على الخلاف المتقدم وقال البكرى والبرنسى ان راشدا لم يمت حتى أخذ البيعة لادريس بالمغرب وان ادريس لما تم له من العمر احدى عشرة سنة ظهر من وفور عقله ونباهته وفصاحته ما أذهل عقول الخاصة والعامة فاخذ له راشد البيعة على البربر يوم الجمعة سابع ربيع الاول من السنة المذكورة فصعد ادريس المنبر وخطب الناس فقال الحمد لله أحمده وأستغفره وأستعين به وأتوكل عليه وأعوذ به من شر نفسى ومن شر كل ذى شر وأشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله المبعوث الى الثقلين بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا صلى الله عليه وعلى آل بيته الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا أيها الناس انا قد ولينا هذا الامر الذى يضاعف فيه للمحسن الاجر وعلى المسىء الوزر ونحن والحمد لله على قصد فلا تمدوا الاعناق الى غيرنا فان الذى تطلبونه من اقامة الحق انما تجدونه عندنا ثم دعا الناس الى بيعته وحضهم على التمسك بطاعته فعجب الناس من فصاحته وقوة جاشه على صغر سنه ثم نزل فتسارع الناس الى بيعته وازدحموا عليه يقبلون يده فبايعه كافة قبائل المغرب من زناتة وأوربة وصنهاجة وغمارة وسائر قبائل البربر فتمت له البيعة وبعد بيعته بقليل توفى مولاه راشد والله أعلم

﴿وفود العرب على ادريس بن ادريس رحمه الله﴾

لما استقام أمر المغرب لادريس بن ادريس وتوطد ملكه وعظم سلطانه وكثرت جيوشه وأتباعه وفدت عليه الوفود من البلدان وقصد الناس حضرته من كل صقع ومكان فاستمر بقية سنة ثمان وثمانين يصل الوفود ويبذل الاموال ويستميل الرؤساء والاقيال ولما دخلت سنة تسع وثمانين ومائة وفدت عليه وفود العرب من افريقية والاندلس نازعين اليه وملتفين عليه فاجتمع لديه منهم نحو خمسمائة فارس من قيس والازد ومذحج ويحصب والصدف وغيرهم فسر ادريس بوفادتهم وأجزل صلاتهم وأدنى منزلتهم وجعلهم بطانة دون البربر فاعتز بهم وأنس بقربهم فانه كان غريبا بين البربر فاستوزر منهم عمير بن مصعب الازدى المعروف بالمجوم من ضربة ضربها فى بعض حروبهم وسمته على الخرطوم وكان عمير من فرسان العرب وسادتها ولابيه مصعب مآثر بافريقية والاندلس ومواقف فى غزو الفرنج واستقضى منهم

عامر بن محمد بن سعيد القيسي وكان من أهل الورع والفقه والدين سمع من مالك بن أنس وسفيان الثوري وروى عنهما كثيرا وكان قد خرج الى الاندلس برسم الجهاد ثم أجاز الى العدوة فوفد بها على ادريس فيمن وفد عليه من العرب فاستقضاه واستكتب منهم أبا الحسن عبد الله بن مالك الخزرجي ولم تزل الوفود تقدم عليه من العرب والبربر حتى كثر الناس لديه وضاقت بهم مدينة وليلى وانتهى الى ابن الاغلب ما عليه أمر ادريس من الاستفحال فارهف عزمه للتضريب بين البربر واستفسادهم على ادريس فكان منهم بهلول بن عبد الواحد المضغري من خاصة ادريس ومن أركان دولته فكاتبه ابن الاغلب واستهواه بالمال حتى بايع الرشيد وانحرف عن ادريس واعتزله في قومه فصالحه ادريس وكتب اليه يستعطفه بقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فكف عنه وكان فيما كتب به ادريس الى بهلول المذكور قوله

أبهلول قد حملت نفسك خطة * تبدلت منها ضلة برشاد
أضلك ابراهيم مع بعد داره * فأصبحت منقادا بغير قياد
كأنك لم تسمع بمكر ابن أغلب * وقدما رمى بالكيد كل بلاد
ومن دون ما منتك نفسك خاليا * ومناك ابراهيم شوك قتاد

ثم أحس ادريس من اسحق بن محمد الاوربي بانحراف عنه وموالاة لابن الاغلب فقتله سنة ثنتين وتسعين ومائة وصفا له المغرب وتمكن سلطانه به والله غالب على أمره

﴿بناء مدينة فاس﴾

لما كثرت الوفود من العرب وغيرهم على ادريس رحمه الله وضاقت بهم مدينة وليلى أراد أن يبني لنفسه مدينة يسكنها هو وخاصته ووجوه دولته فركب يوما في جماعة من حاشيته وخرج يتخير البقاع فوصل الى جبل زالغ فأعجبه ارتفاعه وطيب هوائه وتربته فاختط بسنده مدينة مما يلي الجوف وشرع في بنائها فبنى بعضا من الدور ونحو الثلث من السور فأتى السيل من أعلى الجبل في بعض الليالي فهدم السور والدور وحمل ما حول ذلك من الخيام والزروع وألقاها في نهر سبو فكف ادريس عن البناء واستمر الحال على ذلك مدة يسيرة ثم خرج ثانية يتصيد ويرتاد لنفسه موضعا يبني فيه ما قد عزم عليه فانتهى الى نهر سبو حيث هي اليوم حمة خولان فأعجبه الموضع لقربه من الماء ولاجل الحمة التي هنالك والحمة كما في القاموس كل عين فيها ماء حار ينبع منها ويستشفى به فعزم ادريس على أن يبني هنالك مدينة وشرع في حفر الاساس وعمل الجيار وقطع الخشب وابتدأ بالبناء ثم فكر في نهر سبو وما يأتي به من المدود والسيول زمان الشتاء وما يحصل بذلك من الضرر العظيم للناس فكف عن البناء ورجع الى وليلى ثم بعث وزيره عمير بن مصعب الازدي يرتاد له موضعا يبني فيه المدينة التي عزم عليها فسار عمير في جماعة يقص الجهات ويتخير البقاع والترب والمياه حتى انتهى الى فحص سايس فأعجبه المحل فنزل هنالك على عين ماء تطرد في مرج أخضر فتوضأ وصلى الظهر هو وجماعة القوم الذين معه ثم دعا الله تعالى ان ييسر عليه مطلبه ثم ركب وحده وأمر الجماعة أن ينتظروه حتى يعود اليهم فنسبت العين اليه من يومئذ ودعيت عين عمير الى الآن وعمير هذا هو جد بني الملجوم من بيوتات فاس وكبرائهم فأوغل عمير في فحص سايس حتى انتهى الى العيون التي ينبع منها وادي فاس فرأى بها من عناصر الماء ما ينيف على الستين عنصرا ورأى مياهها تطرد في فسيح من الارض وحول العيون شعراء من شجر الطرفاء والطخش والعرعار والكلخ وغير ذلك فشرب من الماء فاستطابه ونظر الى ما حوله من المزارع التي ليست على نهر سبو فأعجبته فانحدر مع مسيل الوادي حتى انتهى الى موضع مدينة فاس اليوم فنظر فاذا ما بين الجبلين غيضة ملتفة الأشجار مطردة العيون والانهار وفي جانب منها خيام من شعر يسكنها قوم من زواغة يعرفون ببني الخير وقوم من زناتة يعرفون ببني يرغش وكان بنو يرغش على دين المجوسية وكان بيت

نارهم بالموضع المعروف بشيبوبة وكان البعض منهم على دين اليهودية والبعض على دين النصرانية وكان بنو الخير ينزلون بعدوة القرويين وبنو برغش ينزلون بعدوة الاندلس وكانوا اقواما يفترون عن القتال لاختلاف أهوائهم وتباين أديانهم فرجع عمير الى ادريس وأعلمه بما رأى من الغيضة وساكنيها وما وقع عليه اختياره فيها فجاء ادريس لينظر الى البقعة فالفى بنى الخير وبنى برغش يقتتلون فأصلح بينهم وأسلموا على يده واشترى منهم الغيضة بستة آلاف درهم فرضوا بذلك ودفع لهم الثمن وأشهد عليهم بذلك على يد كاتبه أبى الحسن عبد الله بن مالك الخزرجى ثم ضرب أبنيته بكرواوة وشرع فى بناء المدينة فاختط عدوة الاندلس غرة ربيع الاول سنة اثنتين وتسعين ومائة وفى سنة ثلاث بعدها اختط عدوة القرويين وبنى مساكنه بها وانتقل اليها وقد كان أولا أدار السور على عدوة الاندلس وبنى بها الجامع المعروف بجامع الاشياخ وأقام فيه الخطبة ثم انتقل ثانيا الى عدوة القرويين كما قلنا ونزل بالموضع المعروف بالقرمدة وضرب فيه قيطونه وأخذ فى بناء جامع الشرفاء وأقام فيه الخطبة أيضا ثم شرع فى بناء داره المعروفة الآن بدار القيطون التى يسكنها الشرفاء الجوطيون من ولده ثم بنى القيسارية الى جانب المسجد الجامع وأدار الاسواق حوله وأمر الناس بالبناء وقال لهم من بنى موضعا أو اغترسه قبل تمام السور فهو له فبنى الناس من ذلك شيأ كثيرا واغترسوا ووفد عليه جماعة من الفرس من أرض العراق فانزلهم بغيضة هنالك كانت على العين المعروفة اليوم بعين علون وكان علون عبدا أسود يأوى الى تلك الغيضة ويقطع الطريق بها على المارة فتحامى الناس غيضته وتناذروها فأعلم ادريس رحمه الله بشأنه فبعث فى طلبه خيلا فقبضوا عليه وجاؤا به اليه فأمر بقتله وصلبه على شجرة كانت على العين فأضيفت اليه العين من يومئذ وقيل عين علون ثم أدار ادريس السور على عدوة القرويين وكانت من لدن باب السلسلة الى غدير الجوزاء *قال عبد الملك الوراق* كانت مدينة فاس فى القديم بلدين لكل بلد منهما سور يحيط به وأبواب تختص به والنهر فاصل بينهما وسميت احدى العدوتين عدوة القرويين لنزول العرب الوافدين من القيروان بها وكانوا ثلاثمائة أهل بيت وسميت الاخرى عدوة الاندلس لنزول العرب الوافدين من الاندلس بها وكانوا جماعة غفيرا يقال أربعة آلاف أهل بيت وكان الحكم بن هشام الاموى صاحب الاندلس صدرت منه لاول امارته هنات أوجبت قيام جماعة من أهل الورع عليه وكان فيهم يحيى بن يحيى الليثى صاحب مالك وراوى الموطأ عنه وطالوت الفقيه وغيرهما فخلعوا الحكم وبايعوا بعض قرابته وكانوا بالربض الغربى من قرطبة فقاتلهم الحكم وكثروه وكادوا يأتون عليه ثم أظفره الله بهم ووضع فيهم السيف ثلاثة أيام وهدم دورهم ومساجدهم وفر الباقون منهم فلحقوا بفاس المغرب الاقصى وبالاسكندرية من أرض مصر فأما اللاحقون بفاس فانزلهم ادريس رحمه الله بعدوة الاندلس فأضيفت اليهم وأما اللاحقون بالاسكندرية فثاروا بها بعد حين فزحف اليهم عبد الله ابن طاهر الخزاعى صاحب مصر من قبل المأمون بن الرشيد فقاتلهم ونفاهم الى جزيرة اقريطش فلم يزالوا بها الى ان ملكها الفرنج من أيديهم بعد مدة *وذكر ابن غالب فى تاريخه* ان الامام ادريس لما فرغ من بناء مدينة فاس وحضرت الجمعة الاولى صعد المنبر وخطب الناس ثم رفع يديه فى آخر الخطبة فقال اللهم انك تعلم انى ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا رياء ولا سمعة ولا مكابرة وانما أردت أن تعبد بها ويتلى بها كتابك وتقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ما بقيت الدنيا اللهم وفق سكانها وقطانها للخير وأعنهم عليه وأكفهم مؤنة أعدائهم وادر عليهم الارزاق واغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق انك على كل شئ قدير فأمن الناس على دعائه فكثرت الخيرات بالمدينة وظهرت بها البركات *ومن محاسن فاس* ان نهرها يشقها بنصفين وتتشعب جداوله فى دورها وحماماتها وشوارعها وأسواقها وتطحن به أرحاؤها ثم يخرج منها وقد حمل أقذارها وأزبالها

الى غير ذلك من عيون الماء التى تنبع بداخلها وتتفجر من بيوتها تجاوز الحصر كثرة وقد مدحها الفقيه الزاهد أبو الفضل ابن النحوى بقوله

يا فاس منك جميع الحسن مسترق * وساكنوك ليهنهم بما رزقوا
هذا نسيمك أم روح لراحتنا * وماؤك السلسل الصافى أم الورق
أرض تخللها الانهار داخلها * حتى المجالس والاسواق والطرق

وقال الفقيه الكاتب أبو عبد الله المغيلى يتشوق الى فاس وكان يلى خطة القضاء بمدينة آزمور

يا فاس حيا الله أرضك من ثرى * وسقاك من صوب الغمام المسبل
يا جنة الدنيا التى أربت على * حمص بمنظرها البهى الاجمل
غرف على غرف ويجرى تحتها * ماء ألذ من الرحيق السلسل
وبساتن من سندس قد زخرفت * بجداول كالايم أو كالمقصل
وبجامع القرويين شرف ذكره * أنس بذكراه يهيج تململ
وبصحنه زمن المصيف محاسن * فمع العشى الغرب منه استقبل
واجلس ازاء الخصة الحسنابه * واكرع بها عنى فديتك وانهل

﴿غزو ادريس بن ادريس المغربين واستيلاؤه عليهما﴾

لما فرغ ادريس من بناء مدينة فاس وانتقل اليها بحاشيته واستوطنها بحاشيته وأرباب دولته واتخذها دار ملكه أقام بها الى سنة سبع وتسعين ومائة فخرج غازيا بلاد المصامدة فانتهى اليها واستولى عليها ودخل مدينة نفيس ومدينة اغمات وفتح سائر بلاد المصامدة وعاد الى فاس فأقام بها الى سنة تسع وتسعين ومائة فخرج فى المحرم برسم غزو قبائل نفزة من أهل المغرب الاوسط ومن بقى هنالك على دين الخارجية من البربر فسار حتى غلب عليهم ودخل مدينة تلمسان فنظر فى أحوالها وأصلح سورها وجامعها وصنع فيها منبرا ﴿قال أبو مروان عبد الملك الوراق﴾ دخلت مدينة تلمسان سنة خمس وخمسين وخمسمائة فرأيت فى رأس منبرها لوحا من بقية منبر قديم قد سمر عليه هنالك مكتوبا فيه هذا ما أمر به الامام ادريس بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على رضى الله عنهم فى شهر المحرم سنة تسع وتسعين ومائة اه وقد تقدم لنا ما يخالف هذا والله أعلم وأقام ادريس بمدينة تلمسان وأحوازها يدبر أمرها ويصلح أحوالها ثلاث سنين ثم رجع الى مدينة فاس ﴿قال داود بن القاسم الاوربى﴾ شهدت مع ادريس بن ادريس بعض غزواته مع الخوارج الصفرية من البربر فلقيناهم وهم ثلاثة أضعافنا فلما تقارب الجمعان نزل ادريس فتوضأ وصلى ركعتين ودعا الله تعالى ثم ركب فرسه وتقدم للقتال قال فقاتلناهم قتالا شديدا فكان ادريس يضرب فى هذا الجانب مرة ويكر فى هذا الجانب الآخر مرة ولم يزل كذلك حتى ارتفع النهار ثم رجع الى رايته فوقف بازائها والناس يقاتلون بين يديه فطفقت أتأمله وأديم النظر اليه وهو تحت ظلال البنود يحرض الناس ويشجعهم فأعجبنى ما رأيت من ثباته وقوة جاشه فالتفت نحوى وقال يا داود مالى أراك تديم النظر الى قلت أيها الامام انه قد أعجبنى منك خصال لم أرها اليوم فى غيرك قال وما هى قلت أولاها ما أراه من ثبات قلبك وطلاقة وجهك عند لقاء العدو قال ذلك ببركة جدنا صلى الله عليه وسلم ودعائه لنا وصلاته علينا ووراثة من أبينا على بن أبى طالب قلت وأراك تبصق بصاقا مجتمعا وأنا أطلب قليل الريق فى فمى فلا أجده قال يا داود ذلك لقوة جاشى واجتماع لبى عند الحرب وعدم ريقك لطيش عقلك وافتراق لبك قلت وأنا أيضا أتعجب من كثرة تقلبك فى سرجك وقلة قرارك عليه قال ذلك منى زمع الى القتال وصرامة فيه فلا تظنه رعبا وأنشأ يقول

أليس أبونا هاشم شد أزره * وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب

فلسنا بمل الحرب حتى تملنا * ولا نتشكى ما يؤل من النصب

﴿وفاة ادريس بن ادريس رحمه الله﴾

﴿قال ابن خلدون﴾ انتظمت لادريس بن ادريس كلمة البربر وزناتة ومحى دعوة الخوارج منهم واقتطع المغرب عن دعوة العباسيين من لدن السوس الاقصى الى وادي شلف ودافع ابراهيم بن الاغلب عن حماه بعد ما ضايقه بالمكائد واستفساد الاولياء حتى قتلوا راشدا مولاه وارتاب ادريس بالبربر فصالح ابن الاغلب وسكن من غربه وضرب السكة باسمه وعجز الاغالبة بعد ذلك عن مدافعة هؤلاء الادارسة ودافعوا خلفاء بني العباس بالمعاذير الباطلة وصفا ملك المغرب لادريس واستمر بدار ملكه من فاس ساكنا وادعا مقتعدا أريكته مجتنيا ثمرته الى ان توفاه الله ثاني جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة ومائتين وعمره نحو ست وثلاثين سنة ودفن بمسجده بازاء الحائط الشرقي منه ﴿وقال البرنسي﴾ انه توفي بمدينة وليلي ودفن الى جنب أبيه وكان سبب وفاته انه أكل عنبا فشرق بحبة منه فمات لحينه وخلف من الولد اثنى عشر ذكرا أولهم محمد وعبد الله وعيسى وادريس وأحمد وجعفر ويحيى والقاسم وعمر وعلي وداود وحمزة كذا في القرطاس وزاد ابن حزم الحسن والحسين وولي الامر منهم بعده محمد وهو أكبرهم

﴿الخبر عن دولة محمد بن ادريس رحمه الله﴾

لما توفي ادريس بن ادريس رحمه الله قام بالامر بعده ابنه محمد بعهد منه اليه ولما ولي قسم بلاد المغرب بين اخوته وذلك باشارة جدته كنزة أم ادريس فاختص القاسم منها بطنجة وسبتة وقصر مصمودة وقلعة حجر النسر وتطاوين وما انضم الى ذلك من القبائل والبلاد واختص عمر منها بتيكساس وترغة وما بينهما من قبائل صنهاجة وغمارة واختص داود ببلاد هوارة وتسول وتازا وما بين ذلك من قبائل مكناسة وغياثة واختص يحيى بآصيلا والعرايش والبصرة وبلاد ورغة وما والى ذلك واختص عيسى بسلا وشالة وآزمور وتامسنا وما انضم الى ذلك من القبائل واختص حمزة بمدينة وليلي وأعمالها واختص أحمد بمدينة مكناسة ومدينة تادلا وما بينهما من بلاد فازاز واختص عبد الله باغمات وبلد نفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الاقصى وأبقى الآخرين في كفالته وكفالة جدتهم كنزة لصغرهم وبقيت تلمسان لولد عمه سليمان بن عبد الله فان ادريس بن ادريس لما غزا تلمسان وأقام بها ثلاث سنين كما سبق ودوخ بلاد زناتة واستوسقت له طاعتهم عقد عليها لبني عمه سليمان بن عبد الله فلما توفي ادريس واقتسم بنوه أعمال المغرب كانت تلمسان في سهم عيسى بن ادريس بن محمد بن سليمان بن عبد الله واستمرت بايديهم الى ان تلاشى أمرهم بدخول العبيديين عليهم قاله ابن خلدون وأقام محمد بن ادريس بدار ملكه من فاس مقتعدا أريكته واخوته ولاة على بلاد المغرب قد ضبطوا أعمالها وسدوا ثغورها وأمنوا اسبابها وحسنت سيرتهم في ذلك الى ان كان ما نذكره

﴿حدوث الفتنة بين بني ادريس﴾

ثم خرج على محمد بن ادريس أخوه عيسى بن ادريس بمدينة آزمور ونبذ طاعته وطلب الامر لنفسه فكتب محمد الى أخيه القاسم صاحب طنجة يأمره بحرب عيسى فامتنع من ذلك فكتب محمد الى أخيه عمر صاحب تيكساس بمثل ما كتب به الى القاسم فامتثل أمره وزحف الى عيسى في قبائل البربر وأمده محمد بألف فارس من زناتة فأوقع عمر بعيسى وهزمه وطرده عن عمله وكتب الى الامير محمد بالفتح فشكره على ذلك وولاه على ما فتحه من عمل عيسى وأمره مع ذلك بالمسير الى قتال القاسم الذي عصى أمره أولا

فزحف عمر الى القاسم ونزل عليه بظاهر طنجة فخرج اليه القاسم ودارت بينهما حرب شديدة هزم فيها القاسم واستولى عمر على مابيده من البلاد فصار الريف البحرى كله فى عمل عمر من تيكيساس وبلاد غمارة الى سبتة ثم الى طنجة وهذا ساحل البحر الرومى ثم ينعطف الى آصيلا والعرايش ثم الى سلا ثم آزمور وبلاد تامسنا وهذا ساحل البحر المحيط وتزهد القاسم بعد هذه الحرب فبنى مسجدا بساحل البحر قرب آصيلا بموضع يعرف بتاهدارت على ضفة النهر هنالك وأعرض عن الدنيا وأقام يعبد الله الى ان مات رحمه الله واتسعت ولاية عمر بن ادريس وخلصت طويته لاخيه محمد الامير الى ان توفى عمر بموضع يعرف بفج الفرس من بلاد صنهاجة فى دولة أخيه محمد سنة عشرين ومائتين فحمل الى فاس وصلى عليه الامير محمد ودفن مع أبيه وعمر هذا هو جد الاشراف الحموديين المالكين للاندلس بعد بنى أمية وعقد الامير محمد على عمله لولده على بن عمر الى ان كان من أمره ما نذكره وأما عيسى فيقال انه توفى بآيت عتاب وله بها ذرية والله أعلم

﴿وفاة محمد بن ادريس رحمه الله﴾

وأقام الامير محمد بن ادريس بعد وفاة أخيه عمر سبعة أشهر وتوفى بمدينة فاس فى ربيع الثانى سنة احدى وعشرين ومائتين ودفن بشرقى جامعها مع أبيه وأخيه بعد ان عهد بالامر لابنه على بن محمد المعروف بحيدرة على ماسيأتى

﴿الخبر عن دولة على بن محمد بن ادريس﴾

لما توفى محمد بن ادريس بايع الناس لابنه على بن محمد بعهد منه اليه ويلقب على هذا بحيدرة على لقب على ابن أبى طالب رضى الله عنه وهو جد الاشراف العلميين أهل جبل العلم ومنهم المشيشيون أولاد مولانا عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه والوازانيون أولاد مولانا عبد الله الشريف وينتهى نسب هؤلاء الى المولى علي بن مشيش أخى المولى عبد السلام بن مشيش وكان سن على حيدرة يوم بويع تسع سنين وأربعة أشهر فقام بأمره الاولياء والحاشية من العرب والبربر وأحسنوا كفالته وطاعته وكانت أيامه خير أيام ﴿وقال ابن أبى زرع﴾ ظهر لعلى هذا من الذكاء والفضل ما يقتضيه شرفه وسار بسيرة أبيه وجده فى العدل فكان الناس فى أيامه فى أمن ودعة الى ان توفى فى شهر رجب سنة أربع وثلاثين ومائتين وعهد بالامر لاخيه يحيى بن محمد على ماسيأتى

﴿الخبر عن دولة يحيى بن محمد بن ادريس﴾

﴿قال ابن خلدون﴾ قام يحيى بن محمد بن ادريس بالامر وامتد سلطانه وعظمت دولته وحسنت آثار أيامه واستبحر عمران فاس وبنيت بها الحمامات والفنادق للتجار وبنيت خارجها الارباض ورحل اليها الناس من الثغور القاصية ﴿وقال ابن أبى زرع﴾ قصد اليها الناس من الاندلس وافريقية وجميع بلاد المغرب

﴿بناء مسجد القرويين بفاس﴾

﴿قال ابن أبى زرع﴾ كان موضع مسجد القرويين أرضا بيضاء لرجل من هوارة كان والده قد حازها أيام بناء فاس ولما قدم وفد القيروان على ادريس الاصغر حسبما تقدم كان فيهم امرأة اسمها فاطمة بنت محمد الفهرى وتكنى أم البنين فنزلت فى أهل بيتها بالقرب من موضع المسجد المذكور ثم مات زوجها

واخوتها فورثت منهم مالا جسيما وكان من حلال فأرادت أن تنفقه فى وجوه الخير وكانت لها نية صالحة فعزمت على بناء مسجد تجد ثوابه عند الله فاشترت البقعة من ربها وشرعت فى حفر أساس المسجد وبناء جدرانه وذلك يوم السبت فاتح رمضان المعظم سنة خمس وأربعين ومائتين فبنته بالطابية والكذان وكانت الطريقة التى سلكتها فى بنائه انها التزمت ان تأخذ التراب وغيره من مادة البناء من نفس البقعة دون غيرها مما هو خارج عن مساحتها فحفرت فى أعماقها كهوفا وجعلت تستخرج منها التراب الجيد والحجر الكذان وتبنى به وأنبطت بها بئرا يستقى منها الماء للبناء والشرب وغير ذلك وكان ذلك كله تحريا منها أن لا تدخل فى بناء المسجد شبهة فعادت بركة نيتها وورعها على المسجد المذكور حتى كان منه ما ترى قالوا ولم تزل فاطمة المذكورة صائمة من يوم شرع فى بنائه الى ان تم وصلت فيه شكرا لله تعالى وكانت مساحة المسجد يوم بنى أربع بلاطات وصحنا صغيرا وجعلت محرابه فى موضع الثريا الكبرى وجعلت طوله من الغرب الى الشرق مائة وخمسين شبرا وبنت به صومعة غير مرتفعة بموضع القبة التى على رأس العنزة اليوم واستمر الحال على ذلك الى ان انقرضت دولة الادارسة وجاءت دولة زناتة من بعدها وأداروا السور على العدوتين معا القرويين والاندلس وزادوا فى مسجديهما زيادة كثيرة فنقلوا الخطبة من مسجد الشرفاء الى مسجد القرويين ومن مسجد الاشياخ الى مسجد الاندلس وذلك صدر المائة الرابعة ثم لما استولى عبد الرحمن الناصر صاحب الاندلس على فاس وبلاد العدوة استعمل على فاس عاملا له اسمه أحمد بن أبى بكر الزناتى ثم اليفرنى فاستأذن الناصر فى اصلاح مسجد القرويين والزيادة فيه فاذن له وبعث اليه بمال من خمس الغنائم فزاد فيه زيادة بينة وأزال الصومعة القديمة عن موضعها وبنى الصومعة الموجودة الآن وكتب على بابها فى مربعة بالجص واللازورد هذا ما أمر به أحمد بن أبى بكر الزناتى هداه الله ووفقه ابتغاء ثواب الله وجزيل احسانه وابتدأ العمل فى هذه الصومعة يوم الاثنين غرة رجب سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وفرغ من بنائها فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وأربعين وثلاثمائة وركب فى أعلا المنارة سيف الامام ادريس بن ادريس تبركا به وذلك ان بعض حفدة ادريس رحمه الله تنازعوا فى السيف المذكور وأراد كل أن يحوزه لنفسه فقال لهم الامير أحمد بن أبى بكر هل لكم فى ان تبيعونى هذا السيف قالوا وما تصنع به قال أجعله فى أعلى المنارة فقالوا اما اذا أردت هذا فنحن نهبه لك مجانا فوهبوه له فركبه فى أعلى المنارة وكانت مبنية من الحجر المنجور وفيها ثقب يعشش فيها الطير من الحمام والزرزور وغيرهما ويتأذى المسجد والناس بها واستمر الحال على ذلك الى ان كانت سنة ثمان وثمانين وستمائة أيام السلطان يوسف ابن يعقوب بن عبد الحق المرينى فاستأذن القاضى أبو عبد الله ابن أبى الصبر السلطان يوسف المذكور فى تلبيس المنارة وتبييضها فاذن له فلبسها وبيضها ودلكها حتى صارت كالمرآة الصقيلة ❊ وقال ابن خلدون ❊ ثم أوسع فى خطة المسجد المذكور المنصور بن أبى عامر صاحب الاندلس وأعد له السقاية والسلسلة بباب الحفاة ثم أوسع فى خطته على بن يوسف اللمتونى ثم ملوك الموحدين وبنى مرين واستمرت العمارة به وانصرفت هممهم الى تشييده والمنافسة فى الاهتبال به فبلغ الاحتفال فيه ما شاء حسبما هو مذكور فى تواريخ المغرب اهـ وفى أيام يحيى بن محمد صاحب الترجمة وذلك فى سنة سبع وثلاثين ومائتين قام رجل مؤذن بناحية تلمسان يدعى النبوة ويتأول القرآن على غير وجهه فاتبعه خلق كثير من الغوغاء وكان من بعض شرائعه انه ينهى عن قص الشعر وتقليم الاظفار ونتف الابطين والاستحداد وأخذ الزينة ويقول لا تغيير لخلق الله فامر أمير تلمسان بالقبض عليه فهرب وركب البحر من مرسى هنين الى الاندلس فشاع بها أيضا خبره وتبعه من سفهاء الناس أمة عظيمة فبعث اليه ملك الاندلس فاستتابه فلم يتب فقتله وصلبه وهو يقول أتقتلون رجلا ان يقول ربى الله

﴿الخبر عن دولة يحيى بن يحيى بن محمد بن ادريس﴾

لما توفي يحيى بن محمد الذي بنى مسجد القرويين في أيامه ولي الامر من بعده ابنه يحيى بن يحيى بن محمد ابن ادريس فأساء السيرة وكثر عيثه في الحرم ودخل على جارية من بنات اليهود في الحمام وكانت بارعة الجمال فراودها عن نفسها فاستغاثت وبادر الناس اليه بالانكار وثابت العامة عليه وتولى كبر ذلك عبد الرحمن بن أبي سهل الجذامي وكانت زوجة يحيى المذكور وهي عاتكة بنت علي بن عمر بن ادريس صاحب الريف والسواحل أشارت عليه بالاختفاء بعدوة الاندلس ريثما تسكن الفتنة فتوارى بها فمات من ليلته أسفا على ما صنع بنفسه وما وقع فيه من العار واستولى عبد الرحمن بن أبي سهل على فاس وقام بامرها فكتبت عاتكة بنت علي الى أبيها تسلمه بالخبر واستدعاه مع ذلك أهل الدولة من العرب والبربر والموالي فجمع جيوشه وجاء الى فاس فاستولى عليها وانقطع الملك من عقب محمد بن ادريس وصار بعد هذا تارة يكون في عقب عمر بن ادريس صاحب الريف وتارة يكون في عقب القاسم بن ادريس الزاهد على ما نذكره

﴿الخبر عن دولة علي بن عمر بن ادريس﴾

لما دخل علي بن عمر مدينة فاس واستقر بها بايعه الناس ودخلت الكافة في طاعته وخطب له على جميع منابر المغرب واستقام له الامر الى ان ثار عليه عبد الرزاق الفهري وكان من الخوارج الصفرية وأصله من وشقة بلد بالاندلس فقام بجبال مديونة من أعمال فاس على مسيرة يوم ونصف منها فتبعه خلق كثير من البربر من مديونة وغياثة وغيرهم فبنى قلعة منيعة ببعض جبال مديونة وسماها وشقة باسم بلده ﴿قال ابن أبي زرع﴾ وهي باقية بتلك الناحية حتى الآن ثم زحف الى قرية صفرون فدخلها وبايعه كافة البربر الصفرونية ثم زحف بهم الى فاس فخرج اليه علي بن عمر بن ادريس في عسكر ضخم فكانت بينهم حرب شديدة كان الظفر في آخرها لعبد الرزاق فانهزم علي بن عمر وقتل خلق كثير من جنده وفر بنفسه الى بلاد اوربة فدخل عبد الرزاق مدينة فاس وملك عدوة الاندلس وخطب له بها وامتنع منه أهل عدوة القرويين وبعثوا الى يحيى بن القاسم الزاهد وكان ما نذكره

﴿الخبر عن دولة يحيى بن القاسم بن ادريس﴾

لما فر علي بن عمر عن فاس واستولى عبد الرزاق الصفري على عدوة الاندلس بعث أهل فاس الى يحيى بن القاسم بن ادريس ويعرف يحيى هذا بالعوام فوصل اليهم فبايعوه وولوه على أنفسهم ويحيى العوام هذا هو جد الاشراف الجوطيين بفاس فانهم أولاد يحيى الجوطي ابن محمد بن يحيى العوام وانما قيل له الجوطي نسبة الى جوطة بضم الجيم وبالطاء المهملة قرية كانت على نهر سبو بالعدوة الجنوبية منه نزلها يحيى ابن محمد فنسب اليها وقبره معروف بها الى الآن ولما استقل يحيى بن القاسم بالامر قاتل عبد الرزاق حتى أخرجه من عدوة الاندلس فدخلها وبايعه أهلها وجميع من نزل بها من أهل الاندلس الربضيين ربض قرطبة واستعمل يحيى بن القاسم عليهم ثعلبة بن محارب بن عبد الله الازدي من ولد المهلب بن أبي صفرة وهو ربضي أيضا فلم يزل واليا على عدوة الاندلس الى ان توفي فاستعمل يحيى مكانه ولده عبد الله ابن ثعلبة المعروف بعبود الى ان توفي أيضا فاستعمل الامير يحيى مكانه ولده محارب بن عبود بن ثعلبة وخرج الامير يحيى بن القاسم الى قتال الصفرية فكانت له معهم حروب ووقائع كثيرة ولم يزل أميرا على

فاس وأعمالها الى ان اغتاله الربيع بن سليمان سنة اثنتين وتسعين ومائتين وكانت فى أيام هؤلاء الامراء أحداث نذكرها ﴿وفى سنة ثلاث وخمسين ومائتين﴾ كان ببلاد العدوة والاندلس قحط شديد نضبت منه المياه واستمر الى سنة ستين ﴿وفى سنة أربع وخمسين﴾ كسف القمر كله من أول الليل حتى أصبح ولم ينجل ﴿وفى سنة ستين ومائتين﴾ عم القحط والغلاء جميع بلاد الاندلس والمغرب وافريقية ومصر والحجاز حتى رحل الناس عن مكة الى الشام ولم يبق بها الا نفر يسير مع سدنة الكعبة ثم كان بالمغرب والاندلس وباء عظيم مع غلاء فى الاسعار وعدمت الاقوات فهلك خلق كثير ﴿وفى سنة ست وستين ومائتين﴾ كانت بالسماء حمرة شديدة من أول الليل الى آخره لم يعهد قبلها مثلها وذلك ليلة السبت لتسع بقين من صفر من السنة المذكورة ﴿وفى سنة سبع وستين ومائتين﴾ فى يوم الخميس الثانى والعشرين من شوال منها كانت زلزلة عظيمة لم يسمع بمثلها تهدمت منها القصور وانحطت منها الصخور من الجبال وفر الناس من المدن الى البرية من شدة اضطراب الارض وتساقطت السقوف والحيطان وفرت الطيور عن أوكارها وماجت فى السماء زمانا حتى سكنت الزلزلة وعمت هذه الرجفة جميع بلاد الاندلس سهلها وجبالها وجميع بلاد العدوة من تلمسان الى طنجة ومن البحر الى أقصى المغرب الا انه لم يمت فيها أحد لطفا من الله تعالى بخلقه ﴿وفى سنة ست وسبعين ومائتين﴾ طبقت الفتنة جميع آفاق الاندلس والمغرب وافريقية ﴿وفى سنة خمس وثمانين ومائتين﴾ كانت المجاعة الشديدة التى عمت جميع بلاد الاندلس وبلاد العدوة حتى أكل الناس بعضهم بعضا ثم عقب ذلك وباء ومرض وموت كبير هلك فيه من الخلق مالا يحصى فكان يدفن فى القبر الواحد عدد من الناس لكثرة الموتى وقلة من يقوم بهم وكانوا يدفنون من غير غسل ولا صلاة والامر لله وحده

﴿الخبر عن دولة يحيى بن ادريس بن عمر بن ادريس﴾

لما قتل يحيى العوام فى التاريخ المتقدم ولى الامر من بعده يحيى بن ادريس بن عمر بن ادريس فبايعه أهل عدوتى فاس وخطب له بهما وامتد ملكه على جميع أعمال المغرب وخطب له على سائر منابره وكان يحيى هذا واسطة عقد البيت الادريسى أعلاهم قدرا وأبعدهم ذكرا وأكثرهم عدلا وأغزرهم فضلا وأوسعهم ملكا وكان فقيها حافظا للحديث ذا فصاحة وبيان بطلا شجاعا حازما ذا صلاح ودين وورع ﴿قال ابن خلدون﴾ لم يبلغ أحد من الادارسة مبلغه فى الدولة والسلطان الى ان طما على ملكه عباب العبيديين القائمين بافريقية فاغرقه

﴿استيلاء العبيديين من الشيعة على المغرب الاقصى وقدوم قائدهم مصالة بن حبوس الى فاس﴾

قد قدمنا عند ذكر ولاة المغرب ان ابراهيم بن الاغلب كان آخرهم وانه أورث بافريقية ملكا لبنيه فاستمرت دولتهم بها الى أواخر المائة الثالثة وانقرضت على يد أبى عبد الله المحتسب داعية العبيديين من الشيعة فان المحتسب حج فى بعض السنين واجتمع بمكة بحجاج كتامة من أهل المغرب فتعرف اليهم ووعدهم بظهور المهدى من آل البيت على يدهم ويكون لهم به الملك والسلطان فتبعوه على رأيه وصحبهم الى بلادهم ورأس فيهم رياسة دينية وقرر لهم مذهب الشيعة فاتبعوه وتمسكوا به ثم بايعوا مولاه عبيد الله المهدى أول خلفاء العبيديين فاستولى على افريقية فى خبر طويل ثم سمت همته الى تملك المغرب الاقصى فاغزاه قائده مصالة بن حبوس المكناسى صاحب تاهرت والمغرب الاوسط فزحف مصالة الى المغرب الاقصى سنة خمس وثلاثمائة وانتهى الى فاس فبرز اليه يحيى بن ادريس لمدافعته فى جموع العرب والبربر والموالى والتقوا بقرب مكناسة فانهزم يحيى وعاد مفلولا الى فاس ثم تقدم مصالة الى فاس وحاصرها الى ان صالحه

يحيى على مال يؤديه اليه وعلى البيعة لعبيد الله المهدى فقبل يحيى الشرط وخرج عن الامر وأنفذ بيعته الى المهدى وأبقى عليه مصالة فى سكنى فاس وعقد له على عملها خاصة وعقد لابن عمه موسى بن أبى العافية المكناسى على ماسوى ذلك من بلاد المغرب وكان موسى هذا صاحب تسول وبلاد تازا وكان كبير مكناسة بالمغرب الاقصى على الاطلاق وكان قد خدم مصالة حين قدم المغرب وتعرف اليه وهاداه وقاتل معه فى جميع حروبه بالمغرب فحسنت منزلته لديه وولاه بلاد المغرب كلها عدى فاسا وأعمالها فانه تركها للامير يحيى كما قلنا وصار المغرب الاقصى فى ملكة العبيديين واندرجت دولة الادارسة فى دولتهم فكان موسى ابن أبى العافية بعد ذهاب مصالة كلما أراد الظهور بالمغرب والاستبداد به غمره يحيى بن ادريس بحسبه ونسبه وفضله ودينه فقطع به كلما كان يريده فكان على قلب موسى منه حمل ثقيل فلما قدم مصالة المغرب فى كرته الثانية وذلك سنة تسع وثلاثمائة سعى موسى بن أبى العافية عنده بيحيى بن ادريس حتى أوغر صدره عليه فلما قرب مصالة من فاس خرج اليه يحيى للقائه والسلام عليه فى جماعة من وجوه دولته فقبض مصالة عليهم وقيد يحيى بالحديد وتقدم الى فاس فدخلها ويحيى بين يديه موثقا على جمل ثم عذبه بأنواع العذاب حتى استصفى أمواله وذخائره ثم نفاه الى نواحى آصيلا وقد ساءت حاله وانفض جمعه فأقام عند بنى عمه ببلاد الريف مدة فأعطوه مالا ووصلوه بما يقيم به أوده ويستعين به على أمره فلم يرض ذلك وارتحل عنهم يريد افريقية فعرض له موسى بن أبى العافية فى طريقه فقبض عليه وسجنه بمدينة آلكاى قريبا من عشرين سنة ثم أطلقه بعد ذلك قالوا وكان أبوه ادريس بن عمر قد دعا عليه أن يميته الله جائعا غريبا فاستجيب له فيه فخرج يحيى من سجن ابن أبى العافية الى افريقية وهو فى فقر وذلة قد بلغ سوء الحال منه كل مبلغ فوصل الى المهدية على تلك الحال فوافق بها فتنة أبى يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى وحصاره اياها فمات بها جائعا غريبا سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة رحمه الله

﴿عود المغرب الاقصى الى الادارسة وظهور الحسن الحجام ابن محمد بن القاسم بن ادريس﴾

لما قبض مصالة على يحيى بن ادريس واستصفى أمواله كما قلنا استعمل على فاس ريحان الكتامى وعاد الى القيروان فأقام ريحان عاملا على فاس وأحوازها نحو ثلاثة أشهر وثار عليه الحسن بن محمد بن القاسم بن ادريس المعروف بالحجام وعرف بذلك لانه كان بينه وبين عمه أحمد بن القاسم بن ادريس حرب فحمل الحسن على فارس من أصحاب عمه فطعنه فى موضع المحاجم ثم فعل ذلك بثان وثالث لا يطعنهم الا فى موضع المحاجم فقال عمه أحمد ان ابن أخى الحجام فلزمه ذلك اللقب وفى ذلك يقول بعضهم

وسميت حجاما ولست بحاجم * ولكن لطعن فى مكان المحاجم

وكانت ثورة الحجام على ريحان سنة عشر وثلاثمائة أتى الى فاس فى جمع من شيعته وأنصاره وكان مقداما شجاعا فدخلها على حين غفلة من أهلها فاستولى عليها وقتل ريحان وقيل نفاه عنها واجتمع الناس على بيعته ودخل فى طاعته أكثر قبائل البربر بالمغرب وملك عدة مدن مثل مدينة لواتة وصفروى ومدين ومدائن مكناسة والبصرة واستقام له الامر بالمغرب الى ان كان منه مع موسى بن أبى العافية ما نذكره

﴿خروج الحسن الحجام الى قتال موسى بن أبى العافية﴾

﴿قال فى القرطاس﴾ وفى سنة احدى عشرة وثلاثمائة خرج الامير الحسن الحجام الى قتال موسى بن أبى العافية فالتقى معه بفحص الزاد على مقربة من وادى المطاحن ما بين فاس وتازا فاوقع الحجام بابن أبى العافية وقعة عظيمة لم يقع فى دولة الادارسة مثلها قتل فيها من عسكر ابن أبى العافية نحو ألفين وثلاثمائة من جملتهم ابنه منهال بن موسى بن أبى العافية وقتل من عسكر الحجام نحو السبعمائة ثم كانت العاقبة لموسى على الحجام فانفض عسكر الحجام وعاد مفلولا الى فاس فجعل الحجام ودخل فاسا وحده وترك عسكره خارج المدينة فغدر به عامله عليها حامد بن حمدان الهمدانى ويقال الاوربى من قرى افريقية دخل عليه

ليلا في داره فقيده وأخذه اليه وأغلق المدينة في وجه الجند وطير الى موسى بن أبي العافية يستدعيه الى فاس وكان مانذكره

﴿الخبر عن دولة آل أبي العافية المكناسيين الناسخة لدولة آل ادريس بفاس وأعمالها﴾

كان موسى بن أبي العافية متمسكا في هذه المدة بدعوة العبيديين من الشيعة فلما قبض حامد بن حمدان على الحسن الحجام واستدعى ابن أبي العافية بادر نحوه فدخل عدوة القرويين واستولى عليها ثم قاتل أهل عدوة الاندلس حتى ملكها فلما ملك المدينتين معا طالب حامد بن حمدان باحضار الحسن الحجام وقال أقتله بولدي منهال وكان حامد قد ندم على فعلته تلك فدافع موسى وسوّفه وكره الجاهرة بسفك دماء آل البيت ولما جنّ الليل خالف حامد الى الحسن ففك عنه قيده وأرسله فتدلى الحسن من السور فسقط وانكسرت ساقه فتحامل حتى انتهى الى عدوة الاندلس فاختفى بها الى ان مات لمضي ثلاث من سقطته رحمه الله وذلك سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة وأراد ابن أبي العافية قتل حامد بن حمدان لعدم تمكينه اياه من الحجام ففر الى المهدية وكانت دولة الحسن الحجام بفاس نحو سنتين وانقرضت دولة آل ادريس من فاس وأعمالها وتداول المغرب الاقصى العبيديون أصحاب افريقية والمروانيون أصحاب الاندلس مرة لهؤلاء ومرة لهؤلاء وتجددت للادارسة دولة أخرى ببلاد الريف نذكرها عن قريب ان شاء الله وصفت فاس وأعمالها لابن أبي العافية وملك معها كثيرا من أعمال المغرب وبايعته القبائل والاشياخ وهو في ذلك كله متمسك بدعوة الشيعة كما قلنا فكان كالنائب عنهم بالمغرب والله غالب على أمره

﴿طرد موسى بن أبي العافية آل ادريس من أعمال المغرب وحصره اياهم بحجر النسر﴾

لما استولى موسى بن أبي العافية على فاس والمغرب شمر لطرد الادارسة عنه فاخرجهم من ديارهم وأجلاهم عن بلادهم من شالة وآصيلا وغيرهما من البلاد التي كانت في أيديهم ولجؤا باجمعهم الى قلعة حجر النسر مغلوبين على ملكهم مطرودين عن دار عزهم التي أسسها اسلافهم وكانت قلعة حجر النسر حصنا منيعا بناه محمد بن ابراهيم بن محمد بن القاسم بن ادريس شامخا في عنان السحاب فنزل عليهم موسى بن أبي العافية وشدد عليهم الحصار وأراد استئصالهم وقطع دابرهم فعذله على ذلك أكابر دولته وقالوا له أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب وتخليه منهم هذا شيء لا نوافقك عليه ولا نتركك له فاستحيا عند ذلك وارتحل عنهم الى فاس وخلف على حصارهم قائده أبا الفتح التسولي في ألف فارس يمنعهم من التصرف وكان ذلك سنة سبع عشرة وثلاثمائة

﴿استيلاء موسى بن أبي العافية على تلمسان وأعمالها﴾

لما ارتحل موسى بن أبي العافية عن حجر النسر سار الى فاس فاقام بها أياما وقتل عامله على عدوة الاندلس عبد الله بن ثعلبة بن محارب بن عبود الازدي وولى مكانه أخاه محمد بن ثعلبة ثم عزله وولى مكانه طوال بن أبي يزيد فلم يزل عاملا عليها الى ان خرجت فاس عن يد ابن أبي العافية واستعمل موسى على المغرب الاقصى ولده مدين بن موسى بن أبي العافية وأنزله بعدوة القرويين ثم نهض الى تلمسان سنة تسع عشرة وثلاثمائة فملكها وأعمالها وكانت بيد الحسن بن أبي العيش من أعقاب سليمان بن عبد الله أخي ادريس الاكبر وفر الحسن الى مدينة مليلة من جزائر ملوية وبنى هنالك حصنا وتحصن به ثم زحف ابن أبي العافية الى مدينة نكور فملكها أيضا وحاصر الحسن في حصنه مدة ثم عقد له سلما على حصنه وكان ذلك في شعبان سنة عشرين وثلاثمائة ثم عاد الى فاس وقد دوّخ البلاد والاقطار وانتظم المغربان الاقصى والاوسط في ملكه

﴿انحراف موسى بن أبي العافية عن الشيعة الى بني مروان وما نشأ عن ذلك﴾

كان عبد الرحمن الناصر الاموى صاحب الاندلس قد سمى له أمل فى التملك على المغرب الاقصى لما بلغه من تراجع أمر بنى ادريس به واشراف دولتهم على الهرم فلك سبتة من يد بنى عصام القائمين بها بالدعوة الادريسية ولما استولى موسى بن أبي العافية على المغرب خاطبه الناصر فى القيام بدعوته ووعده الجميل على ذلك وأتاه من بين يديه ومن خلفه حتى أجابه الى مراده ونقض طاعة الشيعة وخطب للناصر على منابر عمله فاتصل الخبر بعبيد الله المهدى صاحب افريقية فسرح اليه قائده حميد بن يصليت المكناسى صاحب تاهرت فى عشرة آلاف فارس وهو ابن أخى مصالة بن حبوس المتقدم الذكر فالتقى حميد وموسى بفحص مسون فكانت بينهم حرب سجال ثم ان حميدا بيت موسى ليلة فضرب فى عسكره فانهزم موسى وأصحابه ومضى الى عين اسحاق من بلاد تسول فتحصن بها وتقدم حميد الى فاس فلما اشار فها فرعنها مدين بن موسى ولحق بابيه فدخلها حميد واستعمل عليها حامد بن حمدان الهمدانى وكان فى جملته ثم عاد الى افريقية وقد قضى أربه من المغرب وكان ذلك سنة احدى وعشرين وثلاثمائة ولما اتصل ببنى ادريس المحصورين بحجر النسر خبر هزيمة موسى بن أبي العافية وفراره عن فاس وولاية حامد بن حمدان عليها اقويت نفوسهم وتظاهروا على أبي الفتح التسولى فنزلوا اليه وقاتلوه وهزموه ونهبوا معسكره وخرجوا الى الفضاء بعد انحصارهم بالقلعة المذكورة أربع سنين

﴿ثورة أحمد بن بكر الجذامى بدعوة المروانيين بفاس وما نشأ عن ذلك﴾

وأقام حامد بن حمدان واليا على فاس من قبل الشيعة الى ان ثار عليه أحمد بن بكر بن عبد الرحمن بن سهل الجذامى وذلك عقب وفاة عبيد الله المهدى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة فقتل حامد بن حمدان وبعث برأسه وبولده الى موسى بن أبي العافية فبعث به موسى الى عبد الرحمن الناصر بقرطبة واستولى على المغرب وعادت الدعوة به الى بنى مروان ولما اتصل الخبر بصاحب افريقية أبي القاسم بن عبيد الله المهدى المتولى بعد أبيه سرح قائده ميسور الخصى الى المغرب فقدمه ميسور سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وخام ابن أبي العافية عن لقائه واعتصم بحصن آلكاى وتقدم ميسور الى فاس فحاصرها أياما الى ان خرج اليه أحمد بن بكر مبايعا وقدم بين يديه هدية نفيسة ومالا جليلا فقبض ميسور الهدية والمال ثم تقبض على أحمد بن بكر وقيده وبعث به الى المهدية ولما نذر أهل فاس بغدره امتنعوا عليه وأغلقوا أبوابهم دونه وقدموا على أنفسهم حسن بن قاسم اللواتى فحاصرهم ميسور سبعة أشهر ولما طال عليهم الحصار رغبوا فى السلم فصالحهم على ان اعطوه ستة آلاف دينار وأنطاعا ولبودا وقربا للماء وأثاثا وكتبوا ببيعتهم الى أبي القاسم الشيعى وكتبوا اسمه فى سكتهم وخطبوا له على منابرهم فقبل ميسور ذلك منهم وأقر عليهم حسن بن قاسم اللواتى وارتحل عنهم واستمر حسن عاملا على فاس الى ان قدم أحمد بن بكر من المهدية مطلقا مكرما فتخلى له عن ما كان بيده وذلك فى سنة احدى وأربعين وثلاثمائة فكانت ولاية حسن بن القاسم على فاس ثمان عشرة سنة قاله فى القرطاس ﴿وقال ابن خلدون﴾ ان أحمد بن بكر الجذامى قدم من افريقية سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة فسار الى فاس وأقام بها متنكرا الى ان وثب بعاملها حسن بن قاسم اللواتى فتخلى له عن العمل والله أعلم

﴿حرب ميسور مع موسى بن أبي العافية﴾

لما صالح ميسور أهل فاس نهض الى حرب ابن أبي العافية فدارت بينهم حروب كان الظهور فى آخرها لميسور وأسر البورى بن موسى بن أبي العافية وغربه الى المهدية وطرد موسى عن أعمال المغرب الى نواحى ملوية ووطاط وما وراءها من بلاد الصحراء ثم قفل القيروان ﴿وقال ابن أبي زرع فى كتاب

القرطاس ﴿ان بنى ادريس تولوا معظم الحروب التى دارت بين ميسور وابن أبى العافية وانهم قاتلوا ابن أبى العافية حتى فر أمامهم الى الصحراء قال وتملك الادارسة أكثر ما كان بيد ابن أبى العافية قائمين بدعوة الشيعة فلم يزل ابن أبى العافية شريدا فى الصحراء وأطراف البلاد التى بقيت بيده وذلك من مدينة آكرسيف الى مدينة نكور الى ان قتل ببعض بلاد ملوية وذلك سنة احدى وأربعين وثلاثمائة وقيل انه قتل سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة قاله البرنسى اهـ كلام ابن أبى زرع ﴿وقال ابن خلدون﴾ ان موسى ابن أبى العافية رجع من الصحراء الى أعماله بالمغرب فملكها وولى على عدوة الاندلس أبا يوسف بن محارب الازدى قال وهو الذى مدن عدوة الاندلس وكانت حصونا ثم زحف الى تلمسان سنة خمس وعشرين وثلاثمائة فاستولى عليها قال واستفحل أمر ابن أبى العافية بالمغرب الاقصى واتصل عمله بعمل محمد بن خزر ملك مغراوة وصاحب المغرب الاوسط وبثوا دعوة الاموية فى أعمالها والله أعلم

﴿بقية أخبار آل أبى العافية بالمغرب﴾

قال ابن أبى زرع لما هلك موسى بن أبى العافية ولى بعده ابنه ابراهيم الى ان توفى سنة خمسين وثلاثمائة فولى بعده ابنه عبد الله ويقال عبد الرحمن بن ابراهيم بن موسى بن أبى العافية الى ان توفى سنة ستين وثلاثمائة فولى عمله من بعده ابنه محمد وعليه انقرضت دولة آل أبى العافية سنة ثلاث وستين وثلاثمائة (وذكر بعض المؤرخين لايامهم) انه لما توفى محمد بن عبد الله بن ابراهيم بن موسى بن أبى العافية ولى بعده ابنه القاسم بن محمد المحارب للمتونة فكانت بينه وبينهم حروب الى ان غلب عليه يوسف بن تاشفين فقتله واستأصل شافة ذرية موسى بن أبى العافية بالمغرب وكانت دولتهم مائة وأربعين سنة من سنة خمس وثلاثمائة الى سنة خمس وأربعين وأربعمائة اهـ ولكن دولتهم بفاس انتهت الى قدوم ميسور الخصى كما مر وبقيت رياستهم بالاطراف الى دولة اللمتونيين والله أعلم وكان فى هذه المدة من الاحداث مانذكره ﴿ففى يوم الاربعاء﴾ التاسع والعشرين من شوال سنة تسع وتسعين ومائتين كسفت الشمس كسوفا كليا وكان ذلك بعد صلاة العصر فغاب القرص كله وظهرت النجوم وأذن أكثر الناس بالمساجد للمغرب ثم تجلت مضيئة بعد ذلك ومكثت مقدار ثلث ساعة ثم غربت ﴿وفى سنة ثلاث وثلاثمائة﴾ كان بافريقية والمغرب والاندلس فتن كثيرة ومجاعة عظيمة أشبهت مجاعة سنة ستين ومائتين ثم وقع الموت فى الناس حتى عجزوا عن دفن موتاهم ﴿وفى سنة خمس وثلاثمائة﴾ أحرقت النار أسواق مدينة فاس وأسواق تاهرت قاعدة زناتة وأحرقت أسواق قرطبة وأرباض مكناسة من بلاد جوف الاندلس وكان ذلك كله فى شوال من السنة المذكورة فسميت سنة النار ﴿وفى سنة سبع وثلاثمائة﴾ كان بافريقية والمغرب والاندلس رخاء مفرط وطاعون ووباء كثير وفيها كانت الريح السوداء الشديدة الهبوب التى قلعت الاشجار وهدمت الدور بفاس فتاب الناس ولزموا المساجد وارتدعوا عن كثير من الفواحش ﴿وفى سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة﴾ ظهر حاميم المتنبى بجبال غمارة ﴿قال ابن خلدون﴾ كانت غمارة غريقة فى الجهالة والبعد عن الشرائع بسبب البداوة والانتباذ عن مواطن الخير وتنبأ فيهم من قبيلة يقال لها مجكسة حاميم بن منّ الله يكنى أبا محمد ويكنى أبوه منّ الله أبا يخلف وكان ظهوره بجبل حاميم المشتهر به قريبا من تطوان واجتمع اليه كثير من غمارة وأقروا بنبوته وشرع لهم شرائع وعبادات وصنع لهم قرآنا كان يتلوه عليهم بلسانه فمما شرع لهم صلاتان فى كل يوم واحدة عند طلوع الشمس والاخرى عند غروبها ثلاث ركعات فى كل صلاة ويسجدون وبطون أيديهم تحت وجوههم ومن قرآنهم الذى كانوا يقرؤنه بعد تهليل يهللون به بلسانهم خلنى من الذنوب يامن خلى النظر ينظر فى الدنيا أخرجنى من الذنوب يامن أخرج يونس من بطن الحوت وموسى من البحر ثم يقول فى ركوعه آمنت بحاميم وبابيه أبى يخلف منّ الله وآمن رأسى وعقلى وما يكنه صدرى وما أحاط به دمى ولحمى وآمنت بتاليه عمة حاميم

أخت أبي يخلف من الله ثم يسجد وكانت تالية هذه امرأة كاهنة ساحرة وكان حاميم يلقب المفترى وكانت أخته دبوا كاهنة ساحرة أيضا وكانوا يستغيثون بها في الحروب والقحوط وفرض عليهم صوم الاثنين وصوم الخميس الى الظهر وصوم الجمعة وصوم عشرة أيام من رمضان ويومين من شوال ومن أفطر في يوم الخميس عمدا فكفارته أن يتصدق بثلاثة أثوار ومن أفطر في يوم الاثنين فكفارته أن يتصدق بثورين وفرض عليهم في الزكاة العشر من كل شئ وأسقط عنهم الحج والوضوء والغسل من الجنابة وأحل لهم أكل الانثى من الخنزير وقال انما حرم قرآن محمد الخنزير الذكر وأمر أن لا يؤكل الحوت الا بذكاة وحرم عليهم أكل البيض وأكل الرأس من كل حيوان فبعث اليه عبد الرحمن الناصر صاحب الاندلس عسكرا فالتقوا بقصر مصمودة من أحواز طنجة فقتلوه وقتلوا أتباعه وصلبوا أشلاءه بالقصر المذكور وبعثوا برأسه الى الناصر بقرطبة ورجع من بقي من أتباعه الى الاسلام وذلك سنة خمس عشرة وثلاثمائة ﴿قال ابن خلدون﴾ وكان لابنه عيسى بن حاميم من بعده قدر جليل في غمارة ﴿وفي سنة سبع وعشرين وثلاثمائة﴾ ظهر ببلاد المغرب غمام كثيف دام خمسة أيام لم ير الناس فيها شمسا وكان الشخص لا يرى من الارض فيه الا موضع قدميه فتاب الناس وأخرجوا الصدقات فكشف الله عنهم ما بهم وسميت سنة الغمام ﴿وفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة﴾ نزل برد عظيم الواحدة منه تزن رطلا وأكثر فقتل الطير والوحش والبهائم وكثيرا من الناس وكسر الأشجار وأفسد الثمار وكان ذلك بأثر قحط شديد وغلاء عام ﴿وفي سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة﴾ نزل أيضا برد كثير لم يعهد مثله كثرة قتل المواشي وأفسد الثمار وجاءت السيول العظيمة بجميع بلاد المغرب وكان بها رعود قاصفة وبروق خاطفة ودام ذلك أياما واستسقى الناس واستصحوا في هذه السنة وفيها أيضا كانت ريح شديدة هدمت المباني ﴿وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمائة﴾ كان الوباء العظيم بالمغرب والاندلس هلك فيه أكثر الخلق وفي هذه المدة كان الشيخ أبو سعيد المصري المعروف بأبي سلهامة موجودا وهو من كبار صلحاء المغرب وقبره شهير قرب مشرع الحضر على ساحل البحر وعليه قبة عجيبة الصنعة محكمة العمل بالنقش والاصباغ الزليج الملون ﴿قال أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في مرآة المحاسن﴾ كان على رأس قبر الشيخ أبي سلهامة لوح مذهب مكتوب عليه هذه القبور الثلاثة التي أخفى الله تعالى فيها قبر الشيخ أبي سعيد المكني بأبي سلهامة وكانت وفاته سنة نيف وأربعين وثلاثمائة قال أبو عبد الله المذكور ثم ان النصارى نزلوا مرة هنالك فاقتلعوا اللوح وذهبوا به قال وكان النيف الزائد على الاربعين مسمى في اللوح ولكني أنسيته ومع ذلك فهو لا يزيد على السبع والله تعالى أعلم

﴿الخبر عن الدولة الثانية للادارسة ببلاد الريف﴾

هذه الدولة التي كانت للادارسة ببلاد الريف لم تكن لهم على سبيل الاستقلال والاستبداد كما كانت لهم أولا بفاس والمغرب انما كانوا فيها تحت نظر المتغلب على بلاد المغرب اما من الشيعة أصحاب افريقية واما من المروانيين أصحاب الاندلس كما ستقف عليه واعلم انا قد قدمنا ان بني ادريس كانوا قد اقتسموا أعمال المغرب بعد وفاة أبيهم ادريس رحمه الله وذلك باشارة جدتهم كنزة وان بلاد الريف منها كانت في سهم عمر بن ادريس وانه قاتل أخويه عيسى والقاسم وأضاف أعمالهما الى عمله فبقيت بلاد الريف بيد بني عمر بن ادريس يتوارثونها خلفا عن سلف فلما انقرضت دولة آل ادريس بفاس على يد موسى ابن أبي العافية انحاز والى بني عمهم وعشيرتهم ببلاد الريف وتحصنوا بقلعة حجر النسر كما سبق ولما قدم ميسور الخصي من افريقية وأجلى موسى بن أبي العافية الى الصحراء أقام بنو ادريس بريفهم يتداولون رياسته تحت نظر الشيعة تارة وتحت نظر المروانيين أخرى الى ان انقرضت دولتهم وذهبت رياستهم

من المغرب بالكلية والله غالب على أمره

الخبر عن رياسة القاسم كنون بن محمد بن القاسم بن ادريس

لما فر موسى بن أبي العافية أمام القائد ميسور الى الصحراء صارت الرياسة فى المغرب بعده لابنى محمد بن القاسم بن ادريس وهما القاسم الملقب بكنون وشقيقه ابراهيم وهما معا أخوان للحسن الحجام الذى تقدم ذكره فاجتمع بنو ادريس وبايعوا القاسم المذكور فملك أكثر بلاد المغرب الا فاسا فانه لم يملكها وكان سكناه بقلعة حجر النسر واستمر على امارته مقيما الدعوة الشيعة الى ان توفى فى سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة فولى بعده ابنه أبو العيش

الخبر عن دولة أبى العيش أحمد بن القاسم كنون

كان أبو العيش هذا فقيها ورعا حافظا للسير عارفا باخبار الملوك وأيام الناس وأنساب قبائل العرب والبربر شجاعا جوادا وكان يعرف فى بنى ادريس باحمد الفاضل وكان مائلا الى بنى مروان وللماولى بعد أبيه قطع دعوة العبيديين فى جميع عمله وبايع لعبد الرحمن الناصر صاحب الاندلس وخطب له على جميع منابر عمله وبايع أبا العيش كافة أهل المغرب الى سجلماسة وكان السواد الاعظم من أهل المغرب الاقصى لهم محبة فى جانب آل ادريس وايثار لهم لا يبغون بهم بدلا مهما وجدوا الى ذلك سبيلا

تغلب عبد الرحمن الناصر على بلاد المغرب ومضايقته لابى العيش بها

لما بايع أبو العيش لعبد الرحمن الناصر وخطب له اقترح عليه أن ينزل له عن طنجة ليضيفها الى سبتة التى كان استولى عليها من قبل فامتنع أبو العيش من ذلك فبعث اليه الناصر بالاسطول والمقاتلة فحاصره وضيق عليه ولما رأى أبو العيش أنه لا طاقة له بحربه أجابه الى ماسأل ونزل له عن طنجة وبقى أبو العيش مع اخوته وبنى عمه من الادارسة بمدينة البصرة وآصيلا تحت بيعة الناصر وفى كنفه متمسكين بدعوته وكانت قواد الناصر وجيوشه تجيز من الاندلس الى العدوة يقاتلون من خالف الادارسة من البربر ويستألفونهم والناصر ممدلمن عجز منهم برجاله مقو لمن ضعف بماله حتى ملك أكثر بلاد المغرب وبايعته قبائله من زناتة والبربر وخطب له على منابره من تاهرت الى طنجة ماعدا سجلماسة فانه قام بها فى ذلك الوقت منادر البربرى وبايع الناصر أهل فاس فيمن بايعه من بلاد العدوة فولى عليهم محمد بن الخير المغراوى وكان من أبسط ملوك زناتة يدا وأعظمهم شأنا وأحسنهم الى ملوك بنى أمية انحياشا وأخلصهم طوية وكان لبنى يفرن ومغراوة من زناتة ولاية للامويين وتشيع لهم وذلك بولاية عثمان ابن عفان رضى الله عنه لجدهم صولات بن وزمار المغراوى الذى وفد عليه وأسلم على يده كما سبق فى أخبار الفتح والله أعلم فسرت تلك الولاية فى عقب زناتة للامويين عموما كما كان لصنهاجة من البربر ولاية آل على بن أبى طالب رضى الله عنه فأقام محمد بن الخير واليا على مدينتى فاس نحو سنة وارتحل عنها الى الاندلس برسم الجهاد واستخلف عليها ابن عمه أحمد بن أبى بكر بن أحمد بن عثمان بن سعيد الزناتى وهو الذى بنى صومعة مسجد القرويين سنة أربع وأربعين وثلاثمائة كما سبق ❊ وفى سنة سبع وأربعين وثلاثمائة ولى الناصر على مدينة طنجة وأحوازها يعلى بن محمد اليفرنى فنزلها فى قبائل يفرن وأمضى أمره ونهيه فيها

هجرة أبى العيش الى الاندلس بقصد الجهاد

لما رأى أبو العيش غلبة الناصر على بلاد العدوة هانت عليه رياستها فكتب اليه بقرطبة يستأذنه فى الجهاد فأذن له وأمر أن يبنى له فى كل منزل ينزله قصر وذلك من الجزيرة الخضراء الى الثغر وأن يجرى له فيها ألف دينار فى كل يوم ضيافة له ومن الفرش والاثاث والطعام والشراب ما يقوم بالقصر فلم يزل على ذلك حتى وصل الى الثغر فكانت منازله من الجزيرة الى الثغر ثلاثين منزلا ومات أبو العيش رحمه الله شهيدا فى جهاد الفرنج سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة

﴿الخبر عن دولة الحسن بن كنون﴾

لما خرج أبو العيش الى الاندلس برسم الجهاد استخلف على عمله أخاه الحسن بن كنون وهو القاسم بن محمد بن القاسم بن ادريس وهو آخر ملوك الادارسة بالمغرب ولم يزل مواليا للمروانيين متمسكا بدعوتهم الى ان كان ما نذكره

﴿قدوم القائد جوهر الشيعى من افريقية الى المغرب واستيلاؤه عليه﴾

لما اتصل بخليفة الشيعة وهو المعز لدين الله معد بن اسمعيل العبيدى غلبة الناصر على بلاد العدوة وأن جميع من بها من قبائل زناتة والبربر رفضوا دعوتهم ودخلوا فى دعوة بنى أمية عظم الامر عليه وبعث قائده جوهر بن عبد الله الرومى المعروف بالكاتب فى جيش كثيف يشتمل على عشرين ألف فارس من قبائل كتامة وصنهاجة وغيرهم وأمره أن يطأ بلاد المغرب ويذللها ويستنزل من بها من الثوار ويشدد وطأته عليهم فخرج جوهر من القيروان سنة سبع وأربعين وثلاثمائة يؤم بلاد المغرب فاتصل خبره بيعلى بن محمد اليفرنى صاحب طنجة وخليفة الناصر على بلاد العدوة فحشد قبائل زناتة ونهض الى القائد جوهر فكان اللقاء على تاهرت فالتحمت الحرب بين الفريقين فاخرج القائد جوهر الاموال وبذلها فى قواد كتامة فضمنوا له قتل أمير زناتة يعلى بن محمد فلما اشتد القتال صممت عصابة من قواد كتامة وأنجادها وقصدوا الى يعلى بن محمد فقتلوه واحتزوا رأسه وأتوا بها الى جوهر فبذل لهم مالا جليلا بشارة عليه وبعث بالرأس الى مولاه المعز فطيف به بالقيروان ﴿وذكر ابن خلدون﴾ أن يعلى بن محمد بادر الى لقاء جوهر عند قدومه وأذعن له وبايعه فاظهر جوهر القبول ثم دس اليه من اغتاله وتفرق بنو يفرن وزناتة بعد مقتل أميرهم وبعد مدة التأم ملكهم على ولده يدو بن يعلى بن محمد اليفرنى ثم تقدم جوهر الى سجلماسة وكان قد قام بها محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار المعروف بالشاكر لله وقد تقدم لنا انه ادعى الخلافة وتسمى بامير المؤمنين وضرب السكة باسمه وكتب عليها تقدست عزة الله وكانت سكته تعرف بالشاكرية وكانت فى غاية الطيب وكان سنيا مالكى المذهب قد خالف سلفه فى مذهب الصفرية فنزل عليه جوهر وحاصره بسجلماسة ثم اقتحمها عنوة بالسيف وأفلت الشاكر ثم عاد بعد يومين أو ثلاثة فدخل سجلماسة متنكرا فعرف وقبض عليه وأتى به الى جوهر فاوثقه فى الحديد وساقه أسيرا بين يديه حتى نزل على فاس بعد ان أفنى حماة الصفرية ورجالها بالسيف وكان نزوله على فاس سنة تسع وأربعين وثلاثمائة فحاصرها وأدار بها القتال من كل جهة قريبا من نصف شهر ثم اقتحمها عنوة بالسيف على يد زيرى بن مناد الصنهاجى فانه تسنم أسوارها ليلا ودخلها فقتل بها خلقا كثيرا وقبض على أميرها أحمد بن أبى بكر الزناتى الذى ولاه الناصر عليها ونهب المدينة وقتل حماتها وشيوخها وسبا أهلها وهدم أسوارها وكان الحادث بها عظيما وكان دخول جوهر اياها ضحوة يوم الخميس الموفى عشرين من رمضان سنة تسع وأربعين وثلاثمائة ثم سار جوهر فى بلاد المغرب يقتل أولياء المروانيين ويسبى ويفتح البلاد والمعاقل وخافته البربر وفرت أمامه قبائلها فانفذ الامر فى المغرب الاقصى ثلاثين شهرا وانتهى الى البحر المحيط

وصاد

وصادمن سمكه وجعله فى قلال الماء وأرسله الى مولاه المعز ثم انصرف راجعا بعد ان دوّخ البلاد وأثخن فيها وقتل حماتها وقطع دعوة المروانيين منها وردها الى العبيديين نخطب لهم على جميع منابر المغرب وانتهى القائد جوهر الى المهدية دار المعز لدين الله وقد حمل معه أحمد بن أبى بكر اليفرنى أمير فاس وخمسة عشر رجلا من أشياخها وحمل أيضا محمد بن أبى الفتح أمير سجلماسة ودخل بهم أسارى بين يديه فى أقفاص من خشب على ظهور الجمال وجعل على رؤسهم قلانس من لبد مستطيلة منبتة بالقرون فطيف بهم فى بلاد افريقية وأسواق القيروان ثم ردوا الى المهدية وحبسوا بها حتى ماتوا فى سجنها

قدوم بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى الشيعى من افريقية الى المغرب

كان الامير الحسن بن كنون قد بايع العبيديين فيمن بايعهم عند غلبة جوهر على المغرب فلما انصرف جوهر الى افريقية أواخر سنة تسع وأربعين وثلاثمائة نكث الحسن بن كنون بيعة العبيديين وعاد الى المروانيين فتمسك بدعوة الناصر ثم بدعوة ابنه الحكم المستنصر خوفا منهم لا محبة فيهم لقرب بلاده من بلادهم وأقام على ذلك الى ان قدم الامير بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى من افريقية الى المغرب لاخذ ثار أبيه فقتل زناتة واستأصلهم وملك المغرب باسره وقطع أيضا منه دعوة الامويين وقتل أولياءهم وأخذ البيعة على جميع أهل المغرب للمعز معد بن اسمعيل كما فعل جوهر قبله فكان أوّل من سارع الى بيعته ونصرته وقتال أولياء المروانيين معه الحسن بن كنون صاحب مدينة البصرة وكشف وجهه فى ذلك وأعمل فيه جهده فاتصل خبره بالحكم المستنصر فحقد عليه لذلك فلما انصرف بلكين بن زيرى الى افريقية بعث الحكم المستنصر صاحب الاندلس قائده محمد بن القاسم بن طملس فى جيش كثيف الى قتال الحسن بن كنون فاجاز اليه من الجزيرة الخضراء الى سبتة فى عدد كثير وعدة كاملة وذلك فى شهر ربيع الاول سنة اثنتين وستين وثلاثمائة فزحف الحسن الى قتاله فى قبائل البربر فكان اللقاء باحواز طنجة بموضع يعرف بفحص بنى مصرخ فكانت بينهما حرب شديدة قتل فيها محمد ابن القاسم قائد الحكم المستنصر وقتل معه خلق كثير من أصحابه وفر الباقون فدخلوا سبتة وتحصنوا بها وكتبوا الى الحكم يستغيثون به فبعث اليهم صاحب حروبه غالبا مولاه البعيد الصيت المعروف بالشهامة والنجدة والدهاء وأعطاه الحكم أموالا جليلة وجيوشا كثيرة وعددا وافرة وأمره بقتال آل ادريس واستنزالهم من معاقلهم وقال له عند وداعه يا غالب سر مسير من لا اذن له فى الرجوع الا حيا منصورا أو ميتا معذورا ولا تشح بالمال وابسط يدك به يتبعك الناس

قدوم غالب الاموى الى المغرب وتغريب آل ادريس الى الاندلس

ثم خرج غالب من قرطبة فى آخر شوال سنة اثنتين وستين وثلاثمائة فاتصل خبر قدومه بالحسن بن كنون فخاف منه وأخلى مدينة البصرة وحمل منها حرمه وأمواله وذخائره الى قلعة حجر النسر القريبة من سبتة واتخذها معقلا يتحصن بها وأجاز غالب البحر من الجزيرة الخضراء الى قصر مصمودة فلقيه الحسن ابن كنون هنالك فى جموع البربر وقاتله أياما وسرّب غالب الاموال الى رؤساء البربر الذين مع الحسن ابن كنون ووعدهم ومناهم فانفضوا عن الحسن حتى لم يبق معه الا خاصته ورجاله فلما رأى ذلك سار الى حجر النسر فتحصن به واتبعه غالب فحاصره به ونزل عليه بجميع جيوشه وقطع عنه المواد وأمده الحكم بعرب الدولة الذين بالاندلس ورجال الثغور فوصل المدد الى غالب غرة المحرم سنة ثلاث وستين وثلاثمائة فاشتد الحصار على الحسن بن كنون فطلب من غالب الامان على نفسه وأهله وماله ورجاله و ينزل اليه فيسير معه الى قرطبة فيكون بها فاجابه غالب الى ذلك وعاهده عليه فنزل الحسن باهله وماله ورجاله وأسلم الحصن الى غالب فملكه واستنزل غالب جميع العلويين الذين بارض العدوة من معاقلهم وأخرجهم عن أوطانهم ولم يترك بالعدوة رئيسا منهم وسار الى مدينة فاس فملكها واستعمل عليها محمد

ابن أبي على بن قشوش بعدوة القرويين وعبد الكريم بن ثعلبة بعدوة والاندلس فلم تزل فاس بيد بني أمية الى ان غلب عليها زيرى بن عطية المغراوى وانصرف غالب الى الاندلس وساق معه الحسن بن كنون وجميع ملوك الادارسة وقد وطأ جميع بلاد المغرب وفرق العمال فى نواحيه وقطع دعوة بنى عبيد من جميع آفاقه ورد الدعوة الى الاموية فخرج بهم غالب من فاس آخر رمضان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ووصل الى سبتة فركب البحر منها واستقر بالخضراء وكتب الى مولاه الحكم المستنصر بالله يعلمه بقدومه وبمن قدم معه من العلويين فلما وصل كتابه الى الحكم أمر الناس بالخروج الى لقائهم وركب هو فى جمع عظيم من وجوه دولته فتلقاهم فكان يوم دخولهم قرطبة يوما مشهودا وذلك أول يوم من المحرم سنة أربع وستين وثلاثمائة وسلم الحسن بن كنون على الحكم فاقبل عليه وعفا عنه ووفى له بعهده وأوسع له ولرجاله فى العطاء وأجرى عليهم الجرايات الكثيرة وخلع عليهم الخلع الرفيعة وأثبت جميع أهله ورجاله فى ديوان العطاء وكانوا سبعمائة رجل أنجاد يعدون بسبعة آلاف وأسكنه قرطبة وأقام الحسن وعشيرته فى كنف الحكم فى أمن وغبطة الى ان كان ما نذكره

﴿حدوث النفرة بين الحكم والحسن والسبب فى ذلك﴾

لما استقر الحسن بن كنون وعشيرته بقرطبة تحت كنف الحكم المستنصر بالله الاموى على ما وصفناه استمر الحال على ذلك الى سنة خمس وستين وثلاثمائة وكان للحسن قطعة عنبر غريبة الشكل كبيرة الجرم ظفر بها فى بعض سواحله من بلاد العدوة أيام ملكه بها فسوّاها منشورة يتوسدها ويرتفق بها فبلغ أمير المؤمنين الحكم خبرها فسأله حملها اليه وضمها الى ذخائره على ان له حكمه مسمطا فامتنع الحسن من ذلك وأبى أن يسلمها اليه فنكبه عليها وسلبه جميع أمواله وسلبه القطعة أيضا فبقيت فى خزانة الامويين الى ان غلب ابن حمود الادريسى على ملك الاندلس ودخل قرطبة واستقر بالقصر منها فالفى تلك العنبرة لا زالت قائمة العين قد عقبتها الايام حتى صارت الى أيدى العلوية أربابها ولما نكب الحكم الحسن أمر باخراجه واخراج عشيرته من قرطبة واجلائهم الى المشرق فركبوا البحر من المرية الى تونس سنة خمس وستين وثلاثمائة وكان قصد الحكم بتغريبهم التخفف منهم والراحة من نفقاتهم مع ما كان قومه يعذلونه عليهم فسار الحسن بن كنون وعشيرته الى مصر فنزلوا بها على خليفة الشيعة وهو العزيز بالله نزار بن المعز العبيدى وكان العبيديون قد ملكوا مصر يومئذ ونقلوا كرسى خلافتهم اليها فاقبل العزيز نزار على الادارسة وبالغ فى اكرامهم ووعد الحسن النصرة والاخذ بثاره ممن غلبه على ملك سلفه

﴿عود الحسن بن كنون الى المغرب وما كان من أمره الى مقتله وانقراض دولته﴾

لما استقر الحسن بن كنون بمصر عند العزيز نزار أقام عنده مدة طويلة الى ان دخلت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة فى أيام هشام المؤيد بالله الاموى فكتب نزار للحسن بعهده على المغرب وأمر عامله على افريقية بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى أن يقويه بالجيوش فسار الحسن الى بلكين فاعطاه عسكرا يشتمل على ثلاثة آلاف فارس فاقتحم بهم بلاد المغرب فسارعت اليه قبائل البربر بالطاعة فشرع فى اظهار دعوته واتصل خبره بالمنصور بن أبى عامر حاجب هشام المؤيد والقائم بملكه فبعث اليه ابن عمه الوزير أبا الحكم عمرو بن عبد الله بن أبى عامر المعروف بعسكلاجة فى جيش كثيف وقلده أمر المغرب وسائر أعماله وأمره بقتال الحسن بن كنون فنفذ لوجهه وركب البحر الى سبتة وخرج الى حرب الحسن فاحاط به وحاصره أياما ثم أجاز المنصور بن أبى عامر ولده عبد الملك فى أثر الوزير أبى الحكم فى جيش كثيف يمدّه فلما رأى ذلك الحسن بن كنون سقط فى يده ولم يجد حيلة فطلب الامان على نفسه على ان يسير الى الاندلس كمثل حالته الاولى فاعطاه الوزير أبو الحكم من ذلك ما وثق به وكتب الى ابن عمه المنصور يخبره

بذلك

بذلك فأمر بتعجيله الى قرطبة موكلا به فبعث به اليه ولما انتهى الخبر الى المنصور بقدوم الحسن لم يمض أمان ابن عمه وأنفذ اليه من قتله فى طريقه وأتاه برأسه ودفن شلوه بمكان مقتله وذلك فى جمادى الاولى سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وركدت ريح العلوية بالمغرب وتفرق جمعهم وانقرضت دولتهم وتفرقت الادارسة فى قبائل المغرب ولاذوا بالاختفاء الى ان خلعوا الشارة ذلك النسب الشريف واستحالت صبغتهم منه الى البداوة واستمر الحال الى ان أشرفت دولة بنى أمية بالاندلس على الانقراض وكان بالاندلس رجلان من آل ادريس دخلوها فى جملة البربر الذين كانوا هنالك وهم على والقاسم ابنا حمود بن ميمون ابن أحمد بن على بن عبيد الله بن عمر بن ادريس فطار لهما ذكر فى الشجاعة والاقدام ثم ترقت بهم الاحوال الى ان ورثوا خلافة الاندلس من يد الامويين بها فى خبر طويل ولما قتل الحسن بن كنون هبت ريح عاصف احتملت رداءه فلم يوجد بعد قالوا وكان الحسن هذا فظا غليظا قاسى القلب كان اذا ظفر بعدو أو سارق أو قاطع طريق أمر به فطرح من ذروة قلعته المسماة بحجر النسر فيهوى منها الى الارض مد البصر فيدفع الرجل بخشبة تمد اليه فلا يصل الى الارض الا وقد تقطع ﴿قال ابن أبى زرع﴾ كانت مدة ملك الادارسة بالمغرب من يوم بويع ادريس بن عبد الله وذلك يوم الخميس السابع من ربيع الاول سنة اثنتين وسبعين ومائة الى ان قتل الحسن بن كنون وذلك فى جمادى الاولى سنة خمس وسبعين وثلاثمائة مائتى سنة وثلاث سنين سوى شهرين تقريبا وكان عملهم بالمغرب من السوس الاقصى الى مدينة وهران وقاعدة ملكهم مدينة فاس ثم البصرة وكانوا يكابدون دولتين عظيمتين دولة العبيديين بافريقية ودولة بنى أمية بالاندلس وكانوا ازاحون الخلفاء الى ذروة الخلافة ويقعد بهم عنها ضعف سلطانهم وقلة مالهم فكان سلطانهم اذا امتد وقوى ينتهى الى مدينة تلمسان واذا اضطرب الحال عليهم وضعفوا لا يجاوز سلطانهم البصرة وأصيلا وحجر النسر الى ان انقضت أيامهم وانقرضت مدتهم والبقاء لله وحده وكان فى هذه المدة من الاحداث انه فى سنة خمس وخمسين وثلاثمائة كانت ريح شديدة قلعت الاشجار وهدمت الديار وقتلت الرجال (وفى) ليلة الثلاثاء الثامن عشر من رجب منها ظهر فى البحر شهاب ثاقب مائل كالعمود العظيم أضاء الليل لسطوع نوره وأشبهت تلك الليلة ليلة القدر وقارب ضوءها ضوء النهار (وفى هذا الشهر أيضا) كسف النيران فخسف القمر ليلة أربع عشرة منه وطلعت الشمس كاسفة فى اليوم الثامن والعشرين منه ﴿وفى سنة احدى وستين وثلاثمائة﴾ كان الجراد بالمغرب ﴿وفى سنة اثنتين وستين بعدها﴾ دخل مغراوة المغرب وملكوه وتعرف هذه السنة بسنة لقمان المغراوى وفيها توفى الشيخ الفقيه الصالح الفاضل أبو ميمونة دراس بن اسمعيل وهو أول من أدخل مدونة سحنون مدينة فاس وذكر الرشاطى ان وفاته كانت سنة سبع وخمسين وثلاثمائة ولعله أصح ﴿وفى سنة سبع وسبعين وثلاثمائة﴾ عم الجراد بلاد المغرب كلها ﴿وفى سنة ثمان وسبعين﴾ بعدها كان الفيض الذى فاضت منه جميع أودية المغرب ﴿وفى سنة تسع وسبعين﴾ بعدها كانت الريح الشرقية بالمغرب ودامت ستة أشهر فاعقبت وباء عظيما وأمراضا كثيرة ﴿وفى سنة ثمانين وثلاثمائة﴾ تدارك الله عباده وكان الرخاء المفرط بالمغرب فكان الزرع لا يوجد من يشتريه لكثرته وكان الفلاحون وأصحاب الحرث يتركونه قائما فى محافلهم لا يحصدونه لرخصه

﴿الخبر عن دولة زناتة من مغراوة وبنى يفرن بفاس والمغرب﴾

ينبغى أن نقدم هنا كلاما يكون كالتوطئة لاخبار هذه الدولة المغراوية فنقول ان هذه الدولة لم يكن لها استقلال بالمغرب وفاس وانما كانت رياستها تحت نظر الامويين بالاندلس ثم ان مغراوة وبنى يفرن قبيلتان من أعيان قبائل زناتة وكان مغراو ويفرن أخوين شقيقين وهما ابنا يصليتن بن مسرى بن زاكيا

ابن ورسيك بن الديديت بن زانا وهو أبو زناتة وقد تقدم لنا في أخبار الفتح ان الصحابة رضي الله عنهم أسروا صولات بن وزمار كبير مغراوة لذلك العهد و بعثوا به الى عثمان بن عفان رضي الله عنه فاسلم على يده وولاه على قومه وقيل ان صولات هاجر الى عثمان رضي الله عنه طائعا من غير أسر فاكرمه و ولاه فكان بيت صولات بسبب هذه المزية نبيها في قومه مغراوة وسائر زناتة ولما مات صولات و رث رياسته من بعده ابنه حفص بن صولات ثم من بعده خزر بن حفص بن صولات ثم ابنه محمد بن خزر وهو الذي غزاه ادريس بن عبد الله عدينة تلمسان وانقادله وأجاب دعوته ودخل ادريس معه تلمسان وأصلح شأنها وبنى مسجدها حسبما تقدم الخبر عن ذلك مستوفى ثم لم تزل ذرية محمد بن خزر هذا تتوارث رياسة سلفهم من بعدهم الى ان كان منهم في صدر المائة الرابعة أربعة اخوة وهم محمد بن خزر وعبد الله بن خزر ومعبد ابن خزر وفلفل بن خزر وكلهم رئيس شريف في قومه ولهم أخبار مع خلفاء الشيعة بافريقية والمروانيين بالاندلس يطول ذكرها مع انها ليست من موضوعنا * ولما كانت سنة تسع وستين وثلاثمائة زحف بلكين ابن زيري بن مناد الصنهاجي صاحب افريقية بعد العبيديين الى المغرب الاقصى وأناخ على مدينتي فاس وقتل عامليها محمد بن أبي علي بن قشوش صاحب عدوة القرويين وعبد الكريم بن ثعلبة صاحب عدوة الاندلس واستعمل عليها محمد بن عامر المكناسي وأجفلت ملوك زناتة من بني خزر المغراويين وبني محمد ابن صالح اليفرنيين أمامه وانحازوا جميعا الى سبتة وعبر محمد بن الخير من آل خزر البحر الى المنصور بن أبي عامر صريخا فخرج المنصور في عساكره الى الجزيرة الخضراء ممدا لهم بنفسه وعقد لجعفر بن علي ابن حمدون على حرب بلكين الصنهاجي وأجازه البحر وأمده بمائة حمل من المال فاجتمعت اليه ملوك زناتة وضربوا مصافهم بساحة سبتة وجاء بلكين الصنهاجي حتى صعد جبال تطوان وتسنم هضابها وأطل على عساكر زناتة وأهل الاندلس بساحة سبتة فرأى مالا قبل له به ويقال انه لما عاين ذلك قال هذه أفعى فغرت الينا فاها وكر راجعا على عقبه فاجتاز على مدينة البصرة وكان بها حامية أهل الاندلس و بها يومئذ عمارة عظيمة فهدمها ثم صمد الى برغواطة ببلاد تامسنا فجاهدهم وقتل ملكهم عيسى بن أبي الانصار واستولى على المغرب أجمع ومحى دعوة بني أمية من نواحيه ثم لما كانت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وقدم الحسن بن كنون الادريسي من مصر الى المغرب يطلب ملك سلفه انضم اليه يدو ابن يعلى ابن محمد بن صالح اليفرني في قومه وشايعه على مراده وسرح المنصور بن أبي عامر صاحب الاندلس اليه ابن عمه أبا الحكم الملقب بعسكلاجة وانضم اليه آل خزر المغراويون وهم محمد بن الخير الاصغر وخزرون ابن فلفل بن خزر ومقاتل وزيري ابنا عطية بن عبد الله بن خزر وانضم اليهم سائر مغراوة وظاهروا أبا الحكم عسكلاجة على شأنه في حصار الحسن بن كنون حتى طلب الامان لنفسه حسبما استوفينا خبره آنفا ثم تقدم عسكلاجة الى فاس فدخلها واستولى على عدوة الاندلس سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وخطب بها لبني أمية وبقي محمد بن عامر المكناسي عامل الشيعة بعدوة القرويين الى سنة ست وسبعين وثلاثمائة فاتى أبو بياش فدخل عدوة القرويين بالسيف وقبض على محمد بن عامر المكناسي فقتله وخطب بها لبني أمية أيضا هكذا في القرطاس * وقال ابن خلدون * ان المنصور بن أبي عامر عقد على المغرب بعد انصراف عسكلاجة عنه للوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي وأطلق يده في الاموال والرجال وأرسله اليه سنة ست وسبعين وثلاثمائة وأوصاه بالاحسان الى مغراوة ولاسيما مقاتل وزيري ابنا عطية لحسن انحياشهم الى المروانيين وصدق طاعتهم لهم واغراه بيدو ابن يعلى اليفرني لتمريضه في الطاعة وقيامه مع الحسن بن كنون فنفذ الوزير حسن بن عبد الودود لعمله ونزل بفاس وضبط المغرب أحسن ضبط واجتمعت عليه مغراوة ثم هلك مقاتل بن عطية سنة ثمان وسبعين وورث رياسته على بادية قومه أخوه زيري بن عطية وحسنت صحبته للوزير حسن بن عبد الودود ومعاملته له ثم ان المنصور

ابن أبي عامر استدعى زيري بن عطية للوفادة عليه بقرطبة فوفد عليه وأحسن المنصور اليه ورفع منزلته ثم عاد الى المغرب وأمره بقتال يدو بن يعلى اليفرني فاجتمع عليه هو والوزير ابن عبد الودود فقاتلوه فانتصر عليهم يدو ابن يعلى وقتل الوزير ابن عبد الودود ثم عقد المنصور بن أبي عامر لزيري بن عطية من بعده على المغرب وفاس وكان ذلك سنة احدى وثمانين وثلاثمائة هذا ملخص ما عند ابن خلدون في هذا الخبر ثم حكى بعده ما يخالفه مما نذكره مبسوطا عن قريب وتوقف في أيهما الصواب والله أعلم

الخبر عن دولة زيري بن عطية المغراوي بفاس والمغرب

هو زيري بن عطية بن عبد الله بن خزر المغراوي وعبد الله المذكور هو أحد الاخوة الاربعة من بني خزر قال في القرطاس ملك على زناتة سنة ثمان وستين وثلاثمائة فقام في المغرب بدعوة هشام المؤيد بالله وحاجبه المنصور بن أبي عامر وذلك بعد انقراض دولة الادارسة منه وبني أبي العافية المكناسيين فغلب زيري أولا على جميع بوادي المغرب ثم ملك مدينتي فاس بعد عسكلاجة وأبي بياش دخلها سنة سبع وسبعين وثلاثمائة فاستوطنها وصيرها دار ملكه واستقام له أمر المغرب فعلا قدره وقوي سلطانه وارتفع شأنه وهو في ذلك متمسك بدعوة بني مروان أصحاب الاندلس والله غالب على أمره

حديث أبي البهار الصنهاجي مع المنصور بن أبي عامر وما نشأ عن ذلك

كان أبو البهار بن زيري بن مناد الصنهاجي قد خالف على ابن أخيه منصور بن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي أمير افريقية وظهير الدولة العبيدية وخلع دعوة الشيعة ومال الى دعوة المروانيين وغلب على المهدية وتونس وشلشال وتلمسان ووهران وشلف وكثير من بلاد الزاب وخطب للمؤيد وحاجبه المنصور ابن أبي عامر وبعث ببيعته اليهم وذلك في سنة سبع وسبعين وثلاثمائة فلما وصلت بيعته الى المنصور بن أبي عامر بعث اليه بعهده على ما بيده من البلاد وبهدية وخلع وبأربعين ألف دينار فلما قبض أبو البهار المال والهدية أقام على بيعتهم نحو الشهرين ثم خلعهم وعاد الى العبيديين فبلغ ذلك المنصور فغاظه وكتب الى زيري بن عطية بعهده على بلاد أبي البهار وأمره بقتاله عليها فسار اليه زيري بن عطية من فاس في جيوش لا تحصى من قبائل زناتة وغيرهم ففر أبو البهار أمامه ولحق بابن أخيه منصور بن بلكين وترك له البلاد فملك زيري بن عطية تلمسان وسائر أعمال أبي البهار فانبسط سلطانه بالمغرب من السوس الاقصى الى الزاب وكتب بالفتح الى المنصور بن أبي عامر وبعث له بهدية عظيمة فيها مائتا فرس من عتاق الخيل وخمسون جملا مهريا سابقة وألف درقة من جلود اللمط وأحمال كثيرة من قسي الزان وقطوط الغالية والزرافة وأصناف الوحوش الصحراوية كاللمط وغيره وألف حمل من التمر الجيد في جنسه وأحمال كثيرة من ثياب الصوف الرقيقة فسر بها المنصور وكافأه عليها وكتب له بتجديد عهده على المغرب وذلك سنة احدى وثمانين وثلاثمائة وأقام زيري بن عطية بفاس وأسكن قبيله بأنحائها وبالقرب منها في قياطينهم ودفع بني يفرن عن فاس وأحوازها الى نواحي سلا فاستولوا عليها كما سيأتي

وفادة زيري بن عطية على المنصور بن أبي عامر بالاندلس

لما كانت سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة استدعى المنصور بن أبي عامر زيري بن عطية أن يقدم عليه بقرطبة فاستخلف على المغرب ولده المعز بن زيري وأمره بسكنى تلمسان واستخلف على عدوة الاندلس من فاس عبد الرحمن بن عبد الكريم بن ثعلبة وعلى عدوة القرويين منها علي بن محمد بن أبي علي بن قشوش وولى قضاء المدينتين الفقيه الفاضل أبا محمد قاسم بن عامر الازدي وسار الى الاندلس وقدم بين يديه هدية عظيمة من جملتها طائر فصيح يتكلم بالعربية والبربرية ودابة من دواب المسك ومهاة وحشية تشبه الفرس وحيوانات غريبة وأسدان عظيمان في قفصين من حديد وشيء كثير من التمر في غاية الكبر

الواحدة منه تشبه الخيارة عظما وحمل معه من قومه وعبيده ثلاثمائة فارس وثلاثمائة راجل فاحتفل المنصور لقدومه احتفالا عظيما وبرز الخاصة والعامة للقائه وأنزله بقصر جعفر الحاجب وتوسع له في الجرايات والاكرام ولقبه باسم الوزير وأفاض عليه أموالا جسيمة وخلعا نفيسة وعجل بسراحه الى عمله بعد ان جدد له عهده على المغرب وعلى جميع ما غلب عليه منه فعبر البحر واحتل بمدينة طنجة فلما استقر بها وضع يده على رأسه وقال الآن علمت انك لي فاستقل ما وصله به المنصور واستقبح اسم الوزارة الذي سماه به ولقد خاطبه به بعض رجاله فنهاه عن ذلك وقال وزير من يالكع لا والله الا أمير بن أمير واعجبا لابن أبي عامر ومخرقته لان تسمع بالمعيدي خير من أن تراه والله لو كان بالاندلس رجل ما تركه على حاله وان له منا ليوما وبلغت مقالته المنصور فصر عليها أذنه وزاد في اصطناعه الى ان كان ما نذكره

﴿استيلاء يدو بن يعلى اليفرني على فاس ومقتله﴾

تقدم لنا ان بني يفرن من أعيان قبائل زناتة وكان يدو ابن يعلى بن محمد بن صالح اليفرني قد قام بامر بني يفرن بعد مقتل أبيه يعلى بن محمد حين قتله جوهر الكاتب قائد الشيعة سنة سبع وأربعين وثلاثمائة فملك يدوا كثيرا من بوادي المغرب واتصلت رياسته الى هذا التاريخ وتقدم لنا ان مغراوة دفعوا بني يفرن الى سلا وأحوازها فاستولوا عليها وكان الامير يدو بن يعلى مضاهيا لزيري بن عطية في الحسب والفضل والمال ولما استدعى المنصور بن أبي عامر زيري بن عطية للوفادة المتقدمة أراد أن يفعل بيدو بن يعلى مثل ذلك وكان قصده أن يمكر به لانه كان لا يطمئن اليه اطمئنان زيري بن عطية فأساء يدو بن يعلى اجابة المنصور وقال متى عهد المنصور حمر الوحش تنقاد للبياطرة فاقصر عنه المنصور وكانت بين زيري ويدو بن يعلى منافسات ومنازعات على الرياسة بالمغرب فكان يدو بن يعلى اذا غلب على زيري دخل مدينة فاس واستولى عليها واذا غلب عليه زيري أخرجه عنها وملكها وكانت الحرب بينهما سجالا وسئمت الرعية بفاس كثرة تعاقبهم عليها ثم لما سافر زيري بن عطية الى الاندلس انتهز يدو بن يعلى الفرصة في غيبته فزحف الى فاس ودخل منها عدوة الاندلس بالسيف في ذي القعدة سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة وقتل بها خلقا كثيرا من مغراوة فلما نزل زيري بن عطية بطنجة اتصل به خبر يدو بن يعلى واستيلاؤه على فاس فاسرع السير نحوه حتى نزل قريبا من فاس فكانت بينهما حروب شديدة هلك فيها خلق كثير من القبيلتين مغراوة وبني يفرن الى ان هزمه زيري واقتحم عليه فاسا عنوة فقتله ومثل به وبعث برأسه الى المنصور بن أبي عامر بقرطبة وذلك سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة

﴿بناء مدينة وجدة﴾

لما قتل زيري بن عطية يدو بن يعلى صفا له أمر المغرب ولم يبق له به منازع وهابته الملوك وبقي الامر مستقيما بينه وبين المنصور في الظاهر فسمت همته الى بناء مدينة تكون خاصة به وبقومه وأرباب دولته فبنى مدينة وجدة وشيد أسوارها وأحكم قصبتها وركب أبوابها وسكنها باهله وحشمه ونقل اليها أمواله وذخائره وجعلها قاعدة ملكه لكونها واسطة البلاد وثغرا للعمالتين المغرب الاقصى والاوسط وكان اختطاطه اياها في شهر رجب سنة أربع وثمانين وثلاثمائة ولم يزل زيري بن عطية في علو سلطان وارتفاع شان الى سنة ست وثمانين وثلاثمائة ثم حدث ما نذكره

﴿حدوث النفرة بين زيري بن عطية والمنصور بن أبي عامر وما نشأ عن ذلك﴾

ثم فسد ما بين المنصور وبين زيري بن عطية واتصل بالمنصور أن زيري يتنقصه ويعرّض في شأنه ويحجره على المؤيد ويتكلم فيه بالقبيح فقطع المنصور عنه رزق الوزارة الذي كان يجريه عليه في كل سنة ومحى اسمه من ديوانه ونادى بالبراءة منه فعزم زيري على خلافه فقطع ذكره من الخطبة واقتصر على ذكر

هشام المؤيد وطرد عماله من المغرب وألجأهم الى سبتة فانفذ اليه المنصور بن أبي عامر مولاه واضحا الفتى في جيش عظيم وأمده بالحماة من سائر الطبقات وأزاح عللهم وأفاض عليهم الاموال المنفقات وأنواع السلاح والكسى فعبر واضح البحر واستقر بمدينة طنجة فانضم اليه بعض قبائل البربر من غمارة وصنهاجة وغيرهم وبايعوه على قتال زيري بن عطية ومن معه من قبائل زناتة فافاض عليهم الخلع والاموال ثم أمده المنصور بمن كان معه بالاندلس من ملوك البربر النازعين عن زيري بن عطية اليه فتكاملت جيوشه وخرج بهم واضح من طنجة يؤم فاسا فاتصل خبره بزيري بن عطية فخرج اليه من فاس في عساكر زناتة فالتقى الجمعان بوادي زادات فكانت بينهما حروب بعد العهد بمثلها مدة من ثلاثة أشهر الى ان انهزم واضح وقتل أكثر جيشه وفر واضح الى طنجة فدخلها منهزما وكتب الى المنصور يطلب منه المدد ﴿وقال ابن خلدون﴾ ان واضحا جاز البحر من طنجة وزحف اليه زيري بن عطية توافقا ثلاثة أشهر ثم تناول واضح أصيلا ونكور فضبطهما واتصلت الوقائع بينه وبين زيري ثم بيت واضح معسكر زيري بنواحي أصيلا وهم غارون فاوقع بهم وخرج المنصور من قرطبة فوصل الى الجزيرة الخضراء ثم أجاز ابنه عبد الملك المظفر بجميع عسكر الاندلس وقوادها حتى بقي المنصور وحده وأمره بحرب زيري بن عطية فركب المظفر البحر من الجزيرة الخضراء الى سبتة واتصل خبر المظفر بزيري بن عطية فخافه وأخذ في الاستعداد للاقاته وكتب الى جميع قبائل زناتة يستصرخهم فأتته الوفود من بلاد ملوية وتلمسان والزاب وسائر بوادي زناتة فنهض بهم الى قتال عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر وبرز عبد الملك من طنجة ومعه واضح الفتى في جيوش لا تحصى والتقى الجمعان بوادي مني من أحواز طنجة فكانت بينهم حرب أعظم من الاولى ودام القتال بينهم يوما الى الليل وكان في عسكر زيري بن عطية غلام أسود اسمه سلام كان زيري قد قتل أخاه فوجد الفرصة اليه فانتهزها وضربه بسكين في نحره ثلاث ضربات فاشواه أي لم يصب مقتله ومر الاسود يشتد نحو المظفر وبشره بقتل زيري فاستكذبه ثم سقط اليه الخبر الصحيح بان زيري قد أثبت فشد عليهم عبد الملك وهم في حال دهشة من جرح أميرهم فهزمهم واستمرت الهزيمة على زيري وأصحابه وأثخن فيهم عبد الملك بالقتل وملك محلة زيري باسرها واحتوى على جميع ما فيها من المال والسلاح والكراع والابل والعدة فاستولى من ذلك على مالا يأخذه الحصر ومضى زيري على وجهه حتى انتهى الى موضع يعرف بمضيق الحية بالقرب من مكناسة فعسكر به واجتمع اليه الفل من قومه وعزم على الرجوع لمناجزة المظفر فاتصل الخبر بالمظفر فانتخب من عسكره خمسة آلاف فارس وقدم عليهم واضحا الفتى ونهضوا الى زيري بن عطية فضربوا في محلته ليلا بمضيق الحية وهم آمنون فاوقعوا بهم وقعة عظيمة أسر فيها من أشراف مغراوة نحو ألفي رجل وذلك في منتصف رمضان سنة سبع وثمانين وثلاثمائة فامتن عليهم عبد الملك المظفر وأركبهم معه فكانوا من جنده وفر زيري بن عطية في شرذمة من أصحابه وبني عمه فانتهى الى فاس فأغلق أهلها الابواب دونه فسألهم أن يخرجوا اليه عياله وأولاده فاخرجوهم اليه وأعطوه مع ذلك الزاد والدواب فأخذهم وانصرف الى الصحراء فنزل بلاد صنهاجة وكان ما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿قدوم عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر مدينة فاس وما كان من شأنه بها﴾

لما انهزم زيري بن عطية من مضيق الحية الى الصحراء نهض عبد الملك المظفر من معسكره يؤم فاسا فدخلها يوم السبت منسلخ شوال سنة سبع وثمانين وثلاثمائة فاستقبله أهلها مستبشرين به فأحسن لقاءهم وكتب الى أبيه المنصور بالفتح فقرأ الكتاب على منبر جامع الزهراء من قرطبة وعلى منابر مساجد الاندلس كلها شرقا وغربا وأعتق المنصور ألفا وخمسمائة مملوك وثلاثمائة مملوكة شكرا لله تعالى وفرق أموالا كثيرة على الفقراء وذوي الحاجات وكتب الى ولده المظفر بعهده على المغرب وأوصاه بحسن

السيرة والعدل فقرئ كتابه على منبر مسجد القرويين وذلك يوم الجمعة آخر ذى القعدة من السنة المذكورة وانصرف واضح الى الاندلس واستوطن عبد الملك مدينة فاس وعدل فيها عدلا لم يعهدوه من أحد قبله وأقام بها ستة أشهر ثم صرفه والده عنها الى الاندلس وبعث اليها عوضا منه عيسى بن سعيد صاحب الشرطة فاقام واليا عليها الى صفر سنة تسع وثمانين وثلاثمائة فعزله المنصور عنها وعما كان ولاه من بلاد العدوة وولى عليها واضحا الفتى وانصرف عيسى بن سعيد الى الاندلس من السنة المذكورة

﴿بقية أخبار زيرى بن عطية﴾

لما نزل زيرى بن عطية ببلاد صنهاجة وجدهم قد اختلفوا على ملكهم باديس بن منصور بن بلكين بن زيرى بن مناد صاحب افريقية فارسل زيرى بن عطية فى قبائل زناتة حاشر بن فأتى منهم خلق كثير من مغراوة وغيرهم فاغتنم زيرى تلك الفرصة من صنهاجة فزحف اليهم وأوغل فى بلادهم وهزم جيوشهم ودخل مدينة تاهرت وجملة من بلاد الزاب وملك مع ذلك تلمسان وشلف والمسيلة وأقام بها الدعوة للمؤيد وحاصر مدينة آشير قاعدة بلاد صنهاجة وكتب الى المنصور بن أبى عامر بذلك يسترضيه ويشترط على نفسه الرهن والاستقامة ان أعيد الى ولايته وبينما هو محاصر لآشير بياكرها ويراوحها بالقتال انتقضت عليه جراحاته التى كان جرحه الاسود فمات منها سنة احدى وتسعين وثلاثمائة

﴿الخبر عن دولة المعز بن زيرى بن عطية المغراوى﴾

لما هلك زيرى بن عطية اجتمع آل خزر وكافة مغراوة من بعده على ابنه المعز بن زيرى فبايعوه وضبط أمرهم وأقصر عن محاربة صنهاجة وصالح المنصور بن أبى عامر وقام بدعوته ورجع الى طاعته ولم يزل على ذلك الى ان توفى المنصور وولى ابنه بعده عبد الملك المظفر فبايعه المعز أيضا ودعا له على منابره فعزل المظفر واضحا الفتى عن فاس وسائر بلاد المغرب وصرفه الى الاندلس وكتب الى المعز بن زيرى بعهده على فاس وسائر أعمال المغرب حواضره وبواديه وذلك سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وشرط له المعز أن يؤدى اليه فى كل سنة مالا معلوما وخيلا ودرقا يوصل ذلك الى قرطبة وأعطاه مع ذلك ولده معنصر بن المعز رهنا وكانت نسخة كتاب العهد ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وصلى الله على سيدنا محمد وآله من الحاجب المظفر سيف الدولة دولة الامام الخليفة هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر الى كافة أهل مدينتى فاس وكافة أهل المغرب سلمهم الله (أما بعد) أصلح الله شأنكم وسلم أنفسكم وأديانكم فالحمد لله علام الغيوب وغفار الذنوب ومقلب القلوب ذى البطش الشديد المبدئ المعيد الفعال لما يريد لاراد لامره ولا معقب لحكمه بل له الملك والامر وبيده الخير والشر اياه نعبد واياه نستعين واذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله الطيبين وجميع الانبياء والمرسلين والسلام عليكم أجمعين وان المعز بن زيرى ابن عطية أكرمه الله تابع رسله لدينا وكتبه متنصلا من هنات دفعته اليها ضرورات ومستغفرا من سيئات حطها من توبته حسنات والتوبة ممحاة الذنب والاستغفار منقذ من العيب واذا أذن الله بشئ يسره وعسى أن تكرهوا شيأ ولكم فيه خيره وقد وعد من نفسه استشعار الطاعة ولزوم الجادة واعتقاد الاستقامة وحسن المعونة وخفة المؤنة فوليناه ماقبلكم وعهدنا اليه ان يعمل بالعدل فيكم وأن يرفع أعمال الجور عنكم وأن يعمر سبلكم وأن يقبل من محسنكم ويتجاوز عن مسيئكم الا فى حدود الله تبارك وتعالى وأشهدنا الله عليه بذلك وكفى بالله شهيدا وقد وجهنا الوزير أبا على بن حذيم أكرمه الله وهو من ثقاتنا ووجوه رجالنا ليأخذ بشأنه ويؤكد العهد فيه عليه بذلك وأمرناه باشراككم فيه ونحن بامركم معتنون ولاحوالكم مطلعون وأن يقضى على الاعلى للادنى ولا يرضى

فيكم

فيكم بشئ من الادنى فثقوا بذلك واسكنوا اليه وليمض القاضى أبو عبد الله أحكامه مشدودا ظهره بنا معقودا سلطانه بسلطاننا ولا تأخذه فى الله لومة لائم فذلك ظننا به اذوليناه وأملنا فيه اذقلدناه والله المستعان وعليه التكلان لا اله الا هو ولتبلغوا منا سلاما طيبا جزيلا ورحمة الله وبركاته ولما وصل الى المعز بن زيرى العهد بولايته على المغرب ماعدا كورة سجلماسة فانها كانت لبني خزرون بن فلفل ضم نشره وثاب اليه نشاطه وبث عماله فى جميع كور المغرب وجبا خراجها ولم تزل ولايته متسقة وطاعة رعاياه منتظمة الى ان افترق أمر الجماعة بالاندلس واختل رسم الخلافة بها فاضطرب أمر المغرب على المعز وأقام على ذلك الى ان هلك سنة سبع عشرة وأربعمائة كذا عند ابن خلدون ﴿وفى القرطاس﴾ لم تزل بلاد المغرب أيام المعز فى غاية الهدنة والعافية والرخاء والامن الى ان توفى فى جمادى الاولى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة والله أعلم ❊ وأما ابنه معنصر فانه أقام بقرطبة الى ان قامت الفتنة بالاندلس وانقرضت الدولة العامرية فانصرف معنصر الى أبيه وعشيرته بفاس ﴿وحكى فى القرطاس﴾ انه لما كانت سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وتوفى عبد الملك المظفر وولى بعده أخوه عبد الرحمن بن المنصور ابن أبى عامر بعث اليه المعز بن زيرى بهدية نفيسة فيها خمسون فرسا وكان ولده معنصر مرتهنا عنده بقرطبة كما قلنا فأحضر الحاجب عبد الرحمن معنصر بن المعز حين وصلت اليه هدية أبيه فخلع عليه وعلى الرسل الذين قدموا عليه بالهدية وبعث به الى أبيه مكرما فجمع المعز كل فرس كان عنده وبعث به الى قرطبة وكان مبلغ عدد الخيل تسعمائة فرس ولم تصل من المغرب الى الاندلس هدية أعظم منها

﴿الخبر عن دولة حمامة بن المعز بن عطية المغراوى﴾

لما توفى المعز بن زيرى بن عطية ولى بعده ابن عمه حمامة بن المعز بن عطية وليس بابن له كما زعم بعض المؤرخين وانما هو ابن عمه وقع الاتفاق فى بعض الاسماء فنشأ الغلط واستولى حمامة على عمل فاس والمغرب واستفحل ملكه وقصده الامراء والعلماء وأتته الوفود ومدحه الشعراء وكانت الدولة بالاندلس قد تداعت الى الاختلال فكان ذلك من أسباب استفحال الدولة المغراوية بفاس والمغرب واستقلالها بالامر فكان لحمامة من الظهور ماذكرناه الى ان أصابته عين الكمال بمنازعة أبى الكمال على مانذكره

﴿الخبر عن ثورة أبى الكمال تميم بن زيرى اليفرنى واستيلائه على فاس وأعمالها﴾

قد تقدم لنا ان بنى يفرن كانوا قد تحيزوا الى نواحى سلا فاستولوا عليها وعلى مدينة شالة ثم ملكوا تادلا وماوالاها من البلاد ثم لما كانت سنة أربع وعشرين وأربعمائة كان الامير على بنى يفرن أبا الكمال تميم بن زيرى بن يعلى بن محمد بن صالح اليفرنى فزحف من سلا الى فاس فى قبائل بنى يفرن ومن انضاف اليهم من زناتة وبرز اليه حمامة فى جموع مغراوة ومن اليهم فكانت بينهم حرب شديدة أجلت عن هزيمة حمامة ومات من مغراوة أمم واستولى تميم على فاس وأعمال المغرب ودخلها فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة واستباح يهود فاس فقتل منهم أكثر من ستة آلاف يهودى وسبا حرمهم واصطلم نعمتهم بالمرة ولحق حمامة بوجدة فاستمد من كان هنالك من قبائل مغراوة وزناتة وانجاد قبائل ملوية وانتهى الى تنس فاستنفر من هنالك من زناتة وبعث الحاشدين فى قياطينهم الى جميع بلاد المغرب الاوسط وكاتب من بعد عنه من رجالاتهم فاجتمع له من ذلك جم غفير ثم زحف الى فاس سنة تسع وعشرين وأربعمائة فافرج عنها أبو الكمال ولحق ببلده ومقر ملكه من شالة وأقام بها الى ان هلك سنة ست وأربعين وأربعمائة وكانت مدة استيلائه على فاس وأعمالها خمس سنين وقيل سبع سنين وكان أبو الكمال اليفرنى يغلب عليه الجفاء والجهل ومع ذلك فقد كان صلبا فى دينه مستقيما فيه مولعا بجهاد برغواطة كان يغزوهم مرتين فى السنة الى ان توفى ولما كانت سنة اثنتين وستين وأربعمائة وقتل ابنه فى حرب لمتونة جاؤا به ليدفنوه الى جانب قبر أبيه أبى الكمال فسمعوا من قبره تكبيرا وتشهدا كثيرا فنبشوا قبره فالفوه لم يتغير منه شئ

ثم راه بعض قرابته في النوم فقال له ماهذا التكبير والتشهد الذي سمعناه من قبرك قال تلك الملائكة وكلهم الله بقبري يكبرون ويهللون ويسبحون ويكون ثواب ذلك لي الى يوم القيامة قال وبم نلت ذلك قال بجهادي برغواطة حكى هذا الخبر في القرطاس والله على كل شئ قدير وأقام حمامة في سلطان فاس والمغرب الى ان توفي سنة احدى وثلاثين وأربعمائة وقيل غير ذلك

﴿الخبر عن دولة دوناس بن حمامة بن المعز بن عطية المغراوي﴾

لما توفي حمامة بن المعز ولي بعده ابنه دوناس بن حمامة ويكنى أبا العطاف واستولى على فاس وسائر ما كان لابيه من مدن المغرب وأعماله وخرج عليه لاول دولته ابن عمه حماد بن معنصر بن المعز بن عطية فجرت له معه حروب وخطوب وكثرت جموع حماد وغلب على ضواحي فاس وحاصرها حصارا شديدا وقطع عن عدوة القرويين جرية الوادي واحتفر السياج المعروف بسياج حماد ويقال ان دوناس خندق به على نفسه واستمر حماد محاصر الفاس الى ان هلك سنة خمس وثلاثين وأربعمائة فاستقامت دولة دوناس وانفسحت أيامه وصار الناس في هدنة ودعة ورخاء كثير وفي أيامه عظمت فاس وعمرت وكثرت أرباضها وقصدها الناس والتجار من جميع النواحي فأدار دوناس السور على أرباضها وبنى بها المساجد والحمامات والفنادق واستبحر عمرانها فصارت حاضرة المغرب من يومئذ ولم يشتغل دوناس من يوم ولي الى ان توفي الا بالبناء والتشييد وكانت وفاته في شوال سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة

﴿الخبر عن دولة فتوح بن دوناس المغراوي﴾

لما توفي دوناس بن حمامة ولي بعده ابنه الفتوح بن دوناس ونزل بعدوة الاندلس ونازعه الامر أخوه الاصغر واسمه عجيسة وكان شهما مجربا فاستولى على عدوة القرويين واستبد على أخيه وافترق أمر فاس وأعمالها بافتراقهما وقامت الحرب بينهما على ساق وبنى الفتوح بعدوة الاندلس قصبة منيعة بالموضع المعروف بالكذان وبنى عجيسة أيضا قصبة مثلها برأس عقبة السعتر من عدوة القرويين وكثرت العداوة بينهما واستحكمت فكانا لا يفتران عن القتال ليلا ولا نهارا وعظم الخوف بالمغرب وكثر الهرج وغلت الاسعار واشتدت المجاعة وظهرت لمتونة على أطراف البلاد فملكوها والامر لا زال والحال ما حال وليس لاهل فاس شغل الا القتال واستمر الامر على ذلك ثلاث سنين الى ان بيت الفتوح عجيسة فاقتحم عليه عدوة القرويين ليلا فقتله واستولى على العدوتين معا والفتوح بن دوناس هذا هو الذي بنى باب الفتوح من مدينة فاس بسورها القبلي وبه عرف الى الآن وأخوه عجيسة هو الذي بنى باب عجيسة برأس عقبة السعتر من عدوة القرويين من ناحية الجوف وبه عرف أيضا الى الآن فلما ظفر الفتوح بعجيسة وقتله أمر بتغيير اسم الباب المنسوب اليه فاسقط الناس العين من عجيسة وعوضوا عنها الالف واللام فقالوا باب الجيسة قاله في القرطاس ﴿وقال ابن خلدون﴾ خففوه لكثرة الاستعمال ولم يزل الفتوح مستوليا على فاس الى ان دهم المغرب ما دهمه من أمر المرابطين من لمتونة وخشي الفتوح مغبة ذلك فافرج عن فاس وتخلى عنها وزحف صاحب القلعة بلكين بن محمد بن حماد الصنهاجي الى المغرب سنة أربع وخمسين وأربعمائة ودخل فاسا واحتمل من أكابرها وأشرافها عددا رهنا على الطاعة وقفل الى قلعته

﴿الخبر عن دولة معنصر بن حماد بن معنصر بن المعز بن عطية المغراوي﴾

لما تخلى الفتوح بن دوناس على ملك فاس وأعمالها قام بالامر بعده قريبه معنصر بن حماد بن معنصر بن المعز بن عطية فبايعته قبائل مغراوة الذين بفاس وأحوازها وذلك في رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمائة وكان معنصر ذا حزم ورأي وشجاعة واقدام وشغل بحرب لمتونة وكانت له عليهم الوقعة

المشهورة

المشهورة ثم غلب يوسف بن تاشفين على فاس وخلف عليها عامله وارتحل الى غمارة وفتح الكثير من بلادها حتى أشرف على طنجة ثم رجع الى حصار قلعة فازاز فخالفه معنصر الى فاس وملكها وقتل العامل ومن معه من لمتونة ومثل بهم بالحرق والصلب واتصل الخبر بيوسف بن تاشفين وهو محاصر لقلعة فازاز فاستدعى مهدي بن يوسف الكزنائى صاحب مكناسة ليستجيش به على فاس فاستعرضه معنصر فى طريقه قبل أن تتصل أيديهما وناجزه الحرب ففض جموعه وقتله وبعث برأسه الى وليه الحاجب سكوت البرغواطى صاحب سبتة واستصرخ أهل مكناسة بيوسف بن تاشفين فسرح عساكر لمتونة الى حصار فاس فأخذوا بمخنقها وقطعوا المرافق عنها وألحوا بالقتال عليها حتى اشتد باهلها الحصار ومسهم الجهد وبرز معنصر لاحدى الراحتين فكانت الدائرة عليه وفقد فى الملحمة ذلك اليوم سنة ستين وأربعمائة فلم يدر مافعل الله به سبحانه وتعالى

﴿الخبر عن دولة تميم بن معنصر المغراوى﴾

لما فقد معنصر بن حماد فى الملحمة التى كانت بينه وبين اللمتونيين بايع أهل فاس من بعده لابنه تميم ابن معنصر فكانت أيامه أيام حصار وفتنة وجهد وغلاء وشغل يوسف بن تاشفين عنهم بفتح بلاد غمارة حتى اذا كانت سنة اثنتين وستين وفرغ من فتح غمارة صمد الى فاس فحاصرها أياما ثم اقتحمها عنوة وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من مغراوة وبنى يفرن ومكناسة وغيرهم وهلك تميم بن معنصر فى جملتهم حتى عجز الناس عن مواراتهم فرادى فاتخذوا لهم الاخاديد وقبروا جماعات وخلص من نجا من القتل منهم الى تلمسان قاله ابن خلدون (وقال فى القرطاس) دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس الدخلة الثانية الكبرى فقتل بها من مغراوة وبنى يفرن فى أزقتها وجوامعها ما يزيد على العشرين ألف رجل وذلك سنة اثنتين وستين وأربعمائة وانقرضت دولة مغراوة من المغرب والبقاء لله وحده وكانت مدة دولتهم نحو مائة سنة وفى دولتهم عظم شأن فاس وبنيت الاسوار على أرباضها وحصنت أبوابها وزيد فى مسجديها القرويين والاندلس زيادة كثيرة واتسع الناس فى أيام مغراوة فى البناء فعظمت فاس واستبحر عمرانها وكثرت خيراتها واتصل الامن والرخاء جل أيامهم الى ان ضعفت أحوالهم وجاروا على رعيتهم باخذ أموالهم وسفك دمائهم والتعرض لحرمهم فانقطعت عنهم المواد وكثر الخوف فى البلاد وغلت الاسعار وبلا الله عباده بشئ من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وذلك فى دولة الفتوح ابن دوناس ومن بعده فكان رؤساء مغراوة وبنى يفرن يلجون على الناس دورهم فيأخذون مايجدون بها من الطعام ويتعرضون لنسائهم وصبيانهم ويأخذون أموال التجار فلا يقدر أحد أن يصدهم عن ذلك وكان سفهاؤهم وعبيدهم يصعدون على قنة جبل العرض فينظرون الى الدور التى بالمدينة فاذا رأوا دارا بها دخان قصدوها وأخذوا ما وجدوا بها من طعام أو غيره ومن تعرض لهم فى ذلك قتلوه فلما ارتكبوا هذه العظائم سلبهم الله ملكه وغير ما بهم من نعمه والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم فسلط الله عليهم المرابطين فمحوا آثارهم من المغرب ونفوهم عنه بالكلية وطهروه من جورهم وفى أيامهم اتخذ أهل فاس المطامير فى بيوتهم للطحن والطبخ لئلا يسمع دوى الرحى فتقصدهم سفهاء مغراوة (وفيها أيضا) اتخذوا غرفا لا مراقى لها حتى اذا كان عشى النهار صعد الرجل باهله وعياله اليها بسلم ثم يرفع السلم معه لئلا يدخل عليه فجأة وكان من هذا شئ كثير * وكان من الاحداث فى هذه المدة انه فى ليلة الخميس الثالث والعشرين من رجب سنة احدى وثمانين وثلاثمائة ظهر نجم فى السماء كان فى رأى العين مثل الصومعة العظيمة طلع من جهة المشرق وتهافت جريا فيما بين المغرب والجوف وتطاير منه شرر عظيم فزع الناس منه واستغاثوا بربهم فى صرف مكروهه عنهم * وفى سنة اثنتين وثمانين بعدها * كان الكسوف الكلى الذى أذهب جميع القرص * وفى سنة خمس وثمانين

وثلاثمائة كانت الريح الهائلة التى نظر الناس فيها الى البهائم تمر بين السماء والارض نعوذ بالله من سخطه * وفى سنة أربع وتسعين وثلاثمائة طلع الكوكب الوقاد وهو نجم عظيم ضخم الجرم كثير الضياء * وفى سنة ست وتسعين وثلاثمائة طلع نجم عظيم من ذوات الاذناب شديد الارتعاد * وفى سنة سبع وأربعمائة انقرضت دولة بنى أمية بالاندلس وقامت بها دولة بنى حمود فكانت مدتهم نحو سبع سنين وانقرضت أيضا وافترق أمر الجماعة بالاندلس وصار الملك بها طوائف الى ان نسخ ذلك يوسف بن تاشفين * وفى سنة احدى وعشرة وأربعمائة اشتد القحط ببلاد المغرب كلها من تاهرت الى سجلماسة وكثر الفناء فى الناس نسأل الله العافية * وفى سنة خمس عشرة وأربعمائة كانت الزلزلة العظيمة بالاندلس اضطربت لها الارض وانهدت الجبال * وفى سنة سبع عشرة وأربعمائة توفى الفقيه ابن العجوز بفاس * وفى سنة ثلاثين وأربعمائة توفى الشيخ الفقيه أبو عمران الفاسى قال فى التشوف أبو عمران موسى بن عيسى بن أبى حاج الفاسى أصله من مدينة فاس ونزل بالقيروان فأخذ عن أبى الحسن القابسى ثم رحل الى بغداد فحضر مجلس القاضى أبى بكر بن الطيب ثم عاد الى القيروان وبها مات لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ثلاثين وأربعمائة وكان مقدما فى الفضل والامانة اهـ

﴿الخبر عن الدولة الصنهاجية اللمتونية المرابطية وأوليتها﴾

قد تقدم لنا عند الكلام على نسب البربر وشعوبها أن صنهاجة احدى قبائل البرانس من البربر وانهم أعظم قبائلها بالمغرب لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم فى جبل أو بسيط حتى زعم كثير من الناس انهم ثلث البربر وتقدم لنا ان النسابين من العرب زعموا ان صنهاجة وكتامة من حمير خلفهم الملك افريقيش بالمغرب فاستحالت لغتهم الى البربرية والتحقيق خلاف ذلك وانهم من كنعان بن حام كسائر البربر وتحت صنهاجة قبائل كثيرة تنتهى الى السبعين منهم لمتونة وكدالة ومسوفة ومسراتة ومداسة وبنو وارث وبنو دخير وبنو زيا وبنو موسى وبنو وشتال وغير ذلك وتحت هذه القبائل بطون وأفخاذ تفوت الحصر وكانت لهم بالمغرب دولتان عظيمتان احداهما دولة بنى زيرى بن مناد الصنهاجيين بافريقية ورثوا ملكها من يد الشيعة العبيديين والاخرى دولة الملثمين بالمغرب الاقصى والاوسط والاندلس كما سيأتى وموطن هؤلاء الملثمين أرض الصحراء والرمال الجنوبية فيما بين بلاد البربر وبلاد السودان ومساحة أرضهم نحو سبعة أشهر طولا فى أربعة عرضا وفيهم قوم لا يعرفون حرثا ولا زرعا ولا فاكهة وانما أموالهم الانعام وعيشهم اللحم واللبن يقيم أحدهم عمره لا يأكل خبزا الا أن يمر ببلادهم التجار فيتحفونهم بالخبز والدقيق وانما قيل لهم الملثمون لانهم يتلثمون ولا يكشفون وجوههم أصلا ﴿وقال ابن خلكان﴾ اللثام سنة لهم يتوارثونها خلفا عن سلف وسبب ذلك على ما قيل ان حمير كانت تتلثم لشدة الحر والبرد تفعله الخواص منهم فكثر ذلك حتى صار تفعله عامتهم وقيل كان سببه ان قوما من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم اذا غابوا عن بيوتهم فيطرقون الحى فيأخذون المال والحريم فأشار عليهم بعض مشائخهم ان يبعثوا النساء فى زى الرجال الى ناحية ويقعدوهم فى البيوت متلثمين فى زى النساء فاذا أتاهم العدو وظنوهم نساء خرجوا اليهم ففعلوا ذلك وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم فلزموا اللثام تبركا بما حصل لهم من الظفر بالعدو ﴿وقال عز الدين ابن الاثير فى كامله ما مثاله﴾ وقيل ان سبب تلثمهم ان طائفة من لمتونة خرجوا مغيرين على عدو لهم فخالفهم العدو الى بيوتهم ولم يكن بها الا المشائخ والصبيان والنساء فلما تحقق المشائخ انه العدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجال ويتلثمن ويضيقنه حتى لا يعرفن ويلبسن السلاح ففعلن ذلك وتقدم المشائخ والصبيان أمامهن واستدار النساء بالبيوت فلما أشرف العدو رأى جمعا عظيما فظنه رجالا وقالوا هؤلاء عند حريمهم يقاتلون عنهن قتال الموت والرأى ان نسوق النعم ونمضى فان اتبعونا قاتلناهم خارجا عن حريمهم فبينما هم فى جمع النعم من

المراعى

المرابطي اذا أقبل الرجال الى الحي فبقي العدو بينهم وبين النساء فقتلوا من العدو خلقا كثيرا وكان من قتل النساء أكثر فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه فلا يعرف الشيخ من الشاب ولا يزيلونه ليلا ولا نهارا وفي ذلك يقول أبو محمد بن حامد الكاتب

قوم لهم شرف العلى من حمير * واذا انتموا صنهاجة فهم هم
لما حووا احراز كل فضيلة * غلب الحياء عليهم فتلثموا

﴿وقال ابن خلدون﴾ كان دين صنهاجة أهل اللثام المجوسية شأن برابرة المغرب ولم يزالوا مستقرين بتلك المجالات الصحراوية حتى كان اسلامهم بعد فتح الاندلس وكانت الرياسة فيهم للمتونة واستوسق لهم ملك ضخم عند دخول عبد الرحمن بن معاوية الى الاندلس توارثه ملوك منهم من بني ورتنطوا وطالت أعمارهم فيه الى الثمانين ونحوها ودوخوا تلك البلاد الصحراوية وجاهدوا من بها من أمم السودان وحملوهم على الاسلام فدان به كثير منهم واتقاهم آخرون بالجزية فقبلوها منهم ثم افترق أمرهم من بعد ذلك وصار ملكهم طوائف ورياستهم شيعا واستمروا على ذلك مائة وعشرين سنة الى ان قام فيهم الامير أبو عبد الله محمد بن تيفاوت المعروف بتاسرت اللتوني فاجتمعوا عليه وأحبوه وبايعوه وكان من أهل الفضل والدين والجهاد والحج فلبث فيهم ثلاث سنين ثم استشهد في بعض غزواته

﴿الخبر عن رياسة يحيى بن ابراهيم الكدالي وما كان من أمره مع الشيخ أبي عمران الفاسي رحمهما الله﴾

لما توفي أبو عبد الله بن تيفاوت قام بامر صنهاجة من بعده يحيى بن ابراهيم الكدالي وكدالة ولمتونة اخوان يجتمعان في أب واحد وكل منهما قبيل كبير يسكنون الصحراء التي تلي بلاد السودان ويليهم من جهة المغرب البحر المحيط فاستمر الامير يحيى بن ابراهيم على رياسة صنهاجة وحربهم لاعدائهم الى ان كانت سنة سبع وعشرين وأربعمائة فاستخلف على صنهاجة ابنه ابراهيم بن يحيى وارتحل الى المشرق برسم الحج فلما قضى حجه وزيارته قفل الى بلاده فمر في عوده بالقيروان فلقي بها الشيخ الفقيه أبا عمران الفاسي وحضر مجلس درسه وتأثر بوعظه فرآه الشيخ أبو عمران محبا في الخير فأعجبه حاله وسأله عن اسمه ونسبه وبلده فأخبره بذلك كله وأعلمه بسعة بلاده وما فيها من كثرة الخلق فقال له الشيخ وما ينتحلون من المذاهب قال انهم قوم غلب عليهم الجهل وليس لهم كبير علم فاختبره الشيخ وسأله عن فروض دينه فلم يجده يعرف منها شيأ الا انه حريص على التعلم صحيح النية والعقيدة فقال له الشيخ وما يمنعك من تعلم العلم فقال ياسيدي عدم وجود عالم بارضي وليس في بلادي من يقرأ القرآن فضلا عن العلم ومع ذلك فأهل أرضي يحبون الخير ويرغبون فيه لو وجدوا من يقرئهم القرآن ويدرس لهم العلم ويفقههم في دينهم ويعلمهم الكتاب والسنة وشرائع الاسلام فلو رغبت في الثواب من الله تعالى لبعثت معي بعض طلبتك يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين فينتفعون به ويكون لك وله الاجر العظيم عند الله تعالى اذ كنت سبب هدايتهم فندب الشيخ أبو عمران تلامذته الى ذلك فاستصعبوا دخول أرض الصحراء وأشفقوا منها فقال الشيخ أبو عمران ليحيى بن ابراهيم اني أعرف ببلد نفيس من أرض المصامدة فقيها حاذقا ورعا أخذ عني علما كثيرا واسمه واجاج بن زلوا اللمطي من أهل السوس الاقصى اكتب له كتابا لينظر في تلامذته من يبعثه معك فسر اليه لعلك تجد حاجتك عنده فكتب اليه الشيخ أبو عمران كتابا يقول فيه أما بعد فاذا وصلك حامل كتابي هذا وهو يحيى بن ابراهيم الكدالي فابعث معه من طلبتك من تثق بعلمه ودينه وورعه وحسن سياسته ليقرئهم القرآن ويعلمهم شرائع الاسلام ويفقههم في دين الله ولك وله في ذلك الثواب والاجر العظيم والله لا يضيع أجر من أحسن عملا وأبو محمد واجاج هذا من رجال التشوف قال فيه ومنهم واجاج بن زلوا اللمطي من أهل السوس الاقصى رحل الى القيروان وأخذ عن أبي عمران الفاسي ثم عاد الى السوس فبنى دارا سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقراء القرآن وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه

واذا أصابهم قحط استسقوا به اهـ فسار يحيى بن ابراهيم بكتاب الشيخ أبي عمران حتى وصل الى الفقيه واجاج بمدينة نفيس فسلم عليه ودفع اليه الكتاب وكان ذلك فى رجب سنة ثلاثين وأربعمائة فنظر الفقيه واجاج فى الكتاب ثم جمع تلامذته فقرأه عليهم وندبهم لما أمر به الشيخ أبو عمران فانتدب لذلك رجل منهم يقال له عبد الله بن ياسين الجزولى وكان من حذاق الطلبة ومن أهل الفضل والدين والورع والسياسة مشاركا فى العلوم فخرج مع يحيى بن ابراهيم الى الصحراء وكان من أمره ما نقصه عليك

﴿الخبر عن دخول عبد الله بن ياسين أرض الصحراء وابتداء أمره بها﴾

لما انتهى يحيى بن ابراهيم الى بلاده ومعه الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولى تلقاه قبائل كدالة ولمتونة وفرحوا بمقدمهما وتيمنوا بالفقيه وبالغوا فى اكرامه وبره فشرع يعلمهم القرآن ويقيم لهم رسم الدين ويسوسهم بآداب الشرع وألفاهم يتزوجون أكثر من أربع حرائر فقال لهم ليس هذا من السنة وانما سنة الاسلام أن يجمع الرجل بين أربع نسوة حرائر فقط وله فيما شاء من ملك اليمين سعة وجعل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويكبحهم عن كثير من مألوفاتهم الفاسدة وشدد فى ذلك فاطرحوه واستصعبوا علمه وتركوا الاخذ عنه لما جشمهم من مشاق التكليف فلما رأى عبد الله بن ياسين اعراضهم عنه واتباعهم لاهوائهم عزم على الرحيل عنهم الى بلاد السودان الذين دخلوا فى دين الاسلام يومئذ فلم يتركه يحيى بن ابراهيم لذلك وقال له انما أتيت بك لانتفع بعلمك فى خاصة نفسى وما علي فيمن ضل من قومى وكان قومه ليس عندهم من الاسلام الا الشهادة دون ما عداها من أركان الاسلام وشرائعه ثم قال يحيى بن ابراهيم لعبد الله بن ياسين هل لك فى رأى أشير به عليك ان كنت تريد الآخرة قال وما هو قال ان ههنا جزيرة فى البحر ﴿قال ابن خلدون﴾ هو بحر النيل يحيط بها من جهاتها يكون ضحضاحا فى المصيف يخاض بالاقدام وغمرا فى الشتاء يعبر بالزوارق قال يحيى بن ابراهيم وفيها الحلال المحض من شجر البرية وصيد البر والبحر ندخل فيها ونقتات من حلالها ونعبد الله تعالى حتى نموت فقال عبد الله بن ياسين ان هذا الرأى حسن فهلم بنا فلندخلها على اسم الله فدخلاها ودخل معهما سبعة نفر من كدالة وابتنى عبد الله رابطة هنالك وأقام فى أصحابه يعبدون الله تعالى مدة من ثلاثة أشهر فتسامع الناس بهم وانهم اعتزلوا بدينهم يطلبون الجنة والنجاة من النار فكثر الواردون عليهم والتوابون لديهم فأخذ عبد الله بن ياسين يقرئهم القرآن ويستميلهم الى الخير ويرغبهم فى ثواب الله ويحذرهم أليم عقابه حتى تمكن حبه من قلوبهم فلم تمر عليه الامدة يسيرة حتى اجتمع له من التلامذة نحو ألف رجل وكان من أمرهم ما نسمعه عن قريب

﴿شروع عبد الله بن ياسين فى الجهاد واعلانه بالدعوة وما كان من أمره فى ذلك﴾

لما اجتمع الى عبد الله بن ياسين من أشراف صنهاجة نحو ألف رجل سماهم المرابطين للزومهم رابطته ولما تفقهوا ورسخ فيهم الدين قام فيهم خطيبا فوعظهم وشوقهم الى الجنة وخوفهم من النار وأمرهم بتقوى الله والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وأخبرهم بما فى ذلك من ثواب الله تعالى وعظيم جزائه ثم ندبهم الى جهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة وقال لهم معشر المرابطين انكم اليوم جمع كثير نحو ألف رجل ولن يغلب ألف من قلة وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم الى صراطه المستقيم فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم بان تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتجاهدوا فى الله حق جهاده فقالوا له أيها الشيخ المبارك مرنا بما شئت تجدنا سامعين لك مطيعين ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا فقال لهم اخرجوا على بركة الله وانذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وابلغوهم حجته فان تابوا فخلوا سبيلهم وان أبوا من ذلك وتمادوا فى غيهم ولجوا فى طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم

وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين فسار كل رجل منهم الى قومه وعشيرته فوعظهم وأنذرهم ودعاهم الى الاقلاع عما هم بسبيله فلم يرفعوا بذلك رأسا فخرج اليهم عبد الله بن ياسين بنفسه وجمع أشياخ قبائلهم ووجوهها وقرأ عليهم حجة الله ودعاهم الى التوبة ورغبهم فى الجنة وخوفهم من النار وأقام ينذرهم سبعة أيام وهم فى ذلك كله لا يلتفتون الى قوله ولا يزدادون الا فسادا فلما يئس منهم قال لاصحابه قد أبلغنا فى الحجة وأنذرنا وأعذرنا وقد وجب علينا الآن جهادهم فاغزوهم على بركة الله فبدأ أولا بقبيلة كدالة فغزاهم فى ثلاثة آلاف رجل من المرابطين فانهزموا بين يديه وقتل منهم خلقا كثيرا وأسلم الباقون اسلاما جديدا وحسنت حالهم وأدوا ما يلزمهم من كل ما فرض الله عليهم وكان ذلك فى صفر سنة أربع وثلاثين وأربعمائة ثم سار الى قبيلة لمتونة فنزل عليها وقاتلهم حتى أظهره الله عليهم وأذعنوا الى الطاعة وبايعوه على اقامة الكتاب والسنة ثم سار الى قبيلة مسوفة فقاتلهم حتى أذعنوا له وبايعوه على ما بايعته لمتونة وكدالة فلما رأى ذلك سائر صنهاجة سارعوا الى التوبة والمبايعة وأقروا له بالسمع والطاعة فكان كل من أتاه تائبا منهم يطهره بان يضربه مائة سوط ثم يعلمه القرآن وشرائع الاسلام وكان يأمرهم بالصلاة والزكاة وأداء العشر واتخذ لذلك بيت مال يجمع فيه ما يرفع اليه من ذلك ثم أخذ فى اشتراء السلاح واركاب الجيوش من ذلك المال وجعل يغزو القبائل حتى ملك جميع بلاد الصحراء وذلل قبائلها ثم جمع أسلاب القتلى فى تلك المغازى وجعلها فيئا للمرابطين وبعث بمال دثر مما اجتمع لديه من الزكوات والاعشار والاخماس الى طلبة العلم ببلاد المصامدة فاشتهر أمره فى جميع بلاد الصحراء وما والاها من بلاد السودان وبلاد القبلة وبلاد المصامدة وسائر أقطار المغرب وانه قام رجل بكدالة يدعو الى الله تعالى والى الصراط المستقيم ويحكم بما أنزل الله وانه متواضع زاهد فى الدنيا وطار له ذكر فى العالم وتمكن ناموسه من القلوب وأحبته الناس ثم توفى يحيى بن ابراهيم الكدالى على أثر ذلك وحكى ابن خلدون ان وفاة يحيى بن ابراهيم كانت قبل اعتزال عبد الله بن ياسين وأصحابه فى الجزيرة والله أعلم

الخبر عن رياسة يحيى بن عمر بن تكلاكين اللمتونى

لما توفى يحيى بن ابراهيم الكدالى عزم عبد الله بن ياسين على تقديم رجل يقوم بأمر المرابطين فى حربهم وجهادهم لعدوهم وكانت قبيلة لمتونة من بين قبائل صنهاجة أكثر طاعة لله تعالى ودينا وصلاحا فكان عبد الله بن ياسين يكرمهم ويقدمهم على غيرهم وذلك لما أراده الله تعالى من ظهور أمرهم وتملكهم على الخلق فجمع عبد الله بن ياسين رؤس القبائل من صنهاجة وولى عليهم يحيى بن عمر اللمتونى وعبد الله بن ياسين هو الامير على الحقيقة لانه هو الذى يأمر وينهى ويعطى ويمنع وعن رأيه يصدرون فكان يحيى بن عمر يتولى النظر فى أمر الحرب وعبد الله بن ياسين ينظر فى أمر الدين وأحكام الشرع ويأخذ الزكوات والاعشار وكان يحيى شديد الانقياد لعبد الله بن ياسين واقفا عند أمره ونهيه فمن حسن طاعته له انه قال له يوما قد وجب عليك أدب قال يحيى فيماذا يا سيدى قال لا أعرفك به حتى آخذه منك فكشف له يحيى عن بشرته فضربه عشرين سوطا ثم قال له انما ضربتك لانك باشرت القتال واصطليت بنار الحرب بنفسك وذلك خطأ منك فان الامير لا يقاتل وانما يقف ويحرض الناس ويقوى نفوسهم فان حياة الجند بحياة أميره وهلاكه بهلاكه واستقام الامر ليحيى بن عمر وملك جميع بلاد الصحراء وغزا بلاد السودان ففتح كثيرا منها وكان من أهل الزهد والدين والصلاح

الخبر عن غزو عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر سجلماسة والسبب فى ذلك

قد تقدم لنا عند الكلام على بنى مدرار المكناسيين أصحاب سجلماسة ان انقراض دولتهم كان على يد خزرون بن فلفل بن خزر المغراوى وانه زحف الى سجلماسة سنة ست وستين وثلاثمائة وبرز اليه صاحبها

أبو محمد المعتز بالله آخر ملوك بنى مدرار الصفرية فهزمه خزرون وقتله واستولى على بلده وذخيرته وبعث برأسه الى قرطبة وكان ذلك لاول حجابة المنصور بن أبى عامر واستمر خزرون بن فلفل واليا على سجلماسة الى ان هلك وولى بعده ابنه وانودين بن خزرون الى ان هلك أيضا وولى بعده ابنه مسعود بن وانودين ولما انقرضت الدولة الاموية بالاندلس وافترق أمر الجماعة بها وصار الملك طوائف استبد أمراء الاطراف وملوك زناتة بالمغرب كل بما فى يده وعدم الوازع وتصرفوا فى الرعايا بمقتضى أغراضهم وشهواتهم فنال فاسا وأعمالها من جور بنى عطية المغراويين ما حكيناه بعضه قبل ونال أهل سجلماسة ودرعة من بنى خزرون بن فلفل المغراويين مثل ذلك أو أكثر فلما كانت سنة سبع وأربعين وأربعمائة وقد انتشر ذكر عبد الله بن ياسين وأصحابه المرابطين فى العالم اجتمع فقهاء سجلماسة ودرعة وكتبوا الى عبد الله ابن ياسين ويحيى بن عمر وأشياخ المرابطين كتابا يرغبون اليهم فى الوصول الى بلادهم ليطهروها مما هى فيه من المنكرات وشدة العسف من الامراء وعرفوهم بما هم فيه أهل العلم والدين وسائر المسلمين من الذل والصغار مع أميرهم مسعود بن وانودين المغراوى فلما وصل الكتاب الى عبد الله بن ياسين جمع رؤساء المرابطين وقرأه عليهم وشاورهم فى الامر فقالوا أيها الفقيه هذا مما يلزمنا ويلزمك فسر بنا على بركة الله فدعا لهم بخير وحضهم على الجهاد وخرج بهم فى عشرين من صفر سنة سبع وأربعين وأربعمائة فى جيش كثيف من المرابطين وقيل كان خروجه سنة خمس وأربعين وأربعمائة فسار حتى وصل الى بلاد درعة فوجد بها عاملا مسعود بن وانودين فنفاه عنها ووجد بها خمسين ألف ناقة لمسعود المذكور كانت ترعى فى حمى حماه لها هنالك فاكتسحها عبد الله بن ياسين واتصل الخبر بمسعود فجمع جيوشه وخرج نحوه فالتقى الجمعان فيما بين درعة وسجلماسة فكانت بينهما حروب فظيعة منح الله فيها المرابطين النصر على مغراوة فقتل أميرهم مسعود وأكثر جيشه وفر الباقون واستولى عبد الله بن ياسين على دوابهم وأسلحتهم وأموالهم مع الابل التى كان اكتسحها فى درعة فاخرج الخمس من ذلك كله وفرقه على فقهاء سجلماسة ودرعة وصلحائهما وقسم الاربعة أخماس على المرابطين وارتحل من فوره الى سجلماسة فدخلها وقتل من وجد بها من مغراوة وأقام بها حتى أصلح شأنها وغير ما وجد بها من المنكرات وقطع المزامير وآلة اللهو وأحرق الدور التى كانت تباع بها الخمور وأزال المكوس وأسقط المغارم المخزنية ومحى ما أوجب الكتاب والسنة محوه واستعمل على سجلماسة عاملا من لمتونة وانصرف الى الصحراء ثم توفى الامير أبو زكرياء يحيى بن عمر فى بعض غزواته ببلاد السودان سنة سبع وأربعين وأربعمائة

﴿الخبر عن رياسة أبى بكر بن عمر اللمتونى وفتح بلاد السوس﴾

لما توفى الامير يحيى بن عمر اللمتونى ولى عبد الله بن ياسين مكانه أخاه أبا بكر بن عمر وذلك فى محرم سنة ثمان وأربعين وأربعمائة وقلده أمر الحرب والجهاد ثم ندب المرابطين الى غزو بلاد السوس والمصامدة فزحف اليها فى جيش عظيم فى ربيع الثانى من السنة المذكورة وكان أبو بكر بن عمر رجلا صالحا ورعا فجعل على مقدمته ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتونى ثم سار حتى انتهى الى بلاد السوس فغزا جزولة من قبائلها وفتح مدينة ماسة وتارودانت قاعدة بلاد السوس وكان بها قوم من الرافضة يقال لهم البجلية نسبة الى على بن عبد الله البجلى الرافضى كان سقط الى بلاد السوس أيام قيام عبيد الله الشيعى بافريقية فاشاع هنالك مذهب الرافضة فتوارثوه عنه جيلا بعد جيل وعضوا عليه فكانوا لا يرون الحق الا ما فى يدهم فقاتلهم عبد الله بن ياسين وأبو بكر بن عمر حتى فتحوا مدينة تارودانت عنوة وقتلوا بها خلقا كثيرا ورجع من بقى منهم الى مذهب السنة والجماعة وحاز عبد الله بن ياسين أسلاب القتلى منهم فجعلها فيئا وأظهر الله المرابطين على من عاداهم ففتحوا معاقل السوس وخضعت لهم قبائله وفرق عبد الله بن ياسين عماله بنواحيه وأمرهم باقامة العدل واظهار السنة وأخذ الزكوات والاعشار واسقاط ما سوى ذلك

﴿فتح بلاد المصامدة وما يتبع ذلك من جهاد برغواطة وفتح بلادهم﴾

ثم ارتحل عبد الله بن ياسين الى بلاد المصامدة ففتح جبل درن و بلاد رودة ومدينة شفشاوة بالسيف ثم فتح مدينة نفيس وسائر بلاد كدميوة ووفدت عليه قبائل رجراجة وحاحة فبايعوه ثم ارتحل الى مدينة أغمات وبها يومئذ أميرها لقوط بن يوسف بن على المغراوى فنزل عليها وحاصرها حصارا شديدا ولما رأى لقوط ما لا طاقة له به أسلمها وفر عنها ليلا هو و جميع حشمه الى تادلا فاستجار ببنى يفرن ملوك سلا وتادلا ودخل المرابطون مدينة أغمات سنة تسع وأربعين وأربعمائة فاقام بها عبد الله بن ياسين نحو الشهرين ريثما استراح الجند ثم خرج الى تادلا ففتحها وقتل من وجد بها من بنى يفرن ملوكها وظفر بلقوط المغراوى فقتله وكان للقوط هذا امرأة اسمها زينب بنت اسحق النفزاوية ﴿قال ابن خلدون﴾ وكانت من احدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة وكانت قبل لقوط عند يوسف ابن على بن عبد الرحمن بن وطاس شيخ وريكة فلما قتل المرابطون لقوط بن يوسف المغراوى خلفه أبو بكر ابن عمر على امرأته زينب بنت اسحق المذكورة الى ان كان من أمرها ما نذكره ثم تقدم عبد الله بن ياسين الى بلاد تامسنا ففتحها واستولى عليها ثم أخبر بان بساحل تامسنا قبائل برغواطة فى عدد كثير وجمع عظيم ولنذكر هنا كلاما ملخصا فى برغواطة ودولتهم ثم نرجع الى ما نحن بصدده فنقول اختلف الناس فى نسب برغواطة هؤلاء الى أى شئ يرجع فبعضهم يلحقهم بزناتة وبعضهم يقول فى متنبئهم صالح بن طريف البرغواطى انه يهودى الاصل من سبط شمعون بن يعقوب عليه السلام نشأ ببرباط حصن من عمل شذونة من بلاد الاندلس ثم رحل الى المشرق وقرأ على عبيد الله المعتزلى واشتغل بالسحر وجمع منه فنونا وقدم المغرب فنزل بلاد تامسنا فوجد بها قبائل جهالا من البربر فأظهر لهم الصلاح والزهد وموه عليهم وخلبهم بلسانه وسحرهم بنيرنجاته فصدقوه واتبعوه فادعى النبوة وشرع لهم شرائع ووضع لهم قرآنا حسبما تقدم الخبر عنه مستوفى فكان يقال له تبعه ودخل فى دينه برباطى ثم عربته العرب فقالوا برغواطى فسموا برغواطة ﴿قال ابن خلدون﴾ وهذا من الاغاليط البينة وصح ان القوم من المصامدة بشهادة الموطن والجوار وغير ذلك والتحقيق ان برغواطة قبائل شتى ليس يجمعهم أب واحد وانما هم أخلاط من البربر اجتمعوا الى صالح بن طريف الذى ادعى النبوة بتامسنا سنة خمس وعشرين ومائة من الهجرة فى خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان وتسمى بصالح المؤمنين وشرع لاتباعه الديانة التى أخذوها عنه وكان صالح قد شهد مع أبيه طريف حروب ميسرة المضغرى كبير الصفرية لعهده وكان طريف يكنى أبا صبيح ومن كبار أصحاب ميسرة المذكور ويقال انه ادعى النبوة أيضا وشرع لقومه الشرائع ثم هلك سنة سبع وعشرين ومائة وقام بامره ابنه صالح بن طريف المذكور فعفت مخارقه على مخارق أبيه وكان أولا من أهل العلم والدين ثم انسلخ من آيات الله وانتحل دعوى النبوة وأتى من البهتان بما أوضحناه قبل فى ولاية حنظلة بن صفوان الكلبى على المغرب ثم خرج صالح بن طريف الى المشرق سنة أربع وسبعين ومائة بعد ان ملك أمرهم سبعا وأربعين سنة ووعدهم انه يرجع اليهم فى دولة السابع منهم وأوصى بشريعته الى ابنه الياس بن صالح ولم يزل الياس مظهرا للاسلام مصرا على ما أوصاه به أبوه من كلمة كفرهم وكان متظاهرا بالعفاف والزهد الى ان هلك سنة أربع وعشرين ومائتين لمضى خمسين سنة من ولايته ثم ولى من بعده ابنه يونس بن الياس فاظهر دينهم ودعا الى كفرهم وقتل من لم يدخل فى أمره حتى حرق مدائن تامسنا وما والاها يقال انه حرق منها ثلاثمائة وثمانين مدينة واستلحم أهلها بالسيف لمخالفتهم اياه وقتل منهم بموضع يقال له تاملوكالات وهو حجر عال نابت وسط الطريق سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين نفسا (قال زمور بن صالح) ثم رحل يونس بن الياس الى المشرق وحج ولم يحج أحد

من أهل بيته قبله ولا بعده وهلك سنة ثمان وستين ومائتين لاربع وأربعين سنة من ملكه وانتقل الامر عن بنيه الى غيرهم من قرابته فولى أمرهم أبو غفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف فاستولى على ملك برغواطة وأخذ بدين آبائه واشتدت شوكته وعظم أمره وكانت له فى البربر وقائع مشهورة وأيام مذكورة أشار الى شئ منها سعيد بن هشام المصمودى فى أبيات منها قوله

وهذى أمة هلكوا وضلوا * وعاروا لاسقوا ماء معينا
يقولون النبى أبو غفير * فاخزى الله أم الكاذبينا
سيعلم أهل تامسنا اذا ما * أتوا يوم القيامة مقطعينا
هنالك يونس وبنو أبيه * يقودون البرابر حائرينا

واتخذ أبو غفير من الزوجات أربعا وأربعين لانهم يبيحون فى ديانتهم الخسيسة أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء وكان له من الولد مثل ذلك أو أكثر وهلك أواخر المائة الثالثة لتسع وعشرين سنة من ملكه ثم ولى بعده ابنه أبو الانصار عبد الله بن أبى غفير فاقتفى سننه وكان كبير الدعوة مهيبا عند ملوك عصره يهادونه ويدافعونه بالمواصلة وكان يلبس الملحفة والسراويل ويلبس المخيط من الثياب ولا يعتم أحد فى بلاده الا الغرباء وكان حافظا للجار وفيا بالعهد وتوفى سنة احدى وأربعين وثلاثمائة لاربع وأربعين سنة من ملكه ودفن بتاسلاخت وبها قبره وولى بعده ابنه أبو منصور عيسى بن أبى الانصار وهو ابن اثنتين وعشرين سنة فسار سيرة آبائه وادعى النبوة واشتد أمره وعلا سلطانه ودانت له قبائل المغرب (قال زمور بن صالح) كان عسكره يناهز الثلاثة آلاف من برغواطة وعشرة آلاف من سواهم وقد كان للملوك العدوتين فى غزو برغواطة هؤلاء وجهادهم آثار عظيمة من الادارسة والاموية والشيعة وغيرهم ولما زحف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى الى المغرب زحفه المشهور وأجفلت قبائل زناتة وملوكها بين يديه وانحازوا الى سبتة وأطل عليهم من جبل تطوان وعاين جمعهم الكثيف رجع عنهم الى جهاد برغواطة فأوقع بهم وقتل أميرهم أبا منصور عيسى بن أبى الانصار وبعث بسبيهم الى القيروان وذلك سنة تسع وستين وثلاثمائة ثم حاربهم أيضا جنود المنصور بن أبى عامر لما عقد لابنه عبد الملك المظفر لمولاه واضح على جهاد برغواطة فعظم أثره فيهم بالقتل والسبى ثم حاربهم أيضا بنو يفرن لما استقل بنو يعلى بن محمد بن صالح منهم بناحية سلا واقتطعوها عن عمل زيرى بن عطية المغراوى صاحب فاس وكان لابى الكمال تميم بن زيرى اليفرنى فيهم جهاد كبير حسبما تقدم التنبيه عليه وذلك أعوام العشرين وأربعمائة فغلبهم على تامسنا وولى عليها من قبله بعد ان أثخن فيهم سبيا وقتلا ثم تراجعوا من بعده الى ان جاءت دولة المرابطين ودخلوا أرض المغرب دخلتهم الثانية وفتحوا بلاد المصامدة وبلاد تادلا وتامسنا فأخبر عبد الله بن ياسين بان بساحلها قبائل برغواطة فى عدد كثير وجمع عظيم وانهم مجوس أهل ضلالة وكفر وأخبر بما تمسكوا به من ديانتهم الخبيثة وقيل له ان برغواطة قبائل كثيرة وأخلاط شتى اجتمعوا فى أول أمرهم على صالح بن طريف المتنبئ الكذاب واستمر حالهم على الضلالة والكفر الى الآن فلما سمع عبد الله بن ياسين بحال برغواطة وما هم عليه من الكفر رأى ان الواجب تقديم جهادهم على جهاد غيرهم فسار اليهم فى جيوش المرابطين والامير يومئذ على برغواطة هو أبو حفص عبد الله من ذرية أبى منصور عيسى بن أبى الانصار عبد الله بن أبى غفير محمد بن معاذ بن اليسع ابن صالح بن طريف فكانت بينه وبين عبد الله بن ياسين ملاحم عظام مات فيها من الفريقين خلق كثير وأصيب فيها عبد الله بن ياسين الجزولى مهدى المرابطين فكان فيها شهادته رحمه الله ولما حضرته الوفاة قال لهم يا معشر المرابطين انى ميت من يومى هذا لا محالة وانكم فى بلاد عدوكم فاياكم ان تجبنوا أو تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وكونوا أعوانا على الحق واخوانا فى ذات الله واياكم والتحاسد على

الرياسة فان الله يؤتي ملكه من يشاء من خلقه ويستخلف في أرضه من أراد من عباده في كلام غير هذا
وتوفي عبد الله بن ياسين عشية ذلك اليوم وهو يوم الاحد الرابع والعشرين من جمادى الاولى سنة
احدى وخمسين وأربعمائة ودفن بموضع يعرف بكريفلة وبنى على قبره مسجدا وهو مشهور به الى الآن
وكان عبد الله بن ياسين رحمه الله شديد الورع في المطعم والمشرب انما يتعيش من لحوم الصيد ونحوها
لم يأكل شيأ من لحوم صنهاجة ولا من ألبانها مدة اقامته فيهم وكان مع ذلك كثير النكاح يتزوج
في كل شهر عددا من النساء ثم يطلقهن ولا يسمع بامرأة جميلة الا خطبها ومن حسن سياسته انه أقام
في صنهاجة السنة والجماعة حتى انه ألزمهم ان من فاتته صلاة في جماعة ضرب عشرين سوطا ومن
فاتته ركعة منها ضرب خمسة أسواط ومن كراماته ان المرابطين خرجوا معه في بعض غزواته ببلاد
السودان فنفد ما معهم من الماء حتى أشرفوا على الهلاك فقام عبد الله فتيمم وصلى ركعتين ودعا الله تعالى
وأمن المرابطون على دعائه فلما فرغ من الدعاء قال لهم احفروا تحت مصلاي هذا فحفروا فصادفوا الماء
على نحو شبر من الارض عذبا باردا فشربوا واستقوا وملئوا أوعيتهم ومن تقواه وورعه أنه لم يزل صائما
من يوم دخل بلاد صنهاجة الى ان توفي رحمه الله واستمر الامير أبو بكر بن عمر على رياسته وجددت له
البيعة بعد وفاة عبد الله بن ياسين فكان أول ما فعله بعد تجهيزه اياه ودفنه ان زحف الى برغواطة
مصمما في حربهم متوكلا على الله في جهادهم فأثخن فيهم قتلا وسبيا حتى تفرقوا في المكامن والغياض
واستأصل شأفتهم وأسلم الباقون اسلاما جديدا ومحى أبو بكر بن عمر أثر دعوتهم من المغرب وجمع غنائمهم
وقسمها بين المرابطين وعاد الى مدينة أغمات

﴿غزو أبي بكر بن عمر بلاد المغرب سوى ما تقدم وفتحه اياها﴾

لما استقر الامير أبو بكر بن عمر باغمات أقام بها الى صفر من سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة وخرج غازيا
بلاد المغرب في أمم لا تحصى من صنهاجة وجزولة والمصامدة ففتح جبال فازاز وسائر بلاد زناتة وفتح مدائن
مكناسة ثم نزل على مدينة لواتة فحاصرها حتى اقتحمها عنوة بالسيف وقتل بها خلقا كثيرا من بني يفرن
وخربها فلم تعمر بعد الى الآن وكان تخريبه اياها في آخر يوم من ربيع الثاني من السنة المذكورة ثم
رجع الى مدينة اغمات

﴿عود أبي بكر بن عمر الى بلاد الصحراء والسبب في ذلك﴾

كان الامير أبو بكر بن عمر اللمتوني قد تزوج زينب بنت اسحق النفزاوية وكانت بارعة الجمال والحسن
كما قلناه وكانت مع ذلك حازمة لبيبة ذات عقل رصين ورأي متين ومعرفة بادارة الامور حتى كان يقال
لها الساحرة فأقام الامير أبو بكر عندها باغمات نحو ثلاثة أشهر ثم ورد عليه رسول من بلاد القبلة فأخبره
باختلال أمر الصحراء ووقوع الخلاف بين أهلها وكان الامير أبو بكر رجلا متورعا فعظم عليه أن يقتل
المسلمون بعضهم بعضا وهو قادر على كفهم ولم يرانه في سعة من ذلك وهو متولي أمرهم ومسؤل عنهم
فعزم على الخروج الى بلاد الصحراء ليصلح أمرها ويقيم رسم الجهاد بها ولما عزم على السفر طلق امرأته
زينب وقال لها عند فراقه اياها يا زينب اني ذاهب الى الصحراء وأنت امرأة جميلة بضة لا طاقة لك على
حرارتها واني مطلقك فاذا انقضت عدتك فانكحي ابن عمي يوسف بن تاشفين فهو خليفتي على بلاد المغرب
فطلقها ثم سافر عن اغمات وجعل طريقه على بلاد تادلا حتى أتى سجلماسة فدخلها وأقام بها أياما حتى
أصلح أحوالها ثم سافر الى الصحراء ﴿ونقل ابن خلكان﴾ عن كتاب المعرب عن سيرة ملوك المغرب في
سبب رجوع الامير أبي بكر بن عمر الى الصحراء ما مثاله قال كان أبو بكر بن عمر رجلا ساذجا خير الطباع
مؤثرا لبلاده على بلاد المغرب غير ميال الى الرفاهية وكانت ولاة المغرب من زناتة ضعفاء لم يقاوموا الملثمين

فأخذوا البلاد من أيديهم من باب تلمسان الى ساحل البحر المحيط فلما حصلت البلاد لابي بكر بن عمر سمع ان عجوزا في الصحراء ذهبت لها ناقة في غداة فبكت وقالت ضيعنا أبو بكر بن عمر بدخوله الى بلاد المغرب فحمله ذلك على ان استخلف على بلاد المغرب رجلا من أصحابه اسمه يوسف بن تاشفين ورجع الى بلاده الجنوبية اه وكان سفر أبو بكر بن عمر الى الصحراء في ذى القعدة سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ولما وصل اليها أصلح شأنها ورتب أحوالها وجمع جيشا كثيفا وغزا به بلاد السودان فاستولى منها على نحو تسعين مرحلة وكان يوسف بن تاشفين قد استفحل أمره أيضا بالمغرب واستولى على أكثر بلاده فلما سمع الامير أبو بكر بن عمر بما آل اليه أمر يوسف بن تاشفين وما منحه الله من النصر أقبل من الصحراء ليختبر أحواله ويقال انه كان مضمر العزله وتولية غيره فأحس يوسف بذلك فشاور زوجته زينب بنت اسحق وكان قد تزوجها بعد أبي بكر بن عمر فقالت له ان ابن عمك متورع عن سفك الدماء فاذا لقيته فاترك ما كان يعهده منك من الادب والتواضع معه وأظهر أثر الترفع والاستبداد حتى كأنك مساوله ثم لاطفه مع ذلك بالهدايا من الاموال والخلع وسائر طرف المغرب واستكثر من ذلك فانه بارض صحراء وكل ماجلب اليه من هنا فهو مستطرف لديه فلما قرب أبو بكر بن عمر من أعمال المغرب خرج اليه يوسف بن تاشفين فلقيه على بعد وسلم عليه وهو راكب سلاما مختصرا ولم ينزل له ولا تأدب معه الادب المعتاد فنظر أبو بكر الى كثرة جيوشه فقال له يا يوسف ما تصنع بهذه الجيوش قال أستعين بها على من خالفني فارتاب أبو بكر به ثم نظر الى ألف بعير قد أقبلت موقرة فقال ما هذه الابل الموقرة قال أيها الامير اني قد جئتك بكل ما معي من مال وأثاث وطعام وأدام لتستعين به على بلاد الصحراء فازداد أبو بكر تعرفا من حاله وعلم انه لا يتخلى له عن الامر فقال له يا ابن عم انزل أوصيك فنزلا معا وجلسا فقال أبو بكر اني قد وليتك هذا الامر واني مسؤل عنه فاتق الله تعالى في المسلمين واعتقني واعتق نفسك من النار ولا تضيع من أمور رعيتك شيأ فانك مسؤل عنه والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك وهو خليفتي عليك وعليهم ثم ودعه وانصرف الى الصحراء فأقام بها مواظبا على الجهاد في كفار السودان الى ان استشهد من سهم مسموم أصابه في شعبان سنة ثمانين وأربعمائة بعد ان استقام له أمر الصحراء كافة الى جبال الذهب من بلاد السودان والله غالب على أمره

﴿الخبر عن دولة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني﴾

لما عزم الامير أبو بكر بن عمر على السفر الى بلاد الصحراء دعا ابن عمه يوسف بن تاشفين بن ابراهيم اللمتوني فعقد له على بلاد المغرب وفوض اليه أمره وأمره بالرجوع الى قتال من به من مغراوة وبني يفرن وسائر زناتة والبربر واتفق على تقديمه أشياخ المرابطين لما يعلمون من فضله ودينه وشجاعته ونجدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته فعاد يوسف من سجلماسة بنصف جيش المرابطين بعد ارتحال أبي بكر ابن عمر بالنصف الآخر وذلك في ذى القعدة سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ولما انتهى يوسف بن تاشفين الى ملوية ميز جيوشه فوجدها أربعين ألفا من المرابطين فاختار منهم أربعة من القواد وهم سير بن أبي بكر اللمتوني ومحمد بن تميم الكدالي وعمر بن سليمان المسوفي ومدرك التلكاني وعقد لكل قائد منهم على خمسة آلاف من قبيلته وجعلهم مقدمة بين يديه لقتال من بالمغرب من مغراوة وبني يفرن وسائر قبائل البربر القائمين به ثم سار هو في أثرهم يتقرى المغرب بلدا بلدا ويتتبع أهله قبيلة قبيلة فقوم يقاتلونه ثم يظفر بهم وقوم يفرون بين يديه وقوم يلقون اليه السلم ويبذلون الطاعة حتى دوخ بلاد المغرب ثم سار حتى دخل مدينة اغمات ولما استقر بها تزوج زينب بنت اسحق النفزاوية التي كانت تحت أبي بكر بن عمر فكانت عنوان سعده والقائمة بملكه والمدبرة لامره والفاتحة عليه بحسن سياستها الاكثر بلاد المغرب ومن

ذلك اشارتها عليه فى أمر أبى بكر بن عمر وكيفية ملاقاته حسبما ذكرناه آنفا وهكذا كان أمرها فى كل ماتحاوله رحمها الله ﴿ ومما ﴾ يستطاب من حديثها ما حكاه ابن الاثير فى كامله وقد تكلم على يوسف بن تاشفين هذا فقال كان حسن السيرة خيرا عادلا يميل الى أهل العلم والدين يكرمهم ويحكمهم فى بلاده ويصدر عن رأيهم وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام من ذلك ان ثلاثة نفر اجتمعوا فتمنى أحدهم ألف دينار يتجر بها وتمنى الآخر عملا يعمل فيه لامير المسلمين وتمنى الآخر زوجته وكانت من أحسن النساء ولها الحكم فى بلاده فبلغه الخبر فأحضرهم وأعطى متمنى المال ألف دينار واستعمل الآخر وقال للذى تمنى زوجته ياجاهل ماحملك على هذا الذى لاتصل اليه ثم أرسله الى زوجته فتركته فى خيمة ثلاثة أيام ثم أمرت بان يحمل اليه فى كل يوم طعام واحد ثم أحضرته وقالت له ما أكلت فى هذه الثلاثة الايام قال طعاما واحدا فقالت له كل النساء شئ واحد وأمرت له بمال وكسوة وسرحته الى حال سبيله وكانت وفاتها سنة أربع وستين وأربعمائة

﴿ بناء مدينة مراكش ﴾

لما دخلت سنة أربع وخمسين وأربعمائة كان أمر يوسف بن تاشفين قد استفحل بالمغرب جدا ورسخت قدمه فى الملك وعظم صيته فسمت همته الى بناء مدينة يأوى اليها بحشمه وجنده وتكون حصنا له ولارباب دولته فاشترى موضع مدينة مراكش ممن كان يملكه من المصامدة ﴿ قال صاحب المعرب ﴾ كان ملكا لعجوز منهم ثم نزل الموضع المذكور بخيام الشعر وبنى به مسجد الصلاته وقصبة صغيرة لاختزان ماله وسلاحه ولم يبن على ذلك سورا ﴿ وقال أبو الخطاب بن دحية فى كتاب النبراس ﴾ ان موضع مدينة مراكش كان مزرعة لاهل نفيس فاشتراه يوسف منهم بماله الذى خرج به من الصحراء ﴿ وفى كتاب المعرب ﴾ ان يوسف بن تاشفين اختط مدينة مراكش بموضع كان يسمى بذلك الاسم ومعناه بلغة المصامدة امش مسرعا وكان ذلك الموضع مكمنا للصوص فكان المارون فيه يقولون لرفقائهم تلك الكلمة فعرف الموضع بها وضبط هذه الكلمة بضم الميم وفتح الراء المشددة بعدها ألف وبعد الالف كاف مكسورة ثم شين معجمة ويقال كان فى موضعها قرية صغيرة فى غابة من الشجر وبها قوم من البربر فاختطها يوسف وبنى بها القصور والمساكن الانيقة وهى فى مرج فسيح وحولها جبال على فراسخ منها وبالقرب منها جبل لايزال عليه الثلج وهو الذى يعدل مزاجها وحرها ﴿ وقال ابن خلدون ﴾ اتخذ يوسف بن تاشفين مدينة مراكش لنزوله ونزول عسكره وللتمرس بقبائل المصامدة المقيمة بمواطنهم منها فى جبل درن اذلم يكن فى قبائل المغرب أشد منهم قوة ولا أكثر جمعا ﴿ وفى القرطاس ﴾ لما شرع يوسف ابن تاشفين فى بناء مسجد مراكش كان يحتزم ويعمل فى الطين والبناء بيده مع الخدمة تواضعا منه لله تعالى قال والذى بناه يوسف من ذلك هو الموضع المعروف الآن بسور الحجر من مدينة مراكش جوفا من جامع الكتبيين منها ويعرف اليوم بالسجينة ولم يكن بالموضع ماء فحفر الناس آبارا فظهر لهم الماء على قرب فاستوطنوها وبنوابها قالوا ولم تزل مدينة مراكش لاسور لها الى ان توفى يوسف بن تاشفين رحمه الله وولى بعده ابنه على بن يوسف ومضى معظم دولته فأدار عليها السور سنة ست وعشرين وخمسمائة يقال كان ذلك باشارة القاضى أبى الوليد محمد بن رشد الفقيه المشهور فانه كان قدم على السلطان بمراكش فأشار عليه بذلك عند مانبغ محمد بن تومرت مهدى الموحدين بجبال المصامدة وكانت مدة البناء ثمانية أشهر وكان الانفاق على السور سبعين ألف دينار وبنى على بن يوسف أيضا الجامع الاعظم المنسوب اليه الى اليوم والمنار الذى عليه وأنفق عليه ستين ألف دينار أخرى ورأيت فى كتاب ابن عبد العظيم الازمورى الموضوع فى مناقب بنى امغار رضى الله عنهم ان أمير المسلمين على بن يوسف اللمتونى لما عزم على ادارة السور على مراكش شاور الفقهاء وأهل الخبر فى ذلك فمنهم من ثبطه ومنهم

كذا ضبطها صاحب كشف الظنون الامام القسطنطينى رحمه الله

من ندبه اليه وكان من جملة من ندبه القاضى أبو الوليد بن رشد ثم شاور أبا عبد الله محمد بن اسحق المعروف بامغار صاحب عين الفطر فأشار ببنائه و بعث له من ماله الحلال وأمره أن يجعله فى صندوق صائر البناء و يتولى الانفاق فى ذلك رجل فاضل فقبل السلطان اشارته وعمل برأيه فسهل الله أمر البناء ثم لما جاءت دولة الموحدين وكان منهم يعقوب المنصور الشهير الذكر اعتنى بمدينة مراكش واحتفل فى تشييدها وبالغ فى تنميق مساجدها وتجديد مصانعها ومعاهدها على ما نذكر البعض منه فى محله ان شاء الله ولم تزل مراكش دار مملكة المرابطين ثم الموحدين من بعدهم سائر أيامهم ثم لما جاءت دولة بنى مرين من بعدهم اتخذوا كرسى مملكتهم بمدينة فاس وبنوا بها المدينة البيضاء ثم جاءت الدولة السعدية من بعدهم فنقلوا الكرسى الى مراكش وبنوا بها قصر البديع المشهور ثم جاءت الدولة الشريفة العلوية فاتخذ المولى اسمعيل بن الشريف كرسى ملكه بمكناسة الزيتون واحتفل فى بنائها احتفالا عظيما على ما نذكره ان شاء الله ثم لما كانت دولة المولى محمد بن عبد الله رد كرسى الملك الى مراكش و بنى بها قصوره ومصانعه واستمرت كرسيا لمملكتهم الى الآن وفضل مراكش أشهر من أن يذكر لا سيما ما اشتملت عليه من مزارات الاولياء ومدافن الصلحاء الكبار والائمة الاخيار حتى قال الوزير ابن الخطيب فى مقامات البلدان عند ذكره مدينة مراكش هى تربة الولى وحضرة الملك الاولى وعبر عنها أبو العباس المقرى فى نفح الطيب ببغداد المغرب حرسها الله وصانها من ريب الزمان وطوارق الحدثان

﴿فتح مدينة فاس وغيرها من سائر بلاد المغرب﴾

وفى سنة أربع وخمسين وأربعمائة المذكورة جند يوسف بن تاشفين الاجناد واستكثر القواد وفتح كثيرا من البلاد واتخذ الطبول والبنود ورتب العمال وكتب العهود وجعل فى جيشه الاغزاز والرماة كل ذلك ارهابا لقبائل المغرب فكمل له من الجيش فى تلك السنة أكثر من مائة ألف فارس من قبائل صنهاجة وجزولة والمصامدة وزناتة والاغزاز والرماة فخرج بهم من حضرة مراكش قاصدا مدينة فاس فتلقته قبائلها من زواغة ولماية ولواتة وصدينة وسدارتة ومغيلة وبهلولة ومديونة وغيرهم فى خلق عظيم فقاتلوه فكانت بينه وبينهم ملاحم عظام انهزم مواقفوها من بين يديه وانحصر وا بمدينة صدينة فدخلها عليهم بالسيف عنوة فهدم أسوارها وقتل بها ما يزيد على أربعة آلاف ثم رحل الى فاس فنازلها بعد ان فتح جميع أحوازها وذلك فى آخر سنة أربع وخمسين وأربعمائة ﴿وقال ابن خلدون﴾ ان يوسف بن تاشفين نازل أولا قلعة فازاز و بها مهدى بن تولى اليحفشى وبنو يحفش بطن من زناتة وكان أبوه تولى صاحب تلك القلعة ووليها هو من بعده فنازله يوسف بن تاشفين ثم استجاش به على فاس مهدى بن يوسف الكزنائى صاحب مكناسة لانه كان عدو المعنصر المغراوى صاحب فاس فزحف فى عساكر المرابطين الى فاس وجمع اليه معنصر ففض جموعه اه والله أعلم ثم أقام يوسف على فاس أياما فظفر بعاملها بكار بن ابراهيم فقتله وارتحل عنها الى مدينة صفروا فدخلها من يومه عنوة وقتل ملوكها أولاد مسعود بن وانودين المغراوى صاحب سجلماسة وكانوا قد استولوا عليها ثم رجع يوسف الى فاس فحاصرها حتى فتحها وهو الفتح الاول وذلك سنة خمس وخمسين وأربعمائة فأقام بها أياما واستعمل عليها عاملا من لمتونة وخرج الى بلاد غمارة ففتح الكثير منها حتى أشرف على طنجة وبها يومئذ الحاجب سكوت البرغواطى من موالى بنى حمود ثم رجع الى منازلة قلعة فازاز فخالفه بنو معنصر بن حماد المغراوى الى فاس فدخلوها وقتلوا عامل يوسف الذى كان بها وكان مهدى بن يوسف الكزنائى صاحب بلاد مكناسة قد بايع يوسف ابن تاشفين ودخل فى طاعة المرابطين فاقره يوسف على عمله وأمره أن يخرج بين يديه بجيشه لفتح بلاد المغرب فجمع مهدى بن يوسف جيشه وخرج من مدينة عوسجة يريد الاجتماع بيوسف بن تاشفين وهو محاصر لقلعة فازاز فسمع بذلك تميم بن معنصر المغراوى صاحب فاس فعاجله فى انجاد مغراوة وقبائل زناتة

وأدركه ببعض الطريق وناجزه الحرب ففض جموعه وقتله و بعث برأسه الى الحاجب سكوت صاحب سبتة وطنجة ولما قتل مهدي بن يوسف بعث أهل مدائن مكناسة الى ابن تاشفين بالخبر وبذلوا له الطاعة فملك بلادهم ثم توالت عساكر المرابطين على تميم بن معنصر بالغارات والنهب واشتد عليه الحصار وعدمت الاقوات بفاس فلما رأى ما نزل به من المرابطين جمع مغراوة و بني يفرن وخرج اليهم لاحدى الراحتين فكانت عليه الهزيمة فقتل تميم وجماعة من عشيرته وتقدم مكانه بفاس القاسم بن محمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم بن موسى بن أبي العافية المكناسي فجمع قبائل زناتة وخرج بهم الى المرابطين فالتقى معهم على وادي صيفير فكانت بينهم حرب شديدة انهزم فيها المرابطون وقتل جماعة من فرسانهم واتصل الخبر بيوسف بن تاشفين وهو على قلعة فازاز فارتحل عنها وخلف جيشا من المرابطين لحصارها فاقاموا عليها تسع سنين ثم دخلوها صلحا سنة خمس وستين وأربعمائة ولما رحل يوسف عن قلعة فازاز وذلك سنة ست وخمسين سار الى بني مراسن وأميرهم يومئذ يعلى بن يوسف فغزاهم وقتل منهم خلقا وفتح بلادهم ثم سار الى بلاد فندلاوة فغزاها وفتح جميع تلك الجهات ثم سار منها الى بلاد ورغة ففتحها وذلك في سنة ثمان وخمسين وأربعمائة وفي سنة ستين فتح جميع بلاد غمارة وجبالها من الريف الى طنجة وفي سنة اثنتين وستين أقبل الى فاس فنزل عليها بجميع جيوشه بعد ان فرغ من جميع بلاد المغرب سوى سبتة وشدد الحصار على فاس حتى دخلها عنوة بالسيف فقتل بها من مغراوة و بني يفرن ومكناسة وغيرهم خلقا كثيرا حتى امتلأت أسواق المدينة وشوارعها بالقتلى وقتل منهم بجامع القرويين و جامع الاندلس ما يزيد على ثلاثة آلاف وفر من بقي منهم الى احواز تلمسان وهذا هو الفتح الثاني لمدينة فاس وكان يوم الخميس ثاني جمادى الآخرة سنة اثنتين وستين وأربعمائة وفي هذا الخبر بعض مخالفة لما قدمناه في أخبار مغراوة وذلك نقلناه عن ابن خلدون وهذا عن ابن أبي زرع وربك أعلم بمن هو أهدى سبيلا فلما دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس أمر بهدم الاسوار التي كانت فاصلة بين المدينتين عدوة القرويين وعدوة الاندلس وصيرهما مصرا واحدا وحصنها وأمر ببنيان المساجد في شوارعها وأزقتها وأي زقاق لم يجد فيه مسجدا عاقب أهله وأمر ببناء الحمامات والفنادق والارحاء وأصلح بناءها ورتب أسواقها وأقام بها الى صفر سنة ثلاث وستين وأربعمائة ثم خرج الى بلاد ملوية ففتح حصون وطاط وفي سنة أربع وستين بعدها استدعى يوسف أمراء المغرب وأشياخ القبائل من زناتة وغمارة والمصامدة وسائر قبائل البربر فقدموا عليه وبايعوه وكساهم ووصلهم بالاموال ثم خرج للطواف على أعمال المغرب وتفقد أحوال الرعية والنظر في سيرة ولاته وعماله فيها وهم في صحبته فصلح على يده الكثير من أمور الناس وفي سنة خمس وستين بعدها غزا يوسف مدينة الدمنة من بلاد طنجة فدخلها عنوة وفتح جبل علودان وفي سنة سبع وستين وأربعمائة فتح يوسف جبال غمائة و بني مكود و بني رهينة وقتل منهم خلقا كثيرا وفيها فرق عماله على بلاد المغرب فولى سير بن أبي بكر على مدائن مكناسة وبلاد مكلاتة وفازاز وولى عمر بن سليمان على فاس وأحوازها وداود بن عائشة على سجلماسة ودرعة وولى ابنه تميم بن يوسف على مدينة مراكش واغمات وبلاد السوس والمصامدة وتادلا وتامسنا وصفا ملك المغرب ليوسف بن تاشفين سوى سبتة وطنجة وكان من خبرهما ما نذكره

﴿فتح سبتة وطنجة وما ترتب عليه من الجهاد بالاندلس﴾

كانت سبتة وطنجة لبني حمود الادريسيين من لدن دولة الامويين بالاندلس ولما انقرضت دولتهم وخلفهم بنو حمود المذكورون بها استنابوا على سبتة وطنجة من وثقوا به من مواليهم الصقالبة ولم يزل أمر المدينتين الى نظر هؤلاء النواب واحدا بعد واحد الى ان استقل بهما الحاجب سكوت البرغواطي وكان عبد الشيخ حداد من موالي الحموديين اشتراه من سبي برغواطة في بعض أيام جهادهم ثم صار الى على

ابن جود فاخذت النجابة بضبعيه الى ان استقل بالامر واقتعد كرسى عملهم بطنجة وسبتة وأطاعته قبائل غمارة واتصلت أيام ولايته الى ان كانت دولة المرابطين وتغلب يوسف بن تاشفين على بلاد المغرب ونازل بلاد غمارة فدعا الحاجب سكوت الى مظاهرته عليهم فهم بالاجلاب معه ومظاهرته على عدوه ثم ثناه عن ذلك ابنه الفائل الرأى فلما فرغ يوسف بن تاشفين من أهل الدمنة وانقاد المغرب لطاعته صرف عزمه الى الحاجب سكوت وكان المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية قد كتب الى يوسف بن تاشفين يستدعيه للجواز برسم الجهاد ونصر البلاد فأجابه يوسف بقوله لا يمكننى ذلك الا اذا ملكت طنجة وسبتة فراجعه ابن عباد يشير عليه بان يسير هو اليها بعساكره فى البر فينازلها و يبعث ابن عباد قطائعه فى البحر فينازلوها أيضا حتى يتملكها فأخذ يوسف فى محاولة ذلك وصرف عزمه اليه ثم دخلت سنة سبعين وأربعمائة فجهز اليها قائده صالح بن عمران فى اثنى عشر ألف فارس من المرابطين وعشرين ألفا من سائر قبائل المغرب فلما قربوا من طنجة برز اليهم الحاجب سكوت بجموعه وهو شيخ كبير قد ناهز التسعين سنة وقال والله لا يسمع أهل سبتة طبول اللتونى وأنا حى أبدا فالتقوا الجمعان بوادى منى من أحواز طنجة والتحم القتال فقتل سكوت وفضت جموعه وسار المرابطون الى طنجة فدخلوها واستولوا عليها ولحق ضياء الدولة يحيى بن سكوت بسبتة فاعتصم بها وكتب القائد صالح بن عمران بالفتح الى يوسف وفى سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة بعث يوسف بن تاشفين قائده مزدلى بن تيلكان اللتونى لغزو تلمسان والمغرب الاوسط فسار اليها فى عشرين ألفا من المرابطين وكان بتلمسان يومئذ العباس بن بختى من ولد يعلى بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر المغراوى فدوخوا المغرب الاوسط وتقروا بلاد زناتة وظفروا بيعلى ابن الامير العباس بن بختى فقتلوه وانكفأوا راجعين الى يوسف فألفوه بمراكش ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين فيها غير يوسف بن تاشفين السكة فى جميع عمله وكتب عليها اسمه وفيها فتح مدينة آكرسيف ومدينة مليلة وجميع بلاد الريف وفتح مدينة نكور وخربها فلم تعمر بعد ثم دخلت سنة أربع وسبعين وأربعمائة فيها زحف يوسف بن تاشفين الى مدينة وجدة ففتحها وفتح بلاد بنى يزناسن وما والاها ثم سار الى تلمسان ففتحها واستلحم من كان بها من مغراوة وقتل أميرها العباس بن بختى المغراوى وأنزل بها عامله محمد بن تينغمر المسوفى فى عساكر المرابطين فصارت ثغر المملكته واختط بها مدينة تاكرارت بمكان محلته وهو اسم المحلة بلسان البربر ثم افتتح مدينة تنس ووهران وجبل وانشريس وجميع أعمال شلف الى الجزائر وانكفأ راجعا الى المغرب فدخل مراكش فى ربيع الآخر سنة خمس وسبعين وأربعمائة ثم ورد عليه بها كتاب المعتمد بن عباد يعلمه بحال بلاد الاندلس وما آل اليه أمرها من تغلب العدو على أكثر ثغورها ويسأله النصر والاعانة فاجابه يوسف بقوله اذا فتح الله على سبتة اتصلت بكم وبذلت جهدى فى جهاد العدو وكان الفنش قد تحرك فى هذه السنة فى جيوش لا تحصى من الافرنج والبشكنس والجلالقة وغيرهم فشق بلاد الاندلس شقا يقف على كل مدينة منها فيفسد ويخرب ويقتل ويسبى ثم يرتحل الى غيرها ونزل على اشبيلية فاقام عليها ثلاثة أيام فافسد وخرب وكذلك فعل فى شدونة وأحوازها وخرب بشرق الاندلس قرى كثيرة ثم سار حتى وصل الى جزيرة طريف فادخل قوائم فرسه فى البحر وقال هذا آخر بلاد الاندلس قد وطئته ثم رجع الى مدينة سرقسطة فنزل عليها وحاصرها وحلف أن لا يرتحل عنها حتى يدخلها أو يحول الموت دونها وأراد ان يقدمها بالفتح على غيرها فبذل اليه أميرها المستعين بن هود مالا عظيما فلم يقبله منه وقال المال والبلاد لى وبعث الى كل قاعدة من قواعد الاندلس جيشا لحصارها والتضييق عليها ثم ملك مدينة طليطلة من يد صاحبها القادر ابن ذى النون سنة سبع وسبعين وأربعمائة فكان ذلك من أقوى الاسباب المحركة لعزائم المسلمين بالاندلس والمغرب على الجهاد

(الخبر

﴿الخبر عن الغزوة الكبرى بالزلاقة من أرض الاندلس﴾

لما انقرضت دولة بني أمية بالاندلس صدر المائة الخامسة بعد نزاع بين أعياصها شديد وقتال منهم عريض مديد وخلفتها الدولة الحمودية فلم يطل أمدها حتى اقتسمت رؤساء الاندلس ممالكها وتوزعوا أعمالها وصارت الحال الى ما قال ابن الخطيب

حتى اذا سلك الخلافة انتثر * وذهب العين جميعا والاثر

قام بكل بقعة مليك * وصاح فوق غصن ديك

فوجد العدو السبيل الى الاستيلاء على ثغور المسلمين وانتهاز الفرصة فيها بالتضريب بين ملوكها واغراء بعضهم ببعض وكان منهم ابن عباد باشبيلية وابن الافطس ببطليوس وابن ذي النون بطليطلة وابن هود بسرقسطة ومجاهد العامري بدانية وغير هؤلاء وكلهم يداري الطاغية ويتقيه بالجزية الى ان كان من أمر الادفونش ما كان من تخريب بلاد المسلمين واستيلائه على طليطلة بعد حصاره اياها سبع سنين ثم حصاره سرقسطة فلما رأى رؤساء الاندلس ما نزل بهم من مضايقة عدو الدين واستطالته على ثغور المسلمين أجمع رأيهم على اجازة يوسف بن تاشفين فكاتبه أهل الاندلس كافة من الخاصة والعلماء يستصرخونه في تنفيس العدو عن مخنقهم ويكونوا معه يدا واحدة عليه فلما تواترت رسلهم وكتبهم عليه بعث ابنه المعز بن يوسف في عساكر المرابطين الى سبتة فرضة المجاز فنازلها برا وأحاطت بها أساطيل ابن عباد بحرا فاقتحموها عنوة في ربيع الآخر سنة سبع وسبعين وأربعمائة وقبض على صاحبها ضياء الدولة يحيى بن سكوت البرغواطي وجيء به الى المعز أسيرا فقتله صبرا وبعث بكتاب الفتح الى أبيه وهو بفاس ينظر في أمر الجهاد ويستعد له ففرح يوسف بفتح سبتة وخرج من حينه قاصدا نحوها ليعبر منها الى الاندلس ولما سمع المعتمد بن عباد بفتح سبتة ركب البحر الى المغرب لاستنفار يوسف الى الجهاد فلقيه مقبلا ببلاد طنجة بموضع يعرف ببليطة على ثلاث مراحل من سبتة ﴿وقال ابن خلدون﴾ لقيه بفاس فأخبره بحال الاندلس وما هي عليه من الضعف وشدة الخوف والاضطراب وما يلقاه المسلمون من عدوهم من القتل والاسر والحصار كل يوم فقال له يوسف ارجع الى بلادك وخذ في أمرك فاني على أثرك ورجع ابن عباد الى الاندلس ونزل ليوسف عن الجزيرة الخضراء لتكون رباطا لجهاده ودخل يوسف سبتة فنظر في أمرها وأصلح سفنها وقدمت عليه بها جنود الله من المغرب والصحراء والقبلة والزاب فشرع في اجازتها الى الاندلس ولما تكاملت بساحل الخضراء عبر هو في أثرها في موكب عظيم من قواد المرابطين وانجادهم وصلحائهم فلما استوى على ظهر السفينة رفع يديه وقال اللهم ان كنت تعلم ان في جوازنا هذا اصلاحا للمسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره وان كان غير ذلك فصعبه حتى لا نعبره فسهل الله عليهم العبور في أسرع وقت وكان ذلك يوم الخميس عند الزوال منتصف ربيع الاول سنة تسع وسبعين وأربعمائة ونزل بالخضراء فصلى بها الظهر من يومه ذلك ولقيه المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية وابن الافطس صاحب بطليوس وغيرهما من ملوك الاندلس واتصل الخبر بالادفونش وهو محاصر لسرقسطة فارتحل عنها وقصد نحو أمير المسلمين وبعث الى ابن ردمير والبرهانس وغيرهما من كبار النصرانية واستنفر أهل قشتالة وجليقية وسائر المجاورين له من أمم النصرانية فاجتمع له منهم ما يفوت الحصر وصمد الى ابن تاشفين والمسلمين هكذا وقع مساق هذه الغزوة عند ابن خلدون وابن أبي زرع وغيرهما وساقها ابن الاثير وابن خلكان وابن عبد المنعم الحميري مساقا غير هذا ولنذكر بعض ما نقلوه من ذلك فنقول لما ملك يوسف بن تاشفين المغرب وبنى مراكش وتلمسان الجديدة وأطاعته البربر مع شكيمتها الشديدة وتمهدت له الاقطار العريضة المديدة تاقت نفسه الى العبور لجزيرة الاندلس فهم بذلك وأخذ في انشاء السفن والمراكب ليعبر فيها فلما علم بذلك ملوك الاندلس

كرهوا المسامه بجزيرتهم وأعدّواله العدّة والعدد الاانهم استهولواجعه واستصعبوا مدافعته وكرهوا أن يصبحوا بين عدوّين الفرنج عن شمالهم والملثمين عن جنوبهم وكانت الفرنج قد اشتدّت وطأتها عليهم فتغير وتنهب وربما يقع بينهم صلح على شئ معلوم كل سنة يأخذونه من المسلمين والفرنج مع ذلك ترهب جانب ملك المغرب يوسف بن تاشفين اذ كان له اسم كبير وصيت عظيم لنفاذ أمره ونقله دولة زناتة وملك المغرب اليه فى أسرع وقت مع ماظهر لابطال الملثمين ومشايخ صنهاجة فى المعارك من ضربات السيوف التى تقد الفارس والطعنات التى تنتظم الكلى فكان لهم بذلك ناموس ورعب فى قلوب المنتدبين لقتالهم وكان ملوك الاندلس يفيئون الى ظل يوسف ويحذرونه خوفا على ملكهم مهماعبراليهم وعاين بلادهم فلمارأوا عزيمته متوفرة على العبور راسل بعضهم بعضا يستنجدون آراءهم فى أمره وكان فزعهم فى ذلك الى المعتمد بن عباد لانه أشجع القوم وأكبرهم مملكة فوقع اتفاقهم على مكاتبته وقد تحققوا انه يقصدهم يسألونه الاعراض عنهم وانهم تحت طاعته فكتب عنهم كاتب من أهل الاندلس يقول أما بعد فانك ان أعرضت عنانسبت الى كرم ولم تنسب الى عجز وان أجبنا داعيك نسبنا الى عقل ولم ننسب الى وهن وقد اخترنا لانفسنا أجمل نسبتينا فاختر لنفسك أكرم نسبتيك فانك بالمحل الذى لا يجوزان تسبق فيه الى مكرمة وان فى استبقائك ذوى البيوت ماشئت من دوام لامرك وثبوت والسلام فلماوصله الكتاب مع تحف وهدايا وكان يوسف لا يعرف اللسان العربى لكنه كان ذكى الطبع يجيد فهم المقاصد وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية فقال له أيها الملك هذا الكتاب من ملوك الاندلس يعظمونك فيه ويعرّفونك انهم أهل دعوتك وتحت طاعتك ويلتمسون منك أن لاتجعلهم فى منزلة الاعادى فانهم مسلمون وهم من ذوى البيوتات فلا تغيربهم وكف بهم من وراءهم من الاعداء الكفار وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر فاعرض عنهم اعراضك عمن أطاعك من أهل المغرب فقال يوسف بن تاشفين لكاتبه فما ترى أنت فقال أيها الملك اعلم ان تاج الملك وبهجته وشاهده الذى لا يردبانه خليق بما حصل فى يده من الملك أن يعفواذا استعفى وأن يهب اذا استوهب وكلما وهب جزيلا كان أعظم لقدره فاذا عظم قدره تأصل ملكه واذاتأصل ملكه تشرف الناس بطاعته واذا كانت طاعته شرفاجاءه الناس ولم يتجشم المشقة اليهم وكان وارث الملك من غيراهلاك لآخرته واعلم ان بعض الملوك الاكابر والحكماء البصراء بطريق تحصيل الملك قال من جاد ساد ومن ساد قادومن قادملك البلاد فلما ألقى الكاتب هذا الكلام على السلطان يوسف فهمه وعلم صحته فقال للكاتب أجب القوم واكتب بما يجب فى ذلك واقرأ علىّ كتابك فكتب الكاتب بسم الله الرحمن الرحيم من يوسف بن تاشفين سلام عليكم ورحمة الله وبركاته تحية من سالمكم وسلم اليكم وحكمه التأييد والنصر فيمن حكم عليكم وانكم مما بايديكم من الملك فى أوسع اباحة مخصوصون منابا كرام ايثار وسماحة فاستديموا وفاءنا بوفائكم واستصلحوا اخاءنا باصلاح اخائكم والله ولىّ التوفيق لناولكم والسلام فلما فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن تاشفين بلسانه فاستحسنه وقرن به مايصلح لهم من التحف ودرق اللمط ممالا يكون الافى بلاده وأنفذ ذلك اليهم فلماوصلهم ذلك وقرؤا كتابه فرحوابه وعظموه واعتزوا بولايته وتقوّت نفوسهم على دفع الفرنج وأزمعوا ان رأوا من الفرنج مايريبهم ان يجيزوا اليه يوسف بن تاشفين ويكونوا من أعوانه عليه فتأتى ليوسف بن تاشفين برأى وزيره ماأراد من محبة أهل الاندلس له وكفاه حربهم ❊وقال ابن الاثير فى الكامل❊ كان المعتمد بن عباد أعظم ملوك الاندلس ويتملك اكبر بلادها مثل قرطبة واشبيلية وكان مع ذلك يؤدى الضريبة الى الادفونش كل سنة فلماملك الادفونش طليطلة أرسل اليه المعتمد الضريبة على عادته فردها عليه ولم يقبلها منه ثم أرسل اليه يتهدّده ويتوعده بالمسير الى قرطبة ويملكها من يده الاأن يسلم اليه جميع الحصون التى فى الجبل ويبقى السهل للمسلمين وكان الرسول فى جمع كثير نحو خمسمائة فارس فأنزله

المعتمد وفرّق أصحابه على قواد عسكره ثم أمر القوّاد أن يقتل كل منهم من عنده وأحضر الرسول فصفعه حتى برزت عيناه وسلم من الجماعة ثلاثة نفر فعادوا الى الاذفونش وأخبروه الخبر وكان متوجها الى قرطبة ليحاصرها فلما بلغه هذا الخبر رجع الى طليطلة ليجمع آلات الحصار و يستعدّ استعدادا غير الذي سبق وعاد المعتمد الى اشبيلية وأقام بها وترك قرطبة بدون مدافع يدافع عنها ❊ وقال ابن عبد المنعم الحميرى فى كتابه الروض المعطار ما ملخصه ❊ ان المعتمد بن عباد أخر فى سنة من السنين الضريبة التى كان يدفعها للاذفونش عن وقتها ثم أرسلها اليه بعد فغضب الاذفونش واشتط وطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة وأمعن فى التجنى حتى طلب ان تأتى زوجته الى الجامع الاعظم بقرطبة فتلد فيه اذ كانت حاملا وكان بالجانب الغربى من المسجد المذكور موضع كنيسة قديمة بنى المسلمون عليها المسجد فأشار عليه الاطباء والقسيسون أن تكون زوجته ساكنة قرب ولادتها بمدينة الزهراء التى بناها عبد الرحمن الناصر لدين الله وأبدع فى تشييدها وتنجيدها وتتردد المرأة مع ذلك الى الجامع المذكور حتى تكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة وكان الرسول فى ذلك يهوديا وكان وزيرا للاذفونش فامتنع ابن عباد من ذلك فراجعه اليهودى وأغلظ له فى القول ولسعه بكلمة أسفته فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودى فانزل دماغه فى حلقه وأمر به فصلب منكوسا بقرطبة ولما سكن غضبه استفتى الفقهاء عن حكم ما فعله باليهودى فبادره الفقيه محمد بن الطلاع بالرخصة فى ذلك لتعدّى الرسول حدود الرسالة الى ما استوجب به القتل اذ ليس له ذلك وقال للفقهاء انما بادرت بالفتوى خوفا ان يكسل الرجل عما عزم عليه من منابذة العدوّ وعسى الله ان يجعل فى عزيمته للمسلمين خيرا وبلغ الاذفونش ما صنعه ابن عباد فاقسم بآلهته ليغزونه باشبيلية وليحاصرنه فى قصره ثم زحف فى عسكرين أحدهما عليه والآخر على بعض قوّاده حتى نزل على ضفة النهر الاعظم باشبيلية قبالة قصر ابن عباد وفى أيام مقامه هنالك كتب الى ابن عباد زاريا عليه كثر بطول مقامى فى مجلسى هذا على الذباب واشتدّ الحر فاتحفنى من قصرك بمروحة أروّح بها على نفسى وأطرد بها الذباب عن وجهى فوقع له ابن عباد بخط يده فى ظهر الرقعة قرأت كتابك وفهمت خيلاءك واعجابك وسأنظر لك فى مراوح من جلود اللمط تروح منك لا عليك ان شاء الله فلما وصلت رسالة ابن عباد الاذفونش وقرئت عليه وفهم مقتضاها أطرق اطراق من لم يخطر له ذلك ببال وفشا فى الاندلس توقيع ابن عباد وما أظهر من العزيمة على اجازة يوسف بن تاشفين والاستظهار به على العدوّ فاستبشر الناس وفرحوا بذلك وانفتحت لهم أبواب الآمال وأما ملوك طوائف الاندلس فلما تحققوا عزم ابن عباد وانفراده برأيه فى ذلك اهتموا منه فنهم من كاتبه ومنهم من شافهه وحذروه عاقبة ذلك وقالوا له الملك عقيم والسيفان لا يجتمعان فى غمد فأجابهم ابن عباد بكلمته التى صارت مثلا وعى الجمال خير من رعى الخنازير ومعناه ان كونه مأكولا ليوسف بن تاشفين أسيرا برعى جماله فى الصحراء خير من كونه ممزقا للاذفونش أسيرا له يرعى خنازيره وقال لمن لامه يا قوم انى من أمرى على حالتين حالة يقين وحالة شك ولا بدلى من احداهما أما حالة الشك فانى ان استندت الى ابن تاشفين أو الى الاذفونش ففى الممكن أن يفى لى ويبقى على وفائه ويمكن أن لا يفعل فهذه حالة شك وأما حالة اليقين فانى ان استندت الى ابن تاشفين فانى أرضى الله وان استندت الى الاذفونش أسخطت الله فاذا كانت حالة الشك فيهما عارضة فلأى شئ أدع ما يرضى الله وآتى ما يسخطه فحينئذ أقصر أصحابه عن لومه ولما عزم ابن عباد على رأيه أمر صاحب بطليوس المتوكل على الله عمر بن الافطس وصاحب غرناطة عبد الله بن حبوس الصنهاجى أن يبعث اليه كل منهما قاضى حضرته ففعلا واستحضر قاضى الجماعة بقرطبة عبد الله بن محمد بن أدهم وكان أعقل أهل زمانه فلما اجتمع عند ابن عباد القضاة باشبيلية أضاف اليهم وزيره أبا بكر بن زيدون وعرفهم أربعتهم انهم رسله

الى يوسف بن تاشفين وأسند الى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف وترغيبه فى الجهاد وأسند الى الوزير مالا بدمنه من ابرام العقود السلطانية وكان يوسف بن تاشفين لا تزال تفد عليه وفود ثغور الاندلس مستعطفين مجهشين بالبكاء ناشدين بالله والاسلام مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته فيسمع اليهم ويصغى لقولهم وترق نفسه لهم ولما انتهت رسل الى ابن تاشفين أقبل عليهم وأكرم مثواهم وجرت بينه وبينهم مراوضات ثم انصرفوا الى مرسلهم ثم عبر يوسف البحر عبورا سهلا حتى أتى الجزيرة الخضراء فخرج اليه أهلها بما عندهم من الاقوات والضيافات وأقاموا له سوقا جلبوا اليه ما عندهم من سائر المرافق وأذنوا للغزاة فى دخول البلد والتصرف فيها فامتلأت المساجد والرحاب بالمطوّعة وتواصوا بهم خيرا هذا مساق صاحب الروض المعطار ﴿وقال ابن الاثير﴾ لما رجع المعتمد بن عباد الى اشبيلية وترك قرطبة بدون مدافع وسمع مشائخها بما جرى من قتل ابن عباد اليهودى ورأوا قوة الفرنج وضعف المسلمين واستعانة بعض ملوكهم بالفرنج على بعض اجتمعوا وقالوا هذه بلاد الاندلس قد غلب عليها الفرنج ولم يبق منها الا القليل وان استمرت الاحوال على ما نرى عادت نصرانية كما كانت وساروا الى القاضى أبى بكر عبد الله بن محمد بن أدهم فقالوا له ألا تنظر الى ما فيه المسلمون من الصغار والذلة واعطائهم الجزية بعد ان كانوا يأخذونها وقد رأينا رأيا نعرضه عليك قال ما هو قالوا نكتب الى عرب افريقية ونشترط لهم اذا وصلوا الينا قاسمناهم أموالنا وخرجنا معهم مجاهدين فى سبيل الله قال أخاف اذا وصلوا الينا ان يخربوا بلادنا كما فعلوا بافريقية ويتركوا الفرنج ويبدؤا بنا والمرابطون أصلح منهم وأقرب الينا قالوا له فكاتب يوسف بن تاشفين وأرغب اليه فى العبور الينا أو يرسل بعض قواده وبينما هم يتفاوضون اذ قدم عليهم ابن عباد وهم فى ذلك فعرض عليه القاضى ابن أدهم ما كانوا فيه فقال له ابن عباد أنت رسولى اليه فى ذلك فامتنع القاضى وانما أراد أن يبرئ نفسه من تهمة تلحقه فألح عليه المعتمد فعبر القاضى البحر الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فأبلغه الرسالة وأعلمه ما فيه المسلمون من الخوف من الاذفونش وكان أمير المسلمين يومئذ بمدينة سبتة ففى الحال أمر بعبور العساكر الى الاندلس وأرسل الى مراكش فى طلب من بقى من عساكره فأقبلت اليه يتلو بعضها بعضا فلما تكاملت عنده عبر البحر وسار فاجتمع بالمعتمد بن عباد باشبيلية وكان المعتمد قد جمع عساكره أيضا وخرج من أهل قرطبة عسكر كبير وقصده المطوّعة من سائر بلاد الاندلس ووصلت الاخبار الى الاذفونش فجمع عساكره وحشد جنوده وسار من طليطلة وكتب الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتابا كتبه له بعض غواة أدباء المسلمين يغلظ له فى القول ويصف ما معه من القوة والعدد وبالغ فى ذلك فلما وصل وقرأه يوسف أمر كاتبه أبا بكر بن القصيرة أن يجيبه وكان كاتبا مفلقا فكتب وأجاد فلما قرأه على أمير المسلمين قال هذا كتاب طويل وأحضر كتاب الاذفونش وكتب على ظهره الذى يكون ستراه وأرسله اليه فلما وقف عليه الاذفونش ارتاع له وعلم انه بلى برجل له دهاء وعزم ﴿وذكر ابن خلدون﴾ أن يوسف بن تاشفين أمر بعبور الجمال فعبر منها ما أغص الجزيرة وارتفع رغاؤها الى عنان السماء ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملا قط ولا خيلهم رأتها قط فصارت الخيل تجمح من رؤية الجمال ورغائها وكان ليوسف فى عبورها رأى مصيب فكان يحدق بها عسكره ويحضرها الحرب فكانت خيل الفرنج تجمح منها وقدم يوسف بن تاشفين بين يديه كتابا للاذفونش يعرض عليه فيه الدخول فى الاسلام أو الجزية أو الحرب كما هى السنة ومن جملة ما فى الكتاب بلغنا يا أذفونش انك دعوت الله فى الاجتماع بنا وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر عليها البحر الينا فقد عبرناه اليك وقد جمع الله تعالى فى هذه العرصة بيننا وبينك وسترى عاقبة دعائك وما دعاء الكافرين الا فى ضلال فلما سمع الاذفونش ما كتب اليه يوسف جاش بحر غيظه وزاد فى طغيانه وأقسم أن لا يبرح من موضعه حتى يلقاه (ولنرجع الى كلام صاحب الروض المعطار) قال رحمه الله فلما عبر

يوسف و جميع جيوشه البحر الى الخضراء انهض الى اشبيلية على أحسن الهيئات جيشا بعد جيش وأميرا بعد أمير وقبيلا بعد قبيل وبعث المعتمد ابنه الى لقاء يوسف وأمر عمال البلاد بجلب الاقوات والضيافات ورأى يوسف ماسره من ذلك ونشطه وتواردت الجيوش مع أمرائها على اشبيلية وخرج المعتمد الى لقاء يوسف من اشبيلية فى مائة فارس من وجوه أصحابه فلما أتى محلة يوسف ركض نحوهم وركضوا نحوه ثم برز اليه يوسف وحده والتقيا منفردين وتصافحا وتعانقا وأظهر كل منهما لصاحبه المودة والخلوص وشكرا نعم الله وتواصيا بالصبر والرحمة وبشرا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر وتضرعا الى الله فى أن يجعل ذلك خالصا لوجهه مقربا اليه وافترقا فعاد يوسف لمحلته وابن عباد الى جهته وألحق ابن عباد ما كان أعده من هدايا وتحف وضيافات أوسع بها على محلة يوسف بن تاشفين وباتوا تلك الليلة فلما أصبحوا وصلوا الصبح ركب الجميع وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدم نحو اشبيلية ففعل ورأى الناس من عزة سلطانهم ماسرهم ولم يبق من ملوك الطوائف بالاندلس الا من بادر وأعان وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف أهل كل صقع من أصقاعه رابطوا وكابدوا وكان الاذفونش لما رأى اجتماع العزائم على مناجزته علم انه عام نطاح فاستنفر الفرنجة للخروج ورفع القسيسون والرهبان والاساقفة صلبانهم ونشروا أناجيلهم فاجتمع له من الجلالقة والافرنج مالا يحصى عدده وجواسيس كل فريق تتردد من الجميع وبعث الاذفونش الى ابن عباد ان صاحبكم يوسف قد تعنى بالمجيء من بلاده وخوض البحر وأنا أكفيه العناء فيما بقي ولا أكلفكم تعبا أمضي اليكم وألقاكم فى بلادكم رفقا بكم وتوفيرا عليكم وقال لخاصته وأهل مشورته انى رأيت انى ان أمكنتهم من الدخول الى بلادى فناجزونى فيها وبين جدرها وربما كانت الدائرة على يستحكمون البلاد ويحصدون من فيها غداة واحدة ولكنى أجعل يومهم معي فى حوز بلادهم فان كانت على اكتفوا بما نالوه ولم يجعلوا الدروب وراءهم الا بعد أهبة أخرى فيكون فى ذلك صون لبلادى وجبر لمكاسرى وان كانت الدائرة عليهم كان منى فيهم وفى بلادهم ماخفت أن يكون فى وفى بلادى اذا ناجزونى فى وسطها ثم برز بالمختار من جنوده وأنجاد جموعه على باب دربه وترك بقية جموعه خلفه وقال حين نظر الى ما اختاره منهم بهؤلاء أقاتل الجن والانس وملائكة السماء فالمقلل يقول المختارون أربعون ألف دارع ولكل واحد أتباع وأما النصارى فيعجبون ممن يزعم ذلك ويرون انهم أكثر من ذلك كله واتفق الكل ان عدد المسلمين كان أقل من عدد الكفار ورأى الاذفونش فى نومه كأنه راكب فيلا وبين يديه طبل صغير وهو ينقر فيه فقص رؤياه على القسيسين فلم يعرفوا تأويلها فأحضر رجلا مسلما عالما بتفسير الرؤيا فقصها عليه فاستعفاه من تعبيرها فلم يعفه فقال تأويل هذه الرؤيا من كتاب الله تعالى وهو قوله تعالى ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل الى آخر السورة وقوله تعالى فاذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير وذلك يقتضى هلاك هذا الجيش الذى تجمعه فلما اجتمع جيشه ورأى كثرته أعجبه فأحضر ذلك المعبر وقال له بهذا الجيش ألقى اله محمد صاحب كتابكم فانصرف المعبر وقال لبعض المسلمين هذا الملك هالك وكل من معه وذكر الحديث ثلاث مهلكات وفيه واعجاب المرء بنفسه ثم خرج الاذفونش الى بلاد الاندلس وتقدم السلطان يوسف نحوه أيضا وتأخر ابن عباد لبعض مهماته ثم انزعج يقفو أثره بجيش فيه حماة الثغور ورؤساء الاندلس وجعل ابنه عبد الله على مقدمته وسار وهو ينشد متفائلا بيت سائر مجيزاله بأبيات من شعره

لابد من فرج قريب * يأتيك بالعجب العجيب
غزو عليك مبارك * سيعود بالفتح القريب
لله سعدك انه * نكس على دين الصليب
لابد من يوم يكو * ن له أخا يوم القليب

ووافت الجيوش كلها بطليوس فأناخوا بظاهرها وخرج اليهم صاحبها المتوكل عمر بن محمد بن الافطس

فلقيهم بما يجب من الضيافات والاقوات و بذل المجهود ثم جاءهم الخبر بشخوص الاذفونش اليهم ﴿ وقال ابن أبي زرع ﴾ ارتحل يوسف بن تاشفين من الخضراء قاصدا نحو الاذفونش وقدم بين يديه قائده أبا سليمان داود بن عائشة وكان بطلا من الابطال في عشرة آلاف فارس من المرابطين بعد ان قدم أمامه المعتمد بن عباد مع أمراء الاندلس وجيوشهم منهم ابن صمادح صاحب المرية وابن حبوس صاحب غرناطة وابن مسلمة صاحب الثغر الاعلى وابن ذى النون وابن الافطس وغيرهم فأمرهم يوسف ان يكونوا مع المعتمد فتكون محلة ملوك الاندلس واحدة ومحلة المرابطين أخرى فتقدم بهم ابن عباد فكانوا اذا ارتحل ابن عباد من موضع نزله يوسف بمحلته فلم يزالوا كذلك حتى نزلوا مدينة بطرطوشة فأقاموا بها ثلاثا وكتب منها يوسف الى الاذفونش يدعوه الى الاسلام أو الجزية أو الحرب وكان جواب الاذفونش ما تقدم ثم ارتحل يوسف وارتحل الاذفونش حتى نزلا معا بالقرب من بطليوس وكان نزول يوسف بموضع يعرف بالزلاقة وتقدم المعتمد فنزل ناحية أخرى تحجز بينه وبين يوسف ربوة و بين المسلمين والفرنج نهر بطليوس حاجز ايشرب منه هؤلاء وهؤلاء فأقاموا ثلاثة أيام والرسل تختلف بينهم الى ان وقع اللقاء على ماتذكره ولما ازدلف بعضهم الى بعض أذكى المعتمد عيونه في محلات الصحراويين خوفا عليهم من مكائد الاذفونش اذهم غرباء لاعلم لهم بالبلاد وجعل يتولى ذلك بنفسه حتى قيل ان الرجل من الصحراويين كان لايخرج الى طرف المحلة لقضاء أمر أو حاجة الا ويجد ابن عباد بنفسه مطيفا بالمحلة بعد ترتيب الخيل والرجال على أبواب المحلات ثم قامت الاساقفة والرهبان ورفعوا صلبانهم ونشروا أناجيلهم وتبايعوا على الموت و وعظ يوسف وابن عباد أصحابهما وقام الفقهاء والصالحون في الناس مقام الوعظ وحضوهم على الصبر والثبات وحذروهم من الفشل والفرار وجاءت الطلائع تخبران العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم وهو يوم الاربعاء فأصبح المسلمون وقد أخذوا مصافهم فكع الاذفونش ورجع الى أعمال المكر والخديعة فعاد الناس الى محلاتهم وباتوا ليلتهم ثم أصبح يوم الخميس فبعث الاذفونش الى ابن عباد يقول غدا يوم الجمعة وهو عيدكم والاحد عيدنا فليكن لقاؤنا بينهما وهو يوم السبت فعرف المعتمد بذلك السلطان يوسف وأعلمه انها حيلة منه وخديعة وانما قصده الفتك بنا يوم الجمعة فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النهار ويقال ان الاذفونش واعدهم ليوم الاثنين و بات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس كما أشار ابن عباد وبعد مضى جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي وكان في محلة ابن عباد فرحا مسرورا يقول انه رأى النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة في النوم فبشره بالفتح والموت على الشهادة في صبيحة تلك الليلة فتأهب ودعا وتضرع ودهن رأسه وتطيب وانتهى ذلك الى ابن عباد فبعث الى يوسف يخبره بها تحقيقا لما توقعه من غدر العدو الكافر ثم جاء بالليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران انهما أشرفا على محلة الاذفونش وسمعا ضوضاء الجيش وخشخشة السلاح ثم تلاحق بقية الطلائع محققين لتحرك الاذفونش ثم جاءت الجواسيس من داخل محلتهم تقول استرقنا السمع فسمعنا الاذفونش يقول لاصحابه ابن عباد مسعر هذه الحروب وهؤلاء الصحراويون وان كانوا أهل حفاظ وذوى بصائر في الحرب فهم غير عارفين بهذه البلاد وانما قادهم ابن عباد فاهجموا عليه واصبروا له فان انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده ولا أراه يصبر لكم ان صدقتموه الحملة فعند ذلك بعث ابن عباد الكاتب أبا بكر بن القصيرة الى السلطان يوسف يعرفه باقبال الاذفونش ويستحث نصرته فمضى ابن القصيرة يطوى المحلات حتى جاء يوسف بن تاشفين فعرفه بجلية الامر فقال له قل له انى سائر اليك ان شاء الله وأمر يوسف بعض قواده أن يمضى بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة النصارى فيضرمها نارا مادام الاذفونش مشتغلا مع ابن عباد وانصرف ابن القصيرة الى المعتمد فلم يصله الا وقد غشيته جنود الطاغية فصدم ابن عباد صدمة قطعت آماله ومال الاذفونش عليه بجموعه وأحاطوا به من كل جهة فهاجت الحرب وحمى

الوطيس واستحرّ القتل فى أصحاب ابن عباد وصبر صبرا لم يعهد مثله واستبطأ السلطان يوسف وهو يلاحظ طريقه وعضته الحرب واشتدّ عليه وعلى أصحابه البلاء وساءت الظنون وانكشف البعض منهم وفيهم ابنه عبد الله بن المعتمد وأثخن هو جراحات فى رأسه وبدنه وعقرت تحته فى ذلك اليوم ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قدّم له آخر وتذكر فى تلك الحالة ابناله صغيرا يكنى أبا هاشم وكان قد تركه باشبيلية عليلا فقال

أباهاشم هشمتنى الشفار * فلله صبرى لذاك الاوار
ذكرت شخيصك تحت العجاج * فلم يثننى ذكره للفرار

ثم كان أوّل من وافى ابن عباد من قوّاد يوسف بن تاشفين داود بن عائشة وكان بطلا شهما فنفس بجيئه على ابن عباد ثم أقبل يوسف بعد ذلك وطبوله قد ملأت أصواتها الجوّ فلما أبصره الاذفونش وجه حملته اليه وقصده بمعظم جنوده فبادر اليهم السلطان يوسف وصدمهم صدمة ردتهم الى مركزهم وانتظم به شمل ابن عباد واستنشق الناس ريح الظفر وتباشروا بالنصر ثم صدقوا جميعا الحملة فتزلزلت الارض من حوافر الخيل وأظلم النهار بالعجاج وخاضت الخيل فى الدماء وصبر الفريقان صبرا عظيما ثم تراجع ابن عباد الى يوسف وحمل معه حملة جاء معها النصر وتراجع المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفئتين وصدقوا الحملة فانكشف الطاغية ومرّ هاربا منهزما وقد طعن فى احدى ركبتيه طعنة بقى يخمع بها بقية عمره قالوا وكان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على فرس يومئذ أنثى يمر بين ساقات المسلمين وصفوفهم يحرّضهم ويقوّى نفوسهم على الجهاد ويحضهم على الصبر فقاتل الناس فى ذلك اليوم قتال من يطلب الشهادة ويرغب فى الموت ﴿وعلى سياق ابن خلكان﴾ ان ابن تاشفين نزل على أقل من فرسخ من عسكر العدوّ فى يوم الاربعاء وكان الموعد بالمناجزة يوم السبت فغدر الاذفونش ومكر فلما كان سحر يوم الجمعة منتصف رجب أقبلت طلائع ابن عباد والروم فى أثرها والناس على طمأنينة فبادر ابن عباد للركوب وانبث الخبر فى العساكر فماجت بأهلها ورجفت الارض وصارت الناس فوضى على غير تعبية ولا أهبة ودهمتهم خيل العدوّ فغمرت ابن عباد وحطمت ما تعرض لها وتركت الارض حصيدا خلفها وصرع ابن عباد وأصابه جرح أشواه وفرّ رؤساء الاندلس وأسلموا محلاتهم وظنوا انه وهى لا يرقع ونازلة لا تدفع وظنّ الاذفونش ان أمير المسلمين فى المنهزمين ولم يعلم ان العاقبة للمتقين فتقدّم أمير المسلمين وأحدقت به أنجاد خيله ورجاله من صنهاجة ورؤساء القبائل وقصدوا محلة الاذفونش فاقتحموها وقتلوا حاميتها وضربت الطبول وزعقت البوقات فاهتزت الارض وتجاوبت الجبال والآفاق وتراجع الروم الى محالتهم بعد ان علموا ان أمير المسلمين فيها فقصدوه فافرج لهم عنها ثم كرّ عليهم فأخرجهم منها ثم كروا عليه فأفرج لهم عنها ولم تزل الكرّات بينهم تتوالى الى ان أمر أمير المسلمين حشمه السودان فترجل منهم زهاء أربعة آلاف ودخلوا المعترك بدرق اللمط وسيوف الهند ومزاريق الزان فخالطوا الخيل وطعنوها فرمحت بفرسانها وأحجمت عن أقرانها وتلاحق الاذفونش باسود نفدت مزاريقه فاهوى ليضربه بالسيف فلصق به الاسود وقبض على عنانه وانتضى خنجرا كان متمنطقا به فاثبته فى فخذه فهتك حلق درعه وشك فخذه مع بداد سرجه وكان وقت الزوال يوم الجمعة منتصف رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة وهبت ريح النصر فأنزل الله سكينته على المسلمين ونصر دينه القويم وصدقوا الحملة على الاذفونش وأصحابه فأخرجوهم عن محلتهم فولوا ظهورهم وأعطوا اقفاءهم والسيوف تصفعهم والرماح تطعنهم الى ان لحقوا بربوة لجؤا اليها واعتصموا بها وأحدقت بهم الخيل فلما أظلم الليل انساب الاذفونش وأصحابه من الربوة وأفلتوا من بعد ما نشبت فيهم أظفار المنية واستولى المسلمون على ما كان فى محلتهم من الاثاث والآنية والمضارب والاسلحة وغير ذلك وأمر ابن عباد بضم رؤس قتلى المشركين فاجتمع من ذلك تل عظيم ﴿وقال صاحب الروض المعطار﴾ لجأ الاذفونش الى تل كان يلى محلته فى نحو خمسمائة فارس ما منهم

الامكلوم وأباد القتل والاسر من عداهم من أصحابه وعمل المسلمون من رؤسهم مآذن يؤذنون عليها والمخذول ينظر الى موضع الوقيعة ومكان الهزيمة فلا يرى الا نكالا محيطا به وباصحابه وأقبل ابن عباد على السلطان يوسف وصافحه وهنأه وشكره وأثنى عليه وشكر يوسف صبر ابن عباد ومقامه وحسن بلائه وسأله عن حاله عندما أسلمته رجاله بانهزامهم عنه فقال له هاهم هؤلاء قد حضروا بين يديك فليخبروك وكتب ابن عباد الى ابنه باشبيلية كتابا مضمونه كتابى هذا اليك من المحلة المنصورة يوم الجمعة منتصف رجب وقد أعز الله الدين ونصر المسلمين وفتح لهم الفتح المبين وهزم الكفرة المشركين وأذاقهم العذاب الاليم والخطب الجسيم فالحمد لله على ما يسره وسناه من هذه المسرة العظيمة والنعمة الجسيمة فى تشتيت شمل الاذفونش والاحتواء على جميع عساكره أصلاه الله نكال الجحيم ولا أعدمه الوبال العظيم بعد اتيان النهب على محلاته واستئصال القتل بجميع أبطاله وحماته حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها فلله الحمد على جميل صنعه ولم يصبنى والحمد لله الا جراحات يسيرة آلمت لكنها فرجت بعد ذلك فلله الحمد والمنة والسلام واستشهد فى ذلك اليوم جماعة من الفضلاء والعلماء مثل ابن رميلة صاحب الرؤيا المذكورة وقاضى مراكش أبى مروان عبد الملك المصمودى وغيرهما رحم الله الجميع ﴿وحكى﴾ ان موضع المعترك كان على اتساعه ما فيه موضع قدم الا على ميت أو دم وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام حتى جمعت الغنائم واستؤذن فى ذلك السلطان يوسف فعف عنها وآثر بها ملوك الاندلس وعرفهم ان مقصوده الجهاد والاجر العظيم وما عند الله فى ذلك من الثواب المقيم فلما رأت ملوك الاندلس ايثار يوسف لهم بالغنائم استكرموه وأحبوه وشكروا له صنعه وأمر أمير المسلمين بقطع رؤس القتلى وجمعها فقطعت وجمع بين يديه منها أمثال الجبال فبعث منها الى اشبيلية عشرة آلاف رأس والى قرطبة مثل ذلك والى بلنسية مثلها والى سرقسطة ومرسية مثلها وبعث الى بلاد العدوة أربعين ألف رأس فقسمت على مدن العدوة ليراها الناس فيشكروا الله على ما منحهم من النصر والظفر العظيم ﴿قال ابن أبى زرع﴾ وفى هذا اليوم تسمى يوسف بن تاشفين بأمير المسلمين ولم يكن يدعى به قبل ذلك وأظهر الله تعالى الاسلام وأعز أهله وكتب أمير المسلمين بالفتح الى بلاد العدوة والى تميم بن المعز الصنهاجى صاحب افريقية فعملت المفرحات فى جميع بلاد افريقية والمغرب والاندلس واجتمعت كلمة الاسلام وأخرج الناس الصدقات وأعتقوا الرقاب شكرا لله تعالى ولما بلغ الاذفونش الى بلاده وسأل عن أصحابه وأبطاله ففقدهم ولم يسمع الا نواح الثكالى عليهم اغتم ولم يأكل ولم يشرب حتى هلك أسفا وغما وراح الى أمه الهاوية ولم يخلف الا بنتا واحدة جعل الامر اليها فتحصنت بطليطلة ورحل المعتمد الى اشبيلية ومعه السلطان يوسف بن تاشفين فأقام يوسف بظاهر اشبيلية ثلاثة أيام وورد عليه الخبر بوفاة ولده أبى بكر بن يوسف وكان قد تركه مريضا بسبتة فاغتم لذلك وانصرف راجعا الى العدوة وذهب معه ابن عباد يوما وليلة فعزم عليه يوسف فى الرجوع الى منزله وكانت جراحاته قد تورمت عليه فسير معه ولده عبد الله الى ان وصل البحر وعبر الى المغرب وكان أمير المسلمين عند مجيئه الى بلاد الاندلس وقصده ملاقاة الاذفونش قد تحرى المسير بالعراء من غير ان يمر بمدينة او رستاق حتى نزل الزلاقة تجاه الاذفونش وهناك اجتمع بعساكر الاندلس قاله ابن خلكان ولما فرغ من الوقعة رجع عوده على بدئه كل ذلك تورع منه وتكرم وتخفيف عن الرعايا رحمه الله ورضى عنه ولما رجع ابن عباد الى اشبيلية جلس للناس وهنئ بالفتح وقرأت القراء وقامت على رأسه الشعراء فانشدوه ﴿قال عبد الجليل بن وهبون﴾ حضرت ذلك اليوم وأعددت قصيدة أنشدها بين يديه فقرأ قارئ الا تنصروه فقد نصره الله فقلت بعدا لى ولشعرى والله ما أبقت لى هذه الآية معنى أحضره وأقوم به اهـ ومن هنا اختلفت أقوال المؤرخين فى حال أمير المسلمين فى الجهاد فقيل انه لم يرجع الى بلاد الاندلس بعد هذه المرة لكنه ترك قواده فيها ورسم لهم

بالجهاد وشن الغارات على بلاد العدو وقيل انه عاد اليها ثانيا وثالثا وعلى هذا القول فاختلفوا فى زمان ذلك العود وتاريخه والله تعالى أعلم

﴿بقية أخبار أمير المسلمين فى الجهاد وما اتفق له مع ملوك الاندلس وكبيرهم ابن عباد﴾

اعلم ان أقوال المؤرخين اختلفت فى أمر يوسف بن تاشفين بعد غزوة الزلاقة فحكى ابن خلكان وغيره ان أمير المسلمين لما عزم على النهوض الى بلاد المغرب ترك قائده سير بن أبى بكر اللمتونى بارض الاندلس وخلف معه جيشا برسم غزو الفرنج فاستراح سير بن أبى بكر أياما قلائل ثم دخل بلاد الاذفونش وشن الغارات فنهب وقتل وسبا وفتح الحصون المنيعة والمعاقل الصعبة وتوغل فى بلاد العدو وحصل على أموال جليلة وذخائر عظيمة و رتب رجالا وفرسانا فى جميع ما استولى عليه وأرسل الى السلطان يوسف بجميع ماحصل له وكتب اليه يعرفه ان الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو وملازمة الحرب والقتال فى أضيق عيش وأنكده وملوك الاندلس فى بلادهم وأهليهم فى أرغد عيش وأطيبه وسأله مرسومه فكتب اليه أن يأمرهم بالنقلة والرحيل الى أرض العدوة فمن فعل فذاك ومن أبى فحاصره وقاتله ولا تنفس عليه وابتدأ بمن والى الثغور منهم ولا تتعرض لابن عباد الابعد استيلائك على البلاد وكل بلد أخذته فول عليه أميرا من عسكرك فامتثل سير بن أبى بكر أمره واستنزلهم واحدا بعد واحد حتى كان آخرهم ابن عباد فالحقه بهم ونظمه فى سلكهم على مانذكره ﴿وقال ابن أبى زرع﴾ لما كانت سنة احدى وثمانين وأربعمائة جاز أمير المسلمين الى الاندلس الجواز الثانى برسم الجهاد قال وسبب جوازه ان الاذفونش لعنه الله لما انهزم وجرح وقتلت جموعه عمد الى حصن لبيط الموالى لعمل ابن عباد فشحنه بالخيل والرجال والرماة وأمرهم ان يكونوا ينزلون من الحصن المذكور فيغيرون فى أطراف بلاد ابن عباد دون سائر بلاد الاندلس اذ كان السبب فى جواز أمير المسلمين الى الاندلس فكانوا ينزلون من الحصن فى الخيل والرجل فيغيرون و يقتلون و يأسرون وقد جعلوا ذلك وظيفة عليهم فى كل يوم فساء ابن عباد ذلك وضاق به ذرعا ثم عبر البحر الى العدوة مستنفرا لامير المسلمين فلقيه بالمعمورة من حلق وادى سبوا وهذه المعمورة هى المسماة اليوم بالمهدية من أحواز سلا فشكى اليه حصن لبيط ومايلقاه المسلمون من أهله فوعده الجواز اليه فرجع المعتمد وسار يوسف فى أثره فركب البحر من قصر المجاز الى الخضراء فتلقاه ابن عباد بها بالف دابة تحمل الميرة والضيافة فلما نزل يوسف بالخضراء كتب منها الى أمراء الاندلس يدعوهم الى الجهاد وقال لهم الموعد بيننا وبينكم حصن لبيط ثم تحرك يوسف من الخضراء وذلك فى ربيع الاول من السنة المذكورة فنزل على حصن لبيط وفى القاموس لبيط كزبير بلد بالجزيرة الخضراء الاندلسية ولعله هو هذا فلما نزله أمير المسلمين لم يأته ممن كتب اليه من أمراء الاندلس غير ابن عبد العزيز صاحب مرسية وابن عباد صاحب اشبيلية فنازلا معه الحصن وشرعوا فى القتال والتضييق عليه وكان يوسف رحمه الله يشن الغارات على بلاد الفرنج كل يوم ودام الحصار على الحصن أربعة أشهر لم ينقطع القتال فيها يوما واحدا الى ان دخل فصل الشتاء ووقع بين ابن عبد العزيز وابن عباد نزاع وشنآن فشكى المعتمد الى أمير المسلمين ابن عبد العزيز فقبض عليه أمير المسلمين وأسلمه الى ابن عباد فاختل أمر المحلة بسبب ذلك وفر جيش ابن عبد العزيز وقواده عنها وقطعوا الميرة عن المحلة ووقع بها الغلاء ولما علم الاذفونش بذلك حشد أمم النصرانية وقصد الى حماية الحصن فى أمم لاتحصى فلما قرب من الحصن انحرف له يوسف عنه الى ناحية لورقة ثم الى المرية ثم جاز الى العدوة وقد تغير على أمراء الاندلس لكونهم لم يأته منهم أحد عند مادعاهم الى الجهاد ومنازلة الحصن ولما أفرج أمير المسلمين عن الحصن المذكور أقبل الاذفونش حتى نزل عليه فاخلاه مما كان فيه من آلة الحصار ومادته وأخرج من كان فيه من بقية النصارى المنفلتين من مخالب المنية وعاد الى طليطلة فاستولى ابن عباد عليه بعد خلائه وفناء جميع حماته بالقتل والجوع سوى

تلك الصبابة المنفلة وكان فيه عندما نازله أمير المسلمين اثنا عشر ألف مقاتل دون العيال والذرية فاتى عليهم القتل والجوع حتى لم يبق فيه سوى نحو المائة وهم المنفلتون منه عند اخلائه ثم لما كانت سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة جاز أمير المسلمين الى الاندلس الجواز الثالث برسم الجهاد فسار حتى نزل على طليطلة وحاصر بها الاذفونش وشن الغارات باطرافها فاكتسحها وانتسف ثمارها وزروعها وخرب عمرانها وقتل وسبا ولم يأته من ملوك الاندلس أحد ولا عرج عليه منهم معرج فغاظه ذلك ولما قفل من غزو طليطلة عمد الى غرناطة فنازلها وكان صاحبها عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس قد صالح الاذفونش وظاهره على أمير المسلمين وبعث اليه بمال واشتغل بتحصين بلده وفي ذلك يقول بعض شعراء عصره يبنى على نفسه سفاها * كأنه دودة الحرير دعوه يبنى فسوف يدرى * اذا أتت قدرة القدير ولما انتهى أمير المسلمين الى غرناطة تحصن منه صاحبها عبد الله بن بلكين وأغلق أبوابها دونه فحاصره أمير المسلمين نحو شهرين ولما اشتد عليه الحصار أرسل يطلب الامان فأمنه أمير المسلمين وتسلم منه البلاد فملكها وبعث بعبد الله وأخيه تميم بن بلكين صاحب مالقة الى مراكش مع حريمهما وأولادهما فاقاما بها وأجرى عليهما الانفاق الى ان ماتا بها ولما خلع أمير المسلمين بنى باديس وملك غرناطة ومالقة وما أضيف اليهما خاف منه المعتمد بن عباد وانقبض عنه ويقال ان ابن عباد طمع في غرناطة وان أمير المسلمين يعطيه اياها فعرض له بذلك فاعرض عنه أمير المسلمين فخاف ابن عباد منه وعمل على الخروج عليه ثم سعى بينهما الوشاة فتغير عليه أمير المسلمين وعبر الى العدوة في رمضان سنة ثلاث وثمانين المذكورة ولما انتهى الى مراكش ولى على الاندلس قائده سير بن أبي بكر اللمتونى وفوض اليه جميع أمورها كلها ولم يأمره في ابن عباد بشىء فسار سير بن أبي بكر نحو اشبيلية وهو يظن ان ابن عباد اذا سمع به يخرج اليه ويتلقاه على بعد ويحمل اليه الضيافات على العادة فلم يفعل وتحصن منه ولم يلتفت اليه فراسله سير ابن أبي بكر أن يسلم اليه البلاد ويدخل في طاعة أمير المسلمين فامتنع ابن عباد فعند ذلك تقدم سير الى حصاره وقتاله وبعث بعض قواده الى قرطبة ليحاصرها وبها يومئذ المأمون بن المعتمد بن عباد فنازلها في عساكر المرابطين حتى فتحها يوم الاربعاء ثالث صفر سنة أربع وثمانين وأربعمائة وقتل صاحبها المأمون ابن المعتمد ثم فتح بياسة وأبدة وحصن البلاط والمدور والصخيرة وشقورة ولم ينقض شهر صفر المذكور حتى لم يبق لابن عباد بلد الا وقد ملكه المرابطون ماعدا قرمونة واشبيلية ثم ارتحل سير بن أبي بكر الى قرمونة فنازلها حتى دخلها عنوة زوال يوم السبت السابع عشر من ربيع الاول من السنة المذكورة فاشتد الامر على ابن عباد وطال عليه الحصار فبعث الى الاذفونش لعنه الله يستغيث به على لمتونة ويعده باعطاء البلاد وبذل الطارف والتلاد ان هو كشف عنه ماهو فيه من الحصار فبعث اليه الاذفونش قائده القومس في جيش من عشرين ألف فارس وأربعين ألف راجل فلما علم سير بقدوم الفرنج اليه انتخب من جيشه عشرة آلاف فارس من أهل الشجاعة والنجدة وقدم عليهم ابراهيم بن اسحق اللمتونى وبعثه للقاء الفرنج فالتقى الجمعان بالقرب من حصن المدور فكانت بينهم حروب شديدة مات فيها خلق كثير من المرابطين ومنحهم الله النصر فهزموا الفرنج وقتلوهم حتى لم يفلت منهم الا القليل ثم شدد سير ابن أبي بكر في الحصار والتضييق على اشبيلية حتى اقتحمها عنوة وقبض على المعتمد وجماعة من أهل بيته فقيدهم وحملهم في السفين بنهر اشبيلية وبعث بهم الى أمير المسلمين بمراكش فامر أمير المسلمين بارسال المعتمد الى مدينة اغمات فسجن بها واستمر في السجن الى ان مات به لاحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وكان دخول سير بن أبي بكر مدينة اشبيلية يوم الاحد الثاني والعشرين من رجب سنة أربع وثمانين ثم ملك المرابطون بعد ذلك ما بقى من بلاد الاندلس الى ان خلصت لهم ولم يبق لملوك الطوائف بها ذكر وهذه الاخبار نقلناها عن ابن أبي زرع ممزوجة باليسير من كلام غيره

واعتمدنا

واعتمدنا كلامه لانه موضوع بالقصد الاول لاخبار المغرب فيكون أعنى به من غيره وفى تاريخ ابن خلدون بعض مخالفة لما مر ﴿قال﴾ أجاز يوسف بن تاشفين البحر الى الاندلس الجواز الثانى سنة ست وثمانين وأربعمائة وتثاقل أمراء الطوائف عن لقائه لما أحسوا من نكيره عليهم لما يسومون به رعاياهم من الظلامات والمكوس وتلاحق المغارم فوجد عليهم وعهد برفع المكوس وتحرى المعدلة (وقال أيضا) ان الفقهاء بالاندلس طلبوا من يوسف بن تاشفين رفع المكوس والظلامات عنهم فتقدم بذلك الى ملوك الطوائف فاجابوه بالامتثال حتى اذا رجع عن بلادهم رجعوا الى حالهم فلما أجاز ثانية انقبضوا عنه الا ابن عباد فانه بادر الى لقائه وأغراه بالكثير منهم فتقبض على ابن رشيق البناء وأمكن ابن عباد منه للعداوة التى بينهما وبعث جيشا الى المرية ففر عنها صاحبها ابن صمادح ونزل بجاية من أرض افريقية وتوافق ملوك الطوائف على قطع المدد عن عساكر أمير المسلمين ومحلاته فساء نظره وأفتاه الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والاندلس بخلعهم وانتزاع الامر من أيديهم وصارت اليه بذلك فتاوى أهل المشرق الاعلام مثل الغزالى والطرطوشى وغيرهما فعمد الى غرناطة واستنزل صاحبها عبد الله بن بلكين وأخاه تميما عن مالقة بعد ان كان منهما مداخلة للطاغية فى عداوة يوسف بن تاشفين وبعث بهما الى المغرب فخاف ابن عباد عند ذلك منه وانقبض عن لقائه وفشت السعايات بينهما ونهض أمير المسلمين الى سبتة فاستقر بها وعقد للامير سير بن أبى بكر على الاندلس وأجازه فانتهى اليها وقعد ابن عباد عن تلقيه وميرته فاحفظه ذلك وطالبه بالطاعة لامير المسلمين والنزول عن الامر ففسد ذات بينهما ثم غلبه على جميع عمله ثم صمد الى اشبيلية فحاصره بها واستنجد الطاغية فعمد الى استنقاذه من هذا الحصار فلم يغن عنه شيأ وكان دفاع لمتونة مما فت فى عضده واقتحم المرابطون اشبيلية عنوة سنة أربع وثمانين وأربعمائة وتقبض سير على المعتمد وقاده أسيرا الى مراكش فلم يزل فى اعتقال يوسف بن تاشفين الى أن هلك فى محبسه من اغمات سنة تسعين وأربعمائة ثم عمد الى بطليوس وتقبض على صاحبها عمر بن الافطس فقتله وابنيه يوم الاضحى سنة تسع وثمانين وأربعمائة بما صح عنده من مداخلتهم الطاغية وأن يملكوه مدينة بطليوس ورثاهم الاديب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون بقصيدته المشهورة التى يقول فى أولها

الدهر يفجع بعد العين بالاثر * فما البكاء على الاشباح والصور

وهى قصيدة غريبة فى منوالها وموضوعها عدد فيها أهل النكبات ومن عثر به الزمان بما يبكى منه الجماد وتستشرف لسماعه الانجاد والوهاد ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الثالث الى الاندلس سنة تسعين وأربعمائة وزحف اليه الطاغية فبعث أمير المسلمين عساكر المرابطين لنظر محمد بن الحاج اللمتونى فانهزم النصارى أمامه وكان الظهور للمسلمين ثم أجاز الامير يحيى بن أبى بكر بن يوسف بن تاشفين سنة ثلاث وتسعين وانضم اليه محمد بن الحاج وسير بن أبى بكر فافتتحوا عامة الاندلس من أيدى ملوك الطوائف ولم يبق منها الا سرقسطة فى يد المستعين بن هود معتصما بالنصارى وأغزى الامير مزدلى صاحب بلنسية الى بلاد برشلونة فاثخن فيها وبلغ الى حيث لم يبلغ أحد قبله ورجع وانتظمت بلاد الاندلس فى ملكة يوسف بن تاشفين وانقرض ملك الطوائف منها أجمع كأن لم يكن واستولى أمير المسلمين على العدوتين معا واتصلت هزائم المرابطين على الفرنج مرارا والله غالب على أمره فهذا كلام ابن خلدون فى سياقه هذه الاخبار ﴿واعلم﴾ انه قد يوجد هنا لبعض المؤرخين حط من رتبة أمير المسلمين وغض عليه امافى كونه كان بربريا من أهل الصحراء بعيدا عن مناحى الملك والادب ورقة الحاشية واما فى كونه تحامل على ملوك الاندلس حتى فعل بهم ما فعل وذلك حيث عاين حسن بلادهم ورفاهية عيشهم واعلم ان هذا الكلام جدير بالرد وأصله من بعض أدباء الاندلس الذين كانوا ينادمون ملوكها ويستظلون بظلهم ويغدون ويروحون فى نعمتهم فحين فعل أمير المسلمين بساداتهم وروسائهم ما فعل أخذهم من ذلك

ما يأخذ النفوس البشرية من الذب عن الصديق والمحاماة عن الغريب حتى باللسان والا فقد كان أمير المسلمين رحمه الله من الدين والورع على ما قد علمت ومن ركوب الجادة وتحرى طريق الحق على الوصف الذى سمعت وهذا ابن خلدون امام الفن ومتحرى الصدق قد نقل أن ملوك الاندلس كانوا يظلمون رعاياهم بضرب المكوس وغيرها ثم وصلوا أيديهم بالطاغية وبذلوا له الاموال فى مظاهرته اياهم على أمير المسلمين ثم لم يقدم على قتالهم واستنزالهم عن سرير ملكهم حتى تعددت لديه فتاوى الائمة الاعلام من أهل المشرق والمغرب بذلك فافهم هذا واعرفه والله تعالى يقابل الجميع بالعفو والصفح الجميل بمنه وكرمه

﴿بقية أخبار أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سوى ما تقدم﴾

﴿قال ابن خلكان﴾ كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حازما سائسا للامور ضابطا المصالح مملكته موثرا لاهل العلم والدين كثير المشورة لهم قال وبلغنى ان الامام حجة الاسلام أبا حامد الغزالى رحمه الله لما سمع ما هو عليه من الاوصاف الحميدة وميله الى أهل العلم عزم على التوجه اليه فوصل الى الاسكندرية وشرع فى تجهيز ما يحتاج اليه فجاءه الخبر بوفاته فرجع عن ذلك العزم قال وكنت وقفت على هذا الفصل فى بعض الكتب وقد ذهب عنى فى هذا الوقت من أين وجدته (وكان أمير المسلمين يوسف) معتدل القامة أسمر اللون نحيف الجسم خفيف العارضين دقيق الصوت وكان يخطب لبنى العباس وهو أول من تسمى بامير المسلمين ولم يزل على حاله وعزه وسلطانه الى ان توفى يوم الاثنين لثلاث خلون من المحرم سنة خمسمائة وعاش تسعين سنة ملك منها مدة خمسين سنة رحمه الله ﴿وقال ابن خلدون﴾ تسمى يوسف بن تاشفين بامير المسلمين وخاطب الخليفة لعهده ببغداد وهو أبو العباس أحمد المستظهر بالله العباسى وبعث اليه عبد الله ابن محمد بن العربى المعافرى الاشبيلى وولده القاضى أبا بكر بن العربى الامام المشهور فتلطفا فى القول وأحسنا فى الابلاغ وطلبا من الخليفة أن يعقد لامير المسلمين بالمغرب والاندلس فعقد له وتضمن ذلك مكتوب من الخليفة منقول فى أيدى الناس وانقلبا اليه بتقليد الخليفة وعهده على ما الى نظره من الاقطار والاقاليم وخاطبه الامام الغزالى والقاضى أبو بكر الطرطوشى يحضانه على العدل والتمسك بالخير ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الرابع الى الاندلس سنة سبع وتسعين وأربعمائة اه كلام ابن خلدون وانما احتاج أمير المسلمين الى التقليد من الخليفة المستظهر بالله مع انه كان بعيدا عنه وأقوى شوكة منه لتكون ولايته مستندة الى الشرع وهذا من ورعه رحمه الله وانما تسمى بامير المسلمين دون أمير المؤمنين أدبا مع الخليفة حتى لا يشاركه فى لقبه لان لقب أمير المؤمنين خاص بالخليفة والخليفة من قريش كما فى الحديث فافهم ومن أخبار يوسف بن تاشفين أيضا ما نقله غير واحد من الائمة ان أمير المسلمين طلب من أهل البلاد المغربية والاندلسية المعونة بشئ من المال على ما هو بصدده من الجهاد وانه كتب الى قاضى المرية أبى عبد الله محمد بن يحيى عرف بابن البراء يأمره بفرض معونة المرية ويرسلها اليه فامتنع محمد بن يحيى من فرضها وكتب اليه يخبره بانه لا يجوز له ذلك فاجابه أمير المسلمين بان القضاة عندى والفقهاء قد أباحوا فرضها وان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد فرضها فى زمانه فراجعه القاضى عن ذلك بكتاب يقول فيه الحمد لله الذى اليه مآبنا وعليه حسابنا وبعد فقد بلغنى ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخرى عن ذلك وان أبا الوليد الباجى وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والاندلس أفتوه بان عمر بن الخطاب رضى الله عنه اقتضاها فالقضاة والفقهاء الى النار دون زبانية فان كان عمر اقتضاها فقد كان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ووزيره وضجيعه فى قبره ولا يشك فى عدله وليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بوزيره ولا بضجيعه فى قبره ولا ممن لا يشك فى عدله فان كان القضاة والفقهاء أنزلوك منزلته فى العدل فالله تعالى سائلهم وحسيبهم عن تقلدهم فيك

وما

وما اقتضاها عمر رضى الله عنه حتى دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحضر من كان معه من الصحابة رضى الله عنهم وحلف ان ليس عنده فى بيت مال المسلمين درهم واحد ينفقه عليهم فليدخل أمير المسلمين المسجد الجامع بحضرة من هنالك من أهل العلم وليحلف أن ليس عنده فى بيت مال المسلمين درهم ينفقه عليهم وحينئذ تجب معونته والله تعالى على ذلك كله والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته فلما بلغ كتابه الى أمير المسلمين وعظه الله بقوله ولم يعد عليه فى ذلك قولا والاعمال بالنيات وكان أمير المسلمين حين ورد عليه التقليد من الخليفة ضرب السكة باسمه ونقش على الدينار لا اله الا الله محمد رسول الله وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وكتب على الدائرة ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين وكتب على الصفحة الاخرى عبد الله أحمد أمير المؤمنين العباسى وعلى الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكته وكان ملكه قد انتهى الى مدينة افراغة من قاصية شرق الاندلس والى مدينة أشبونة على البحر المحيط من غرب الاندلس وذلك مسيرة ثلاثة وثلاثين يوما طولا وفى العرض ما يقرب من ذلك وملك بعدوة المغرب من جزائر بنى مزغنة الى طنجة الى آخر السوس الاقصى الى جبال الذهب من بلاد السودان ولم ير فى بلد من بلاده ولا عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس ولا خراج لا فى حاضرة ولا فى بادية الا ما أمر الله به وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكوات والاعشار وجزيات أهل الذمة وأخماس الغنائم وقد جبى فى ذلك من الاموال على وجهها ما لم يجبه أحد قبله يقال انه وجد فى بيت ماله بعد وفاته ثلاثة عشر ألف ربع من الورق وخمسة آلاف وأربعون ربعا من مطبوع الذهب وكان رحمه الله زاهدا فى زينة الدنيا وزهرتها ورعا متقشفا لباسه الصوف لم يلبس قط غيره ومأكله الشعير ولحوم الابل وألبانها مقتصرا على ذلك لم ينتقل عنه مدة عمره على ما منحه الله من سعة الملك وخوله من نعمة الدنيا وقد رد أحكام البلاد الى القضاة وأسقط ما دون الاحكام الشرعية وكان يسير فى أعماله بنفسه فيتفقد أحوال الرعية فى كل سنة وكان محبا للفقهاء وأهل العلم والفضل مكرما لهم صادرا عن رأيهم يجرى عليهم أرزاقهم من بيت المال وكان مع ذلك حسن الاخلاق متواضعا كثير الحياء جامعا لخصال الخير رحمه الله تعالى ورضى عنه

﴿الخبر عن دولة أمير المسلمين أبى الحسن على بن يوسف بن تاشفين اللتونى﴾

لما توفى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فى التاريخ المتقدم بايع الناس ابنه على بن يوسف المذكور بمراكش بعهد من أبيه اليه وتسمى بأمير المسلمين وكان سنه يوم بويع ثلاثا وعشرين سنة وملك من البلاد ما لم يملكه أبوه لانه صادف البلاد ساكنة والاموال وافرة والرعايا آمنة بانقطاع الثوار واجتماع الكلمة وسلك طريقة أبيه فى جميع أموره واهتدى بهديه

﴿خروج يحيى بن أبى بكر بن يوسف بن تاشفين على عمه أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين﴾

لما توفى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سجاه ابنه على بن يوسف بثوبه وخرج الى المرابطين ويده فى يد أخيه أبى الطاهر تميم بن يوسف فنعى لهم أباه ثم وضع أبو الطاهر يده فى يد أخيه على بن يوسف فبايعه ثم قال للمرابطين قوموا فبايعوا أمير المسلمين فبايعه جميع من حضر من لمتونة وسائر قبائل صنهاجة وبايعه الفقهاء وأشياخ القبائل فتمت له البيعة بمراكش ثم كتب الى سائر بلاد المغرب والاندلس وبلاد القبلة يعلمهم بوفاة أبيه واستخلافه من بعده ويأمرهم بالبيعة فأتته البيعة من جميع البلاد وأقبلت نحوه الوفود للتعزية والتهنئة الا أهل مدينة فاس فان ابن أخيه يحيى بن أبى بكر بن يوسف كان أميرا عليها من قبل جده يوسف فلما انتهى اليه الخبر بموت جده وولاية عمه عظم عليه ذلك وأنف من مبايعة عمه فخرج عليه ووافقه على ذلك جماعة من قواد لمتونة فزحف اليه على بن يوسف من مراكش حتى اذا دنى من فاس خاف يحيى بن أبى بكر على نفسه وعلم أنه لا طاقة له بحرب عمه فاسلم فاسا لعمه وخرج منها خائفا

يترقب فدخلها على بن يوسف يوم الاربعاء الثامن من ربيع الآخر سنة خمسمائة واستقام له الامر وقيل ان على بن يوسف لما دنا من فاس نزل بمدينة مغيلة من أحوازها ثم كتب الى ابن أخيه يعاتبه على ما ارتكبه من الخلاف ويدعوه الى الدخول فى الطاعة كما دخل الناس وكتب كتابا آخر الى أشياخ البلد يدعوهم فيه الى بيعته ويتهددهم ويتوعدهم فلما وصل الكتاب الى يحيى وقرأه جمع أهل البلد واستشارهم فى المقاتلة والحصار فلم يوافقوه فلما يئس منهم خرج فارا الى مزدلى بن تيلكان وكان عاملا على تلمسان فلقيه مزدلى بوادى ملوية مقبلا برسم البيعة لعلى بن يوسف فاعلمه يحيى بما كان من شأنه فضمن له مزدلى عن عمه العفو والصفح فرجع معه حتى اذا وصلا الى فاس دخل مزدلى على أمير المسلمين على بن يوسف ونزل يحيى مستخفيا بحومة وادى شرذوع ولما اجتمع مزدلى بامير المسلمين وسلم عليه ورأى منه اكراما وقبولا أعلمه بخبر يحيى وما ضمن له من العفو فاجابه الى ذلك وعفا عنه وأمنه ثم جاء يحيى فبايعه وخيره أمير المسلمين بين أن يسكن بجزيرة ميورقة بشرق الاندلس أو ينصرف الى بلاد الصحراء فاختار الصحراء فانصرف اليها ثم سافر منها الى الحجاز فحج البيت ورجع الى عمه فاستأذنه أن يكون فى جملته ويكون سكناه معه بحضرة مراكش فاذن له فى ذلك فسكنها مدة ثم اتهمه عمه بالتشغيب عليه فثقفه وبعث به الى الجزيرة الخضراء فاستمر بها الى ان مات

أخبار الولاة بالمغرب والاندلس

لما بويع أمير المسلمين على بن يوسف عزل عن قرطبة الامير أبا عبد الله محمد بن الحاج اللمتونى وولى مكانه القائد أبا عبد الله محمد بن أبى زلفى فغزى طليطلة وأوقع بالنصارى فقتلهم قتلا ذريعا بباب القنطرة أخذهم على غرة وفى سنة احدى وخمسمائة عزل أمير المسلمين أخاه تميم بن يوسف بن تاشفين عن بلاد المغرب وولى مكانه أبا عبد الله بن الحاج فاقام واليا على فاس وسائر أعمال المغرب نحو ستة أشهر ثم عزله وولاه بلنسية وأعمالها من بلاد شرق الاندلس ولما عزل أمير المسلمين أخاه تميم بن يوسف عن بلاد المغرب ولاه غرناطة وأعمالها من بلاد الاندلس فكانت له على النصارى وقعة اقليج وذلك انه خرج غازيا بلاد الفرنج سنة اثنتين وخمسمائة فنزل حصن اقليج وبه جمع عظيم من الفرنج فحاصرهم حتى اقتحم عليهم الحصن فارز النصارى الى القصبة فتحصنوا بها وانتهى خبرهم الى الفنش فاستعد للخروج لاغاثتهم فاشارت عليه زوجته أن يبعث ولده عوضا منه لان تميم بن يوسف ابن ملك المسلمين وسانجة ابن ملك النصارى فامتثل اشارتها وبعث ولده سانجة فى جيش كثيف من زعماء الفرنج وأنجادهم فسار حتى اذا دنا من اقليج أخبر تميم بن يوسف بقدومه فعزم على الافراج عن الحصن وأن لا يلاقى الفرنج فاشار عليه قواد لمتونة منهم عبد الله بن محمد بن فاطمة ومحمد بن عائشة وغيرهم بالمقام وشجعوه وهونوا عليه أمرهم فقالوا انما قدموا فى ثلاثة آلاف فارس وبيننا وبينهم مسافة فرجع الى رأيهم فلم يكن الا عشى ذلك اليوم حتى وافتهم جيوش الفرنج فى ألوف كثيرة فهم تميم بالفرار فلم يجد له سبيلا ثم صمم قواد لمتونة على مناجزة العدو وصمدوا اليه فكانت بينهم حرب عظيمة بعد العهد بمثلها فهزم الله تعالى العدو ونصر المسلمين وقتل ولد الفنش وقتل معه من الروم ثلاثة وعشرون ألفا ونيف ودخل المسلمون اقليج بالسيف عنوة واستشهد فى هذه الوقعة جماعة من المسلمين رحمهم الله واتصل الخبر بالفنش فاغتم لقتل ولده وأخذ بلده وهلاك جنده فمرض ومات آسفا لعشرين يوما من الوقعة وكتب تميم بن يوسف الى أمير المسلمين بالفتح (واعلم) انه يقال فى ملوك الجلالقة الذين نسميهم اليوم الاصبنيول الاذفونش ويقال الفنش فقال ابن خلكان الاذفونش بضم الهمزة وسكون الذال المعجمة وضم الفاء وسكون الواو وبعدها نون ثم شين معجمة هو اسم لاكبر ملوك الافرنج وهو صاحب طليطلة *وقال ابن خلدون* بنو اذفونش هم ولد اذفونش بن بطرة أول ملوك الجلالقة اه وأما قولهم الفونش فهو اسم علم لبعض ملوكهم وليس لقبا لجميعهم وكان محمد بن الحاج

رحمه الله مدة مقامه ببلنسية قد ضيق على النصارى تضييقا فاحشا بالغارات والنهب فخرج فى غزاة له ذات مرة فأخذ على طريق البرية فغنم وسبا وكان معه جماعة من قواد لمتونة فبعث بالمغنم على الطريق الكبير وأخذ هو على برية تقرب من بلاد المسلمين وكان أكثر الناس مع المغنم وكان طريق البرية الذى أخذ عليه محمد بن الحاج لا يسلك الا على سرب واحد لصعوبته وشدة وعورته فلما توسطه محمد بن الحاج وأخذته الاوعار والمضايق من بين يديه ومن خلفه وجد النصارى قد كمنوا له فى جهة من تلك الجهات فقاتلهم قتال من أيقن بالموت واغتنم الشهادة اذلم يجد منفذا يخلص منه فاستشهد رحمه الله واستشهد معه جماعة من المتطوعة وتخلص منهم القائد محمد بن عائشة فى نفر يسير بحيلة عملها واتصل خبر الوقعة بأمير المسلمين فأسفه موت أبى عبد الله بن الحاج وولى مكانه أبا بكر بن ابراهيم بن تافلوت وهو ممدوح ابن خفاجة ومخدوم أبى بكر بن باجة الحكيم المعروف بابن الصائغ وكان عاملا على مرسية فوصل اليه العهد بالولاية على بلنسية وطرطوشة وما والاهما وهو بمرسية ثم خرج بجيش مرسية الى بلنسية فاجتمع اليه من كان بها من الجند ثم زحف بهم الى برشلونة فنازلها وأقام عليها عشرين يوما فانتسف ما حولها وقطع ثمارها وخرب قراها فأتاه ابن رذمير من قرابة الاذفونش فى جيوش كثيرة من حشود بسيط برشلونة وبلاد اربونة فكانت بينهم حرب عظيمة مات فيها خلق كثير من الفرنج واستشهد فيها من المسلمين نحو السبعمائة رحمهم الله تعالى

﴿أخبار أمير المسلمين على بن يوسف فى الجهاد وجوازه الاول الى بلاد الاندلس﴾

لما دخلت سنة ثلاث وخمسمائة جاز أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين الى الاندلس برسم الجهاد فعبر البحر من سبتة منتصف المحرم من السنة المذكورة فى جيوش عظيمة تزيد على مائة ألف فارس فانتهى الى قرطبة فأقام بها شهرا ثم خرج منها غازيا الى مدينة طلابوت ففتحها عنوة بالسيف وفتح من أعمال طليطلة سبعة وعشرين حصنا وفتح مجريط ووادى الحجارة وانتهى الى طليطلة فحاصرها شهرا وانتسف ما حولها وبالغ فى النكاية ثم قفل الى قرطبة بعد ان دوخ البلاد ﴿وفى سنة أربع وخمسمائة﴾ فتح الامير سير بن أبى بكر شنترين وبطليوس ويابورة وبرتقال واشبونة وغير ذلك من بلاد غرب الاندلس وكان ذلك فى شهر ذى القعدة من السنة المذكورة وكتب بالفتح الى أمير المسلمين ﴿وفى سنة سبع وخمسمائة﴾ توفى الامير سير بن أبى بكر باشبيلية ودفن بها وولى اشبيلية عوضا منه أبو عبد الله محمد بن فاطمة فلم يزل عليها الى ان توفى سنة عشر وخمسمائة ﴿وفى سنة سبع المذكورة﴾ غزى الامير مزدلى طليطلة وأعمالها فدوخها وفتح حصن أرجنة عنوة فقتل المقاتلة وسبا النساء والذرية واتصل الخبر بالبرهانس كبير الفرنج فأقبل لنصرتهم واستنقاذهم فصمد القائد مزدلى للقائه ففر أمامه ليلا وعاد مزدلى الى قرطبة ظافرا غانما ثم كانت له فى الفرنج وقائع أخرى الى ان توفى رحمه الله غازيا ببلاد الفرنج سنة ثمان وخمسمائة فولى أمير المسلمين مكانه على قرطبة ابنه محمد بن مزدلى فأقام واليا عليها ثلاثة أشهر ثم توفى شهيدا فى بعض غزواته أيضا

﴿استيلاء العدو على سرقسطة﴾

كانت سرقسطة وأعمالها من شرق الاندلس بيد بنى هود الجذاميين تغلبوا عليها فى صدر المائة الخامسة أيام الطوائف وتوارثوها الى ان كان منهم أحمد بن يوسف الملقب بالمستعين بالله فزحف اليه ابن رذمير سنة ثلاث وخمسمائة فخرج اليه المستعين فالتقوا بظاهر سرقسطة فانهزم المسلمون واستشهد منهم جماعة منهم المستعين بن هود ثم لما كانت سنة اثنتى عشرة وصاحب سرقسطة يومئذ عبد الملك بن المستعين بن هود الملقب بعماد الدولة زحف ابن رذمير اليها فنازلها وزحف الفنش أيضا فى أمم من النصرانية الى لاردة من بلاد الجوف فنازلها واتصل الخبر بأمير المسلمين فكتب الى أمراء غرب الاندلس

بأمرهم بالمسير الى أخيه تميم بن يوسف وكان يومئذ واليا على شرق الاندلس فيسيرون معه لاستنقاذ سرقسطة ولاردة فقدم على تميم عبد الله بن مزدلي وأبو يحيى بن تاشفين صاحب قرطبة بعساكرهم فخرج تميم بن يوسف من بلنسية مع أمراء الاندلس فصمد نحو لاردة وكان بينه وبين الفنش قتال عظيم أزعجه عن لاردة خاسئا صاغرا بعد ان بذل جهده فى حصارها وأفقد من جيوشه عليها ما يزيد على العشرة آلاف فارس ورجع تميم الى بلنسية ولما رأى ابن ردمير ذلك بعث الى طوائف الافرنج يستصرخهم على سرقسطة فأتوا فى أمم كالنمل حتى نازلوها معه وشرعوا فى القتال وصنعوا أبراجا من خشب تجرى على بكرات وقربوها منها ونصبوا فيها الرعادات ونصبوا عليها عشرين منجنيقا وقوى طمعهم فيها فاشتد الحصار واستمر حتى فنيت الاقوات وهلك أكثر الناس جوعا فراسل المسلمون الذين بها ابن ردمير على ان يرفع عنهم القتال الى أجل فان لم يأتهم من ينصرهم أخلوا له البلد وأسلموه اليه فعاهدهم على ذلك فتم الاجل ولم يأتهم أحد فدفعوا اليه المدينة وخرجوا الى مرسية وبلنسية وذلك سنة اثنتى عشرة وخمسمائة وبعد استيلاء النصارى عليها وصل من بر العدوة جيش فيه عشرة آلاف فارس بعثه أمير المسلمين لاستنقاذها فوجدوها قد فرغ منها ونفذ حكم الله فيها ﴿وفى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة﴾ تغلب ابن ردمير على بلاد شرق الاندلس وملك قلعة أيوب التى ليس فى بلاد شرق الاندلس أمنع منها وألح بالغارات على بلاد الجوف فاتصلت هذه الاخبار بأمير المسلمين وهو بمراكش فجاز الى الاندلس برسم الجهاد وضبط الثغور وهو جوازه الثانى فجاز معه خلق كثير من المرابطين والمتطوعة من العرب وزناتة والمصامدة وسائر قبائل البربر فوصل بجيوشه الى قرطبة ونزل خارجها وأتته وفود الاندلس للسلام عليه فسألهم عن أحوال بلادهم وثغورهم بلدا بلدا فعرفوه بما كان وعزل القاضى أبا الوليد بن رشد عن قضاء قرطبة وولى مكانه أبا القاسم بن حمدين ويقال انما عزل ابن رشد لانه استعفاه وكان قد اشتغل بتأليف البيان والتحصيل ثم سار أمير المسلمين حتى نزل على مدينة شنترية ففتحها عنوة وسار فى بلاد الفرنج يقتل ويسبى ويقطع الثمار ويخرب القرى والديار حتى دوخ بلاد غرب الاندلس وفر أمامه الفرنج وتحصنوا بالمعاقل المنيعة ﴿وفى سنة خمس عشرة وخمسمائة﴾ عاد أمير المسلمين الى بلاد العدوة بعد ان ولى أخاه تميم ابن يوسف على جميع بلاد الاندلس فلم يزل عليها الى ان توفى سنة عشرين وخمسمائة

﴿ولاية الامير تاشفين بن على بن يوسف على بلاد الاندلس وأخباره فى الجهاد﴾

لما توفى الامير تميم بن يوسف فى التاريخ المتقدم ولى أمير المسلمين على بلاد الاندلس ابنه تاشفين بن على ابن يوسف ماعدا الجزائر الشرقية فانه قد عقد عليها لمحمد بن على المسوفى المعروف بابن غانية فعبر الامير تاشفين البحر الى الاندلس فى خمسة آلاف من الجند وبعث الى أجناد البلاد فأتوه فخرج بهم غازيا طليطلة ففتح بعض حصونها بالسيف وانتسف ما حولها ﴿وفى السنة المذكورة﴾ أعنى سنة عشرين وخمسمائة هزم الامير تاشفين النصارى بفحص الصباب وقتلهم قتلا ذريعا وفتح ثلاثين حصنا من حصون غرب الاندلس وكتب بالفتح الى أبيه ﴿وفى سنة ثلاثين وخمسمائة﴾ هزم الامير تاشفين جموع الفرنج بفحص عطية وأفنى منهم خلقا كثيرا بالسيف ﴿وفى سنة احدى وثلاثين بعدها﴾ دخل الامير تاشفين مدينة كركى بالسيف فلم يبق بها بشرا ﴿وفى سنة اثنتين وثلاثين بعدها﴾ جاز الامير تاشفين من الاندلس الى المغرب بعد ان غزى مدينة أشكونية ففتحها عنوة وحمل معه من سبيها الى العدوة ستة آلاف سبية انتهى الى مراكش وخرج أمير المسلمين للقائه فى زى عظيم وسرور كبير ﴿وفى سنة ثلاث وثلاثين بعدها﴾ أخذ أمير المسلمين البيعة لولده تاشفين ﴿وفى سنة سبع وثلاثين وخمسمائة﴾ كانت وفاة أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين اللتونى رحمه الله وذلك لسبع خلون من رجب من السنة المذكورة قال ابن خلكان ﴿كان أبو الحسن على بن يوسف بن تاشفين رجلا حليما وقورا صالحا عادلا منقادا

الى الحق والعلماء تجبى اليه الاموال من البلاد ولم يزعزعه عن سريره قط حادث ولا طاف به مكروه ﴿قلت﴾ قد طاف به فى آخر دولته أعظم مكروه وذلك محمد بن تومرت النابغ تحت ابطه بجبال المصامدة كما يأتى خبره ان شاء الله

﴿الخبر عن دولة أبى المعز تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين اللمتونى﴾

لما توفى أمير المسلمين على بن يوسف فى التاريخ المتقدم ولى بعده ابنه أبو المعز تاشفين بن على بعهد من أبيه اليه وأخذ بطاعته و بيعته أهل العدوتين معا كما كانوا فى عهد أبيه وكان أمر عبد المؤمن بن على يومئذ قد استفحل بتينملل وسائر بلاد المصامدة أهل جبل درن ﴿قال ابن الخطيب﴾ كان تاشفين بن على قد استخلفه أبوه على بلاد الاندلس ثم استقدمه لمدافعة أصحاب محمد بن تومرت مهدى الموحدين فلم ينجح أمره بخلاف ما عوده الله فى بلاد الاندلس من النصر لما قضاه الله من الادبار على دولتهم ﴿ولما﴾ خرج عبد المؤمن بن على من تينملل يريد فتح بلاد المغرب وكان مسيره على طريق الجبال سير أمير المسلمين على بن يوسف ابنه تاشفين المذكور معارضا له على طريق السهل وأقاموا على ذلك مدة توفى أمير المسلمين على بن يوسف فى أثنائها وأفضى الامر الى ابنه تاشفين وهو فى الحرب وقدم أهل مراكش اسحق بن على بن يوسف نائبا عن أخيه تاشفين بمراكش وأعمالها ومضى تاشفين بعد البيعة له متبعا لعبد المؤمن حتى انتهيا الى تلمسان فنزل عبد المؤمن بكهف الضحاك بين الصخرتين من جبل تيطرى المطل عليها ونزل تاشفين بالبسيط مما يلى الصفصاف ووصله هنالك مدد صنهاجة من قبل يحيى بن العزيز صاحب بجاية مع قائده طاهر بن كباب لعصبية الصنهاجية وفى يوم وصوله أشرف على عسكر الموحدين وكان يدل باقدام وشجاعة فقال الجيش لمتونة انما جئتكم لاخلصكم من صاحبكم عبد المؤمن هذا وأرجع الى قومى فامتعض تاشفين لكلامته وأذن له فى المناجزة فحمل على القوم فركبوا وصمموا للقائه فكان آخر العهد به وبعسكره وكان الموحدون قد قتلوا قبل ذلك الروبرتير قائد تاشفين على الروم وقتلوا عسكره فى بعض الغارات ثم فتكوا بعسكر ثالث من عساكر تاشفين ونالوا منه أعظم النيل ﴿وفى القرطاس﴾ زحف المرابطون لقتال الموحدين فنهاهم تاشفين فلم ينتهوا وتعلقوا فى الجبل لقتالهم فهبط عليهم الموحدون فهزموهم هزيمة شنعاء ولما توالت هذه الوقائع على تاشفين أجمع الرحلة الى وهران فبعث ابنه ابراهيم ولى عهده الى مراكش فى جماعة من لمتونة وبعث كاتبا معه أحمد بن عطية ورحل هو الى وهران سنة تسع وثلاثين وخمسمائة فأقام عليها شهرا ينتظر قائد اسطوله محمد بن ميمون الى ان وصل اليه من المرية بعشرة أساطيل فأرسى قريبا من معسكره وزحف عبد المؤمن من تلمسان وبعث فى مقدمته الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى فقدموا وهران وفضوا جموع المرابطين الذين بها ولجأ تاشفين الى رابية هنالك فاحدقوا بها وأضرموا النيران حولها حتى اذا غشيهم الليل خرج تاشفين من الحصن راكبا على فرسه فتردى من بعض حافات الجبل وهلك لسبع وعشرين من رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة وتحافل العسكر الى وهران فانحصر وامع أهلها حتى جهدهم العطش ونزلوا جميعا على حكم عبد المؤمن يوم عيد الفطر من السنة المذكورة فأتى عليهم القتل رحمهم الله ﴿وقال فى القرطاس﴾ ان تاشفين بن على خرج ذات ليلة وهو بوهران ليضرب فى محلة الموحدين فتكاثرت عليه الخيل والرجل ففر أمامهم وكان بجبل عال مشرف على البحر فظن ان الارض متصلة به فأهوى من شاهق بازاء رابطة وهران فمات رحمه الله وكان ذلك فى ليلة مظلمة ممطرة وهى ليلة السابع والعشرين من رمضان من السنة المذكورة آنفا فوجد من الغد بازاء البحر ميتا فاحتز رأسه وحمل الى تينملل فعلق على شجرة هنالك وذلك بعد ملازمة الحرب مع الموحدين فى البيداء لم يأو الى ظل قط من يوم بويع الى ان مات وكانت مدة ولايته سنتين وشهرا ونصف شهر ﴿وقال ابن خلكان﴾ لما تيقن تاشفين بن على ان دولتهم ستزول أتى مدينة وهران وهى على البحر وقصد أن

بحملها مقره فان غلب على الامر ركب منها الى الاندلس وكان فى ظاهر وهران ربوة على البحر تسمى صلب الكلب وبأعلاها رباط يأوى اليه المتعبدون وفى ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة صعد تاشفين الى ذلك الرباط ليحضر الختم فى جماعة يسيرة من خواصه وكان عبد المؤمن بجمعه فى تاكرارت وهى وطنه واتفق انه أرسل منسرا من الخيل الى وهران فوصلوها فى اليوم السادس والعشرين من رمضان ومقدمهم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى صاحب المهدى فكمنوا عشية وأعلموا بانفراد تاشفين فى ذلك الرباط فقصدوه وأحاطوا به وأحرقوا بابه فأيقن الذين فيه بالهلاك فخرج راكبا فرسه وشد الركض عليه ليثب الفرس النار وينجو فترامى الفرس نازيا لروعته ولم يملكه اللجام حتى تردى من جرف هنالك الى جهة البحر على حجارة فى محل وعر فتكسر الفرس وهلك تاشفين فى الوقت وقتل الخواص الذين كانوا معه وكان عسكره فى ناحية أخرى لا علم لهم بما جرى فى ذلك الليل وجاء الخبر بذلك الى عبد المؤمن فوصل الى وهران وسمى ذلك الموضع الذى فيه الرباط صلب الفتح ومن ذلك الوقت نزل عبد المؤمن من الجبل الى السهل ثم توجه الى تلمسان وهى مدينتان قريبة وحادثة بينهما شوط فرس ثم توجه الى فاس فحاصرها واستولى عليها سنة أربعين وخمسمائة ثم قصد مراكش سنة احدى وأربعين بعدها فحاصرها أحد عشر شهرا وفيها اسحق بن على بن يوسف بن تاشفين وجماعة من مشايخ دولتهم فقدموه بعد موت أبيه على بن يوسف نائبا عن أخيه تاشفين فاستولى عليها وقد بلغ القحط من أهلها كل مبلغ وأخرج اليه اسحق بن على ومعه سير بن الحاج وكان من الشجعان ومن خواص دولتهم وكانا مكتوفين واسحق دون بلوغ فعزم عبد المؤمن أن يعفو عن اسحق لصغر سنه فلم يوافقه خواصه وكان لا يخالفهم فخلى بينهم وبينهما فقتلوهما ثم نزل عبد المؤمن القصر وذلك سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

﴿وقال ابن خلدون﴾ أقام الموحدون على مراكش تسعة أشهر وأمير اللمتين يومئذ اسحق بن على بن يوسف بايعوه صبيا صغيرا عند بلوغ خبر أخيه ولما طال عليهم الحصار وجهدهم الجوع برزوا الى مدافعة الموحدين فانهزموا وتبعهم الموحدون بالقتل واقتحموا عليهم المدينة فى أخريات شوال سنة احدى وأربعين وخمسمائة وقتل عامة اللمتين ونجى اسحق فى جملته وأعيان قومه الى القصبة حتى نزلوا على حكم الموحدين وأحضر اسحق بين يدى عبد المؤمن فقتله الموحدون بأيديهم وتولى كبر ذلك أبو حفص عمر بن واكاك منهم وانمحى أثر اللمتين واستولى الموحدون على جميع البلاد والله غالب على أمره

﴿قال ابن جنون﴾ كانت لمتونة أهل ديانة وصدق ونية خالصة وصحة مذهب ملكوا بالاندلس من بلاد الافرنج الى البحر الغربى المحيط ومن بلاد العدوة من مدينة بجاية الى جبال الذهب من بلاد السودان وخطب لهم على أزيد من ألفى منبر بالتثنية وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن تناهى القمح فى أيامهم الى ان بيع أربعة أوسق بنصف مثقال وبيعت الثمار ثمانية أوسق بنصف مثقال والقطانى لا تباع ولا تشترى وكان ذلك مصحوبا بطول أيامهم ولم يكن فى عمل من أعمالهم خراج ولا معونة ولا تقسيط ولا وظيف من الوظائف المخزنية حاشى الزكاة والعشر وكثرت الخيرات فى دولتهم وعمرت البلاد ووقعت الغبطة ولم يكن فى أيامهم نفاق ولا قطاع طريق ولا من يقوم عليهم وأحبهم الناس الى ان خرج عليهم محمد بن تومرت مهدى الموحدين سنة خمس عشرة وخمسمائة ﴿وأما الاحداث الواقعة فى أيامهم﴾ ففى شهر ذى الحجة من سنة سبع وستين وأربعمائة ظهر النجم المعكف بالمغرب ﴿وفى سنة احدى وسبعين وأربعمائة﴾ كسفت الشمس الكسوف الكلى الذى لم يعهد قبله مثله وكان ذلك يوم الاثنين عند الزوال فى اليوم الثامن والعشرين من الشهر ﴿وفى سنة اثنتين وسبعين بعدها﴾ كانت الزلزلة العظيمة التى لم ير الناس مثلها بالمغرب انهدمت منها الابنية ووقعت الصوامع والمنارات ومات فيها خلق كثير تحت الهدم ولم تزل الزلزلة تتعاقب فى كل يوم وليلة من أول يوم من ربيع

الاول الى آخر يوم من جمادى الآخرة من السنة المذكورة ﴿وفى سنة أربع وسبعين وأربعمائة﴾ ولد الفقيه القاضى أبو عبد الله محمد بن أصبغ المعروف بابن المناصف صاحب الارجوزة ﴿وفى سنة سبع وتسعين وأربعمائة﴾ توفى الفقيه الحافظ أبو عبد الله محمد بن الطلاع ﴿وفى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة﴾ توفى أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن النحوى بقلعة حماد صحب أبا الحسن اللخمى وغيره من المشائخ وكان أبو الفضل من أهل العلم والدين على هدى السلف الصالح وكان مجاب الدعوة ولما أفتى فقهاء المغرب باحراق كتب الشيخ أبى حامد الغزالى رضى الله عنه وأمر أمير المسلمين على بن يوسف بحرقها انتصر أبو الفضل هذا لابى حامد رحمه الله وكتب الى أمير المسلمين فى ذلك وحدث صاحب التشوف وهو أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلى المراكشى الدار عرف بابن الزيات بسنده عن أبى الحسن على بن حرزهم قال لما وصل الى فاس كتاب أمير المسلمين على بن يوسف بالتحريج على كتاب الاحياء وأن يحلف الناس بالايمان المغلظة ان كتاب الاحياء ليس عندهم ذهبت الى أبى الفضل أستفتيه فى تلك الايمان فأفتانى بانها لاتلزم وكانت الى جنبه أسفار فقال لى هذه الاسفار من كتاب الاحياء ووددت انى لم أنظر فى عمرى سواها وكان أبو الفضل قد انتسخ كتاب الاحياء فى ثلاثين جزأ فاذا دخل شهر رمضان قرأ فى كل يوم جزأ ومناقبه كثيرة رحمه الله ﴿قلت﴾ لم يقع فى دولة المرابطين أشنع من هذه النازلة وهى احراق كتاب الاحياء فانه لما وصلت نسخه الى بلاد المغرب تصفحها جماعة من فقهائه منهم القاضى أبو القاسم بن حمدين فانتقدوا فيها أشياء على الشيخ أبى حامد رضى الله عنه وأعلموا السلطان بامرها وأفتوه بانه يجب احراقها ولا تجوز قراءتها بحال وكان على بن يوسف واقفا كأبيه عند اشارة الفقهاء وأهل العلم قد رد جميع الاحكام اليهم فلما أفتوه باحراق كتاب الاحياء كتب الى أهل مملكته فى سائر الامصار والاقطار بان يبحث عن نسخ الاحياء بحثا أكيدا ويحرق ما عثر عليه منها فجمع من نسخها عدد كثير ببلاد الاندلس ووضعت بصحن جامع قرطبة وصب عليها الزيت ثم أوقد عليها بالنار وكذا فعل بما ألفى من نسخها بمراكش وتولى الاحراق عليها فى سائر بلاد المغرب ويقال ان ذلك كان فى حياة الشيخ أبى حامد رحمه الله وانه دعا بسبب ذلك على المرابطين أن يمزق ملكهم فاستجيب له فيهم فان كان كذلك فتاريخ الاحراق يكون فيما بين الخمسمائة والخمس بعدها لان بيعة على بن يوسف كانت على رأس الخمسمائة ووفاة الشيخ أبى حامد الغزالى رضى الله عنه كانت يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة ﴿وفى سنة ست وثلاثين وخمسمائة﴾ توفى الفقيه الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى ابن عطاء الله الصنهاجى المعروف بابن العريف كان متناهيا فى الفضل والدين والزهد فى الدنيا منقطعا الى الخير يقصده الناس ويألفونه فيحمدون صحبته وسعى به الى أمير المسلمين على بن يوسف فأمر باشخاصه الى حضرة مراكش فوصلها وتوفى بها ليلة الجمعة الثالث والعشرين من صفر من السنة المذكورة واحتفل الناس لجنازته وندم أمير المسلمين على ما كان منه له فى حياته وظهرت له كرامات رحمه الله ودفن بقرب الجامع القديم الذى بوسط مراكش فى روضة القاضى موسى بن أحمد الصنهاجى ﴿قلت﴾ وقبره الآن مشهور بسوق العطارين من مراكش عليه بناء حفيل وفى هذه السنة أيضا أعنى سنة ست وثلاثين وخمسمائة توفى أبو الحكم بن برجان ﴿قال ابن خلكان﴾ هو أبو الحكم عبد السلام ابن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن اللخمى عرف بابن برجان بفتح الباء الموحدة وتشديد الراء وبعدها جيم وبعد الالف نون وكان عبدا صالحا وله تفسير القرآن الكريم وأكثر كلامه فيه على طريق أرباب الاحوال والمقامات اه (وقال فى التشوف) لما أشخص أبو الحكم بن برجان من قرطبة الى حضرة مراكش وكان فقهاء العصر انتقدوا عليه مسائل قال أبو الحكم والله لا عشت ولا عاش الذى أشخصنى بعد موتى يعنى أمير المسلمين على بن يوسف فمات أبو الحكم فأمر أمير المسلمين أن يطرح على المزبلة ولا يصلى

عليه وقلد فيه من تكلم فيه من الفقهاء وكان أبو الحسن علي بن حرزهم يومئذ بمراكش فدخل عليه رجل أسود كان يخدمه ويحضر مجالسه فأخبره بما أمر به السلطان في شأن أبي الحكم فقال له أبو الحسن ان كنت تبيع نفسك من الله فافعل ما أقول لك فقال له مرني بما شئت أفعله فقال له تنادي في طرق مراكش وأسواقها يقول لكم ابن حرزهم احضروا جنازة الشيخ الفقيه الصالح الزاهد أبي الحكم بن برّجان ومن قدر على حضورها ولم يحضر فعليه لعنة الله ففعل ما أمره فبلغ ذلك أمير المسلمين فقال من عرف فضله ولم يحضر جنازته فعليه لعنة الله ﴿قال ابن عبد الملك في كتاب الذيل والتكملة﴾ أبو الحكم بن برّجان مدفون بمراكش برحبة الحنطة منها قال وهو الذي تقول له العامة سيدي أبو الرجال وكان الشيخ أبو ينور المشترائي موجودا في هذه المدّة الا اني لم أقف على تاريخ وفاته ﴿قال في التشوّف﴾ هو أبو ينور عبد الله بن واكريس الدكالي من مشترائية من أشياخ أبي شعيب أيوب السارية كبير الشأن من أهل الزهد والورع حدّثوا عنه انه مات أخوه فتزوج امرأته فقدّمت اليه طعاما ياكله فوقع في نفسه ان فيه نصيب الايتام الذين هم أولاد أخيه فأمسك عنه وبات طاويا وجاءه رجل من أشياخ مشترائية فقال له ان عامل علي بن يوسف تهددني بالقتل والصلب وقد خرج من مراكش متوجها الى دكالة فقال له أبو ينور رده الله عنك فسار الى ان بقي بينه وبين قرية يليسكاون وهي التي تسميها العامة بوسكاون نصف يوم فأصاب العامل وجع قضى عليه من حينه ﴿وفي سنة تسع وثلاثين وخمسمائة﴾ ثار القاضي أبو القاسم بن حمدين بقرطبة مع العامة على المرابطين فقتلهم والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

﴿الخبر عن دولة الموحدين من المصامدة وقيامها على يد محمد بن تومرت المعروف بالمهدي﴾

﴿قال ابن خلدون﴾ كان للمصامدة في صدر الاسلام بجبال درن عدد وقوّة وطاعة للدين ومخالفة لاخوانهم برغواطة في نحلة كفرهم وكان منهم قبل الاسلام ملوك وأمراء ولهم مع لمتونة ملوك المغرب حروب وفتن سائر أيامهم حتى كان اجتماعهم على المهدي وقيامهم بدعوته فكانت لهم دولة عظيمة أدالت من لمتونة بالعدوتين ومن صنهاجة بافريقية حسبما هو مشهور ويأتي ذكره ان شاء الله تعالى ﴿قال﴾ وأصل المهدي من هرغة من بطون المصامدة يسمى أبوه عبد الله وتومرت وكان يلقب في صغره أيضا أمغار وزعم كثير من المؤرخين أن نسبه في أهل البيت فبعضهم ينسبه الى سليمان بن عبد الله الكامل ابن حسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب وبعضهم ينسبه الى العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب والله أعلم بحقيقة الامر وكان أهل بيته أهل نسك ورباط وكانت ولادته على ما عند ابن خلكان يوم عاشوراء سنة خمس وثمانين وأربعمائة وشب المهدي قارئا محبا للعلم ثم ارتحل في طلبه الى المشرق على رأس المائة الخامسة ومر بالاندلس ودخل قرطبة وهي يومئذ دار علم ثم لحق بالاسكندرية وحج ودخل العراق ولقي بها جملة من العلماء وفحول النظار وأفاد علما واسعا وكان يحدث نفسه بالدولة لقومه على يده ولقي أبا حامد الغزالي وفاوضه بذات صدره في ذلك فأراده عليه ﴿قال ابن خلكان﴾ اجتمع محمد بن تومرت بأبي حامد الغزالي والكيا الهراسي والطرطوشي وغيرهم وحج وأقام بمكة مدة مديدة وحصل قدرا صالحا من علم الشريعة والحديث النبوي وأصول الفقه والدين وكان ورعا ناسكا متقشفا مخشوشنا مخلولقا كثير الاطراق بساما في وجوه الناس مقبلا على العبادة لا يصحبه من متاع الدنيا الا عصا وركوة وكان شجاعا فصيحا في لساني العرب والبربر شديد الانكار على الناس فيما يخالف الشرع لا يقنع في أمر الله بغير اظهاره وكان مطبوعا على الالتذاذ بذلك متحملا للاذى من الناس بسببه وناله بمكة شرفها الله شئ من المكروه من أجل ذلك فخرج منها الى مصر وبالغ في الانكار فزادوا في أذاه

وطردته الدولة وكان اذا خاف من البطش وايقاع الفعل به خلط فى كلامه فينسب الى الجنون فخرج من مصر الى الاسكندرية وركب البحر متوجها الى بلاده وكان قد رأى فى منامه وهو فى بلاد المشرق كأنه شرب ماء البحر جميعه كرتين فلما ركب السفينة شرع فى تغيير المنكر على أهل السفينة وألزمهم اقامة الصلوات وقراءة أحزاب من القرآن العظيم ولم يزل على ذلك حتى انتهى الى المهدية من أرض افريقية وكان ملكها يومئذ يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى وذلك فى سنة خمس وخمسمائة هكذا ذكره ابن أخيه أبو محمد عبد العزيز بن شداد بن تميم الصنهاجى فى كتاب الجمع والبيان فى أخبار القيروان وقيل ان ارتحال محمد بن تومرت عن بلاد المشرق كان سنة عشر وخمسمائة واجتيازه بمصر كان سنة احدى عشرة بعدها والله أعلم بالصواب ولما انتهى الى المهدية نزل بمسجد معلق وهو على الطريق وجلس فى طاق شارع الى المحجة ينظر الى المارة فلا يرى منكرا من آلة الملاهى أو أوانى الخمر الا نزل اليها وكسرها فتسامع الناس به فى البلد فجاؤا اليه وقرؤا عليه كتبا من أصول الدين فبلغ خبره الامير يحيى فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء فلما رأى سمته وسمع كلامه أكرمه وأجله وسأله الدعاء فقال له أصلحك الله لرعيتك ولم يقم بعد ذلك بالمهدية الا أياما يسيرة ثم انتقل الى بجاية فأقام بها مدة وهو على حاله فى الانكار فاخرج منها الى بعض قراها واسمها ملالة فوجد بها عبد المؤمن بن على القيسى الكومى ﴿وقال ابن خلدون﴾ انطوى المهدى راجعا الى المغرب بحرا متفجرا من العلم وشهابا واريا من الدين وكان قد لقى بالمشرق أئمة الاشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقهم فى الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة فى صدر أهل البدعة وذهب الى رأيهم فى تأويل المتشابه من الآى والاحاديث بعد ان كان أهل المغرب بمعزل عن اتباعهم فى التأويل والاخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف فى ترك التأويل واقرار المتشابهات كما جاءت فبطر المهدى أهل المغرب فى ذلك وحملهم على القول بالتأويل والاخذ بمذاهب الاشعرية فى كافة العقائد وأعلن بامامتهم و وجوب تقليدهم وألف العقائد على رأيهم مثل المرشدة فى التوحيد وكان من رأيه القول بعصمة الامام على رأى الامامية من الشيعة ولم تحفظ عنه فلتة فى البدعة سواها واحتل بطرابلس الغرب معنيا بمذهبه ذلك مظهرا للنكير على علماء المغرب فى عدولهم عنه آخذا نفسه بتدريس العلم والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ما استطاع حتى لقى بسبب ذلك اذايات فى نفسه احتسبها من صالح عمله ولما دخل بجاية وبها يومئذ العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد من أمراء صنهاجة وكان من المترفين فأغلظ له ولاتباعه بالنكير وتعرض يوما لتغيير بعض المنكرات فى الطرق فوقعت بسببها هيعة نكرها السلطان والخاصة وائتمروا به فخرج منها خائفا يترقب ولحق بملالة على فرسخ منها وبها يومئذ بنو وريا كل من قبائل صنهاجة وكان لهم اعتزاز ومنعة فآووه وأجاروه وطلبهم السلطان صاحب بجاية باسلامه اليه فأبوا وأسخطوه وأقام بينهم يدرس العلم أياما وكان يجلس اذا فرغ على صخرة بقارعة الطريق قريبا من ديار ملالة وهنالك لقيه كبير أصحابه عبد المؤمن بن على حاجا معه فأعجب بعلمه وصرف عزمه اليه فاختص به وشمر للاخذ عنه ﴿وفى كتاب المعرب عن سيرة ملوك المغرب﴾ ان المهدى كان قد اطلع على كتاب يسمى الجفر من علوم أهل البيت يقال انه عثر عليه عند الشيخ أبى حامد الغزالى رضى الله عنه وانه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الاقصى بمكان يسمى السوس وهو من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الله يكون مقامه ومدفنه بموضع من المغرب يسمى باسم هجاء حروفه ت ى ن م ل ل ورأى فيه أيضا ان استقامة ذلك الامر واستيلاءه وتمكنه يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه ع ب د م و م ن ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة فأوقع الله سبحانه فى نفسه انه القائم بهذا الامر وان أوانه قد أزف فما كان محمد يمر بموضع الا ويسأل عنه ولا يرى أحدا الا أخذ اسمه وتفقد حليته وكانت حلية عبد المؤمن معه فبينما هو فى الطريق رأى شابا قد بلغ أشده على الصفة التى

معه فقال له محمد بن تومرت وقد تجاوزه ما اسمك يا شاب فقال عبد المؤمن فرجع اليه وقال له الله أكبر أنت بغيتي ونظر في حليته فوافقت ما عنده فقال له من أين أقبلت قال من كومية قال أين مقصدك فقال المشرق قال ما تبغي قال علما وشرفا قال قد وجدت علما وشرفا وذكرا اصحبني تنله فوافقه على ذلك فالقى محمد اليه بامره وأودعه سره ﴿قال ابن خلدون﴾ وارتحل المهدي الى المغرب وعبد المؤمن في جملته ولحق بوانشريس فصحبه منها أبو محمد عبد الله الوانشريسي المعروف بالبشير ﴿قال ابن خلكان﴾ وكان جميلا فصيحا في لغتي العرب والبربر ففاوضه المهدي فيما عزم عليه من القيام فوافقه على ذلك أتم موافقة وكان البشير ممن تهذب وقرأ فقها فتذاكرا يوما في كيفية الوصول الى المطلوب فقال المهدي للبشير أرى أن تستر ما أنت عليه من العلم والفصاحة عن الناس وتظهر من العجز واللكن والحصر والتعري عن الفضائل ما تشتهر به عند الناس لتتخذ الخروج عن ذلك واكتساب العلم والفصاحة دفعة واحدة سبيلا الى المطلوب ويقوم لنا ذلك مقام المعجزة عند حاجتنا اليه فنصدق فيما نقول ففعل البشير ذلك ثم لحق المهدي بتلمسان وقد تسامع الناس بخبره فاحضره القاضي بها وهو ابن صاحب الصلاة ووبخه على منتحله ذلك وعلى خلافه لاهل قطره وظن القاضي ان من العدل نزعه عن ذلك فصم عن قوله واستمر على طريقه الى فاس فنزل بمسجد طريانة وأقام بها يدرس العلم الى سنة أربع عشرة وخمسمائة ثم انتقل الى مكناسة فنهى بها عن بعض المنكرات فثار اليه الغوغاء وأوجعوه ضربا ثم لحق بمراكش وأقام بها آخذا في شأنه واتى بها أمير المسلمين علي بن يوسف بالمسجد الجامع عند صلاة الجمعة فوعظه وأغلظ له في القول واتى ذات يوم أخت أمير المسلمين حاسرة قناعها على عادة قومها الملثمين في زي نسائهم فوبخها ودخلت على أخيها باكية لما نالها من تقريعه ففاوض أمير المسلمين الفقهاء في شأنه بما وصل اليه من سيرته وكانوا قد ملئوا منه حسدا وحفيظة لما كان ينتحل من مذهب الاشعرية في تأويل المتشابه وينكر عليهم جمودهم على مذهب السلف في اقراره كما جاء ويرى ان الجمهور لقنوه تجسيما ويذهب الى تكفيرهم بذلك على أحد قولي الاشعرية في التكفير فأغروا الامير به فاحضره للمناظرة معهم فكان له الفلج والظهور عليهم ﴿وقال ابن خلكان﴾ كان محمد المهدي قد استدنى أشخاصا من أهل المغرب جلادا في القوى الجسمانية أغمارا وكان أميل الى الاغمار من أولي الفطن والاستبصار فاجتمع له منهم ستة نفر سوى أبي محمد البشير ثم انه رحل الى أقصى المغرب وتوجه في أصحابه الى مراكش وملكها يومئذ أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين وكان ملكا عظيما حليما ورعا عادلا متواضعا وكان بحضرته رجل يقال له مالك بن وهيب الاندلسي وكان عالما صالحا زاد ابن خلدون عارفا بالنجوم فشرع محمد المهدي في الانكار على جري عادته حتى أنكر على ابنة الملك فبلغ خبره الملك وأنه يتحدث في تغيير الدولة فتحدث مع مالك بن وهيب في أمره فقال مالك ابن وهيب نخاف من فتح باب يعسر علينا سده والرأي ان تحضر هذا الشخص وأصحابه لنسمع كلامهم بحضور جماعة من علماء البلاد فأجاب الملك الى ذلك وكان المهدي وأصحابه مقيمين في مسجد خراب خارج البلد فطلبوهم فلما ضمهم المجلس قال الملك لعلماء بلده سلوا هذا الرجل ما يبغي منا فانتدب له قاضي المرية واسمه محمد بن اسود فقال ما هذا الذي يذكر عنك من الاقوال في حق الملك العادل الحليم المنقاد الى الحق المؤثر طاعة الله تعالى على هواه فقال له المهدي أما ما نقل عني فقد قلته ولي من ورائه أقوال وأما قولك انه يؤثر طاعة الله على هواه وينقاد الى الحق فقد حضر اعتبار صحة هذا القول عنه ليعلم بتعريه عن هذه الصفة انه مغرور بما تقولون له وتطرونه به مع علمكم ان الحجة متوجهة عليه فهل بلغك يا قاضي ان الخمر تباع جهارا وتمشي الخنازير بين المسلمين وتؤخذ أموال اليتامى وعدد من ذلك شيئا كثيرا فلما سمع الملك كلامه ذرفت عيناه وأطرق حياء ففهم الحاضرون من فحوى كلامه انه طامع في المملكة لنفسه ولما رأوا سكوت الملك وانخداعه لقوله لم يتكلم أحد منهم فقال مالك بن وهيب

وكان كثير الاجتراء على الملك أيها الملك ان عندى لنصيحة ان قبلتها حمدت عاقبتها وان تركتها لم تأمن غائلتها فقال الملك ماهى فقال انى أخاف عليك من هذا الرجل وأرى ان تعتقله وأصحابه وتنفق عليهم كل يوم دينار التكفى شره وان لم تفعل فلتنفقن عليه خزائنك كلها ثم لا ينفعك ذلك فوافقه الملك على رأيه فقال له وزيره يقبح بك أن تبكى من موعظة رجل ثم تسىء اليه فى مجلس واحد وان ظهر منك الخوف منه على عظم ملكك وهو رجل فقير لا يملك سد جوعته فلما سمع الملك كلامه أخذته عزة النفس واستهون أمره فصرفه وسأله الدعاء ﴿وقال ابن خلدون﴾ كان مالك بن وهيب حزاء ينظر فى النجوم وكان الكهان يتحدثون بأن ملكا كائن بالمغرب فى أمة من البربر ويتغير فيه شكل السكة لقران بين الكوكبين العلويين من السيارة يقتضى ذلك فقال مالك بن وهيب احتفظوا بالدولة من الرجل فانه صاحب القران والدرهم المربع فطلبه على بن يوسف ففقده وسرح الخيالة فى طلبه ففاتهم ﴿وحكى صاحب المعرب﴾ ان المهدى لما خرج من عند أمير المسلمين لم يزل وجهه تلقاء وجهه الى ان فارقه فقيل له تراك قد تأدبت مع الملك اذلم توله ظهرك فقال أردت أن لا يفارق وجهى الباطل حتى أغيره ما استطعت اهـ كلامه فلما خرج المهدى وأصحابه من عند الملك قال لهم لا مقام لكم هنا بمراكش مع وجود مالك بن وهيب فانا نأمن أن يعاود الملك فى أمرنا فينالنا منه مكروه وان لنا بمدينة أغمات أخا فى الله فنقصد المرور به فلن نعدم منه رأيا ودعاء صالحا واسم هذا الشخص عبد الحق بن ابراهيم وهو من فقهاء المصامدة فخرجوا اليه ونزلوا عليه وأخبره محمد بن تومرت خبرهم وأطلعه على مقصدهم وماجرى لهم مع الملك فقال عبد الحق هذا الموضع لا يحميكم وان أحصن المواضع المجاورة لهذا البلد تينملل وبيننا وبينها مسافة يوم فى هذا الجبل فانقطعوا فيه برهة ريثما يتناسى ذكركم فلما سمع المهدى بهذا الاسم تجدد له ذكر اسم الموضع الذى رآه فى كتاب الجفر فقصده مع أصحابه ﴿وقال ابن خلدون﴾ لما لحق المهدى باغمات غير المنكرات على عادته فأغرى به أهل أغمات على بن يوسف وطيروا اليه بخبره فخرج منها هو وتلامذته الذين كانوا معه فى صحبته فلحق أولا بمسفيوة ثم بهنتاتة ولقيه بها الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس وافريقية ثم ارتحل المهدى عنهم الى هرغة فنزل على قومه وذلك سنة خمس عشرة وخمسمائة وبنى رابطة للعباد فاجتمع عليه الطلبة من القبائل وأخذ يعلمهم المرشدة له فى التوحيد باللسان البربرى وشاع أمره ثم داخل عامل لمتونة على السوس اناسا من هرغة فى قتله ونذر بهم اخوانهم فنقلوا المهدى الى معقل من أشياعهم وقتلوا من داخل فى أمره ودعوا المصامدة الى مبايعته على التوحيد وقتال المجسمة دونه سنة خمس عشرة وخمسمائة فتقدم اليهار جالاتهم من العشرة وغيرهم وكان فيهم من هنتاتة أبو حفص عمر بن يحيى وأبو يحيى بن بكيت ويوسف بن واودين وابن يغمور ومن تينملل أبو حفص عمر بن على الصنا كى ومحمد بن سليمان وعمر بن تافراكين وغيرهم وأوعبت قبيلة هرغة فدخلوا فى أمره كلهم ثم دخل معهم كدميوة وكنفيسة ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدى وكان قبلها يلقب بالامام وكان يسمى أصحابه الطلبة وأهل دعوته الموحدين تعريضا بلمتونة فى أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم الى التجسيم ولما تم له من أصحابه خمسون سماهم آية الخمسين ثم زحف اليهم عامل لمتونة على السول وهم بمكانهم من هرغة فاستجاشوا اخوانهم من هنتاتة وتينملل فاجتمعوا اليهم وأوقعوا بعسكر لمتونة فكانت تلك باكورة الفتح وكان المهدى يعدهم بذلك فاستبصروا فى أمره وتسابقت كافتهم الى الدخول فى دعوته وترددت اليهم عساكر لمتونة مرة بعد أخرى ففضوهم وانتقل لثلاث سنين من بيعته الى جبل تينملل فأوطنه وبنى داره ومسجده بينهم وحوالى منبع وادى نفيس قاتل من تخلف عن بيعته من المصامدة استقاموا له هذا كلام ابن خلدون فى سياقه هذا الخبر جئنا به مختصرا واقتضى كلام ابن خلكان

أن ظهور المهدى ومبايعته لم تكن الا بتينملل فانه قال عقب ما سبق له من ان الفقيه عبد الحق بن ابراهيم المصمودى أشار على المهدى بالمسير الى تينملل وان المهدى لما سمع هذا الاسم تجدد له ذكر فيه فقصده مع أصحابه فلما أتوه رآهم أهله على تلك الصورة فعلموا انهم طلاب علم فقاموا اليهم وأكرموهم وتلقوهم بالترحاب وأنزلوهم فى أكرم منازلهم وسأل أمير المسلمين عنهم بعد خروجهم من مجلسه فقيل له انهم سافروا فسره ذلك وقال تخلصنا من الاثم بحبسهم ثم ان أهل الجبل تسامعوا بوصول المهدى اليهم وكان قد سار فيهم ذكره فجاؤه من كل فج عميق وتبركوا بزيارته وكان كل من أتاه استدناه وعرض عليه ما فى نفسه من الخروج على السلطان فان أجابه أضافه الى خواصه وان خالفه أعرض عنه وكان يستميل الاحداث وذوى الغرة وكان ذوو الحنكة والعقل والحلم من أهاليهم ينهونهم ويحذرونهم من اتباعه ويخوفونهم سطوة السلطان فكان لا يتم له مع ذلك أمر وطالت المدة وخاف المهدى من مفاجأة الاجل قبل بلوغ الامل وخشى ان يطرأ على أهل الجبل من جهة الملك ما يحوجهم الى اسلامه اليه والتخلى عنه فشرع فى اعمال الحيلة فيما يشاركونه فيه ليعصوا على الملك بسببه فرأى بعض أولاد القوم شقرا زرقا وألوان آبائهم السمرة والكحل فسألهم عن سبب ذلك فلم يجيبوه فألزمهم الاجابة فقالوا نحن من رعية هذا الملك وله علينا خراج وفى كل سنة تصعد مماليكه الينا وينزلون فى بيوتنا ويخرجوننا عنها ويخلون بمن فيها من النساء فتأتى أولادنا على هذه الصفة ومالنا قدرة على دفع ذلك عنا فقال المهدى والله ان الموت خير من هذه الحياة وكيف رضيتم بهذا وأنتم أضرب خلق الله بالسيف وأطعنهم بالرمح فقالوا بالرغم لا بالرضى فقال أرأيتم لو ان ناصرا نصركم على أعدائكم ما كنتم تصنعون قالوا كنا نقدم أنفسنا بين يديه للموت ثم قالوا ومن هو قال ضيفكم يعنى نفسه فقالوا السمع والطاعة وكانوا يغالون فى تعظيمه فأخذ عليهم العهود والمواثيق واطمأن قلبه ثم قال لهم استعدوا لحضور هؤلاء بالسلاح فاذا جاؤكم فأجروهم على عادتهم وخلوا بينهم وبين النساء وميلوا عليهم بالخمور فاذا سكروا فآذنونى بهم فلما حضر المماليك وفعل بهم أهل الجبل ما أشار به المهدى وكان ذلك ليلا أعلموه بذلك فأمر بقتلهم كلهم فلم يمض من الليل ساعة حتى أتوا على آخرهم ولم يفلت منهم سوى مملوك واحد كان خارج المنازل لحاجة له فسمع التكبير عليهم والايقاع بهم فهرب على غير الطريق حتى خاص من الجبل ولحق بمراكش فأخبر الملك بما جرى فندم على فوات محمد بن تومرت من يده وعلم ان الحزم كان مع مالك بن وهيب فيما أشار به فجهز من وقته خيلا بمقدار ما يسع وادى تينملل فانه ضيق المسلك وعلم المهدى انه لا بد من عسكر يصل اليهم فأمر أهل الجبل بالقعود على أنقاب الوادى ومراصده واستنجد لهم بعض المجاورين فلما وصلت الخيل اليهم أقبلت عليهم الحجارة من جانبى الوادى مثل المطر وكان ذلك من أول النهار الى آخره وحال بينهم الليل فرجع العسكر الى الملك وأخبروه بما تم لهم فعلم انه لا طاقة له بأهل الجبل لتحصنهم فاعرض عنهم وتحقق المهدى ذلك منه وصفت له مودة أهل الجبل فعند ذلك استدعى أبا محمد البشير وقال له هذا أوان اظهار فضائلك دفعة واحدة ليقوم لك مقام المعجزة لنستميل بذلك قلوب من لم يدخل فى الطاعة ثم اتفقا على أنه يصلى الصبح ويقول بلسان فصيح بعد استعمال العجمة واللكنة فى تلك المدة انى رأيت البارحة فى منامى انه نزل الى ملكان من السماء وشقا فؤادى وغسلاه وحشواه علما وحكمة وقرآنا فلما أصبح فعل ذلك وهو فصل يطول شرحه فانقاد له كل صعب القياد وعجبوا من حاله وحفظه القرآن فى النوم فقال له محمد بن تومرت فعجل لنا البشرى فى أنفسنا وعرفنا أسعداء نحن أم أشقياء فقال له أما أنت فانك المهدى القائم بامر الله ومن تبعك سعد ومن خالفك هلك ثم قال اعرض أصحابك على حتى أميز أهل الجنة من أهل النار وعمل فى ذلك حيلة قتل بها كل من خالف أمر محمد بن تومرت وأبقى من أطاعه وشرح ذلك يطول وكان غرضه أن لا يبقى فى الجبل مخالفا لهم فلما قتل من قتل علم محمد بن تومرت

ان فى الباقين من له أهل وعشيرة قتلوا وانهم لا تطيب نفوسهم بذلك فجمعهم و بشرهم بانتقال ملك مراكش اليهم واغتنام أموالهم فسرهم ذلك وسلاهم عن أهلهم (وبالجملة) فان تفصيل هذه الواقعة طويل وليس نابصدد ذلك وخلاصة الامر ان محمد بن تومرت لم يزل حتى جهز جيشا عدد رجاله عشرة آلاف بين فارس وراجل وفيهم عبد المؤمن بن على وأبو محمد البشير وأصحابه كلهم وأقام هو بالجبل فنزل القوم لحصار مراكش وأقاموا عليها شهرا ثم كسروا كسرة شنيعة وهرب من سلم منهم من القتل وكان فيمن سلم عبد المؤمن وقتل البشير وبلغ الخبر المهدى وهو بالجبل وقد حضرته الوفاة قبل عود أصحابه اليه فاوصى من حضر ان يبلغ الغائبين ان النصر لهم وان العاقبة حميدة فلا يضجروا وليعاودوا القتال فان الله سبحانه وتعالى سيفتح على أيديهم وان الحرب سجال وانكم ستقوون ويضعفون ويقلون وتكثرون وأنتم فى مبدأ أمر وهم فى آخره وأشباه هذه الوصايا وهى وصية طويلة اه كلام ابن خلكان

(وقال ابن خلدون) لما كان شأن أبى محمد البشير وميز الموحد من المنافق اعتزم المهدى على غزو لمتونة فجمع كافة أهل دعوته من المصامدة وزحف اليهم فلقوه بكيكب وهزمهم الموحدون واتبعوهم الى أغمات فلقيتهم هنالك زحوف لمتونة مع أبى بكر بن على بن يوسف وابراهيم بن تاعماشت فهزمهم الموحدون وقتل ابراهيم وجنده واتبعوهم الى مراكش فنزلوا البحيرة فى زهاء أربعين الفا كلهم راجل الا أربعمائة فارس واحتفل على بن يوسف فى الاحتشاد وبرز اليهم لاربعين من نزولهم خرج عليهم من باب آيلان فهزمهم وأثخن فيهم قتلا وسبيا وفقد البشير واستحر القتل فى هيلانة وأبلى عبد المؤمن فى ذلك اليوم أحسن البلاء وقيل للمهدى ان الموحدين قد هلكوا فقال لهم مافعل عبد المؤمن قالوا هو على جواده الادهم قد أحسن البلاء فقال مابقى عبد المؤمن فلم يهلك أحد (وقال ابن الخطيب فى رقم الحلل) كانت وقعة البحيرة باحواز مراكش قد استأصلت معظم أصحاب المهدى وكادت تأتى عليهم ومع ذلك فلم تضع منه ولا وهنت صبره وكان يقول مثل هذا الامر كالفجر يتقدمه الفجر الكاذب وبعده ينبلج الصبح ويستعلى الضوء ويأمرهم باتخاذ مرابط الخيل التى ينالون من فىء عدوهم بعدها وانه يعطى الرجل على قدر ما أعد من المرابط الى غير ذلك فهذا خبر المهدى مختصرا من ابن خلدون وغيره وجانقله ابن خلكان من ذلك وقد ساق ابن أبى زرع فى القرطاس خبر المهدى هذا وفيه بعض مخالفة لما تقدم فلنأت به وان أدى الى بعض التكرار زيادة فى الامتاع وتحلية للاسماع فنقول

(قال ابن أبى زرع ما ملخصه) ان المهدى رحل الى المشرق فى طلب العلم ولقى مشايخ وسمع منهم وأخذ عنهم علما كثيرا وحفظ جملة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ونبغ فى علم الاصول والاعتقادات وكان فى جملة من لقى من العلماء الشيخ أبو حامد الغزالى رضى الله عنه لازمه ثلاث سنين وكان الشيخ أبو حامد كثيرا مايشير الى المهدى ويقول انه لابد أن يكون له شأن ونمى الخبر بذلك الى المهدى فلم يزل يتقرب الى الشيخ بأنواع الخدمة حتى أطلعه على ما عنده من العلم فى ذلك فلما تحققت عنده الحال استخار الله وعزم على الترحال فخرج قاصدا بلاد المغرب غرة ربيع الاول سنة عشر وخمسمائة ولازم فى طريقه درس العلم والامر بالمعروف والنهى عن المنكر الى ان اجتمع به عبد المؤمن بن على فبايعه على موازرته فى الشدة والرخاء والعسر واليسر ثم قدم بلاد المغرب واستقر بمراكش وكانت له فصاحة وعليه مهابة فاخذ يطعن على المرابطين وينسبهم الى الكفر والتجسيم ويشيع عند من يثق به ويسكن اليه انه المهدى المنتظر الذى يملأ الارض عدلا كما ملئت جورا وجرى منه بمراكش من تغيير المنكر ونحوه ماتقدم ذكره فاتصل خبره بعلى بن يوسف اللمتونى فأحضره وقال له ماهذا الذى بلغنا عنك فقال انما أنا رجل فقير طلب الآخرة وآمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأنت أيها الملك أولى من يفعل ذلك فانك المسؤل عنه وقد ظهرت بمملكتك المنكرات وفشت البدع وقد وجب عليك احياء السنة واماتة البدعة وقد عاب الله

تعالى أمة تركوا النهي عن المنكر فقال كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون فلما سمع أمير المسلمين كلامه تأثر له وأخذه وأطرق مفكرا ثم أمر باحضار الفقهاء فحضر منهم ما أغص المجلس ثم قال أمير المسلمين اختبروا الرجل فان كان عالما اتبعناه والا أدبناه وكان المهدى فصيحا لسنا ذا معرفة بالاصول والجدل وكان الفقهاء الذين حضروا أصحاب حديث وفروع فدارت بينهم محاورة ومذاكرة أسكتهم فيها وبان عجزهم عنه فعدلوا عن المذاكرة الى الممالاة وأغروا به أمير المسلمين وقالوا هذا رجل خارجى وان بقى بالمدينة أفسد عقائد أهلها فأمره أمير المسلمين بالخروج من البلد فخرج الى الجبانة وضرب بها خيمة جلس فيها وصار الطلبة يترددون اليه لاخذ العلم عنه فكثر جمعه وأحبته العامة وعظموه وانتهى خبره الى أمير المسلمين ثانيا ونقل اليه أنه يطعن على الدولة فأحضره مرة أخرى وقال له أيها الرجل اتق الله فى نفسك ألم أنهك عن عقد الجموع والمحازب وأمرتك بالخروج من البلد فقال أيها الملك قد امتثلت أمرك وخرجت من المدينة الى الجبانة واشتغلت بما يعنينى فلا تسمع لاقوال المبطلين فتوعده أمير المسلمين وهم بالقبض عليه ثم عصمه الله منه ليقضى الله أمرا كان مفعولا ولما انفصل المهدى عن المجلس أغرى الحاضرون أمير المسلمين به وشرحوا له جلية أمره وما يدعو اليه فاستدرك أمير المسلمين فيه رأيه وبعث اليه من يأتيه برأسه فسمع بذلك بعض بطانته فر مسرعا حتى اذا قرب من الخيمة قرأ قوله تعالى ياموسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك الآية فسمعها المهدى وفطن لها فانسل من حينه وخرج حتى أتى تينملل فأقام بها وذلك فى شوال سنة أربع عشرة وخمسمائة ثم لحق به أصحابه العشرة السابقون الى دعوته والمصدقون بامامته وهم عبد المؤمن بن على الكومى وأبو محمد البشير الوانشريسى وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى وأبو يحيى بن يكيت الهنتاتى وأبو حفص عمر بن على آصنالك وابراهيم بن اسمعيل الخزرجى وأبو محمد عبد الواحد الحضرمى وأبو عمران موسى بن تمار وسليمان ابن خلوف وعاشر فأقاموا بتينملل الى رمضان من سنة خمس عشرة وخمسمائة فعظم صيته بجبل درن وكثرت أتباعه فلما رأى ذلك أظهر دعوته ودعا الناس الى بيعته فبايعه العشرة البيعة الخاصة عقب صلاة الجمعة خامس عشر رمضان من السنة ولما كان الغد وهو يوم السبت خرج المهدى فى أصحابه العشرة متقلدين السيوف وتقدم الى الجامع فصعد المنبر وخطب الناس وأعلمهم انه المهدى المنتظر ودعاهم الى بيعته فبايعوه البيعة العامة ثم بث دعاته فى بلاد المصامدة يدعون الناس الى بيعته ويزرعون محبته فى قلوبهم بالثناء عليه ووصفه بالزهد وتحرى الحق واظهار الكرامات فانثال الناس عليه من كل جهة وسمى أتباعه الموحدين ولقنهم عقائد التوحيد باللسان البربرى وجعل لهم فيه الاعشار والاحزاب والسور وقال من لايحفظ هذا التوحيد فليس بموحد لا تجوز امامته ولا تؤكل ذبيحته فاستولت محبته على قلوبهم وعظموه ظاهرا وباطنا حتى كانوا يستغيثون به فى شدائدهم ويفوهون باسمه على منابرهم ولم تزل الوفود تترادف عليه حتى اجتمع عليه جم غفير فلما علم ان ناموسه قد رسخ وسلطانه قد تمكن قام فيهم خطيبا وندبهم الى جهاد المرابطين وأباح لهم دماءهم وأموالهم فانتدب الناس لذلك وبايعوه على الموت فانتخب منهم عشرة آلاف من أنجاد الموحدين وقدم عليهم أبا محمد البشير وعقد له راية بيضاء ودعا لهم وانصرفوا فقصدوا الى مدينة أغمات وانتهى الخبر الى أمير المسلمين فجهز لقتالهم جيشا من الحشم والاجناد فلما التقوا انتصر عليهم الموحدون وهزموهم واتبعوهم بالسيف حتى أدخلوهم مراكش وحاصروها أياما ثم أفرجوا عنها حين تكاثرت عليهم جيوش لمتونة وكان ذلك ثالث شعبان سنة ست عشرة وخمسمائة وقسم المهدى الغنائم التى غنموها من عسكر المرابطين وتلى عليهم قوله تعالى وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه الآية وانتشر ذكر المهدى بجميع أقطار المغرب والاندلس وأركب جل جيشه من خيل المرابطين

التى غنموها ثم غزا مراكش بنفسه فعبأ جيشه وسار حتى نزل بجبل كيليز بقرب المدينة فأقام محاصرا لها ثلاث سنين يباكرها بالقتال ويراوحها من سنة ست عشرة الى سنة تسع عشرة ولما ضجر من مقامه هنالك نهض الى وادى نفيس وانحدر مع مسيله يدعو الناس لطاعته ويقاتل من أبى منهم فانقاد له أهل السهل والجبل وبايعته كدميوة ثم غزا بلاد دركراكة فأخذهم بالدعاء الى توحيد الله وشرائع دينه وسار فى بلاد المصامدة يقاتل من أبى ويسالم من أجاب ففتح بلادا كثيرة ودخل فى دعوته عالم كثير من المصامدة ورجع الى تينملل فأقام بها اشهرين ريثما استراح الناس ثم غزا مدينة أغمات وبلاد هزرجة فى ثلاثين ألفا من الموحدين فاجتمع على حربه أهل اغمات وهزرجة وخلق كثير من الحشم ولمتونة وغيرهم فانتصر عليهم الموحدون فهزموهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا وقسم المهدى أنفالهم بين الموحدين ثم غزا أهل درن ففتح قلاعه وحصونه وطاع له جميع من فيه من قبائل هرغة وهنتاتة وكنفيسة وغيرهم ثم عاد الى تينملل فأقام بها ريثما استراح الناس ثم ندبهم الى غزو مراكش وجهاد المرابطين وقدم عليهم عبد المؤمن بن على وأبا محمد البشير وخص عبد المؤمن بامامة الصلاة فساروا حتى انتهوا الى أغمات فلقيهم بها أبو بكر بن على بن يوسف فى جيش كثيف من لمتونة وقبائل صنهاجة فاقتتلوا ودامت الحرب بينهم ثمانية أيام ثم انتصر عليهم الموحدون فهزموا أبا بكر وجيشه الى مراكش وقتلوهم فى كل طريق وحصروا مراكش أياما ثم رجعوا الى تينملل فخرج المهدى القائم فرحب بهم وعرفهم بما يكون لهم من النصر والفتح وما يملكونه من البلاد ثم كانت وفاته عقب ذلك على ما نذكره ان شاء الله فهذا سياق ابن أبى زرع لهذه الاخبار والله أعلم بالصواب

بقية أخبار المهدى وبعض سيرته الى وفاته

كان المهدى رجلا ربعة أسمر عظيم الهامة غائر العينين حديد النظر خفيف العارضين له شامة سوداء على كتفه الأيمن ذا سياسة ودهاء وناموس عظيم وكان مع ذلك عالما فقيها راويا للحديث عارفا بالاصول والجدل فصيح اللسان مقداما على الامور العظام غير متوقف فى سفك الدماء ويهون عليه اتلاف عالم فى بلوغ غرضه وكان حصورا لا يأتى النساء وكان متيقظا فى أحواله ضابطا لما ولى من سلطانه أنشد صاحب كتاب المعرب فى حقه آثاره تنبيك عن أخباره * حتى كأنك بالعيان تراه ثم قال له قدم فى الثرى وهمة فى الثريا ونفس ترى اراقة ماء الحياة دون اراقة ماء المحيا أغفل المرابطون عقله وربطه حتى دب اليهم دبيب الفلق فى الغسق وترك فى الدنيا دويا أنشأ دولة لو شاهدها أبو مسلم لكان لعزمه فيها غير مسلم وكان قوته من غزل أخت له فى كل يوم رغيفا بقليل سمن أو زيت ولم ينتقل عن هذا حين كثرت عليه الدنيا ورأى أصحابه يوما وقد مالت نفوسهم الى كثرة ما غنموه فأمر بضم ذلك جميعه وأحرقه وقال من كان يتبعنى للدنيا فليس له عندى الا ما رأى ومن تبعنى للآخرة فجزاؤه عند الله وكان على خمول زيه وبسط وجهه مهيبا منيع الحجاب الا عند مظلمة وله رجل مختص بخدمته والاذن عليه وكان له شعر فمن ذلك قوله

أخذت بأعضادهم اذ نأوا * وخلفك القوم اذ ودعوا
فكم أنت تنهى ولا تنتهى * وتسمع وعظا ولا تسمع
فيا حجر السن حتى متى * تسن الحديد ولا تقطع

وكان كثيرا ما ينشد

تجرد من الدنيا فانك انما * خرجت الى الدنيا وأنت مجرد

وكان يتمثل أيضا بقول أبى الطيب المتنبى

اذا غامرت فى شرف مروم * فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر حقير * كطعم الموت فى أمر عظيم

وبقوله أيضا ومن عرف الايام معرفتى بها * وبالناس روّى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم اذا ظفروا به * ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم
وبقوله أيضا وما أنا منهم بالعيش فيهم * ولكن معدن الذهب الرغام

﴿وقال ابن الخطيب فى رقم الحلل﴾ قالوا كان محمد بن تومرت يزعم انه مأمور بنوع من الوحى والالهام وينكر كتب الرأى والتقليد وله باع فى علم الكلام وغلبت عليه نزعة خارجية وكان ينتحل القضايا الاستقبالية ويشير الى الكوائن الآتية ورتب قومه ترتيبا غريبا فمنهم أهل الدار وأهل الجماعة وأهل الساقة وأهل خمسين وأهل سبعين والطلبة والحفاظ وأهل القبائل فأهل الدار للامتهان والخدمة وأهل الجماعة للتفاوض والمشورة وأهل الساقة للمباهاة وأهل سبعين وخمسين والحفاظ والطلبة لحمل العلم والتلقى وسائر القبائل لمدافعة العدو وكان يعلمهم أوجه العبادات فى العادات ﴿قلت﴾ من ذلك ان طائفة من المصامدة عسر عليهم حفظ الفاتحة لشدة عجمتهم فعدد كلمات أم القرآن ولقب بكل كلمة منها رجلا فصفهم صفا وقال لاوّلهم اسمك الحمد لله وللثانى رب العالمين وهكذا حتى تمت كلمات الفاتحة ثم قال لهم لا يقبل الله منكم صلاة حتى تجمعوا هذه الاسماء على نسقها فى كل ركعة فسهل عليهم الامر وحفظوا أم القرآن ذكره صاحب المعرب قالوا وهو أول من أحدث أصبح ولله الحمد فى أذان الصبح ومن جراءته واقدامه وتهالكه على تحصيل مرامه ماحكاه صاحب القرطاس قال كانت بين الموحدين والمرابطين حرب فقتل من الموحدين خلق كثير فعظم ذلك على عشائرهم فاحتال المهدى بان انتخب قوما من أتباعه ودفنهم أحياء بموضع المعركة وجعل لكل واحد منهم متنفسا فى قبره وقال لهم اذا سئلتم عن حالكم فقولوا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا وان ما دعا اليه الامام المهدى هو الحق فجدوا فى جهاد عدوكم وقال لهم اذا فعلتم ذلك أخرجتكم وكانت لكم عندى المنزلة العالية وقصد بذلك أن يثبتهم على التمسك بدعوته ويهوّن عليهم مالقوا من القتل والجراحات بسببه ثم جمع أصحابه عند السحر وقال لهم أنتم يا معشر الموحدين حزب الله وأنصار دينه وأعوان الحق فجدوا فى قتال عدوكم فانكم على بصيرة من أمركم وان كنتم ترتابون فيما أقوله لكم فأتوا موضع المعركة وسلوا من استشهد اليوم من اخوانكم يخبروكم بما لقوا من الثواب عند الله ثم أتى بهم الى موضع المعركة ونادى يا معشر الشهداء ماذا لقيتم من الله عز وجل فقالوا قد أعطانا من الثواب مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فاقتتن الناس وظنوا ان الموتى قد كلموهم وحكوا ذلك لبقية اخوانهم فازدادوا بصيرة فى أمره وثباتا على رأيه والله أعلم بحقيقة الحال

﴿وفاة المهدى رحمه الله﴾

كانت وفاة المهدى عقب وقعة البحيرة قال ابن خلدون لاربعة أشهر بعدها وقال ابن الخطيب وغيره كانت وفاته يوم الاربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربع وعشرين وخمسمائة وقيل غير ذلك ﴿وقال فى القرطاس﴾ لما رجع الموحدون من غزو مراكش الى تينمال خرج اليهم المهدى فسلم عليهم ورحب بهم وأعلمهم بما يكون لهم من النصر والفتح وما يملكونه من البلاد وبعدة ملكهم وأعلمهم انه يموت فى تلك السنة فبكوا وأسفوا ثم مرض مرضه الذى مات منه وقدم عبد المؤمن للصلاة أيام مرضه ثم توفى فى التاريخ المتقدم ﴿وذكر بعض المؤرخين﴾ ان المهدى رأى فى منامه قبل وفاته كأن آتيا أتاه فأنشده أبياتا نعى له فيها نفسه وأعلمه باليوم الذى يموت فيه فكان كذلك انظر القرطاس وقدمر فى هذه الاخبار فى ذكر كتاب الجفر وربما تتشوف النفس لمعرفة حقيقته فقد قال ابن خلدون فى كتاب طبيعة العمران واعلم ان كتاب الجفر كان أصله ان هرون بن سعيد العجلى وهو رأس الزيدية كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق رضى الله عنه وفيه علم ما سيقع لاهل البيت على العموم

ولبعض

ولبعض الاشخاص منهم على الخصوص وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذى يقع لمثلهم من الاولياء وكان مكتوبا عند جعفر الصادق فى جلد ثور صغير فرواه عنه هرون العجلى وكتبه وسماه الجفر باسم الجلد الذى كتب فيه لان الجفر فى اللغة هو الصغير فصار هذا الاسم علما على هذا الكتاب عندهم وكان فيه تفسير القرآن الكريم ومافى باطنه من غرائب المعانى مروية عن جعفر الصادق رضى الله عنه وذكره ابن قتيبة فى أوائل كتاب اختلاف الحديث فقال بعد كلام طويل وأعجب من هذا التفسير تفسير الروافض للقرآن الكريم وما يدعونه من علم باطنه بما وقع اليهم من الجفر الذى ذكره العجلى ثم قال ابن قتيبة

ألم تر ان الرافضين تفرقوا * فكلهم فى جعفر قال منكرا
فطائفة قالوا امام ومنهم * طوائف سمته النبى المطهرا
ومن عجب لم أقضه جلد جفرهم * برئت الى الرحمن ممن تجفرا

فى أبيات غير هذه ثم قال ابن قتيبة وهو جلد جفر ادعوا انه كتب لهم فيه الامام جعفر الصادق كلما يحتاجون اليه وكل ما يكون الى يوم القيامة اه وهذا تزييف من ابن قتيبة لكتاب الجفر وخالف هذا المذهب أبو العلاء المعرى فقال

لقد عجبوا لاهل البيت لما * أتاهم علمهم فى مسك جفر
ومرآة المنجم وهى صغرى * أرته كل عامرة وقفر

والمسك بفتح الميم الجلد والجفر بفتح الجيم ما بلغ أربعة أشهر من أولاد المعز وكانت عادتهم فى ذلك الزمان انهم يكتبون فى الجلود وماشا كلها لقلة الاوراق يومئذ ﴿وقال ابن خلدون﴾ كتاب الجفر لم تتصل روايته عن جعفر الصادق رضى الله عنه ولا عرف عينه وانما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل ولو صح السند الى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه فهم أهل الكرامات رضى الله عنهم

﴿الخبر عن دولة أبى محمد عبد المؤمن بن على الكومى وأوّليتها﴾

اعلم ان بنى عبد المؤمن ليسوا من المصامدة وانما هم من كومية ثم من بنى عابد منهم وكومية يعرفون قديما بصطفورة بطن من بنى فاتن بن تامصيت بن ضرى بن زجيك بن مادغيس الابتر فهم بنو عم زناتة يجتمعون فى ضرى بن زجيك هذا هو الصحيح وبعض المؤرخين يرفعون نسب عبد المؤمن الى قيس عيلان بن مضر وهو ضعيف ﴿قال ابن خلدون﴾ كان عبد المؤمن من بنى عابد أحد بيوتات كومية وأشرافهم قال وموطنهم بتاكرارت وهو حصن فى الجبل المطل على هنين من ناحية الشرق ﴿وقال ابن خلكان﴾ كان والد عبد المؤمن وسيطا فى قومه وكان صانعا فى عمل الطين يعمل منه الآنية فيبيعها وكان عاقلا من الرجال وقورا ﴿ويحكى﴾ ان عبد المؤمن فى صباه كان نائما تجاه أبيه وأبوه مشتغل بعمله فى الطين فسمع أبوه دويا فى السماء فرفع رأسه فرأى سحابة سوداء من النحل قد هوت مطبقة على الدار فنزلت كلها مجتمعة على عبد المؤمن وهو نائم فغطته ولم يظهر من تحتها ولا استيقظ لها فرأته أمه على تلك الحال فصاحت خوفا على ولدها فسكتها أبوه فقالت أخاف عليه فقال لا بأس عليه بل انى متعجب مما يدل عليه ذلك ثم انه غسل يديه من الطين ولبس ثيابه ووقف ينتظر ما يكون من أمر النحل فطار عنه باجمعه فاستيقظ الصبى ومابه من ألم فتفقدت أمه جسده فلم تر به أثرا ولم يشتك اليها ألما وكان بالقرب منهم رجل معروف بالزجر فمضى أبوه اليه فاخبره بما رآه من النحل مع ولده فقال الزاجر يوشك أن يكون له شأن يجتمع على طاعته أهل المغرب فكان من أمره ما اشتهر وقد تقدم لنا ان المهدى كان عنده كتاب الجفر وكان فيه ان أمره لا يتم الا على يد رجل اسمه كذا وحليته كذا وهو عبد المؤمن بن على فاقام المهدى

يتطلبه مدة الى ان لقيه بملالة وعبد المؤمن اذذاك شاب حدث طالب علم فلازم المهدى واستمسك بغرزه الى ان كان من أمره ما كان وكان المهدى يتفرس فيه النجابة وينشد اذا أبصره

تكاملت فيك أوصاف خصصت بها * فكلنا بك مسرور ومغتبط
السن ضاحكة والكف مانحة * والنفس واسعة والوجه منبسط

والبيتان لابى الشيص الخزاعى وكان يقول لاصحابه صاحبكم هذا غلاب الدول وكان يقول عبد المؤمن من صديقى هذه الدائرة (وقال ابن خلدون) آثر المهدى عبد المؤمن بمزيد الخصوصية والقرب بما خصه الله به من الفهم والوعى للتعليم حتى كان خالصة المهدى وكنز صحابته وكان مؤملا للخلافة لما أظهر عليه من الشواهد المؤذنة بذلك وفى ذلك يقول ابن الخطيب

وخلف الامر لعبد المؤمن * فانقادت الدنيا له فى رسن
حباه بين القوم بالاماره * اذوضحت له فيه الاماره

ولما اجتاز المهدى فى طريقه الى المغرب بالثعالبة عرب الجزائر أهدوا اليه حمارا فارها يركبه لانه كان ساعيا على رجليه فكان يؤثر به عبد المؤمن ويقول لاصحابه اركبوه الحمار يركبكم الخيول المسومة وزعم بنو عبد المؤمن ان المهدى كان استخلفه من بعده (وقال ابن خلكان) لم يصح انه استخلفه وانما راعى أصحابه فى تقديمه اشارته فتم له الامر والله أعلم

(بيعة عبد المؤمن بن على والسبب فيها)

لما توفى المهدى فى التاريخ المتقدم تولى عبد المؤمن تجهيزه والصلاة عليه ثم دفنه بمسجده الملاصق لداره من تينملل ولما فرغ الموحدون من أمره تشوف كل واحد من العشرة الى الخلافة بعده وكانوا من قبائل شتى وأحبت كل قبيلة أن يكون الخليفة منها وان لا يتولى عليها من هو من غيرها فتنافسوا فى ذلك فاجتمع العشرة والخمسون وتآمروا فيما بينهم وخافوا على أنفسهم النفاق وان تفسد نياتهم وتفترق جماعتهم فاتفقوا على خلافة عبد المؤمن لكونه كان غريبا بين أظهرهم ليس من المصامدة لان المصامدة من البرانس وكومية قبيلة عبد المؤمن من البتر فقدموه لذلك مع ما كانوا يرون من ميل المهدى اليه وايثاره على غيره فتم له الامر (وقال ابن خلدون) لما مات المهدى خشى أصحابه من افتراق الكلمة وما يتوقع من سخط المصامدة لولاية عبد المؤمن لكونه من غير جلدتهم فارجؤا الامر الى ان تخالط بشاشة الدعوة قلوبهم وكتموا موته ثلاث سنين يموهون فيها بمرضه ويقيمون سنته فى الصلاة والحزب الراتب ويدخل أصحابه الى بيته كأنه اختصهم بعيادته فيجلسون حوالى قبره ويتفاوضون فى شؤنهم ثم يخرجون لانفاذ ما أبرموه ويتولى ذلك عبد المؤمن حتى اذا استحكم أمرهم وتمكنت الدعوة من نفوس كافتهم كشفوا القناع عن حالهم وتمالأ من بقى من العشرة على تقديم عبد المؤمن وتولى كبر ذلك الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس فاظهروا للناس موت المهدى وعهده لصاحبه وانقاد بقية أصحابه لذلك وروى لهم يحيى بن يغمور انه كان يقول فى دعائه اثر صلواته اللهم بارك فى الصاحب الافضل فرضى الكافة وانقادوا له وأجمعوا على بيعته وزعموا أن عبد المؤمن استعمل فى ذلك حيلة تم له بها ما أراد وذلك انه عمد الى طائر وأسد فضراهما حتى أنسابه وعلم الطائر أن يقول عند علامة نصبها له النصر والتمكين لعبد المؤمن أمير المؤمنين وعلم الاسد ان يبصبص له ويتمسح به كل مارآه ثم جمع عبد المؤمن الموحدين وخطبهم وحضهم على الالفة واجتماع الكلمة وحذرهم عاقبة البغى والخلاف وبينما هو فى ذلك اذ أرسل سائس الاسد أسده وصفر صاحب الطائر لطائره فبصبص هذا وأعلن بالنصر هذا فعجب الحاضرون من ذلك ورأوا انها كرامة لعبد المؤمن فازدادوا بها بصيرة فى أمره وثباتا على بيعته مع ما كان من تقديم المهدى له فى الصلاة أيام مرضه وفى ذلك يقول بعضهم

انس

أنس الشبل ابتهاجا بالاسد * ورأى شبه أبيه فقصد
ودعا الطائر بالنصر لكم * فقضى حقكم حين وفد
والله أعلم

وكانت بيعة عبد المؤمن العامة بعد صلاة الجمعة لعشرين يوما من ربيع الاول سنة ست وعشرين وخمسمائة بجامع تينملل وأول من بايعه العشرة أصحاب المهدى ثم الخمسون من أشياخ الموحدين ثم كافة الموحدين لم يتخلف عن بيعته منهم أحد فاستوسق له الامر واستولى على المغرب باسره وفتح بلاد افريقية الى برقة وبلاد الاندلس بأسرها وخطب له على منابر هذه الاقاليم كلها على ماسيأتى تفصيله ان شاء الله ولما تمت بيعته غزا من حينه بلاد تادلا فقتل بها وسبا ثم غزا بلاد درعة فاستولى عليها ثم غزا بلاد غمارة فافتتح البعض منها وقتل واليها ثم تسابق الناس الى دعوته أفواجا وانتقضت البربر على المرابطين فى سائر أقطار المغرب وكان مانذكره

﴿غزوة عبد المومن الطويلة التى استولى فيها على المغربين﴾

ثم صرف عبد المؤمن عزمه لفتح بلاد المغرب فغزا غزوته الطويلة التى مكث فيها سبع سنين وأجلت عن فتح المغربين معا الاقصى والاوسط خرج لها من تينملل فى صفر سنة أربع وثلاثين وخمسمائة فلم يزل يتقرى بلاد المغرب ويفتح معاقلها ويستنزل حماتها ويذلل صعابها الى سنة احدى وأربعين وخمسمائة وكان خروجه من تينملل على طريق الجبل وخرج تاشفين بن على فى اتباعه من مراكش على طريق السهل الى ان وصلا الى تلمسان حسبما قدمناه فى أخبار المرابطين ﴿قال ابن خلدون﴾ خرج عبد المؤمن فى هذه الغزوة من تينملل يعنى على طريق الجبل كما قلناه وخرج تاشفين بن على يعنى فى حياة والده بعساكره يحاذيه فى البسيط والناس يفرّون منه الى عبد المؤمن وهو يتنقل فى الجبال فى سعة من الفواكه للاكل والحطب للدفء الى ان وصل الى جبال غمارة واشتعلت نار الفتنة والغلاء بالمغرب واقشعت الرعايا عن البلاد وألحّ الطاغية على المسلمين بالعدوة الاندلسية وهلك خلال ذلك أمير المسلمين على بن يوسف سنة سبع وثلاثين وخمسمائة وولى بعده ابنه تاشفين بن على المذكور وهو فى غزاته هذه ﴿وفى القرطاس﴾ ارتحل عبد المؤمن الى جبال غمارة وارتحل تاشفين بن على فى أثره فنزل بازاء عين القديم وذلك فى فصل الشتاء فأقام بذلك المنزل شهرين حتى أحرق أهل محلته أوتاد أخبيتهم ورماحهم وهدموا بيوتهم وخيامهم انتهى ونشأت فتنة بين لمتونة ومسوفة فنزع جماعة من أمراء مسوفة منهم عامل تلمسان يحيى ابن اسحق المعروف بانّكمار ولحقوا بعبد المؤمن ودخلوا فى دعوته فنبذ اليهم المرابطون العهد والى سائر مسوفة واستمر عبد المؤمن على حاله فنازل سبتة فامتنعت عليه وتولى كبر دفاعه عنها القاضى أبو الفضل عياض بن موسى الشهير الذكر وكان رئيسها بمنذ أبوته ومنصبه وعلمه ودينه ﴿قال ابن خلدون﴾ ولذلك سخطته الدولة يعنى دولة الموحدين آخر الايام حتى مات مغرّبا عن سبتة مستعملا فى خطة القضاء بالبادية من تادلا رحمه الله وتمادى عبد المؤمن فى غزاته الى جبال غياثة وبطوية فافتتحها ثم نازل ملوية فافتتح حصونها ثم تخطى الى بلاد زناتة فاطاعته قبائل مديونة وكان قد بعث اليهم جيشا من الموحدين الى نظر يوسف بن وانودين فخرج اليهم محمد بن يحيى بن فانو عامل تلمسان من قبل المرابطين فيمن معه من جيوش لمتونة وزناتة فهزمهم الموحدون وقتل ابن فانو وانفض جمع زناتة ورجعوا الى بلادهم وولى تاشفين بن على على تلمسان أبا بكر بن مزدلى وقدم على عبد المؤمن وهو بمكانه من الريف أبو بكر بن ماخوخ ويوسف بن يدر من أمراء بنى ومانو من زناتة فبعث معهم يحيى بن يغمور ويوسف بن وانودين فى عسكر فاثخنوا فى بلاد بنى عبد الواد وبنى يلومى من زناتة سبيا وأسرا ولحق صريخهم بتاشفين بن على فأمدهم بعساكر لمتونة ومعهم الروبرتير قائد الروم ونزلوا منداس وانضمت اليهم قبائل زناتة من بنى يلومى وبنى عبد الواد مع شيخهم حمامة بن مطهر واخوانهم بنى توجين وغيرهم فاوقعوا ببنى ومانو وقتلوا أبا بكر بن ماخوخ فى

ستمائة من قومه واستنقذوا غنائمهم وتحصن الموحدون وفل بني ومانو بجبل سيرات ولحق تاشفين بن ماخوخ صريخا بعبد المؤمن ومستجيشا به على لمتونة وزناتة فارتحل معه عبد المؤمن الى تلمسان ثم أجاز الى سيرات وقصد محلة لمتونة وزناتة فاوقع بهم ورجع الى تلمسان فنزل ما بين الصخرتين من جبل تيطري ونزل تاشفين بن على بالسهل مما يلى الصفصاف ثم وصل مدد صنهاجة من قبل يحيى بن العزيز صاحب بجاية لنظر قائده طاهر بن كباب أمدوا به تاشفين بن على وقومه لعصبية الصنهاجية وفي يوم وصوله أشرف على معسكر الموحدين وكان يدل باقدام فعرض بلمتونة وأميرهم تاشفين بن على لقعودهم عن مناجزة الموحدين وقال انما جئتكم لاخلصكم من صاحبكم عبد المؤمن هذا وأرجع الى قومى فامتعض تاشفين بن على من كلمته وأذن له فى المناجزة فحمل على القوم فركبوا وصمموا اللقائه فكان آخر العهد به وانفض عسكره وكان تاشفين بعث من قبل ذلك قائده على الروم وهو الروبرتير فى عسكر ضخم فاغار على قوم من زناتة كانوا فى بسيط لهم فاكتسحهم ورجع بالغنائم فاعترضه الموحدون من عسكر عبد المؤمن فقتلوهم وقتلوا الروبرتير فى جلتهم ثم بعث تاشفين بن على بعثا آخر الى جهة أخرى فلقيهم تاشفين بن ماخوخ ومن كان معه من الموحدين واعترضوا عسكر بجاية عند رجوعهم فنالوا منهم أعظم النيل وتوالت هذه الوقائع على تاشفين بن على اللمتونى فأجمع الرحلة الى وهران وبعث ابنه وولى عهده ابراهيم بن تاشفين الى مراكش فى جماعة من لمتونة وبعث كاتبا معه أحمد بن عطية ورحل هو الى وهران سنة تسع وثلاثين وخمسمائة فأقام عليها شهرا ينتظر قائد اسطوله محمد بن ميمون الى ان وصله من المرية بعشرة أساطيل فأرسى قريبا من معسكره وزحف عبد المؤمن من تلمسان وبعث فى مقدمته الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاتى ومعه بنو ومانو من زناتة فتقدموا الى بلاد زناتة ونزلوا منداس وسط بلادهم وجمع له بنو يادين كلهم وبنو يلومى وبنو مرين ومغراوة فأثخن فيهم الموحدون حتى أذعنوا للطاعة ودخلوا فى دعوتهم ووفد على عبد المؤمن جماعة من رؤسائهم وكان منهم سيد الناس ابن أمير الناس شيخ بنى يلومى وحمامة بن مطهر شيخ بنى عبد الواد وغيرهم فتلقاهم بالقبول وسار بهم فى جموع الموحدين الى وهران فبيتوا لمتونة بمعسكرهم ففضوهم ولجأ تاشفين الى رابية هنالك فأحدقوا بها وأضرموا النيران حولها حتى اذا غشيهم الليل خرج تاشفين من الحصن راكبا فرسه فتردى به من بعض حافات الجبل وهلك لسبع وعشرين من رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة وبعث برأسه الى تينملل وتجافل العسكر الى وهران فانحصروا بها مع أهلها حتى جهدهم العطش فنزلوا على حكم عبد المؤمن يوم عيد الفطر من السنة المذكورة فاستأصلهم القتل رحمهم الله وبلغ خبر مقتل تاشفين بن على الى تلمسان مع فل لمتونة الذين نجوا من وقعة وهران وفيهم سير بن الحاج فى آخرين من أعيانهم ففر معهم من كان بها من لمتونة ولما وصل عبد المؤمن الى تلمسان استباح أهل تاكرارت لما كان أكثرهم من الحشم بعد ان كانوا بعثوا اثنين من وجوههم فلقيهم يصليتن من مشيخة بنى عبد الواد فقتلهم أجمعين وافتتح عبد المؤمن تلمسان وعفا عن أهلها ورحل عنها السبعة أشهر من فتحها بعد ان ولى عليها سليمان بن محمد بن وانودين وقيل يوسف بن وانودين

﴿فتح مدينة فاس﴾

نقل بعض المؤرخين أن عبد المؤمن لم يزل محاصرا لتلمسان والفتوح ترد عليه وهنالك وصلته بيعة أهل سجلماسة الى ان اعتزم على الرحيل الى المغرب فترك ابراهيم بن جامع محاصر التلمسان وقصد مدينة فاس سنة احدى وأربعين وخمسمائة وقد تحصن بها يحيى بن أبى بكر الصحراوى من فل تاشفين بن على من وهران فنازلها عبد المؤمن وبعث عسكر الحصار مكناسة ثم نهض فى اتباعه وترك عسكرا من الموحدين على فاس وعليهم الشيخ أبو حفص وأبو ابراهيم من صحابة المهدى العشرة فحاصروها سبعة أشهر ثم داخلهم ابن الجيانى فسرب البلد وأدخل الموحدين ليلا وفر يحيى بن أبى بكر الصحراوى الى طنجة ثم أجاز منها الى

يحيى بن على المسوفى المعروف بابن غانية بالاندلس وكان واليا على قرطبة من قبل المرابطين فأقام عنده الى ان كان من أمره ما نذكره وانتهى خبر فتح فاس الى عبد المؤمن وهو بمكانه من حصار مكناسة فرجع اليها ودخلها * وحكى صاحب القرطاس * فى فتح فاس خلاف هذا الوجه فقال وفى سنة أربعين وخمسمائة فتح عبد المؤمن فاسا بعد حصار شديد قطع عنها ماء النهر الداخل اليها وسدّه بالبناء والخشب حتى انحبس الماء فوق بسيط الارض وانتهى الى مراكزه منها ثم خرق السدّ فانحدر الماء على المدينة دفعة واحدة وهدم سورها ثم هدم من دورها ما يزيد على ألفى دار بالتثنية وهلك بها خلق كثير وكاد الماء يأتى على أكثرها ثم دخلها عبد المؤمن وأمّن أهلها الا من كان بها من المرابطين فانه أمر أن لا يعطى لهم أمان وقتلهم قتل عاد ثم أمر بسور المدينة فهدم منه ثلم كثيرة أوسعها جدّا وقال انا لا نحتاج الى سور وانما أسوارنا سيوفنا وعدلنا فلم تزل فاس لا سور لها الى ان تداركها حافده يعقوب المنصور فابتدأ بناءه ومات فأتمه ابنه الناصر سنة ستمائة ولما فتح عبد المؤمن فاسا ولى عليها ابراهيم بن جامع الذى خلفه على تلمسان فانه لما فتحها ارتحل الى عبد المؤمن فاتصل به وهو محاصر لفاس ففتحها عبد المؤمن وولاه عليها وكان قد اعترضه فى طريقه المخضب بن عسكر شيخ بنى مرين ونالوا منه ومن رفقته وكانت معه أموال لمتونة وذخيرتهم التى استولى عليها عبد المؤمن بوهران وكان ابن جامع ذاهبا بها الى تينملل فاعترضه بنو مرين وانتزعوها منه وانتهى الخبر بذلك الى عبد المؤمن فكتب الى عامله على تلمسان يوسف بن وانودين يأمره أن يجهز العساكر الى بنى مرين فبعثها صحبة عبد الحق بن منغفاد شيخ بنى عبد الواد فأوقعوا ببنى مرين وقتل المخضب شيخهم

* فتح مراكش واستئصال بقية اللمتونيين *

ثم ارتحل عبد المؤمن من فاس عامدا الى مراكش فوافته فى طريقه بيعة أهل سبتة فولى عليهم يوسف ابن مخلوف من مشيخة هنتاتة ومر على مدينة سلا ففتحها بعد مواقعة قليلة وثلم سورها كفاس ونزل منها بدار ابن عشرة وكانت هذه الدار قصرا بديعا بمدينة سلا بناه الفقيه أبو العباس بن القاسم من بنى عشرة فشيده وأتقنه ولما فرغ منه وصفته الشعراء وهنته به ودعت له وكان بالحضرة يومئذ الاديب ابن الحمارة ولم يكن أعدّ شيأ فأفكر قليلا ثم قال

يا أوحد الناس قد شيدت واحدة * تحل فيها حلول الشمس فى الحمل

فما كدارك فى الدنيا لذى أمل * ولا كدارك فى الاخرى لذى عمل

وهذا القصر لم يبق له اليوم اسم ولا رسم ثم تمادى عبد المؤمن الى مراكش وسرّح الشيخ أبا حفص لغزو برغواطة فأثخن فيهم ورجع فلقيه فى طريقه وانتهوا جميعا الى مراكش وقد انضم اليها جموع لمطة فأوقع بهم الموحدون وأثخنوا فيهم قتلا واكتسحوا أموالهم وظعائنهم وأقاموا على مراكش تسعة أشهر وأميرهم يومئذ اسحق بن على بن يوسف بن تاشفين وكانوا قد بايعوا أوّلا ابراهيم بن تاشفين بن على فألفوه مضعفا عاجزا فخلعوه وبايعوا عمه اسحق بن على المذكور وهو صبى صغير ولما طال عليهم الحصار وجهدهم الجوع برزوا الى مدافعة الموحدين فانهزموا وتبعهم الموحدون بالقتل فاقتحموا عليهم المدينة فى أخريات شوّال سنة احدى وأربعين وخمسمائة وقتل عامة اللمتونيين ونجا اسحق فى جملته وأعيان قومه الى القصبة حتى نزلوا على حكم الموحدين وأحضر اسحق بين يدى عبد المؤمن فقتله الموحدون بايديهم وتولى كبر ذلك أبو حفص بن واجاج منهم وانمحى أثر اللمتونيين واستولى الموحدون على جميع البلاد وقد قيل فى ترتيب هذه الاخبار غير هذا الوجه * قال ابن مطروح القيسى * لما بويع عبد المؤمن بتينملل ارتحل بجيوش الموحدين نحو مراكش فحاصرها أياما وذلك فى شوّال سنة ست وعشرين وخمسمائة ثم ارتحل عنها الى تادلا ثم الى سلا فتلقاه أهلها سامعين مطيعين فدخلها يوم السبت الرابع والعشرين من ذى الحجة من السنة المذكورة وخطب له بها * وفى سنة سبع وعشرين بعدها * فتح عبد المؤمن بلاد

تازا ﴿وفى سنة ثمان وعشرين بعدها﴾ تسمى عبد المؤمن بامير المؤمنين واعلم ان اللقب بامير المؤمنين كان فى صدر الاسلام خاصا بالخليفة بالمشرق من بنى أمية أو من بنى العباس بعدهم ولما قام عبيد الله المهدى أوّل ملوك العبيديين بافريقية تسمى بامير المؤمنين لانه كان يرى انه أحق بالخلافة من بنى العباس المعاصرين له بالمشرق فهو أوّل من زاحم الخليفة فى هذا اللقب ثم تبعه على ذلك عبد الرحمن الناصر الاموى صاحب الاندلس ورأى ان له فى الخلافة حقا اقتداء بسلفه الذين كانوا خلفاء بالمشرق وكلاهما أعنى العبيدى والاموى قرشى من بنى عبد مناف ثم لم يتجاسر أحد لا من ملوك العجم بالمشرق ولا من ملوك البربر بالمغرب على اللقب بامير المؤمنين لانه لقب الخليفة الاعظم القرشى كما علمت الى ان جاءت دولة المرابطين وكان منهم يوسف بن تاشفين واستولى على المغربين والاندلس وعظم سلطانه واتسعت مملكته وخاطب الخليفة العباسى بالمشرق فولاه على ما بيده وتسمى بأمير المسلمين أدبا مع الخليفة حسبما أشرنا اليه سالفا ولما جاء عبد المؤمن هذا لم يبال بذلك كله واتسم بالخليفة وتلقب بامير المؤمنين وتبعه على ذلك بنوه من بعده ولسان الحال ينشد

لقد هزلت حتى بدا من هزالها * كلاها وحتى سامها كل مفلس

﴿وفى سنة تسع وعشرين وخمسمائة﴾ أمر عبد المؤمن ببناء رباط مدينة تازا فبنيت وحصن سورها ثم كانت محاربته لتاشفين بن على على نحو ما أسلفناه والله تعالى أعلم

﴿ثورة محمد بن هود السلاوى المعروف بالماسى﴾

كان محمد بن هود بن عبد الله السلاوى رجلا من سوقة أهل سلا وكان أبوه سمسارا بها يبيع الكبابيش وكان هو قصارا بها مدة ثم لحق بعبد المؤمن عندما ظهر وبايعه وشهد معه فتح مراكش ثم فارقه وظهر برباط ماسة من ناحية السوس ودعا لنفسه وتسمى بالهادى وتمكن ناموسه من قلوب العامة وكثير من الخاصة فأقبل اليه الشرّاد من كل جانب وانصرفت اليه وجوه الاغمار من أهل الآفاق وأخذ بدعوته أهل سجلماسة ودرعة وقبائل دكالة ورجراجة وقبائل تامسنا وهوارة وفشت ضلالته فى جميع المغرب ﴿قال فى القرطاس﴾ بايعه جميع القبائل حتى لم يبق تحت طاعة عبد المؤمن الا مراكش فسرّح اليه عبد المؤمن عسكرا من الموحدين لنظر يحيى بن اسحق انكمار النازع اليه من ايالة تاشفين بن على حسبما تقدّم فالتقى بالماسى وقاتله فانتصر الماسى عليه وعاد مهزوما الى عبد المؤمن فسرّح اليه عبد المؤمن ثانيا الشيخ أبا حفص الهنتاتى فى جيش عظيم من أشياخ الموحدين وغيرهم واحتفل عبد المؤمن فى الاستعداد ونهض الشيخ أبو حفص من مراكش فاتح ذى القعدة سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة وشيعه عبد المؤمن الى وادى تانسيفت ثم دعا له وودعه وانصرف الشيخ أبو حفص فى جيوش الموحدين حتى انتهوا الى رابطة ماسة فبرز اليهم محمد بن هود فى نحو ستين ألفا من الرجالة وسبعمائة من الفرسان فكانت بينهم حرب شديدة ثم انتصر عليهم الموحدون فهزموهم وقتل محمد بن هود فى المعركة مع كثير من أتباعه وفضت جموعه وكان ذلك فى ذى الحجة من السنة المذكورة وكان الذى باشر قتل ابن هود هو الشيخ أبو حفص رئيس الجيش فلقبه الموحدون بسيف الله تشبيها له بخالد بن الوليد رضى الله عنه وكتب الشيخ أبو حفص الى عبد المؤمن برسالة الفتح من انشاء الفقيه أبى جعفر بن عطية القضاعى الكاتب المشهور يقول فيها كتابنا هذا من وادى ماسة بعد ما تجدّد من أمر الله الكريم ونصره تعالى المعهود القديم وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم فتح بهر الانوار اشراقا وأحدق بنفوس المؤمنين احداقا ونبه للامانى النائمة جفونا وأحداقا واستغرق غاية الشكر استغراقا فلا تطيق الالسن لكنه وصفه ادراكا ولا لحاقا جمع أشتات الطلب والارب وتقلب فى النعم أكرم منقلب ولادلاء الامل الى عقد الكرب

فتح تفتح أبواب السماء له * وتبرز الارض فى أثوابها القشب

وتقدمت بشارتنا به جملة حين لم نعط الحال بشرحه مهلة كان أولئك الضالون قد بطروا عدوانا وظلما واقتطعوا الكفر معنى واسما وأملى الله تعالى لهم ليزدادوا اثما وكان مقدمهم الشقي قد استمال لنفوس بخزعبلاته واستهوى القلوب بجهولاته ونصب له الشيطان من حبالاته فأتته المخاطبات من عدو كثب ونسلت اليه الرسل من كل حدب واعتقدته الخواطر أعجب عجب وكان الذي قادهم الى ذلك وأوردهم تلك المهالك وصول من كان بتلك السواحل ممن ارتسم برسم الانقطاع عن الناس فيما سلف من الاعوام واشتغل على زعمه بالقيام والصيام آناء الليالي والايام لبسوا الناموس أثوابا وتدرعوا الرياء جلبابا فلم يفتح الله تعالى لهم للتوفيق بابا ﴿ومنها في ذكر صاحبهم الماسي المدعي للهداية﴾ فصرع بحمد الله تعالى لحينه وبادرت اليه بوادر منونه وأتته وافدات الخطايا عن يساره ويمينه وقد كان يدعي أنه بشر بأن المنية في هذه الاعوام لا تصيبه والنوائب لا تنوبه ويقول في سواه قولا كثيرا ويختلق على الله تعالى افكا وزورا فلما رأوا هيئة اضطجاعه وما خطته الاسنة في أعضائه وأضلاعه ونفذ فيه من أمر الله تعالى ما لم يقدروا على استرجاعه هزم من كان لهم من الاحزاب وتساقطوا على وجوههم تساقط الذباب وأعطوا على بكرة أبيهم صفحات الرقاب ولم تقطر كلومهم الا على الاعقاب فامتلأت تلك الجهات باجسادهم وآذنت الآجال بانقراض آمادهم وأخذهم الله تعالى بكفرهم وفسادهم فلم يعاين منهم الا من خر صريعا وسقى الارض نجيعا ولقي من أمر المنديات قطيعا ودعت الضرورة باقيهم الى الترامي في الوادي فمن كان يؤمل الفرار وبرتجيه ويسبح طامعا في الخروج الى ما ينجيه اختطفته الاسنة اختطافا وأذاقته موتا ذعافا ومن لج في الترامي على لججه ورام البقاء في ثبجه قضى عليه شرقه وألوى بذقنه غرقه ودخل الموحدون الى البقية الكائنة فيه يتناولون قتالهم طعنا وضربا ويلقونهم بامر الله تعالى هولا عظيما وكربا حتى انبسطت مراقات الدماء على صفحات الماء وحكت حمرتها على زرقته حمرة الشفق على زرقة السماء وجرت لعبرة للمعتبر في جرى ذلك الدم جرى الابحر (وبالجملة) فهي رسالة بليغة وهي التي أورثت منشئها الرتبة العلية والمنزلة السنية فان عبد المؤمن لما وقف عليها استحسنها ووقعت منه موقعا كبيرا فاستكتبه أولا ثم استوزره ثانيا ثم نكبه وقتله ثالثا كما سيأتي ولما انصرف الشيخ أبو حفص من غزوة ماسة أراح بمراكش أياما ثم خرج غازيا بلاد القائمين بدعوة محمد بن هود بجبال درن فأوقع بأهل نفيس وهيلانة وأثخن فيهم بالقتل والسبي حتى أذعنوا للطاعة ورجع ثم خرج الى هسكورة فأوقع بهم وافتتح معاقلهم وحصونهم ثم نهض الى سجلماسة فاستولى عليها ورجع الى مراكش ثم خرج ثالثة الى برغواطة فحاربوه مدة ثم هزموه واضطرمت نار الفتنة بالمغرب وكان ما نذكره

﴿انتقاض أهل سبتة على الموحدين وخبر القاضي عياض رحمه الله معهم﴾

قد تقدم لنا ان عبد المؤمن كان غزا سبتة في غزوته الطويلة وان القاضي عياضا رحمه الله دافعه عنها وانه لما قتل تاشفين بن علي وفتحت تلمسان وفاس واستفحل أمر عبد المؤمن بايع أهل سبتة في جملة من بايع من أمصار المغرب قالوا وبادر القاضي عياض الى لقاء عبد المؤمن فاجتمع به بمدينة سلا حين كان ذاهبا لفتح مراكش فاجزل صلته وولى على سبتة يوسف بن مخلوف التينملي وساكن الموحدون أهل سبتة في ديارهم واطمأنوا اليهم فلما انتقض المغرب على عبد المؤمن بسبب قيام محمد بن هود وما نشأ عن ذلك من الفتن انتقض أهل سبتة أيضا وكان انتقاضهم كما في القرطاس برأي القاضي عياض رحمه الله فقتلوا عامل الموحدين ومن كان معه من أصحابه وحاميته وحرقوهم بالنار وركب القاضي عياض البحر الى يحيى بن علي المسوفي المعروف بابن غانية وكان معتصما بقرطبة متمسكا بدعوة المرابطين فلقيه وأدى اليه البيعة وطلب منه واليا على سبتة فبعث معه يحيى بن أبي بكر الصحراوي الذي كان معتصما بفاس أيام حصار عبد

المؤمن لهافقر ولحق بابن غانية كما قلنا وبقي في جملته الى ان بعثه مع القاضي عياض في هذه المرة فدخل يحيى سبتة وقام بامرها ولما اتصلت بعبد المؤمن هذه الاخبار مع ما تقدم من هزيمة برغواطة للشيخ أبي حفص خرج من مراكش قاصدا بلاد برغواطة أولا ثم من بعدهم ثانيا فتسامعت برغواطة بخروج عبد المؤمن اليهم فكتبوا الى يحيى بن أبي بكر بمكانه من سبتة يستنصرونه عليهم فأتاهم وبايعوه واجتمعوا عليه وقاتلوا عبد المؤمن فهزموه ثم كانت له الكرة عليهم فهزمهم وحكم السيف فيهم واستأصل شأفتهم حتى انقادوا للطاعة وتبرؤا من يحيى الصحراوي ولمتونة وفر الصحراوي الى منجاته ثم طلب الامان من عبد المؤمن وتشفع اليه باشياخ القبائل فأمّنه ووفد عليه فبايعه وحسنت طاعته لديه وكان ذلك سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ولما رأى أهل سبتة ذلك كله سقط في أيديهم وندموا على صنيعهم وكتبوا ببيعتهم الى عبد المؤمن وقدم بها أشياخ سبتة وطلبتها تائبين فعفا عنهم وعن القاضي عياض وأمره بسكنى مراكش والصحيح انه ولاه القضاء بتادلا ثم دخل مراكش قيل دخلها مريضا مرض موته وقيل مات بالطريق وحمل اليها وأمر عبد المؤمن مع ذلك بهدم سور سبتة فهدم وكذلك فعل بفاس وسلا (واعلم) ان ما صدر من القاضي عياض رحمه الله في جانب الموحدين دليل على انه كان يرى ان لا حق لهم في الامر والامامة وانما هم متغلبون وهذا أمر لا خفاء به كما هو واضح ولما كانت شوكة عبد المؤمن لا زالت ضعيفة وتاشفين بن علي أمير الوقت لا زال قائم العين امتنع القاضي عياض رحمه الله من مبايعة عبد المؤمن ودافعه عن سبتة اذ لا موجب لذلك لان بيعة تاشفين في أعناقهم وهو لا زال حيا فلا يعدل عن بيعته الى غيره بلا موجب وأما ما غالط به المهدي رحمه الله من ان المرابطين مجسمة وان جهادهم أوجب من جهاد الكفار فضلا عن ان تكون طاعتهم واجبة فسفسطة منه عفا الله عنا وعنه ولما قتل تاشفين وفتحت تلمسان وفاس وقويت شوكة عبد المؤمن بايعه القاضي عياض حينئذ وقبل صلته لان من قويت شوكته وجبت طاعته ثم لما ضعف أمره ثانيا بسبب قيام الماسي عليه واجماع قبائل المغرب على التمسك بدعوته رجع القاضي باهل سبتة عن بيعته الى طاعة المرابطين الذين لهم الحق في الامامة بطريق الاصالة ولم يأخذ بدعوة الماسي لانه ثائر أيضا هذا مع ما كان ينقل عن المهدي من انه غلبت نزعة خارجية عليه وانه يقول بعصمة الامام وذلك بدعة كما لا يخفى فتكون امامته وامامة أتباعه مقدوحا فيها من هذه الحيثية لكن حيث حصل التغلب والاستيلاء وجبت الطاعة فالحاصل ان ما فعله القاضي عياض أولا وثانيا وثالثا كله صواب موافق للحكم الشرعي فهكذا ينبغي ان تفهم أحوال أئمة الدين واعلام المسلمين رضي الله عنهم ونفعنا بعلومهم وأما القتل والتحريق الذي صدر من أهل سبتة فالظن بالقاضي عياض رحمه الله انه لا يوافق على ذلك ولا يرضاه لكن العامة تتسرع الى مجاوزة الحدود ولا سيما أيام الفتن وذلك معروف من حالهم والله الموفق ولما دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة فتح الموحدون مدينة مكناسة القديمة بعد حصارهم اياها سبع سنين اقتحموها عنوة يوم الاربعاء ثالث جمادى الاولى من السنة المذكورة فخربت وقتل أكثر رجالها وسبي حريمهم وخمست أموالهم ثم بنيت مكناسة تاكرارت المدينة الموجودة الآن

﴿أخبار الاندلس وفتوحها﴾

كان عبد المؤمن لما فتح تلمسان وفاسا بعث الى الاندلس جيشا من عشرة آلاف فارس من أنجاد الموحدين ﴿وقال ابن خلدون﴾ بعث عبد المؤمن بعد فتح مراكش جيشا من الموحدين لنظر بدران ابن محمد المسوفي النازع الى عبد المؤمن من جملة تاشفين بن علي وعقد له على حرب الاندلس ومن بها من لمتونة والثوار وأمده بعسكر آخر لنظر موسى بن سعيد وبعده بعسكر آخر لنظر عمر بن صالح الصنهاجي ولما أجازوا الى الاندلس نزلوا بابي الغمر بن عزرون صاحب شريش فكان أول بلد فتحوا

من الاندلس بلد شريش خرج اليهم صاحبها أبو الغمر فيمن معه من المرابطين وبايعهم لعبد المؤمن ودخل فى طاعته فكان الموحدون يسمون أهل شريش بالسابقين الاولين وحررت أملاكهم فلم تزل محررة سائر أيامهم فلم يكن فى أملاكهم رباعة وجميع بلاد الاندلس مربعة وكان ملوك الموحدين اذا قدم عليهم وفود الاندلس كان أول من ينادى منهم أهل شريش فكان يقال أين السابقون فيدخلون للسلام فاذا سلموا وقضيت حاجاتهم انصرفوا فدخل غيرهم حينئذ وكان فتح شريش فاتح ذى الحجة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ثم زحف الموحدون الى لبلة وكان بها من الثوار يوسف بن أحمد البطروجى فبذل لهم الطاعة ثم زحفوا الى شلب ففتحوها ثم نهضوا الى باجة وبطليوس ففتحوها أيضا ثم زحفوا الى اشبيلية فحاصروها برا وبحرا الى ان فتحوها فى شعبان سنة احدى وأربعين وخمسمائة وفر من كان بها من المرابطين الى قرمونة وقتل من أدركه القتل منهم وقتل فى جملتهم عبد الله ولد القاضى أبى بكر محمد ابن عبد الله بن العربى المعافرى الحافظ المشهور أصيب فى هيعة تلك الدخلة من غير قصد وكتب الموحدون بالفتح الى عبد المؤمن ثم قدم عليه وفدهم مراكش مبايعين له سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ورئيس الوفد يومئذ القاضى أبو بكر بن العربى المذكور فالفوا عبد المؤمن مشغولا بحرب محمد بن هود الماسى فأقاموا بمراكش سنة ونصفا لم يلقوه فيها حتى كان يوم عيد الاضحى من سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة فلقوه بالمصلى فسلموا عليه سلام الجماعة ثم بعد ذلك دخلوا عليه فسلموا عليه السلام الخاص وقبلت بيعتهم وسأل عبد المؤمن القاضى أبا بكر بن العربى عن المهدى هل كان لقيه عند الامام أبى حامد الغزالى فقال ما لقيته ولكن سمعت به فقال له فما كان أبو حامد يقول فيه قال كان يقول ان هذا البربرى لابد أن سيظهر ثم صرف عبد المؤمن أهل اشبيلية بعد ان أجازهم وكتب لهم منشورا بتحرير أملاكهم فانصرفوا عنه فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة فلما قربوا من مدينة فاس توفى الامام أبو بكر بن العربى رحمه الله فحمل ودفن خارج باب المحروق منها بتربة القائد مظفر وقبره مزارة الى الآن وعليه قبة حسنة وفى هذه السنة ملك الموحدون قرطبة وكان بها يحيى بن على المسوفى المعروف بابن غانية مقيما لدعوة المرابطين فلما دخل الموحدون الاندلس واشتعلت نار الفتنة بحرب المرابطين انتهز الطاغية الفرصة فى بلاد الاسلام وضايق ابن غانية بقرطبة وألح على جهاته حتى نزل له عن بياسة وأبدة وتغلب على اشبونة وطرطوشة والمرية وماردة وأفراغة وشنترين وشنترية وغيرها من حصون الاندلس وطالب ابن غانية بالزيادة على ما بذل له أو الافراج عن قرطبة فارسل ابن غانية الى بدران بن محمد أمير الموحدين واجتمعا باستجة وضمن له بدران أمام الخليفة عبد المؤمن على أن يتخلى له عن قرطبة وقرمونة ففعل ثم لحق بغرناطة وبها ميمون بن بدر اللمتونى فى جماعة من المرابطين وأراد أن يكلمه فى الدخول فى طاعة الموحدين وأن يمكنهم من غرناطة كما فعل هو بقرطبة فتوفى بغرناطة يوم الجمعة الرابع والعشرين من شعبان سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ودفن فى القصبة بازاء قبر باديس بن حبوس الصنهاجى وانتهز الطاغية الفرصة فى قرطبة فزحف اليها وحاصرها فجهز اليه الموحدون الذين كانوا باشبيلية أبا الغمر بن عزرون لحمايتها ووصل اليه مدد يوسف البطروجى من لبلة وبلغ الخبر عبد المؤمن فبعث اليها عسكرا من الموحدين لنظر يحيى بن يغمور ولما دخلها أفرج عنها الطاغية لايام من مدخله وبادر ثوار الاندلس الى يحيى بن يغمور فى طلب الامان من عبد المؤمن ثم تلاه ثوار بمراكش فتقبلهم وصفح لهم عما سلف

﴿قدوم عبد المؤمن الى سلا ووفادة أهل الاندلس عليه بها﴾

لما كانت سنة خمس وأربعين وخمسمائة قدم عبد المؤمن من مراكش الى سلا فنظر فى أمرها وأجرى اليها ماء عين غبولة حتى وصل الى رباطها ولم تكن رباط الفتح يومئذ بنيت لان بانيها حافده يعقوب المنصور كما سيأتى ان شاء الله وانما كان يقال رباط سلا ثم أذن عبد المؤمن لاهل الاندلس فى الوفادة عليه

بسلا فقدموا عليه فى نحو خمسمائة فارس من الفقهاء والقضاة والخطباء والاشياخ والقواد فتلقاهم الشيخ أبو حفص الهنتاتى والوزير الكاتب أبو جعفر ابن عطية وأشياخ الموحدين على نحو ميلين من المدينة فأمر عبد المؤمن بانزالهم وأفاض عليهم سجال الاكرام وأنواع الضيافات والانعام وبقوا على ذلك ثلاثة أيام ثم أذن لهم فى الدخول فدخلوا عليه أوّل يوم من المحرم فاتح سنة ست وأربعين وخمسمائة فسلموا عليه وأشار الوزير ابن عطية لاهل قرطبة بالتقدم فتقدم قاضيهم أبو القاسم بن الحاج فأراد أن يتكلم فدهش ثم وصف حال قرطبة فقال يا أمير المؤمنين ان الفنش لعنه الله قد أضعفها فتلافاه أبو بكر بن الجد بالخطبة البليغة فجلى فى ذلك المجلس واستحسن عبد المؤمن خطبته ووصل الجميع كلا على قدره وقضى مطالبهم وأوصاهم بما اقتضاه الحال وأمرهم بالانصراف الى بلادهم فانصرفوا فرحين مغتبطين * وقال ابن خلدون * استدعى عبد المؤمن أهل الاندلس وهو بسلا فوفدوا عليه وبايعوه جميعا وبايعه الرؤساء من الثوار على الانخلاع من الامر مثل سدراى ابن وزير صاحب باجة ويابرة ويوسف البطروجى صاحب لبلة وابن عزرون صاحب شريش ورندة ومحمد بن الحجام صاحب بطليوس وعامل بن مهيب صاحب طلبيرة وتخلف ابن القسى وأهل شلب عن هذا الجمع فكان سببا لقتله من بعد وانصرف أهل الاندلس الى بلادهم ورجع عبد المؤمن الى مراكش واستصحب الثوار فلم يزالوا بحضرته والله تعالى أعلم

* غزو افريقية وفتح مدينة بجاية *

ثم بلغ عبد المؤمن اضطراب بلاد افريقية بسبب تنازع ملوكها من بنى زيرى بن مناد الصنهاجيين واستطالة العرب عليهم بها فأجمع الراحلة الى غزوها بعد ان شاور الشيخ أبا حفص وأبا ابراهيم وغيرهما من المشيخة فوافقوه فخرج من مراكش أواخر سنة ست وأربعين وخمسمائة واستخلف عليها الشيخ أبا حفص الهنتاتى وسار حتى وصل الى سلا فأقام بها شهرين ثم نهض منها الى سبتة مظهرا انه يريد العبور الى الاندلس بقصد الجهاد فلما وصل الى سبتة استدعى فقهاء قرطبة واشبيلية وأعيان الاندلس وقوادها فاستوضح منهم أحوال البلاد وأوصاهم بما اليهم منها وودعهم ورحل عن سبتة مظهرا العود الى مراكش وسار حتى وصل الى القصر الكبير وهو قصر كتامة فميز جيوشه وأزاح عللهم وفرق فيهم الاموال وأمرهم بتجديد الازواد وخرج يعتسف البلاد على غير طريق فجعل مدينة فاس عن يمينه وجد السير حتى خرج على وادى ملوية ثم سار الى تلمسان فأقام بها يوما واحدا ثم خرج منها والى السير قاصدا بجاية فطرق الجزائر على حين غفلة من أهلها فدخلها وأمنهم وفرّ صاحبها القائد بن يحيى بن العزيز الى أبيه يحيى ببجاية وخرج الى عبد المؤمن الحسن بن على الصنهاجى صاحب المهدية وكان الفرنج قد أخرجوه منها فقصد ابن عمه يحيى بن العزيز صاحب بجاية فعدل به الى الجزائر وأنزله بها كالمسجون فلما طرق عبد المؤمن الجزائر فى هذه المرة خرج اليه الحسن بن على المذكور فصحبه ووصل يده بيده حتى كان من أمره ما نذكره ان شاء الله ثم اعترضت جيوش صنهاجة عبد المؤمن بام العلو فهزمهم وصبح بجاية من الغد فدخلها وفرّ صاحبها يحيى بن العزيز الصنهاجى آخر ملوك بنى حماد أصحاب القلعة فركب البحر فى أسطولين كان أعدهما لذلك واحتمل فيهما ذخيرته وأمواله وعزم على المسير الى مصر ثم عدل الى بونة فنزل على أخيه الحارث فانكر عليه سوء صنيعه وافراجه عن البلد فارتحل عنه الى قسنطينة فنزل على أخيه الحسن فتخلى له عن الامر وفى خلال ذلك دخل الموحدون قلعة حماد عنوة وكان عبد المؤمن وجه جيشا من الموحدين اليها وأمر عليهم ابنه أبا محمد عبد الله فدخلوها وأضرموا النيران فى مساكنها وخربوها وقتلوا بها نحو ثمانية عشر ألفا وامتلأت أيدى الموحدين من الغنائم والسبى ثم جمع لهم العرب الذين هنالك من الاثبج وزغبة ورياح وغيرهم بسطيف فاوقعوا بهم واستلحموهم وسبوا نساءهم واكتسحوا أموالهم وأما يحيى ابن العزيز فانه بايع لعبد المؤمن سنة سبع وأربعين وخمسمائة ونزل له عن قسنطينة واشترط لنفسه فوفى له

عبد المؤمن ونقله الى مراكش باهله وخاصته فسكنها وأفاض عليه سجال الاحسان وأنزله منزلة رفيعة ثم انتقل الى سلا سنة ثمان وخمسين وخمسمائة فسكن بقصر ابن عشرة منها الى ان مات من سنته رحمه الله ووفد على عبد المؤمن بمراكش كبراء العرب من أهل افريقية طائعين فوصلهم ورجعوا الى قومهم مغتبطين

﴿فتح المرية وبياسة وأبدة﴾

كانت هذه البلاد قد استولى عليها الفرنج أيام فتنة الموحدين والمرابطين بالاندلس فلما كانت سنة ست وأربعين وخمسمائة عبر الشيخ أبو حفص الى الاندلس بامر عبد المؤمن فى جيش كثيف من الموحدين ومعه السيد أبو سعيد ابن أمير المؤمنين برسم الجهاد وكان بنو عبد المؤمن يسمون أبناءهم بالسادة فنازلوا المرية وضيقوا عليها بالحصار وبنى السيد أبو سعيد على محلته سورا واستغاث نصارى المرية بالفنش فأغاثهم ومحمد بن مردنيش وكان واصلا يده بيده ووجه معه السلطين أحد قواد الفرنج فى جيش كثيف فلم يتمكنوا من البلد ولا من محلة الموحدين لكونها محصنة بالسور فرجع ابن مردنيش والسلطين بخفى حنين وافترقا فلم يجتمعا بعد ثم عمد السلطين الى بياسة وأبدة فأخلاهما من النصارى الذين كانوا بها خوفا عليهم ورجع عوده على بدئه وأما السيد أبو سعيد فانه شدد الحصار على المرية حتى نزلوا على الامان بواسطة الوزير ابن عطية ﴿وفى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة﴾ وجه عبد المؤمن على يصليتن قريب المهدى فأتى به مكبولا من سبتة فأمر بقتله وصلبه بباب مراكش لامر نقمه عليه ثم ارتحل عبد المؤمن بعد مقتل يصليتن الى تينملل بقصد زيارة قبر المهدى فزار وفرق فى أهلها أموالا عظيمة وأمر ببناء مسجدها وتوسعتها

﴿قدوم عبد المؤمن الى سلا وتولية أولاده على النواحى بها﴾

لما قضى عبد المؤمن أربه من تينملل ارتحل منها الى سلا فأقام بها بقية سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ثم دخلت سنة تسع وأربعين بعدها فبايع لابنه السيد أبى عبد الله محمد بولاية العهد وأمر أن يذكر فى الخطبة بعده وكتب بذلك الى جميع الآفاق ثم عقد لابنه السيد أبى الحسن على على فاس وأعمالها واستوزر له أبا الحجاج يوسف بن سليمان وعقد لابنه السيد أبى حفص عمر على تلمسان وأعمالها واستوزر له أبا محمد عبد الحق بن وانودين واستكتب له أبا الحسن عبد الملك بن عياش وعقد لابنه السيد أبى سعيد عثمان على سبتة وطنجة واستوزر له أبا محمد عبد الله بن سليمان وأبا عثمان سعيد بن ميمون الصنهاجى واستكتب له أبا بكر بن طفيل القيسى وأبا بكر بن حبيش الداجى وعقد لابنه السيد أبى محمد عبد الله على بجاية وأعمالها واستوزر له أبا سعيد يخلف بن الحسن وعقد للشيخ أبى زيد بن يكيت على قرطبة وأعمالها ويقال ان قرطبة كانت فى هذا التاريخ بيد يحيى بن يغمور فالله أعلم واستقامت الاحوال لعبد المؤمن وبنيه وصفا له المغربان والاندلس والله غالب على أمره

﴿ايقاع عبد المؤمن بعبد العزيز وعيسى أخوى المهدى والسبب فى ذلك﴾

كان عبد العزيز وعيسى أخوا المهدى من مشيخة العسكر ووجوه الجيش باشبيلية أيام فتحها ووفادة أهلها على عبد المؤمن بمراكش حسبما تقدم ثم ساء أثرهما بها واستطالت أيديهما على أهلها واستباحا الدماء والاموال ثم اعتزما على الفتك بيوسف البطروجى صاحب لبلة فلحق ببلده وأخرج الموحدين الذين بها وحول الدعوة عنهم الى المرابطين ونشأ عن ذلك فساد كبير بالاندلس ثم لحق أخوا المهدى بالعدوة فى خبر طويل واستمر حالهما الى ان بايع عبد المؤمن لابنه محمد بولاية العهد وعقد لاخوته على العمالات والنواحى ففسدت نية عبد العزيز وعيسى بذلك مع ما كان صدر من عبد المؤمن من قتل ابن عمهما يصليتن وكانا يومئذ بفاس وعبد المؤمن بسلا فخرجا من فاس الى مراكش على طريق المعدن مضمرين للغدر

واتصل خبرخروجهما بعبد المؤمن فخرج من سلا في أثرهما ممتلافيا أمر مراكش وقدم أمامه وزيره أبا جعفر ابن عطية فسبقاه اليها وداخلا بعض الاوباش بها في شأنهما فوثبوا بعاملها أبي حفص عمر بن تافراكين فقتلوه بمكانه من القصبة ووصل على أثرهما الوزير ابن عطية ثم عبد المؤمن على أثره فأطفأ تلك النائرة وتقبض عبد المؤمن على عبد العزيز وعيسى فقتلهما وصلبهما وتتبع المداخلين لهما فألحقهم بهما وانقطع الشغب وزال الفساد

﴿ايقاع يحيى بن يغمور بأهل لبلة واسرافه في ذلك﴾

لما كانت سنة تسع وأربعين وخمسمائة فتح الموحدون مدينة لبلة وكان المتولى لفتحها يحيى بن يغمور والى قرطبة واشبيلية حاصرها مدة ثم اقتحمها عنوة وقبض على أهلها فخرج بهم الى ظاهر المدينة وصفهم في صعيد واحد ثم عرضهم على السيف أجمعين حتى خلص القتل منهم الى الفقيه المحدث أبي الحكم بن بطال والفقيه الصالح أبي عامر بن الجد وكان عدد من قتل من أهل لبلة في ذلك الصعيد ثمانية آلاف وقتل باحوازها نحو أربعة آلاف ثم بيعت نساؤهم وأبناؤهم وأمتعتهم وأسلابهم فعل ذلك افتياتا على عبد المؤمن وبلغه الخبر وهو بمراكش فسخطه وبعث اليه عبد الله بن سليمان فجاء به معتقلا الى الحضرة يوم عيد الفطر فألزمه بيته وبقى على ذلك مدة ثم عفا عنه وسرحه مع ابنه السيد أبي حفص الى تلمسان ولم يصرف الى أهل لبلة شيأ مما أخذ لهم واستقام أمر الاندلس ونزل ميمون بن بدر اللمتوني عن غرناطة للموحدين فملكوها وأجاز اليها السيد أبو سعيد صاحب سبتة بعهد أبيه عبد المؤمن اليه بذلك ولحق الملثمون بمراكش

﴿أمر عبد المؤمن بتحريق كتب الفروع ورد الناس الى الاصول من الكتاب والسنة﴾

لما كانت سنة خمسين وخمسمائة أمر أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على باصلاح المساجد وبنائها في جميع ممالكه وبتغيير المنكرات ما كانت وأمر مع ذلك بتحريق كتب الفروع ورد الناس الى قراءة كتب الحديث واستنباط الاحكام منها وكتب بذلك الى جميع طلبة العلم من بلاد الاندلس والعدوة فجزاه الله خيرا

﴿نقل المصحف العثماني من قرطبة الى مراكش وبناء جامع الكتبيين بها﴾

كان بقرطبة ثم بجامعها الاعظم المشهور مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ذكر ذلك جماعة من المؤرخين منهم ابن شكوال وغيره وكان ذلك المصحف الكريم متداولا عند بني أمية وأهل الاندلس واستمر بقرطبة الى دولة الموحدين فنقله عبد المؤمن الى مراكش ﴿قال ابن بشكوال﴾ أخرج المصحف العثماني من قرطبة وغرب منها وكان بجامعها الاعظم ليلة السبت الحادى عشر من شوال سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة في أيام أبي محمد عبد المؤمن بن على وبأمره وهذا أحد المصاحف الاربعة التي بعث بها عثمان رضى الله عنه الى الامصار مكة والبصرة والكوفة والشام وما قيل من ان فيه دم عثمان بعيد وان يكن أحدها فلعله الشامي ﴿قال ابن عبد الملك قال أبو القاسم التجيبي السبتي﴾ أما الشامي فهو باق بمقصورة جامع بني أمية بدمشق وعاينته هنالك سنة سبع وخمسين وستمائة كما عاينت المكي بقبة الشراب قال فلعله الكوفي أو البصري ﴿قال الخطيب ابن مرزوق في كتاب المسند الصحيح الحسن﴾ اختبرت الذي بالمدينة والذي نقل من الاندلس فالفيت خطهما سواء وما توهموه انه خطه بيمينه فليس بصحيح فلم يخط عثمان واحدا منها وانما جمع عليها بعضا من الصحابة كما هو مكتوب على ظهر المدني ونص ما على ظهره هذا ما أجمع عليه جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم زيد بن ثابت وعبد الله ابن الزبير وسعيد بن العاص وذكر العدد الذي جمعه عثمان رضى الله تعالى عنه من الصحابة رضى الله عنهم

على كتب المصحف اهـ وكان من خبر نقله الى مراكش ماذكره ابن رشيد فى رحلته عن أبى زكريا يحيى ابن أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسى عن كتاب جدّه الوزير أبى بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل المذكور قال وصل الى عبد المؤمن ابناه السيدان أبو سعيد وأبو يعقوب من الاندلس وفى صحبتهما مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه وهو الامام الذى لم يختلف فيه مختلف فتلقى وصوله بالاجلال والاعظام وبودر اليه بما يجب من التبجيل والاكرام وكان فى وصوله ذلك الوقت من عظيم العناية وباهر الكرامة ماهو معتبر لاولى الالباب وذلك ان أمير المؤمنين عبد المؤمن كان قبل ذلك بايام قد جرى ذكره فى خاطره وتروّى مع نفسه فى كيفية جلبه من مدينة قرطبة محل مثواه القديم فتوقع ان يتأذى أهل ذلك القطر بفراقه ويستوحشوا الفقدان اضاءته واشراقه فوقف عن ذلك فأوصله الله اليه تحفة سنية وهدية هنية دون ان يكدرها من البشر اكتساب أو يتقدمها استدعاء أو اجتلاب بل أوقع الله تعالى فى نفوس أهل ذلك القطر من الفرح بارساله ما اطلع بالمشاهدة على صحة صدقه وعضدت مخايل برقه سواكب ودقه وعدّ ذلك من كرامات أمير المؤمنين عبد المؤمن وسعادته ثم عزم عبد المؤمن على تعظيم المصحف الكريم وشرع فى انتخاب كسوته واختيار حليته فحشر الصناع المتقنين ممن كان بالحضرة وسائر بلاد المغرب والاندلس فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة من المهندسين والصوّاغين والنظامين والحلائين والنقاشين والمرصعين والنجارين والزوّاقين والرسامين والمجلدين وعرفاء البنائين ولم يبق من يوصف ببراعة أو ينسب الى الحذق فى صناعة الا أحضر للعمل فيه والاشتغال بمعنى من معانيه (وبالجملة) فقد صنعت له أغشية بعضها من السندس وبعضها من الذهب والفضة ورصع ذلك بانواع اليواقيت وأصناف الاحجار الغريبة النوع والشكل العديمة المثال واتخذ للغشاء محمل بديع مما يناسب ذلك فى غرابة الصنعة وبداعة الصبغة واتخذ للمحمل كرسى على شاكلته ثم اتخذ للجميع تابوت يصان فيه على ذلك المنوال ووصف ذلك يطول وفى خلال هذه المدة أمر عبد المؤمن ببناء المسجد الجامع بحضرة مراكش حرسها الله فبدئ ببنائه وتأسيس قبلته فى العشر الاول من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة وكمل فى منتصف شعبان من السنة المذكورة على أكمل الوجوه وأغرب الصنائع وأفسح المساحة وأحكم البناء والنجارة وفيه من شمسيات الزجاج ودرجات المنبر وسياج المقصورة مالو عمل فى السنين العديدة لاستغرب تمامه فكيف فى هذا الامد اليسير الذى لم يتخيل أحد من الصناع ان يتم فيه تقديره وتخطيطه فضلا عن بنائه وصليت فيه صلاة الجمعة منتصف شعبان المذكور ونهض عبد المؤمن عقب ذلك لزيارة روضة المهدى بمدينة تينملل فاقام بها بقية شعبان ومعظم رمضان وحمل فى صحبته المصحف العثمانى فى التابوت المذكور ومعه مصحف المهدى وختم القرآن العزيز فى مسجد المهدى وعند ضريحه ختمات كثيرة وعاد الى مراكش ولم يزل الموحدون يعتنون بهذا المصحف الكريم ويحملونه فى أسفارهم متبركين به كتابوت بنى اسرائيل الى ان حمله منهم السعيد وهو على بن ادريس بن يعقوب المنصور الملقب بالمعتضد بالله حين توجه الى تلمسان آخر سنة خمس وأربعين وستمائة فقتل السعيد قريبا من تلمسان ووقع النهب فى الخزائن واستولت العرب وغيرهم على معظم العسكر ونهب المصحف فى جملة مانهب منه وعثر عليه ملوك بنى عبد الواد أصحاب تلمسان فلم يزل فى خزائنهم بها الى ان افتتحها السلطان الاعظم أبو الحسن المرينى أواخر شهر رمضان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة وحصل عنده فكان يتبرك به ويحمله فى أسفاره على العادة الى ان أصيب فى وقعة طريف وحصل فى بلاد البرتغال وأعمل أبو الحسن الحيلة فى استخلاصه حتى وصل الى فاس سنة خمس وأربعين وسبعمائة على يد بعض تجار آزمور واستمر فى خزانته الى ان سافر أبو الحسن سفرته المعلومة الى افريقية فاستولى عليها * ولما كانت سنة خمسين وسبعمائة ركب أبو الحسن البحر من تونس قافلا الى المغرب وذلك

في ابان هيجان البحر فغرقت مراكبه وهلكت نفوس تجل عن الحصر وضاعت نفائس يعز وجود مثلها ومن جملتها المصحف العثماني فكان ذلك آخر العهد به ومما يناسب ذكره هنا المصحف العقباني وهو مصحف عقبة بن نافع الفهري فاتح المغرب وكان متداولا عند ملوكه ومتبركا به وثاني المصحفين في المنزلة عند أهل المغرب (قال أبو عبد الله اليفرني في كتاب النزهة) ان السلطان أبا العباس أحمد المنصور بالله المعروف بالذهبي لما جدد ولاية العهد لولده المأمون بعث اليه بالقدوم من مدينة فاس فوافاه بتامسنا وباشر المنصور أخذ البيعة له بنفسه وحضر الاعيان وأهل العقد والحل وأحضر المصحف الكريم الذي هو مصحف عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه قال وهو من ذخائر الخلفاء وأحضر الصحيحان للشيخين وقرئ ظهير البيعة وذلك في شوال سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة ولم يزل المصحف العقباني متداولا بين الملوك السعديين الى ان انقرضت دولتهم وجاءت الدولة الشريفة العلوية السجلماسية فانتقل المصحف المذكور اليها وتداولته ملوكها الى ان جاء السلطان المولى عبد الله بن اسمعيل بن الشريف رحمه الله فبعث هدية سنية مع ركب الحاج للحرم النبوي وبعث في جملتها المصحف المذكور (قال صاحب البستان) ولما سافر الركب النبوي يعني سنة خمس وخمسين ومائة وألف وجه معه السلطان المولى عبد الله ثلاث وعشرين مصحفا بين كبير وصغير كلها محلاة بالذهب مثبتة بالدر والياقوت ومن جملتها المصحف الكبير العقباني الذي كان الملوك يتوارثونه بعد المصحف العثماني وهو مصحف عقبة بن نافع الفهري نسخه بالقيروان من المصحف العثماني فوقع هذا المصحف بيد الاشراف الزيدانيين يتداولونه بينهم الى ان بلغ الى السلطان المولى عبد الله المذكور ففر به من المغرب الى المشرق ورجع الدر الى صدفه والابريز الى معدنه (قال الشيخ المسناوي) وقد وقفت عليه حين أمر السلطان المولى عبد الله بتوجيهه الى الحجرة النبوية وظهر لي ان تاريخ كتبه بالقيروان فيه نظر لبعد ما بينهما ووجه معه السلطان المذكور ألفي حصاة بالتثنية وسبعمائة حصاة من الياقوت المختلف الالوان الى الحجرة النبوية على الحال بها أفضل الصلاة وأزكى السلام وهذه الاخبار وان كانت متباعدة التاريخ فهي متناسبة المعنى جمعناها هنا ليقف الناظر عليها في محل واحد وتحصل فائدتها متناسقة والله الموفق

(نكبة الوزير ابن عطية والسبب فيها)

كان الوزير أبو جعفر أحمد بن عطية من أهل مراكش وأصله القديم من طرطوشة ثم بعد من دانية وكان أبوه أبو أحمد بن عطية كاتبا للامير المسلمين علي بن يوسف اللمتوني ثم لابنه تاشفين من بعده وتحصل في قبضة الموحدين فعفا عنه عبد المؤمن ولما حاصر عبد المؤمن فاسا اعتزم أبو أحمد هذا على الفرار فتقبض عليه في طريقه وسيق الى عبد المؤمن فاعتذر فلم يقبل عبد المؤمن عذره وسحب الى مصرعه فقتل رحمه الله وكان ابنه أبو جعفر صاحب الترجمة كاتبا لاسحق بن علي اللمتوني بمراكش فشمله عفو أمير المؤمنين فيمن شمله من ذلك الفل وخرج في جملة الشيخ أبي حفص الهنتاتي حين نهض لقتال محمد بن هود الماسي فلما كان الفتح وكتب رسالته المتقدمة وقف عليها عبد المؤمن فاستحسنها واستكتبه لذلك ثم ارتفعت مكانته عنده فاستوزره فظهر غناؤه وكفايته وحمدت سيرته وادارته وقاد العساكر وجمع الاموال وبذلها وبعد في الدولة صيته ونال من الرتبة عند السلطان ما لم ينله أحد في دولته وتحبب الى الناس باجمال السعي والاحسان فعمت صنائعه وفشا معروفه وكان محمود السيرة منجح المحاولات ناجح المساعي سعيد المآخذ ميسر المآرب وكانت وزارته زينا للوقت وكمالا للدولة رحمه الله ثم لما كانت سنة احدى وخمسين وخمسمائة وفد أشياخ اشبيلية على عبد المؤمن ورغبوا منه في ولاية بعض أبنائه عليهم فعقد لابنه السيد أبي يعقوب عليها وبعث معه الوزير ابن عطية المذكور لمباشرة الامور واصلاح الاحوال فأغنى في ذلك الغناء الجميل ولما غاب وجهه عن الحضرة وجد حساده السبيل الى التدبير عليه والسعي به حتى

أوغروا صدر الخليفة عليه فاستوزر عبد السلام بن محمد الكومي وانبرى لمطالبة ابن عطية وجدّ في التماس عوراته وتشنيع سقطاته وطرحت بمجلس السلطان أبيات منها

قل للامام أطال الله مدّته * قولا تبين لذى لب حقائقه
ان الزراجين قوم قد وترتهم * وطالب الثار لم تؤمن بوائقه
وللوزير الى آرائهم ميل * لذاك ما كثرت فيهم علائقه
فبادر الحزم فى اطفاء نارهم * فربما عاق عن أمر عوائقه
هم العدو ومن والاهم كهم * فاحذر عدوّك واحذر من يصادقه
الله يعلم أنى ناصح لكم * والحق أبلج لا تخفى طرائقه

قالوا فلما وقف عبد المؤمن على هذه الابيات البليغة فى معناها وغرصدره على وزيره أبى جعفر وأضمر له فى نفسه شرا فكان ذلك من أقوى أسباب نكبته وقيل أفضى اليه بسرّ فافشاه وانتهى ذلك كله الى أبى جعفر وهو بالاندلس فقلق وعجل الانصراف الى مراكش فحجب عند قدومه ثم قيد الى المسجد فى اليوم بعده حاسر العمامة واستحضر الناس على طبقاتهم وقرروا على ما يعلمون من أمره وما صار اليه منهم فاجاب كل بما اقتضاه هواه وأمر بسجنه ولف معه أخوه أبو عقيل عطية وتوجه فى أثر ذلك عبد المؤمن الى زيارة تربة المهدى فاستصحبهما بحال ثقاف وصدرت عن أبى جعفر فى هذه الحركة من لطائف الآداب نظما ونثرا فى سبيل التوسل بتربة امامهم المهدى عجائب فلم تجد شيأ مع نفوذ قدر الله تعالى فيه ولما انصرف من وجهته أعادهما معه قافلا الى مراكش فلما حاذى تاكارت أنفذ الامر بقتلهما بالشعراء المتصلة بالحصن على مقربة من الملاحة هنالك فضيا لسبيلهما وذلك فى شوال سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ومما خاطب به الوزير المذكور عبد المؤمن مستعطفا له من رسالة تعالى فيها فغالته المنية ولم ينل الامنية وهذه سنة الله تعالى فيمن لم يحترم جناب الالوهية ولم يحرس لسانه من الوقوع فيما يخدش فى وجه فضل الانبياء على غيرهم قوله سامحه الله تالله لو أحاطت بى كل خطيئة ولم تنفك نفسى عن الخيرات بطيئة حتى سخرت بمن فى الوجود وأنفت لآدم من السجود وقلت ان الله تعالى لم يوح فى الفلك الى نوح وأبرمت لحطب نار الخليل حبلا وبريت لقدار ثمود نبلا وحططت عن يونس شجرة اليقطين وأوقدت مع هامان على الطين وقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وافتريت على العذراء البتول فقذفتها وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة وظاهرت الاحزاب بالقصوى من العدوة وأبغضت كل قرشى وأكرمت لاجل وحشى كل حبشى وقلت ان بيعة السقيفة لا توجب امامة الخليفة وشحذت شفرة غلام المغيرة بن شعبة واعتلقت من حصار الدار وقتل أشمطها بشعبة وقلت تقاتلوا رغبة فى الابيض والاصفر وسفكوا الدماء على الثريد الاعفر وغادرت الوجه من الهامة خضيبا وناولت من قرع سن الحسين قضيبا ثم أتيت حضرة المعصوم لائذا وبقبر الامام المهدى عائذا لقد آن لمقالتى أن تسمع وتغفر لى هذه الخطيئات أجمع مع انى مقترف وبالذنب معترف

فعفوا أمير المؤمنين فمن لنا * بحمل قلوب هدّها الخفقان

والسلام على المقام الكريم ورحمة الله تعالى وبركاته وكتب مع ابن له صغير آخره

عطفا علينا أمير المؤمنين فقد * بان العزاء لفرط البث والحزن
قد أغرقتنا ذنوب كلها لجج * ورحمة منكم أنجى من السفن
وصادفتنا سهام كلنا غرض * وعطفة منكم أوقى من الجنن
هيهات للخطب أن تسطو حوادثه * بمن أجارته رحماكم من المحن
من جاء عندكم يسعى على ثقة * بنصره لم يخف بطشا من الزمن

فالثوب يطهر عند الغسل من درن * والطرف يرهص بعد الركض في سنن
أنتم بذا لستم حياة الخلق كلهم * من دون من عليهم لا ولا ثمن
ونحن من بعض من أحييت مكارمكم * كلتا الحياتين من نفس ومن بدن
وصبية كفراخ الورق من صغر * لم يألفوا النوح في فرع ولا فنن
قد أوجدتهم أيادمنك سابقة * والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

فوقع عبد المؤمن على هذه القصيدة الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ومما كتب به من السجن

أنوح على نفسي أم انتظر الصفحا * فقد آن ان تنسى الذنوب وأن تمحا
فها أنا في ليل من السخط حائر * ولا أهتدي حتى أرى للرضى صبحا

وامتحن عبد المؤمن الشعراء بهجو ابن عطية فلما أسمعوه ما قالوا أعرض عنهم وقال ذهب ابن عطية وذهب الادب معه وكان لابي جعفر أخ اسمه عطية قتل معه كما قلنا ولعطية هذا ابن أديب كاتب وهو أبو طالب عقيل بن عطية ومن نظمه في رجل تعشق قينة كانت ورثت مالا من مولاها فكانت تنفق عليه منه فلما فرغ المال ملها فقال أبو طالب

لا تلحه ان مل من حبها * فلم يكن ذلك عن ود
لما رآها قد صفا مالها * قال صفا الوجد مع الوجد

﴿ويروى﴾ ان الوزير ابن عطية رحمه الله مر مع الخليفة عبد المؤمن ببعض طرق مراكش فاطلت جارية بارعة الجمال من شباك فقال عبد المؤمن

قدت فؤادي من الشباك اذ نظرت * فقال الوزير مجيزاله * حوراء ترنو الى العشاق بالمقل
فقال عبد المؤمن * كأنما لحظها في قلب عاشقها * فقال الوزير * سيف المؤيد عبد المؤمن بن علي

ولا خفاء ان هذه طبقة عالية رحم الله الجميع بمنه

﴿غزو افريقية ثانيا وفتح المهدية وغيرها من الثغور﴾

كانت بلاد افريقية بيد بني زيري بن مناد الصنهاجيين من لدن الدولة العبيدية بها وفي هذا التاريخ كانت دولتهم قد أشرفت على الهرم وكثر التنازع بينهم وزاحمتهم الثوار من العرب وغيرهم بتلك الاقطار فانتهز الفرنج أصحاب صقلية الفرصة فيهم وملكوا منهم عدة ثغور مثل صفاقس وسوسة وغيرهما ثم ملكوا بعد ذلك المهدية وهي يومئذ دار ملك الحسن بن علي الصنهاجي آخر ملوك بني زيري بن مناد ففر الحسن عنها الى ابن عمه يحيى بن العزيز صاحب بجاية فانزله بالجزائر ولما طرق عبد المؤمن ثغر الجزائر في غزوته الاولى الى افريقية خرج اليه الحسن بن علي هذا وصحبه وصار في جملته فكان الحسن يغريه بغزو افريقية واستنقاذها من يد العدو وكان عبد المؤمن يحب ذلك ويرغب فيه الا انه كان ينتظر ابان الفرصة فاتفق ان فرنج صقلية أوقعوا باهل زويلة وهي مدينة بينها وبين المهدية نحو ميدان وقعة شنيعة حتى انهم قتلوا النساء والاطفال ففر جماعة منهم الى عبد المؤمن بن علي وهو بمراكش يستغيثونه ويستنصرونه على العدو فلما وصلوا اليه أكرمهم وأخبروه بما جرى على المسلمين وانه ليس في ملوك الاسلام من يقصد سواه ولا يكشف هذا الكرب غيره فدمعت عيناه وأطرق ثم رفع رأسه وقال أبشروا لأنصرنكم ولو بعد حين وأمر بانزالهم وأطلق لهم ألفي دينار ثم أمر بعمل الروايا والقرب وما يحتاج اليه العسكر في السفر وكتب الى جميع نوابه في المغرب وكان قد ملك العدوتين الاندلس والمغرب واتسعت خطة مملكته الى قرب مدينة تونس فكتب الى من بطريقه من النواب يأمرهم بحفظ جميع ما يتحصل من الغلات وأن يترك الزرع في سنبله ويخزن في مواضعه وأن يحفروا الآبار في الطرق ففعلوا جميع ما أمرهم به وجمعوا غلات الحب ثلاث سنين ونقلوها الى المنازل التي على الطريق وطينوا عليها فصارت كأنها تلال فلما كان صفر من سنة أربع وخمسين وخمسمائة سار عبد المؤمن من مراكش يؤم

بلاد افريقية ﴿وقال ابن خلدون﴾ كان عبد المؤمن في هذه السفرة قد عزم على العبور الى الاندلس لما بلغه من اضطراب أحوالها واستطالة الطاغية بها فنهض يريد الجهاد واحتل بسلا فبلغه انتقاض افريقية وأهمه شأن النصارى بالمهدية فلما توافت العساكر بسلا استخلف الشيخ أبا حفص الهنتاتي على المغرب وعقد ليوسف بن سليمان على مدينة فاس ونهض يغذ السير الى افريقية واجتمع عليه من العساكر مائة ألف مقاتل ومن الاتباع والسوقة أمثالهم وكان هذا الجند يعتد أميالا وبلغ من حفظه وضبطه انهم كانوا يمشون بين الزروع فلا تتأذى بهم سنبلة واذا نزلوا صلوا بامام واحد بتكبيرة واحدة لا يتخلف منهم أحد كائنا من كان وقدم بين يديه الحسن بن على الصنهاجي صاحب المهدية وكان قد اتصل به كما قلنا فلم يزل يسير الى ان وصل الى مدينة تونس في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة وبها صاحبها أحمد بن خراسان وأقبل اسطوله في البحر في سبعين شينيا وطريدة وشلندا فلما نازلها راسل أهلها يدعوهم الى الطاعة فامتنعوا فقاتلهم من الغد أشد قتال ولما جن الليل نزل سبعة عشر رجلا من أعيان أهلها الى عبد المؤمن يسألونه الامان لاهل بلدهم فاجابهم عبد المؤمن بان لهم الامان في أنفسهم وأهليهم وأموالهم لمبادرتهم الى الطاعة وأما من عداهم من سائر أهل البلد فيؤمنهم في أنفسهم وأهليهم ويقاسمهم على أموالهم وأملاكهم نصفين وأن يخرج صاحب البلد هو وأهله فاستقر الامر على ذلك وتسلم البلد وبعث اليهم من يمنع العساكر من الدخول عليهم وبعث أمناءه ليقاسموا الناس على أموالهم وأملاكهم وأقام أهل تونس بها على أجرة تؤخذ عن نصف مساكنهم وعرض عبد المؤمن الاسلام على من بها من اليهود والنصارى فمن أسلم سلم ومن أبى قتل وأقام عليها ثلاثة أيام ثم سار الى المهدية واسطوله يحاذيه في البحر فوصل اليها ثامن عشر رجب من السنة المذكورة وكان بالمهدية يومئذ خواص الفرنج من أولاد ملوكها وأبطال فرسانها وقد أخلوا مدينة زويلة المجاورة للمهدية فدخلها عبد المؤمن وامتلأت بالعساكر والسوقة فصارت مدينة معمورة في ساعة واحدة ومن لم يكن له موضع من العسكر نزل بظاهرها وانضاف اليه من صنهاجة والعرب وأهل افريقية ما يخرج عن الاحصاء وأقبلوا يقاتلون المهدية مدة أيام فلا يؤثر فيها لحصانتها وقوة سورها وضيق مجال القتال عليها لان البحر دائر بأكثرها فكأنها كف في البحر وزندها متصل بالبر وكانت الفرنج تخرج شجعانها الى أطراف العسكر فتنال منه ويعودون سريعا فأمر عبد المؤمن ببناء سور غربي المدينة يمنعهم من الخروج وأحاط الاسطول بها في البحر وركب عبد المؤمن شينيا ومعه الحسن بن على الذي كان صاحبها وتطوف بها في البحر فهاله ما رأى من حصانتها وعلم انها لا تفتح بقتال برا ولا بحرا وليس لها الا المطاولة وقال للحسن كيف نزلت عن مثل هذا الحصن فقال لقلة من يوثق به وعدم القوت وحكم القدر فقال صدقت وعاد عبد المؤمن من البحر وأمر بجمع الغلات والاقوات وترك القتال فلم يمض غير قليل حتى صار في المعسكر مثل الجبلين من الحنطة والشعير فكان من يصل الى المعسكر من بعيد يقول متى حدثت هذه الجبال فيقال هي حنطة وشعير فيتعجب من ذلك وتمادى الحصار وفي مدة هذا الحصار استولى عبد المؤمن على طرابلس وصفاقس وسوسة وجبال نفوسة وقصور افريقية وما والاها وفتح مدينة قابس بالسيف وسير ابنه السيد أبا محمد من مكان حصاره للمهدية في جيش ففتح بلادا أخرى ثم أطاعه أهل مدينة قفصة وقدم عليه صاحبها فوصله بالف دينار (وبالجملة) فانه استخلص في هذه المدة جميع بلاد افريقية من أيدي القائمين بها ولما كان الثاني والعشرون من شعبان من السنة المذكورة جاء اسطول صاحب صقلية في مائة وخمسين شينيا غير الطرائد مددا لاهل المهدية وكان هذا الاسطول قد قدم من جزيرة يابسة من بلاد الاندلس وقد سبا أهلها وأسرهم وحملهم معه فارسل اليهم ملك الفرنج يأمرهم بالمسير الى المهدية ليمدوا اخوانهم الذين بها فقدموا في التاريخ المذكور فلما قاربوا المدينة حطوا اشرعهم ليدخلوا المينا فخرج اليهم اسطول عبد المؤمن وركب العسكر جميعه ووقفوا على

جانب البحر فاستعظم الفرنج ما رأوا من كثرة العساكر ودخل الرعب قلوبهم ونزل عبد المؤمن الى الارض فجعل يمرغ وجهه ويبكي ويدعو للمسلمين بالنصر واقتتلوا في البحر فانهزمت شواني الفرنج وأعادوا القلوع وساروا وتبعهم المسلمون فأخذوا منهم سبع شواني وكان أمرا عجيبا وفتحا غريبا وعاد اسطول المسلمين مظفرا منصورا وفرّق فيهم عبد المؤمن الاموال ويئس أهل المهدية حينئذ من النجاة ومع ذلك فقد صبروا على الحصار أربعة أشهر أخرى الى آخر ذي الحجة من السنة فنزل حينئذ من فرسان الفرنج الى عبد المؤمن عشرة وسألوا الامان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها الى بلادهم وكان قوتهم قد فنى حتى أكلوا الخيل فعرض عليهم عبد المؤمن الاسلام ودعاهم اليه فقالوا ماجئنا لهذا وانما جئنا نطلب فضلك وترددوا اليه أياما وكان من جملة ما استعطفوه به ان قالوا أيها الخليفة ماعسى أن تكون المهدية ومن بها بالنسبة الى ملكك العظيم وأمرك الكبير وان أنعمت علينا كنا أرقاءك في أرضنا فعفا عنهم وكان الفضل شيمته وأعطاهم سفنا ركبوا فيها وساروا وكان الزمن شتاء فغرق أكثرهم ولم يصل منهم الى صقلية الا النفر اليسير وكان صاحب صقلية قد قال ان قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين عندنا بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم فأهلك الله الفرنج غرقا وكان مدة استيلائهم على المهدية اثنتي عشرة سنة فدخلها عبد المؤمن صبيحة يوم عاشوراء من المحرم سنة خمس وخمسين وخمسمائة فكان يقال لهذه السنة سنة الاخماس وأقام عبد المؤمن بالمهدية عشرين يوما حتى رتب أحوالها وأصلح ما انثلم من سورها ونقل اليها الذخائر والاقوات والرجال والعدد واستخلف عليها أبا عبد الله محمد بن فرج الكومي وجعل معه الحسن بن علي الصنهاجي الذي كان صاحبها وأمره أن يقتدي برأيه في أفعاله وأقطع الحسن بها اقطاعا وأعطاه دورا نفيسة يسكنها وكذلك فعل بأولاده وصفت افريقية كلها لعبد المؤمن ودخل أهلها في طاعته من برقة الى تلمسان ولم يبق له بها منازع ففرق فيها عماله وقضاته وضبط ثغورها وأصلح شؤنها وثنى عنانه الى المغرب أول صفر من السنة المذكورة وانقطعت عادية الفرنج عن بلاد افريقية مدة مديدة والله تعالى أعلم

﴿توظيف عبد المؤمن الخراج على أرض المغرب﴾

وفي هذه السنة أعني سنة خمس وخمسين وخمسمائة أمر عبد المؤمن بتكسير بلاد افريقية والمغرب فكسر من برقة في جهة الشرق الى بلاد نول من السوس الاقصى في جهة الغرب بالفراسخ والاميال طولا وعرضا ثم أسقط من التكسير الثلث في الجبال والغياض والانهار والسباخ والحزون والطرق ومابقي قسط عليه الخراج وألزم كل قبيلة بقسطها من الزرع والورق فهو أول من أحدث ذلك بالمغرب عفا الله عنه

﴿بناء عبد المؤمن جبل طارق﴾

كان عبد المؤمن رحمه الله وهو بافريقية قد أمر ببناء جبل الفتح وتحصينه وهو جبل طارق فبني وشيد حصنه وكان ابتداء البناء به في تاسع ربيع الاول من سنة خمس وخمسين وخمسمائة المذكورة وكمل بناؤه في ذي القعدة منها

﴿بناء عبد المؤمن مدينة البطحاء﴾

لما كان عبد المؤمن قافلا من بلاد افريقية بنى مدينة البطحاء وسبب بنائه اياها انه لما طالت بالموحدين الاقامة بالمشرق والتغرب عن أوطانهم عزمت طائفة منهم على قتل عبد المؤمن والفتك به في خبائه اذا نام فأتى شيخ من أشياخ الموحدين ممن اطلع على ذلك الى عبد المؤمن فأخبره الخبر وقال له دعني أبت الليلة في موضعك وأنم على فراشك فان فعلوا ما اتفقوا عليه كنت قد فديتك بنفسي في حق المسلمين وأجرى

فى ذلك على الله وان حصلت السلامة فمن الله تعالى ويكون أجرى على قدر نيتى فبات على فراشه فاستشهد فى تلك الليلة فلما أصبح عبد المؤمن وصلى الصبح افتقده فوجده قتيلا على فراشه فأخذه وحمله بين يديه على ناقة لا يقودها أحد فسارت الناقة يمينا وشمالا حتى بركت وحدها فأمر عبد المؤمن بالشيخ فأنزل عنها وأخذ بزمام الناقة فأزيلت عن مبركها وحفر قبره فيه ودفن وبنيت عليه قبة وبنى بازاء القبة جامعا ثم أمر ببناء المدينة حول المسجد وترك بها عشرة أهل بيت من كل قبيل من قبائل المغرب فقبر الشيخ هنالك مزارة عند أهل تلك البلاد الى اليوم قاله فى القرطاس ولما دخل عبد المؤمن الى تلمسان فى هذه الرجعة قبض على وزيره عبد السلام بن محمد الكومى فسجنه ثم سمه فى جرعة لبن هلك بها من ليلته

﴿عبور عبد المؤمن الى جبل طارق والسبب فى ذلك﴾

كان عبد المؤمن وهو بافريقية قد بلغه ان محمد بن مردنيش الثائر بشرق الاندلس قد خرج من مرسية ونازل جيان وأطاعه واليها محمد بن على الكومى ثم نازل بعدها قرطبة ورحل عنها وغدر بقرمونة وملكها ثم رجع الى قرطبة وخرج ابن بكيت لحربه فهزمه ابن مردنيش وقتله فكتب عبد المؤمن الى عماله بالاندلس يخبرهم بفتح افريقية عليه وانه واصل اليهم فلما نهض من تلمسان فى رجعته هذه عدل الى طنجة فدخلها فى ذى الحجة سنة خمس وخمسين وخمسمائة وأقام بها الى ان دخلت سنة ست وخمسين بعدها فعبر منها الى الاندلس ونزل بجبل طارق فأقام به شهرين واستشرف منه أحوال الاندلس ووفد عليه قوادها وأشياخها فأمر بغزو غرب الاندلس فنهض اليه الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبى حفص الهنتاتى من قرطبة فى جيش كثيف من الموحدين ففتح حصن المرنكش من أحواز بطليوس وقتل جميع من كان به من النصارى وخرج الفنش من طليطلة لاغاثته فوجده قد فتح وصمد الموحدون لقتاله فهزمه الله وقتل من عسكره ستة آلاف وساق المسلمون السبى الى قرطبة واشبيلية وفى هذه السنة ملك الموحدون بطليوس وباجة ويابورة وحصن القصر فولى عليها عبد المؤمن محمد بن على بن الحاج وعاد الى مراكش

﴿قدوم كومية قبيلة عبد المؤمن عليه بمراكش والسبب فى ذلك﴾

تقدم لنا ان عبد المؤمن لم يكن من المصامدة وانما كان من كومية احدى بطون بنى فاتن من البرابرة البتر وكانت مواطنهم بالمغرب الاوسط الى ان استدعاهم عبد المؤمن الى مراكش سنة سبع وخمسين وخمسمائة والسبب فى ذلك انه لما همت الطائفة من الموحدين بقتله وقتلوا الشيخ الذى فداه بنفسه وتحقق ذلك منهم ورأى انه غريب بين أظهرهم ليس له قبيل يستند اليه ولا عشير يثق به ويعتمد عليه أرسل فى خفية الى أشياخ كومية الذين هم قبيلته وعشيرته وأمرهم بالقدوم عليه وأن يركبوا كل من بلغ الحلم منهم ويأتوه فى أحسن زىّ وأكمل عدّة وسرّب اليهم الاموال والكسى فاجتمع منهم أربعون ألف فارس ثم أقبلوا الى عبد المؤمن وهو بمراكش برسم خدمته والقيام بين يديه ولما دخلوا أرض المغرب تشوّش أهله من قدوم هذا الجيش الحفيل من غير ان يتقدم لهم سبب ظاهر وتقوّل الناس الاقاويل فسار جيش كومية حتى نزلوا على وادى أم الربيع وتسامع الموحدون باقبالهم فارتابوا منهم وعرّفوا أمير المؤمنين عبد المؤمن بخبرهم فأمر عبد المؤمن الشيخ أبا حفص الهنتاتى أن يخرج اليهم فى جماعة من الموحدين وأشياخهم ليتعرفوا خبرهم فسار حتى لقيهم على وادى أم الربيع فقال لهم ما أنتم أسلم لنا أم حرب قالوا بل نحن سلم نحن قبيل أمير المؤمنين نحن كومية قصدنا زيارته والسلام عليه فرجع أبو حفص وأصحابه وعرّف عبد المؤمن الخبر فأمر جميع الموحدين أن يخرجوا الى لقائهم ففعلوا واحتفلوا لذلك وكان يوم دخولهم مراكش يوما مشهودا فرتبهم عبد المؤمن فى الطبقة الثانية من أهل الديوان وجعلهم بين قبيلة تينملل والقبيلة التابعة لهم وجعلهم بطانته يركبون خلف ظهره ويمشون بين يديه اذا خرج ويقومون على رأسه اذا جلس فاعتضد بهم عبد المؤمن وبنوه سائر دولتهم الى انقراضها والله

غالب على أمره

﴿استعداد عبد المؤمن للجهاد وانشاؤه الاساطيل بسواحل المغرب وما يتبع ذلك من وفاته رحمه الله﴾

لما تمهد لعبد المؤمن ملك المغربين وافريقية والاندلس وطاعت له سائر الاقطار وخضعت له الرقاب في البوادي والامصار تفرغ لشأنه وتاقت نفسه للجهاد فعزم على غزو بلاد الفرنج برا وبحرا فأمر رحمه الله في هذه السنة التي هي سنة سبع وخمسين وخمسمائة بانشاء الاساطيل في جميع سواحل ممالكه فأنشئ له منها أربعمائة قطعة فمنها بحلق المعمورة وهي التي تسمى اليوم المهدية مائة وعشرون قطعة ومنها بطنجة وسبتة وبادس ومراسي الريف مائة قطعة ومنها ببلاد افريقية ووهران ومرسى هنين مائة قطعة ومنها ببلاد الاندلس ثمانون قطعة ونظر في استجلاب الخيل للجهاد والاستكثار من أنواع السلاح والعدد وأمر بضرب السهام في جميع عمله فكان يضرب له منها في كل يوم نحو عشرة قناطير جدية فجمع له من ذلك ما لا يحصى كثرة في خلال هذا ووفدت عليه قبيلة كومية كامر ثم لما دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة خرج أمير المؤمنين عبد المؤمن من مراكش قاصدا الاندلس برسم الجهاد وكان خروجه يوم الخميس خامس ربيع الاول من السنة المذكورة فوصل الى رباط سلا فكتب الى جميع بلاد المغرب والقبلة وافريقية والسوس وغير ذلك يستنفرهم الى الجهاد فأجابه خلق كثير واجتمع له من عساكر الموحدين والمرتزقة من قبائل العرب والبربر وزناتة أزيد من ثلاثمائة ألف فارس من جيوش المتطوعة ثمانون ألف فارس ومائة ألف راجل فضاقت بهم الارض وانتشرت المحلات والعساكر في أرض سلا من عين غبولة الى عين خميس الى حلق المعمورة فلما استوفيت لديه الحشود وتكاملت لديه الجنود والوفود كان المعنى الذي أشار اليه القائل

اذا تم أمر بدا نقصه * ترقب زوالا اذا قيل تم

فابتدأ بعبد المؤمن مرضه الذي توفي منه وتمادى به ألمه فخاف أن يفجأه الحمام فأمر بعزل ولده محمد عن ولاية العهد واسقاط اسمه من الخطبة لما ظهر له من العجز عن القيام بأمر الخلافة وكان ذلك يوم الجمعة الثاني من جمادى الآخرة من السنة المذكورة وكتب بذلك الى جميع طاعته وتمادى به مرضه واشتد ألمه فتوفي ليلة الجمعة الثامن من جمادى الآخرة من السنة المذكورة وقيل غير ذلك وحمل الى تينملل فدفن بها الى جنب قبر الامام المهدي رحمه الله فسبحان من لا يبيد ملكه ولا ينقضي عزه ونقل ابن خلكان في كيفية عزل ولي العهد وجها آخر قال ناقلا من خط العماد بن جبريل ان عبد المؤمن كان في حياته قد عهد الى أكبر أولاده وهو محمد وبايعه الناس بعد تحليف الجند له وكتب ببيعته الى البلاد فلما مات عبد المؤمن لم يتم له الامر لانه كان على أمور لا يصلح معها للملك من ادمان شرب الخمر واختلال الرأي وكثرة الطيش وجبن النفس ويقال انه مع هذا كله كان به ضرب من الجذام واضطرب أمره واختلف الناس عليه فخلع وكانت مدة ولايته خمسة وأربعين يوما وذلك في شعبان من سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وكان الذي سعى في خلعه أخويه أبا يعقوب يوسف وأبا حفص عمر ابني عبد المؤمن ولما تم خلعه دار الامر بين الاخوين المذكورين وهما من نجباء أولاد عبد المؤمن ومن ذوي الرأي فتأخر منهما أبو حفص عمر وسلم الامر الى أخيه أبي يعقوب يوسف فبايعه الناس واتفقت عليه الكلمة والله تعالى أعلم

﴿بقية أخبار عبد المؤمن وسيرته﴾

﴿قال ابن خلكان﴾ كان عبد المؤمن عند وفاته شيخا نقي البياض قال ونقلت من تاريخ فيه سيرته وحليته فقال مؤلفه رأيته شيخا معتدل القامة عظيم الهامة أشهل العينين كث اللحية شثن الكفين طويل القعدة واضح بياض الاسنان بخده الايمن خال وكان رحمه الله فصيحا فقيها عالما بالاصول

والجدل والحديث مشاركا فى كثير من العلوم الدينية والدنيوية ذا حزم وسياسة واقدام فى الحرب ومهمات الامور سرى الهمة ميمون النقيبة لم يقصد قط بلدا الا فتحه ولا جيشا الا هزمه محبا لاهل العلم والادب مكرما لوفادتهم منفقا لبضاعتهم ذكر العماد الاصبهانى فى كتاب الخريدة ان الفقيه أبا عبد الله محمد بن أبى العباس التيفاشى لما أنشده

ماهز عطفيه بين البيض والاسل * مثل الخليفة عبد المؤمن بن على

أشار عليه بأن يقتصر على هذا البيت وأمر له بالف دينار وقد تقدم ما دار بينه وبين وزيره ابن عطية من الشعر الذى تجاذباه فى أمر الجارية التى أطلت من الشباك وذلك دليل على سراوة طبعه وخفة روحه رحمه الله

﴿الخبر عن دولة أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بن على﴾

﴿قال ابن خلدون﴾ لما هلك عبد المؤمن أخذ السيد أبو حفص بن عبد المؤمن البيعة على الناس لاخيه أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن باتفاق من الموحدين كافة ورضى من الشيخ أبى حفص الهنتاتى خاصة واستقل فى رتبة وزارته ﴿وذكر القاضى أبو الحجاج يوسف بن عمر مؤرخ دولتهم﴾ ان أمير المؤمنين يوسف ابن عبد المؤمن بويع بيعة الجماعة يوم الجمعة ثامن ربيع الاول سنة ستين وخمسمائة وذلك بعد وفاة والده عبد المؤمن بسنتين لانه لما بويع بعد وفاة والده توقف عن بيعته ناس من أشياخ الموحدين وامتنع من بيعته أخواه السيد أبو محمد صاحب بجاية والسيد أبو عبد الله صاحب قرطبة فكف عنهم ولم يطالبهم ببيعة وتسمى بالامير ولم يتسم بأمير المؤمنين حتى اجتمع عليه الناس (وذكر ابن مطروح فى تاريخه) انه لما مات عبد المؤمن كان ولده يوسف باشبيلية فأخفى أصحابه موته وأرسلوا الى يوسف فوصل من اشبيلية الى سلا فى أقرب وقت فبويع بها ولم يتخلف عن بيعته الا ناس قليلون فلم يلتفت اليهم وكان أول شئ فعله بعد البيعة ان سرح الجيوش المجتمعة للجهاد الى بلادهم وقبائلهم وكتب الى البلاد بتسريح السجون وتفريق الصدقات فى جميع عمله وتسمى بالامير ثم ارتحل الى مراكش فدخلها وأقام بها وكتب الى جميع أهل طاعته من الموحدين يطلبهم بالبيعة فأتته البيعة من جميع بلاد افريقية والمغرب والاندلس ماخلا قرطبة وبجاية فان ولاتهما وهما أخواه توقفا عن ذلك وانتشر خبر أمير المؤمنين يوسف فى أقطار البلاد ودان له من بالعدوتين من العباد وفرق الاموال فى القبائل والاجناد ﴿وفى سنة تسع وخمسين وخمسمائة﴾ قدم عليه أخواه السيد أبو محمد صاحب بجاية والسيد أبو عبد الله صاحب قرطبة تائبين مبايعين وقدم معهما أشياخ بلاديهما ووفقا أو هما فوصلهم أمير المؤمنين يوسف بالاموال والخلع وأحسن اليهم وفى هذه السنة ثار مرزدغ الصنهاجى من صنهاجة مفتاح وضرب السكة باسمه وكتب فيها مرزدغ الغريب نصره الله عن قريب وكانت ثورته ببلاد غمارة فبايعه خلق كثير من غمارة وصنهاجة وأوربة فأفسد تلك الناحية ودخل مدينة تازا وقتل بها خلقا كثيرا وسبا فبعث اليه أمير المؤمنين يوسف جيشا من الموحدين فقتل وحمل رأسه الى مراكش ﴿وفى سنة ستين وخمسمائة﴾ كانت وقعة الجلاب بالاندلس بين السيد أبى سعيد بن عبد المؤمن وجيوش الفرنج مع ابن مردنيش وكانت الفرنج ثلاثة عشر ألفا فهزم ابن مردنيش وقتل من معه من الفرنج باجمعهم وكتب السيد أبو سعيد بالفتح الى أخيه أمير المؤمنين يوسف ﴿وفى احدى وستين وخمسمائة﴾ عقد أمير المؤمنين يوسف على بجاية لاخيه السيد أبى زكريا وعلى اشبيلية للشيخ أبى عبد الله محمد بن ابراهيم ثم أدال منه بأخيه السيد أبى ابراهيم وأقر الشيخ أبا عبد الله على وزارته وعقد على قرطبة لاخيه السيد أبى اسحق وأقر السيد أبا سعيد على غرناطة ثم نظر الموحدون فى وضع العلامة المكتوبة بخط الخليفة فاختاروا الحمد لله وحده لما وقفوا عليها بخط الامام المهدى فى بعض مخاطباته فكانت علامتهم الى آخر دولتهم والله أعلم

﴿ثورة سبع بن منغفاد بجبال غمارة﴾

﴿وفي سنة احدى وستين وخمسمائة﴾ ثار سبع بن منغفاد وسماه ابن أبي زرع يوسف بن منغفاد بجبل تيزيران من بلاد غمارة وعظمت الفتنة في قبائلها وجاذبهم فيها جيرانهم من صنهاجة فبعث اليهم أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن عساكر الموحدين الى نظر الشيخ أبي حفص الهنتاتي ثم تعاظمت فتنة غمارة وصنهاجة فخرج اليهم أمير المؤمنين بنفسه وأوقع بهم واستأصلهم وقتل سبع بن منغفاد وحمل رأسه الى مراكش وانحسم داؤهم وعقد يوسف لأخيه السيد أبي علي الحسن على سبتة وسائر بلادهم ﴿وفي سنة ثلاث وستين﴾ اجتمع الموحدون على تجديد البيعة ليوسف بن عبد المؤمن واللقب بأمير المؤمنين وذلك في جمادى الآخرة منها وخاطب العرب بافريقية يستدعيهم الى الغزو ويحرضهم وكتب اليهم في ذلك بقصيدة ورسالة مشهورة بين الناس فكان من احتفالهم ووفودهم عليه ما هو معروف ﴿وفي سنة أربع وستين بعدها﴾ وفد عليه أهل الامصار من افريقية والمغرب والاندلس القضاة والفقهاء والخطباء والشعراء والاشياخ والاعيان برسم التهنئة والمطالعة بأحوال بلادهم فوصلت الوفود الى مراكش فدخلوا عليه وهنؤه بالخلافة ووصل الجميع كل على قدره وأوصاهم بما اقتضاه الحال وكتب لهم الظهائر بعطائهم واصلاح شؤنهم وانصرفوا شاكرين ﴿وفي هذه السنة أيضا﴾ بعث أمير المؤمنين الشيخ أبا حفص الهنتاتي في جيوش الموحدين الى الاندلس لاستنقاذ بطليوس من حصار العدو واحتفل أمير المؤمنين في ذلك فلما انتهوا الى اشبيلية بلغه ان الموحدين وأهل بطليوس هزموا العدو وأسروا قائد جيشه فسار الشيخ أبو حفص الى قرطبة ﴿وفي سنة خمس وستين بعدها﴾ وجه يوسف بن عبد المؤمن أخاه السيد أبا حفص الى الاندلس برسم الجهاد فعبر البحر من قصر المجاز الى طريف في عشرين ألفا من الموحدين والمتطوعة فدوخوا بلاد العدو وبعث السيد أبو حفص أخاه السيد أبا سعيد الى بطليوس فعقد الصلح مع الطاغية ابن اذفونش وهو يومئذ أعظم ملوك فرنج الجزيرة وانصرف ونهضوا جميعا الى مرسية ومعهم ابراهيم بن همشك كان من قواد ابن مردنيش فنزع عنه الى الموحدين فحاصروا ابن مردنيش الثائر بمرسية وأعمالها واستولوا على أكثر بلاده واتصل الخبر بالخليفة بمراكش وقد خف الى الجهاد ﴿وفي سنة ست وستين﴾ أمر أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن ببناء قنطرة تانسيفت وكان الشروع في بنائها يوم الاحد ثالث صفر من السنة المذكورة

﴿الجواز الاول لامير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن الى الاندلس بقصد الجهاد﴾

لما اتصل بأمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن ما اتفق لشقيقه السيد أبي حفص من الاستيلاء على غالب بلاد ابن مردنيش وظهور المسلمين على عدوهم بها وكان بعض ملوك الفرنج بها لم يزالوا يشغبون على المسلمين بالغارات على أطراف بلادهم تاقت نفسه الى العبور الى بلاد الاندلس بقصد اصلاح حالها وجهاد العدو بها وقد توافت لديه وهو بمراكش جموع العرب من افريقية صحبة السيد أبي زكريا صاحب بجاية والسيد أبي عمران صاحب تلمسان وكان يوم قدومهم عليه يوما مشهودا فاعترضهم وسائر عساكرهم ونهض الى الاندلس في مائة ألف من العرب والموحدين واستخلف على مراكش أخاه السيد أبا عمران فاحتل بقرطبة سنة سبع وستين وخمسمائة ثم ارتحل بعدها الى اشبيلية ولقيه السيد أبو حفص هنالك منصرفا من بعض غزواته ولما نزل أمير المؤمنين يوسف باشبيلية خافه محمد بن مردنيش وحمل على قلبه فمرض ومات وقيل ان أمه سمته لانه كان قد أساء الى خواصه وكبراء دولته فنصحته فتهددها وخافت بطشه فسمته ولما مات محمد بن مردنيش جاء أولاده واخوته الى أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن وهو باشبيلية فسلموا اليه جميع بلاد شرق الاندلس التي كانت لابيهم فأحسن اليهم أمير المؤمنين وتزوج أختهم وأصبحوا عنده في أعز منزلة وصنع في وليمتها مهرجانا عظيما يقصر الوصف

عنه ولما صفت لأمير المؤمنين يوسف الاندلس خرج من اشبيلية غازيا بلاد العدو فنزل على مدينة له تسمى وبذة فاقام محاصرا لها شهورا الى ان اشتد عليهم الحصار وعطشوا فراسلوه فى تسليم المدينة وان يعطيهم الامان على نفوسهم فامتنع من ذلك فلما اشتد بهم العطش سمع لهم فى بعض الليالى لغط عظيم وأصوات هائلة وذلك انهم اجتمعوا بأسرهم ودعوا الله تعالى فجاءهم مطر عظيم ملأ ما كان عندهم من الصهاريج فارتووا وتقووا على المسلمين فانصرف عنهم الى اشبيلية بعد ان هادنهم مدة سبع سنين فليعتبر الواقف على هذه القضية وليعلم ان هؤلاء كفار جاحدون ينسبون الى الله تعالى مالا يليق به من التثليث وأنواع الكفر ومع ذلك لما انقطع رجاؤهم ورجعوا اليه تعالى بالاضطرار الصادق رحمهم سبحانه وهو أرحم الراحمين فلا ينبغى بعد هذا للمؤمن الموحد اذا حصل فى شدة ان ييأس من رحمة الله فانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون والسر فى الاضطرار فانه عند أرباب البصائر هو اسم الله الاعظم الذى اذا دعى به أجاب واذا سئل به أعطى اللهم اجعلنا يا مولانا عندك من المرحومين واجعل كل من يرحمنا عندك من المرحومين فانت أهل ذلك والقادر عليه ثم بلغ أمير المؤمنين خروج العدو الى أرض المسلمين مع القومس الاحدب فخرج اليهم وأوقع بهم بناحية قلعة رباح وأثخن فيهم ورجع الى اشبيلية وفى هذه السنة أعنى سنة سبع وستين وخمسمائة شرع أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن فى بناء جامع اشبيلية فتم وصليت به الجمعة فى ذى الحجة منها وفى هذه السنة أيضا عقد أمير المؤمنين الجسر على وادى اشبيلية بالقوارب وبنى قصبتها الداخلة وبنى الزلاليق بالسور وبنى سور باب جوهر وبنى الرصفان المندرجة بضفتى الوادى وجلب الماء من قلعة جابر حتى أدخله اشبيلية وأنفق فى ذلك أموالا لا تحصى ثم انتقض ابن اذفونش وأغار على بلاد المسلمين فاحتشد الخليفة وسرح السيد أبا حفص اليه فغزاه بعقر داره وافتتح قنصرة بالسيف وهزم جموعه فى كل جهة ثم ارتحل الخليفة من اشبيلية راجعا الى مراكش سنة احدى وسبعين وخمسمائة من اجازته الى الاندلس وعقد على قرطبة لاخيه أبى الحسن وعلى اشبيلية لاخيه أبى على وأصاب مراكش طاعون فهلك من السادة أبو عمران وأبو سعيد وأبو زكريا وقدم الشيخ أبو حفص الهنتاتى من قرطبة فهلك فى طريقه ودفن بمدينة سلا وهو جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس وافريقية واستدعى الخليفة أخويه السيدين أبا على وأبا الحسن فعقد لابى على على سجلماسة ورجع أبو الحسن الى قرطبة وعقد لابنى أخيه السيد أبى حفص لابى زيد منهما على غرناطة ولابى محمد على مالقة ﴿وفى سنة ثلاث وسبعين﴾ سطا بذرية بنى جامع وزرائه وغربهم الى ماردة ﴿وفى سنة خمس وسبعين وخمسمائة﴾ عقد لغانم بن محمد بن مردنيش على اسطوله واغزاه مدينة اشبونة فغنم ورجع وفيها كانت وفاة أخيه الوزير السيد أبى حفص بن عبد المؤمن بعد ما أبلى فى الجهاد وبالغ فى نكاية العدو وقدم ابنه من الاندلس فأخبر الخليفة بانتقاض الطاغية واعتزم على الجهاد وأخذ فى استدعاء العرب من افريقية والله تعالى أعلم

﴿غزو أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بلاد افريقية وفتح مدينة قفصة والسبب فى ذلك﴾

كانت قفصة من بلاد افريقية قد استبد بها بنو الرند أواخر دولة صنهاجة من بنى زيرى بن مناد كان جدهم عبد الله بن محمد بن الرند عاملا لهم بها فتوارثها بنوه من بعده فاستبدوا بها آخر الدولة ولما غزا عبد المؤمن بلاد افريقية استنزلهم فى جملة من استنزل من الثوار بها ولما مات عبد المؤمن وبويع ابنه يوسف بلغه سنة أربع وسبعين وخمسمائة ان بعض بنى الرند قد عاد الى قفصة وثار بها فاضطربت لاجل ذلك أحوالها فنهض اليها فى سنة خمس وسبعين بعدها فانتهى الى افريقية ونزل على مدينة قفصة وضيق عليها بالقتال والحصار حتى دخلها وظفر بابن الرند القائم بها فقتله وذلك فى سنة ست وسبعين وخمسمائة ثم عاد الى مراكش فدخلها فى سنة سبع وسبعين بعدها هكذا فى القرطاس ونحوه لابن خلدون فى أخبار

بنى عبد المؤمن وذكر عند الكلام على بنى الرند وجها آخر فقال كان عبد المؤمن قد ولى على قفصة عمران ابن موسى الصنهاجى فأساء الى الرعية فبعثوا عن على بن العزيز بن المعتز الرندى من بجاية وكان بها فى مضيعة يحترف بالخياطة فقدم عليهم وثاروا بعمران بن موسى عامل الموحدين فقتلوه وقدموا مكانه على بن العزيز فساس ملكه وحاط رعيته وأغزاه يوسف بن عبد المؤمن سنة ثلاث وستين وخمسمائة أخاه السيد أبا زكريا فحاصره وضيق عليه وأخذه وأشخصه الى مراكش باهله وماله واستعمله على الاشغال بمدينة سلا الى ان هلك بها وفنيت دولة بنى الرند والبقاء لله وحده اهـ كلامه فالله أعلم أى ذلك كان ﴿وفى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة﴾ خرج أمير المؤمنين يوسف من مراكش لبناء حصن ازكندر فبناه على المعدن الذى ظهر هنالك

﴿الجواز الثانى لامير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن الى الاندلس برسم الجهاد﴾
﴿وما يتصل بذلك من وفاته رحمه الله﴾

لما قدم أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن من فتح قفصة سنة سبع وسبعين وخمسمائة قدم عليه ولاة الاندلس ورؤساؤها يهنؤنه بالاياب فاكرم وفادتهم وانصرفوا ثم بلغه الخبر بان اذفونش بن سانجة نازل قرطبة وشن الغارات على جهة مالقة ورندة وغرناطة ثم نزل استجة وتغلب على حصن شقيلة وأسكن به النصارى وانصرف فاستنفر السيد أبو اسحق سائر الناس للغزو ونازل الحصن نحوا من أربعين يوما ثم بلغه خروج اذفونش من طليطلة بمدده فانكفأ راجعا وخرج محمد بن يوسف بن وانودين من اشبيلية فى جموع الموحدين ونازل طلبيرة فبرز اليه أهلها فأوقع بهم وانصرف بالغنائم فاعتزم الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على معاودة الجهاد وولى على الاندلس أمناءه وقدمهم للاحتشاد فعقد لابنه السيد أبى زيد على غرناطة ولابنه السيد أبى عبد الله على مرسية ونهض سنة تسع وسبعين وخمسمائة ﴿وفى القرطاس﴾ كان خروجه من مراكش فى التاريخ المذكور على باب دكالة قال برسم غزو افريقية فلما وصل الى سلا أتاه أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن جامع من افريقية فأعلمه بهدوها وسكونها فصرف عزمه الى الاندلس فنهض من سلا ضحوة يوم الخميس الموفى ثلاثين من ذى القعدة من السنة المذكورة فنزل بظاهرها وبات هنالك ثم نهض يوم الجمعة الموالى له فوصل الى مكناسة يوم الاربعاء السادس من ذى الحجة فعيد بها عيد الاضحى خارجها ثم ارتحل الى فاس فدخلها وأقام بها بقية الشهر ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة ففى اليوم الرابع بها نهض من فاس وسار حتى انتهى الى سبتة فأقام بها بقية شهر المحرم وأمر الناس بالجواز الى الاندلس فجازت قبائل العرب أولا ثم قبائل زناتة ثم المصامدة ثم مغراوة وصنهاجة واوربة وأصناف البربر ثم عبرت جيوش الموحدين والاغزاز والرماة فلما استكمل الناس الجواز عبر هو فى آخرهم فى الحاشية والعبيد وكان جوازه يوم الخميس خامس صفر من السنة المذكورة فنزل بجبل الفتح ثم ارتحل منه الى الجزيرة الخضراء ثم سار الى اشبيلية فلما أشرف عليها يوم الجمعة الثالث والعشرين من صفر خرج اليه ولده السيد أبو اسحق ومعه فقهاء اشبيلية وأشياخها فبعث اليهم يأمرهم بالوقوف بآخر المنية حتى يصل اليهم فلما صلى الظهر وركب اجتاز بهم فلما دنا منهم نزلوا عن دوابهم فوقف لهم حتى سلموا عن آخرهم وركبوا ثم نهض الى غزو مدينة شنترين من بلاد غرب الاندلس فانتهى اليها فى السابع من ربيع الاول فنزل عليها وأدار به الجيوش وشدد عليها فى الحصار والقتال وبذل المجهود الى ليلة الثانى والعشرين من ربيع المذكور فانتقل من موضع نزوله بجوفى شنترين الى غربيها فأنكر المسلمون ذلك ولم يعلموا له سببا فلما جن الليل وصلى العشاء الآخرة بعث الى ولده السيد أبى اسحق صاحب اشبيلية فأمره بالرحيل من غد تلك الليلة لغزو اشبونة وشن الغارات على أنحائها وأن يسير اليها فى جيوش الاندلس خاصة وأن يكون رحيله ثم اراد فأساء الفهم وظن انه أمره بالرحيل ليلا وصرخ

الشيطان فى محلة المسلمين ان أمير المؤمنين قد عزم على الرحيل فى هذه الليلة وتحدث الناس بذلك وتأهبوا له ورحلت طائفة منهم بالليل ولما كان قرب الفجر أقلع السيد أبو اسحق وأقلع من كان مواليا له وتتابع الناس بالرحيل وتسابقوا الاختيار المنازل وأمير المؤمنين مقيم فى مكانه لا علم له بذلك فلما أصبح وصلى الصبح وأضاء النهار لم يجد حوله من أهل المحلات أحدا الا يسيرا من خاصته وحشمه الذين يرحلون رحيله وينزلون لنزوله والاقواد الاندلس فانهم الذين كانوا يسيرون أمام ساقته وخاف محلته من أجل من يتخلف عنها من الضعفاء فلما طلعت الشمس وتطلع النصارى المحصورون على المحلة من سور البلد ورأوا أمير المؤمنين منفردا فى عبيده وحشمه وتحققوا ذلك من جواسيسهم فتحوا البلد وخرج جميع من فيه خرجة منكرة وهم ينادون ارى ارى أى اقصدوا السلطان فضربوا فى محلة العبيد الى ان وصلوا الى أخبية أمير المؤمنين فزقوها واقتحموها فبرز اليهم وقاتلهم بسيفه حتى قتل ستة منهم ثم طعنوه طعنة نافذة وقتل عليه ثلاث من جواريه كن قد أكببن عليه ولما طعن وقع بالارض وتصايح العبيد ونادوا بالفرسان والاجناد فتراجع المسلمون وقاتلوا النصارى حتى أزاحوهم عن الاخبية واشتد القتال بينهم وتواقفوا ساعة ثم انهزم الفرنج وركبهم المسلمون بالسيف حتى أدخلوهم المدينة وقتل منهم خلق كثير يزيدون على العشرة آلاف واستشهد من المسلمين جماعة وركب أمير المؤمنين يوسف وقد أنفذته الطعنة وارتحل الناس ولا يدرون أين ثم اهتدوا بالطبول فقصدوا جهة اشبيلية ثم سار أمير المؤمنين يريد العبور الى المغرب فاشتد ألمه ومات بالطريق رحمه الله قاله ابن مطروح * وكانت وفاته يوم السبت العاشر من شهر ربيع الآخر سنة ثمانين وخمسمائة قرب الجزيرة الخضراء فحمل الى تينملل فدفن بها الى جنب قبر أبيه وقيل انه لم يمت حتى وصل الى مراكش وكان ولده يعقوب الخليفة بعده هو الذى يدخل على أبيه ويخرج ويصرف الامور بين يديه من يوم طعن الى ان مات قالوا وكتم ولده موته حتى وصل الى مدينة سلا فأفشاه وكان قبل موته بأشهر كثيرا ما ينشد قول الشاعر ويردده

طوى الجديدان ما قد كنت أنشره * وأنكرتنى ذوات الاعين النجل

ورثاه الاديب أبو بكر يحيى بن مجبر بقصيدة طويلة أجاد فيها وأولها

جل الأسى فأسل دم الاجفان * ماء الشؤن لغير هذا الشان

بقية أخبار أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن وسيرته

قال ابن خلكان كان يوسف بن عبد المؤمن أبيض تعلوه حمرة شديد سواد الشعر مستدير الوجه أفوه أعين الى الطول ماهو فى صوته جهارة رقيق حواشى الطبع حلو الالفاظ حسن الحديث طيب المجالسة أعرف الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم لايامها فى الجاهلية والاسلام صرف عنايته الى ذلك ولقى فضلاء اشبيلية أيام ولايته بها وكان فقيها حافظا متقنا لان أباه هذبه وقرن به وباخوته أكمل رجال الحرب والمعارف فنشأ فى ظهور الخيل بين أبطال الفرسان وفى قراءة العلم بين أفاضل العلماء وكان ميله الى الحكمة والفلسفة أكثر من ميله الى الادب وبقية العلوم ويقال انه كان يحفظ صحيح البخارى وكان يحفظ القرآن الكريم مع جملة صالحة من الفقه ثم طمح الى علم الحكمة وبدأ من ذلك بعلم الطب وجمع من كتب الحكمة شيأ كثيرا وكان ممن صحبه من العلماء بهذا الشأن الوزير أبو بكر محمد بن طفيل كان متحققا بجميع أجزاء الحكمة قرأ على جماعة من أهلها منهم أبو بكر ابن الصائغ المعروف بابن باجة وغيره ولابن طفيل هذا تصانيف كثيرة وكان يوسف بن عبد المؤمن حريصا على الجمع بين علمى الشريعة والحكمة ولم يزل يجمع اليه العلماء من كل فن من جميع الاقطار ومن جملتهم القاضى أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد المعروف بالحفيد وكان يوسف بن عبد المؤمن شديد الملوكية بعيد الهمة جماعا مناعا ضابطا لخراج مملكته عارفا بسياسة رعيته وكان سخيا

جوادا فى محل السخاء والجود قد استغنى الناس فى أيامه وكان من ضبطه وسياسته ربما يحضر حتى لا يكاد يغيب ويغيب حتى لا يكاد يحضر وله فى غيبته نوّاب وخلفاء وحكام قد فوّض الامور اليهم لما علم من صلاحهم وأهليتهم لذلك ﴿قال ابن خلكان﴾ والدنانير اليوسفية المغربية منسوبة اليه * ومما يستطرف من أخباره رحمه الله ان الاديب أبا العباس أحمد بن عبد السلام الكروانى وكروان قبيلة من البربر منازلهم بضواحى فاس كان نهاية فى حفظ الاشعار القديمة والمحدثة وتقدم فى هذا الشان وله فيه تآليف وكان مع ذلك صاحب نوادر جالس بها عبد المؤمن ثم ولده يوسف ثم ولده يعقوب فمن نوادره أنه حضر يوما الى باب أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن المذكور وحضر اليه أيضا الطبيب سعيد الغمارى فقال أمير المؤمنين لبعض خدمه انظر من بالباب من الاصحاب فخرج الخادم ثم عاد اليه فقال يا سيدى به أحمد الكروانى وسعيد الغمارى فقال أمير المؤمنين يوسف من عجائب الدنيا شاعر من كروان وطبيب من غمارة فبلغ ذلك الكروانى فقال وضرب لنا مثلا ونسى خلقه أعجب منهما والله خليفة من كومية فيقال ان أمير المؤمنين يوسف لما بلغه ذلك قال أعاقبه بالحلم عنه ففيه تكذيب له ومن شعر الكروانى من جملة قصيدة يمدح بها أمير المؤمنين يوسف المذكور وهو بديع

ان الامام هو الطبيب وقد شفا * علل البرايا ظاهرا ودخيلا
حمل البسيطة وهى تحمل شخصه * كالروح يوجد حاملا محمولا

﴿الخبر عن دولة أمير المؤمنين المنصور بالله يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على﴾

﴿قال ابن خلدون﴾ لما توفى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على حصن شنترين فى التاريخ المتقدم بويع ابنه أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ورجع بالناس الى اشبيلية فاستكمل البيعة واستوزر الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى واستنفر الناس للغزو مع أخيه السيد يحيى فاستولى على بعض الحصون وأثخن فى بلاد الكفار ثم أجاز البحر الى الحضرة ولقيه بقصر مصمودة السيد أبو زكريا ابن السيد أبى حفص قادما من تلمسان مع مشيخة بنى زغبة من عرب هلال ومضى الى مراكش فغير المناكر وبسط العدل ونشر الاحكام اه وفيه نوع مخالفة لما قدمناه ﴿وقال ابن أبى زرع﴾ لما تمت له البيعة وطاعت له الامة كان أول شئ فعله ان أخرج مائة ألف دينار ذهبا من بيت المال ففرقها فى الضعفاء من بيوتات المغرب وكتب الى جميع بلاده بتسريح المسجون ورد المظالم التى ظلمها العمال فى أيام أبيه وأكرم الفقهاء وراعى الصلحاء وأهل الفضل وأجرى على أكثرهم الانفاق من بيت المال وفرق فى الموحدين وسائر الاجناد أموالا جمة وكان أول شئ حدث فى دولته شأن بنى غانية المسوفيين أصحاب جزيرة ميورقة وأعمالها فلنأت بشئ من ذلك

﴿خروج على بن اسحق المسوفى المعروف بابن غانية على يعقوب المنصور﴾

قد تقدم لنا فى أخبار الدولة اللمتونية ان أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين اللمتونى كان قد استعمل على الجزائر الشرقية من بلاد الاندلس وهى ميورقة ومنورقة ويابسة محمد بن على بن يحيى المسوفى المعروف بابن غانية وهى أمهم فتوارثها بنوه من بعده الى أيام يوسف بن عبد المؤمن فبعث اليه محمد بن اسحق ابن محمد المسوفى المذكور بالطاعة فقبل ذلك يوسف بن عبد المؤمن وبعث اليه قائده على بن الروبرتير ليختبر أمره ويعقد له البيعة عليه ويؤكد الامر فى ذلك وكان لمحمد بن اسحق المذكور عدة اخوة يساهمونه فى الرياسة فلما انتهى اليهم ابن الروبرتير وعلموا الامر الذى قدم لاجله أنكروا على أخيهم ذلك لانه لم يكن أعلمهم بمكاتبته يوسف بن عبد المؤمن فخالفوا وانحيادونه وتقبضوا عليه وعلى ابن الروبرتير وقدموا مكانه أخاهم على بن اسحق بن محمد ثم بلغهم خبر وفاة يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه يعقوب

المنصور فركب على بن اسحق اسطوله وطرق بجاية على حين غفلة من أهلها وعليها يومئذ السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن وكان خارجا فى بعض مذاهبه فاستولى عليها ابن غانية فى صفر سنة احدى وثمانين وخمسمائة ﴿وحكى ابن أبى زرع فى استيلاء ابن غانية على بجاية وجها آخر﴾ قال دخل الميورقى وهو على بن اسحق المذكور مدينة بجاية يوم الجمعة السادس من شعبان سنة ثمانين وخمسمائة والناس فى صلاة الجمعة وكانت أبواب المدن قبل ذلك لا تغلق وقت صلاة الجمعة فارتقب ابن غانية الناس حتى أحرموا بصلاة الجمعة ثم اقتحم عليهم المدينة وعمد الى الجامع الاعظم وأدار به الخيل والرجل فمن بايعه خلى سبيله ومن توقف عن بيعته ضرب عنقه قال وأقام بها سبعة أشهر ثم استرجعت من يده قال ومن ذلك اليوم اتخذ الناس غلق أبواب المدن يوم الجمعة وقت الصلاة والله أعلم ثم استولى على بن اسحق على الجزائر ثم على مازونة ثم على مليانة ثم على القلعة ثم نازل قسنطينة فامتنعت عليه واتصل الخبر بالمنصور فسرح السيد أبا زيد بن أبى حفص بن عبد المؤمن وعقد له على حرب ابن غانية وعقد لمحمد بن ابراهيم بن جامع على الاساطيل والى نظره أبو محمد بن عطوش وأحمد الصقلى فوصل السيد أبو زيد الى افريقية وشرد ابن غانية عنها الى الصحراء فى أخبار طويلة ثم عاد ابن غانية الاجلاب على بلاد افريقية وظاهره على ذلك قراقوش الغزى من موالى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردى صاحب مصر وكان قد تغلب على طرابلس وما والاها وبلغ المنصور ان ابن غانية قد استولى على قفصة فنهض بنفسه من حضرة مراكش ثالث شوال سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ووصل الى فاس فاراح بها ثم سار الى رباط تازا ثم سار على التعبية الى تونس وجمع ابن غانية من اليه من الملثمين والعرب وجاء معه قراقوش الغزى صاحب طرابلس فسرح اليهم المنصور مقدمة من جيشه انظر السيد أبى يوسف يعقوب ابن السيد أبى حفص عمر ابن عبد المؤمن فلقيهم ابن غانية فى جموعه فانتصر عليهم وانهزم الموحدون وقتل جماعة من وجوههم وأسر على بن الروبرتير فى آخرين وامتلأت أيدى العرب من أثاثهم وأسلابهم ووصل سرعان الناس الى المنصور وهو بتونس فنهض اليهم فى الحال ونزل القيروان ثم أغذ السير الى الحامة فالتقى الجمعان وأنشبوا الحرب فكانت الهزيمة على ابن غانية وأحزابه وأفلت من المعركة بذماء نفسه ومعه خليله قراقوش وأتى القتل على أكثرهم ثم صبح المنصور مدينة قابس وكانت فى يد قراقوش فافتتحها ونقل من كان بها من حرم ابن غانية وذويه فى البحر الى تونس وثنى العنان الى توزر فافتتحها وقتل من وجد بها ثم الى قفصة فنازلها أياما حتى نزلوا على حكمه فقتل من كان بها من الحشود وهدم سورها واستبقى أهلها وجعل أملاكهم بايديهم على حكم المساقاة ولما فرغ من أمر قفصة نهض الى عرب افريقية فقتلهم واستباح حللهم وأموالهم وشردهم فى كل وجه ثم بعد ذلك جاؤه تائبين خاضعين فنقل أهل الفتنة والخلاف منهم الى المغرب الاقصى ورجع الى مراكش فدخلها فى رجب سنة أربع وثمانين وخمسمائة

﴿الخبر عن انتقال العرب من جزيرتهم الى أرض افريقية ثم منها الى المغرب الاقصى والسبب فى ذلك﴾

اعلم ان أرض افريقية والمغرب لم تكن للعرب بوطن فى الايام السالفة لا فى الجاهلية ولا فى صدر الاسلام وانما كان المغرب وطنا لامة البربر خاصة لا يشاركهم فيه غيرهم ولما جاءت الملة الاسلامية وأظهرها الله على الدين كله زحفت جيوش المسلمين من العرب الى أرض المغرب فى جملة ما زحفت اليه من أقطار الارض لكن العرب الداخلون الى المغرب فى ذلك العصر انما كانوا يدخلون اليه غزاة مجاهدين على ظهور خيولهم فيقضون الوطر من فتح الاقطار والامصار ثم ينقلب جمهورهم الى وطنهم ومقرهم من جزيرة العرب وان بقى القليل منهم به فانما كانوا يستوطنون منه الامصار دون البادية ويسكنون القصور دون الخيام فلم تكن العرب تسكن المغرب يومئذ بقبائلهم وخيامهم ولا استوطنوه باحيائهم وحللهم كما هو شأنهم اليوم لان الملك الذى حصل لهم والغلب الذى مكنهم الله منه كان يمنعهم من سكنى

البادية ويعدل بهم الى الحاضرة ولابد فكانت الخيمة بارض المغرب معدومة رأساً أو قليلة جداً البعض البربر ممن كان يتخذها منهم وهم قليل وانما كان يسكن الجمهور منهم بالمداشر وكهوف الجبال واستمر الحال على ذلك الى أواسط المائة الخامسة فدخلت العرب أرض افريقية واستوطنوها بحلالهم وخيامهم ثم لما كانت أواخر المائة السادسة فى دولة يعقوب المنصور رحمه الله نقل الكثير منهم الى المغرب الاقصى فاستوطنوه بحلالهم وخيامهم كذلك وصارت أرض المغرب منقسمة بين أمتين أمة العرب أهل اللسان العربى وأمة البربر أهل اللسان البربرى بعد ان كانت بلاده خاصة بالبربر لا يشاركهم فيها غيرهم كما قلنا

﴿واعلم﴾ ان أمة العرب تنقسم أوّلا الى قسمين عدنان وقحطان ثم ينقسم كل من عدنان وقحطان الى شعبين عظيمين فاما عدنان وهم الاسماعيلية ذرية اسمعيل بن ابراهيم عليهما الصلاة والسلام فينقسمون الى ربيعة ومضر وأما قحطان وهم اليمانية ذرية قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام فينقسمون الى حمير وكهلان هذا هو المعروف المشهور من نسب الفريقين وقد يذكر النسابون لكل منهما شعوبا أخر لكنا لم نعتبرها اما لانقراضها أو لقوة الخلاف فيها أو لقلتها جدا واندراجها فيمن ذكرناه ثم يتشعب كل من هذه الشعوب الاربعة الى قبائل وعمائر وبطون وأفخاذ وفصائل لاحصر لها لكننا ننبه على الغرض المقصود منها فنقول من جملة قبائل مضر بنو سليم بن منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر ومن قبائلها أيضا بنو جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن ابن منصور المذكور فى النسب السابق وقد نسبت الخنساء جشم هذا الى جده فقالت ترثى دريد بن الصمة

معاذ الله ينكحنى حبركى * قصير الشبر من جشم بن بكر

ومن قبائلها أيضا بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر المذكور أيضا ومن جملة قبائل كهلان القحطانيين بنو الحرث بن كعب بن عمرو بن علة بن جلد بن مذحج بن ادد بن زيد بن يشجب بن عريب ابن زيد بن كهلان وكهلان هو ابن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان (واعلم) ان هؤلاء القبائل الاربعة التى ذكرناها هى التى ذكر المؤرخون انها انتقلت الى افريقية والمغرب وقد يضاف اليهم غيرهم من قبائل العرب لكنهم ليسوا بمشهورين كالاربعة المذكورة ﴿وأما﴾ خبر دخولهم الى المغرب والسبب فيه فقد ذكر المؤرخون ان بنى سليم بن منصور وبنى هلال بن عامر لم يزالوا بجزيرة العرب برهة من الدهر الى ان مضى الصدر من دولة بنى العباس وكانوا أحياء ناجعة بارض الحجاز ونجد فبنو سليم مما يلى المدينة المنورة وبنو هلال فى جبل غزوان عند الطائف ثم تحيز بنو سليم والكثير من هلال بن عامر الى البحرين وعمان وصاروا اجنادا للقرامطة ثم غلب القرامطة على بلاد الشام وظاهرهم على ذلك بنو سليم وبنو هلال ثم انتقلت دولة العبيديين من افريقية الى مصر وغلبوا القرامطة على الشام وانتزعوه منهم وردوهم على أعقابهم الى البحرين ونقلوا أشياعهم من بنى سليم وبنى هلال فانزلوهم بصعيد مصر فى العدوة الشرقية من بحر النيل فأقاموا هنالك وكان لهم اضرار بالبلاد ولما انتقلت الدولة العبيدية من افريقية الى مصر كما قلنا استنابوا على افريقية بنى زيرى بن مناد الصنهاجيين فملكوها وكانوا يخطبون بملوك العبيديين على منابرهم ويضربون السكة بأسمائهم ويؤدون اليهم اتاوة معلومة وطاعة معروفة ولما انساقت ملك افريقية الى المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى كان له رغبة فى مذهب أهل السنة خالف فيه أسلافه الذين كانوا على مذهب الشيعة الرافضة وكان الخليفة من العبيديين بمصر يومئذ المستنصر بالله معد بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز لدين الله والمعز هذا هو الذى انتقل الى مصر وبنى مدينة القاهرة وكان المعز بن باديس الصنهاجى لا تزال المراسلات والهدايا تختلف بينه وبين المستنصر العبيدى صاحب مصر كما كانت أسلافهما ثم ان المعز بن باديس ركب ذات يوم لبعض مذاهبه وذلك فى أوّل ولايته فكبا به فرسه فنادى مستغيثا بالشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فسمعته العامة

وكان

وكان جمهورهم سنية فثاروا بالرافضة وقتلوهم أبرح قتل وأعلنوا بالمعتقد الحق ونادوا بشعار الايمان وقطعوا من الاذان حيّ على خير العمل وكانت هذه الواقعة فى أيام الظاهر العبيدى والد المستنصر فكاتب المعز بن باديس فى ذلك فاعتذر اليه بالعامة فاغضى عنه واستمر ابن باديس على اقامة الدعوة لهم والمهاداة معهم وهو فى أثناء ذلك يكاتب وزيرهم القائم بامور دولتهم أبا القاسم علىّ بن أحمد الجرجرائى ويستميله ويعرّض ببنى عبيد وشيعتهم ويغض منهم ثم هلك الوزير أبو القاسم سنة ست وثلاثين وأربعمائة وولى الوزارة بعده أبو محمد الحسن بن على اليازورى أصله من قرى فلسطين وكان أبوه فلاحا بها فلما ولى الوزارة خاطبه المعز بن باديس دون ما كان يخاطب به من قبله من الوزراء كان يقول فى كتابه اليهم عبدكم وصار يقول فى كتاب اليازورى صنيعتكم فحقد ذلك عليه وصارت القوارص تسرى من بعضهم الى بعض الى ان أظلم الجوّ بين المعز بن باديس وبين المستنصر العبيدى ووزيره اليازورى فقطع ابن باديس الخطبة بهم على منابره سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة وأحرق بنود المستنصر ومحى اسمه من السكة والطرز ودعا للقائم العباسى خليفة بغداد وجاءه خطابه وكتاب عهده فقرئ بجامع القيروان ونشرت الرايات السود وهدمت دور الاسماعيلية وبلغ الخبر بذلك كله الى المستنصر بالقاهرة فقامت قيامته ففاوض وزيره أبا محمد الحسن بن على اليازورى فى أمر ابن باديس فأشار عليه بان يسرح له العرب من بنى هلال وبنى جشم الذين بالصعيد وان يتقدم اليهم بالاصطناع ويستميل مشايخهم بالعطاء وتولية أعمال افريقية وتقليدهم أمرها بدلا من صنهاجة الذين بها لينصروا الشيعة ويدافعوا عنهم فان صدقت المخيلة فى ظفرهم بابن باديس وقومه صنهاجة كانوا أولياء للدولة وعمالا بتلك القاصية وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة وان كانت الاخرى فلها ما بعدها وأمر العرب على كل حال أهون على الدولة من أمر صنهاجة الملوك فبعث المستنصر وزيره الى هؤلاء الاحياء وأرضخ لامرائهم فى العطاء ووصل عامتهم ببعير ودينار لكل واحد منهم وأباح لهم اجازة النيل وقال لهم قد أعطيناكم المغرب وملك ابن باديس العبد الآبق فلا تفتقرون بعدها وكتب اليازورى الى المعز أما بعد فقد أنفذنا اليكم خيولا فحولا وأرسلنا عليها رجالا كهولا ليقضى الله أمرا كان مفعولا فشرهت العرب اذ ذاك وعبروا النيل الى برقة فنزلوا بها واستباحوها وافتتحوا أمصارها وأعجبتهم البلاد فكتبوا لاخوانهم الذين بقوا شرقى النيل يرغبونهم فى البلاد فأجازوا اليهم بعد ان أعطوا المستنصر لكل رأس دينارين فأخذ منهم أضعاف ما أخذوه وتقارعوا على البلاد فحصل لبنى سليم شرقها ولبنى هلال غربها ثم انتشروا فى أقطار افريقية مثل الجراد لا يمرون بشىء الا أتوا عليه (وبالجملة) فلم تمر الا مدة يسيرة حتى استولوا على ضواحى افريقية ونازلوا أمصارها واقتضوا من أهلها الاتاوة وحصروا ابن باديس فى مصره وصاهرهم ببناته تأليفا لهم ومع ذلك فلم يجد شيأ والحديث فى ذلك طويل وليس تتبعه من غرضنا (قال ابن خلدون) ولهؤلاء الهلاليين فى الحكاية عن دخولهم الى افريقية طرق يزعمون ان الشريف بن هاشم كان صاحب الحجاز ومكة ويسمونه شكر بن أبى الفتوح وانه أصهر الى الحسن بن سرحان فى أخته جازية فأنكحه اياها وولدت منه ولدا واسمه محمد وانه حدث بينهم وبين الشريف المذكور مغاضبة وفتنة فاجمعوا الرحلة عن أرض نجد الى افريقية وتحيلوا عليه فى استرجاع أختهم جازية المذكورة فطالبته بزيارة أبويها فأزارها اياهم وخرج بها الى حللهم وأقام معها مدة الزيارة فارتحلوا به وبها وكتموا رحلتهم عنه وموّهوا عليه بانهم يباكرون به للصيد والقنص ويروحون به الى بيوتهم بعد بنائها فلم يشعر بالرحلة الى ان فارق موضع ملكه وصار الى حيث لا يملك أمرها عليهم ففارقوه ورجع الى مكانه من مكة وبين جوانحه من حبها داء دخيل وانها من بعد ذلك كلفت به مثل ما كلف بها الى ان ماتت من حبه ويتناقلون من أخبارها فى ذلك ما يعفى على خبر قيس وليلى ويروون كثيرا من أشعارها محكمة المبانى متثقفة الاطراف وفيها المطبوع والمنتحل والمصنوع

لم يفقد فيها من البلاغة شئ وانما فقد منها الاعراب فقط ولا مدخل له فى البلاغة وفى هذه الاشعار شئ كثير دخلته الصنعة وفقدت فيه صحة الرواية فلذلك لا يوثق به ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد با آياتهم ووقائعهم مع زناتة وحروبهم وضبط لاسماء رجالاتهم وكثير من أحوالهم لكنا لا نثق بروايتها وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع منها وغيره وهم متفقون على الخبر عن حال جازية هذه والشريف خلفا عن سلف وجيلا عن جيل ويكاد القادح فيها والمستريب فى أمرها أن يرمى عندهم بالجنون لتواترها بينهم وهذا الشريف الذى يشيرون اليه هو من الهواشم وهو شكر بن أبى الفتوح الحسن بن جعفر بن أبى هاشم محمد بن الحسن بن محمد الاكبر ابن موسى الثانى ابن عبد الله أبى الكرام ابن موسى الجون ابن عبد الله الكامل ابن حسن المثنى ابن الحسن السبط ابن على بن أبى طالب رضى الله عنه وأبو الفتوح هو الذى خطب لنفسه بمكة أيام الحاكم العبيدى وبايع له بنو الجراح أمراء طيئ بالشام وبعثوا عنه فوصل الى احيائهم وبايع له كافة العرب ثم غلبتهم عساكر الحاكم العبيدى ورجع الى مكة وهلك سنة ثلاثين وأربعمائة فولى بعده ابنه شكر هذا وهلك سنة ثلاث وخمسين وولى بعده ابنه محمد الذى يزعم هؤلاء الهلاليون انه من جازية هذه ﴿وقال ابن حزم﴾ ان شكر بن أبى الفتوح لم يولد له قط وانما صار أمر مكة من بعده الى عبد كان له ﴿وقال ابن خلدون﴾ بل أخبرنى من أثق به من الهلاليين لهذا العهد انه وقف على بلاد الشريف شكر بن أبى الفتوح وانها بقعة من أرض نجد مما يلى الفرات وان ولده بها لهذا العهد والله أعلم (واعلم) ان جازية بنت سرحان هذه كانت من بنى دريد بن أثبج بن أبى ربيعة بن نهيك ابن هلال بن عامر بن صعصعة فهى هلالية أثبجية دريدية ومن مزاعمهم انها لما صارت الى افريقية وفارقت الشريف بن هاشم المذكور خلفه عليها منهم ماضى بن مقرب من رجالات دريد فأقامت عنده مدة ثم غاضبته ولحقت بأخيها الحسن بن سرحان فمنعها منه فقامت عشيرة ماضى بن مقرب معه وقاتلوا الحسن بن سرحان وعشيرته وثارت الفتنة بينهم وقتل فيها الحسن بن سرحان واستمرت العداوة بينهم الى أيام الموحدين فهذا سبب انتقال هؤلاء العرب من الحجاز ونجد الى افريقية وأما سبب انتقالهم من افريقية الى المغرب الاقصى فقد ذكرنا ان بنى سليم بن منصور وبنى هلال بن عامر اقترعوا على بلاد افريقية فكان لبنى سليم شرقها ولبنى هلال غربها ثم تغلبوا على ضواحيها وأمصارها وضايقوا ملوكها بها وانضم الى بنى هلال بن عامر بنو جشم بن معاوية بن بكر فعلت أيديهم على الجميع واستمر أمرهم على ذلك الى ان كانت دولة يعقوب المنصور الموحدى رحمه الله وثار ابن غانية ببلاد افريقية كما تقدم فظاهرته العرب من جشم وهلال على الموحدين وأوقعوا بمقدمة المنصور فنهض اليهم من تونس وأوقع بالملثمين أولا ثم بالعرب ثانيا وفل جمعهم واتبع آثارهم الى ان شردهم الى صحارى برقة وانتزع تلك البلاد من أيديهم ثم راجعوا بصائرهم فأتوه طائعين خاضعين حسبما قدمنا الخبر عن ذلك مستوفى وكان الذين قاتلوه أولا ثم راجعوا طاعته ثانيا أهم قبائل هلال بن عامر وجشم بن معاوية بن بكر كما قلنا وهم أصحاب غرب افريقية وأما بنو سليم بن منصور فلم يقاتله منهم أحد فلذلك بقى بنو سليم بأرض افريقية ونقل المنصور رحمه الله بنى هلال وبنى جشم الى المغرب الاقصى حين أتوه طائعين وكان ذلك سنة أربع وثمانين وخمسمائة فأنزل قبيلة رياح من بنى هلال ببلاد الهبط فيما بين قصر كتامة المعروف بالقصر الكبير الى أزغار البسيط الافيح هنالك الى ساحل البحر الاخضر فاستقروا بها وطاب لهم المقام وأنزل قبائل جشم بلاد تامسنا البسيط الافيح ما بين سلا ومراكش وهو أوسط بلاد المغرب الاقصى وأبعدها عن الثنايا المفضية الى القفار لاحاطة جبل درن بها فلم يمموا بعدها قفرا ولا أبعدوا رحلة (واعلم) ان هذين البسيطين يسميان اليوم فى عرف عامة أهل المغرب بالغرب والحوز فالغرب عبارة عن بلاد الهبط وأزغار وما فى حكمهما والحوز عبارة عن بلاد تامسنا وما اتصل بها الى مراكش فكان لرياح بلاد الغرب وكان

لجشم بلاد الحوز (ثم اعلم) أيضا ان قبيلة رياح هم بنو رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر ابن صعصعة وهم بطون كثيرة وجلهم قد بقي بارض افريقية والذين انتقلوا منهم الى المغرب الاقصى كان رئيسهم في ذلك العصر مسعود بن سلطان بن زمام الذوادي من بني ذواد بن مرادس بن رياح فاقام معهم مدة ثم جمع جماعة من قومه وفر الى افريقية وذلك في حدود التسعين وخمسمائة وأبدأ وأعاد هنالك في الاجلاب مع الثوار الى ان هلك في بعض تلك المدة وأقام الباقون بعد فرار كبيرهم مسعود المذكور ببلاد الهبط وازغار الى ان انقرضت دولة الموحدين وكان عثمان بن نصر رئيسهم أيام المأمون الموحدى وقتله سنة ثلاثين وستمائة ولما تغلب بنو مرين على ضواحي المغرب ضرب الموحدون على رياح هؤلاء البعث مع عساكرهم فقاموا بحماية ضواحيهم وانضم اليهم بنو عسكر بن محمد المرينيون حين خالفوا اخوانهم بني حمامة بن محمد سلف الملوك منهم فكانت بين الفريقين جولة قتل فيها عبد الحق بن محيوا ابن أبي بكر بن حمامة أبو الملوك المرينيين وقتل معه ابنه ادريس فاوجدت رياح السبيل لبني مرين على أنفسهم في طلب الثار فاثخنوا فيهم بعد ان ملكوا المغرب واستلحموهم قتلا وسبيا مرة بعد أخرى وكان آخر من أوقع بهم السلطان أبو ثابت المريني سنة سبع وسبعمائة تتبعهم بالقتل الى ان لحقوا برؤس الهضاب وأسنمة الربا المتوسطة في المرج المستبحر بازغار فصاروا الى عدد قليل ولحقوا بالقبائل الغارمة وذهبت رياح أدراج الرياح هذا خبرهم على الجملة (وأما بنو جشم أصحاب تامسنا) فان المنصور لما نقلهم اليها انتقل معهم قبائل أخر كانوا قد قاتلوه معهم ولم يكونوا من نسبهم ولكنهم كانوا مندرجين فيهم فكان يطلق على الجميع جشم وهؤلاء القبائل هم المقدم والعاصم من بني هلال بن عامر ثم من الاثبج منهم وقرة من بني هلال أيضا والخلط من بني عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر فهؤلاء القبائل ليسوا من جشم كما ترى ولكنهم لما انغمروا فيهم وانتقلوا الى المغرب بانتقالهم أطلق على الجميع جشم فاما المقدم والعاصم فهما ابنا مشرف بن اثبج بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة وأما قرة فهم بنو قرة بن عبد مناف بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال فهؤلاء القبائل الثلاثة أعني المقدم والعاصم وقرة هلاليون وأما الخلط فهم بطن من بني عقيل بالتصغير * قال أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني * الخلط بنو عوف وبنو معاوية ابني المنتفق بن عامر بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة المذكور في الانساب المتقدمة فقد بان لك بهذا ان هذه القبائل الاربع أعني العاصم ومقدما وقرة والخلط ليسوا من بني جشم بن معاوية بن بكر من حيث النسب وان الثلاث الاول من بني هلال بن عامر وان الرابعة وهي الخلط من بني عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر وفي معاوية بن بكر يجتمع الجميع كما ذكرناه أولا والله تعالى أعلم * ولنتكلم الآن على أخبار جشم على الجملة فنقول لما نزل بنو جشم ببسيط تامسنا أقاموا به برهة من الدهر ثم تميز جمهورهم الى العاصم ومقدم وبني جابر وسفيان والخلط (فاما مقدم والعاصم) فكانوا مع اخوانهم ببسيط تامسنا المذكور وكان للموحدين عليهم عسكرة وجباية وكان شيخ العاصم لعهد الموحدين ثم عهد المأمون بن المنصور منهم حسن ابن زيد وكان له أثر في الفتنة التي ثارت بين المأمون وبين يحيى بن الناصر بن المنصور ولما هلك يحيى المذكور سنة ثلاث وثلاثين وستمائة أمر الرشيد بن المأمون بقتل حسن بن زيد المذكور مع قائد وقائد ابني عامر من شيوخ بني جابر كل منهما اسمه قائد فقتلوا جميعا ثم صارت الرياسة لابي عياد وبنيه وكان رئيسهم لعهد بني مرين عياد بن أبي عياد وكان له تلون على الدولة في النفرة تارة والاستقامة أخرى فر الى تلمسان ورجع منها أعوام تسعين وستمائة وفر الى السوس ورجع منه سنة سبع وسبعمائة ولم يزل هذا دأبه وكانت له ولاية مع السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني من قبل ذلك ومقاماته في الجهاد معه مذكورة وبقيت رياسته في بنيه الى ان انقرض أمرهم وتلاشوا والله خير الوارثين (وأما بنو جابر بن جشم) فكانت

لهم شوكة أيضا وكان لهم أثر في الفتنة الناشئة بين المأمون بن المنصور ويحيى بن الناصر بن المنصور فكانوا شيعة ليحيى ولما ولي الرشيد بن المأمون أمر بقتل قائد وقائد ابني عامر وهما ابو مشذ شيخا بني جابر فقتلا وقتل معهم حسن بن زيد شيخ العاصم كما تقدم وكانوا جميعا معتقلين عند الرشيد وولي أمر بني جابر بعدهما يعقوب بن محمد بن قيطون ثم قبض عليه قائد الموحدين أبو الحسن بن يعلو وكان ذلك بأمر أبي حفص المرتضى الموحدي وولي رياسة بني جابر بعده اسمعيل بن يعقوب بن قيطون ثم تحيز بنو جابر هؤلاء من احياء جشم الى سفح الجبل بتادلا وما اليها يجاورون هنالك صناكة من البربر الساكنين بقنته وهضابه فيسهلون الى البسيط تارة ويأوون الى الجبل في حلف البربر وجوارهم أخرى اذا دهمتهم مخافة من السلطان (قال ابن خلدون) والرياسة فيهم لهذه العصور يعني أواخر المائة الثامنة في ورديغة من بطونهم قال أدركت شيخا عليهم لعهد السلطان أبي عنان حسين بن علي الورديغي ثم هلك وأقيم مقامه ابنه الناصر ابن حسين ولحق بهم الوزير الحسن بن عمر عند نزوعه عن السلطان أبي سالم المريني سنة ستين وسبعمائة ونهضت اليهم عساكر السلطان فامكنوا منه ثم لحق بهم أبو الفضل ابن السلطان أبي سالم عند فراره من مراكش سنة ثمان وستين ونازله السلطان عبد العزيز المريني وأحاط به وبهم فلحق ببرابرة صناكة ثم أمكنوا منه على مال حمل اليهم ولحق بهم أثناء هذه الفتن الامير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن المريني على عهد الوزير عمر بن عبد الله المتغلب على المغرب وطلبه الوزير عمر فاخرجوه عنهم وطال بذلك مراس الناصر هذا للفتنة فنكرته الدولة وتقبضت عليه وأودعته السجن فمكث فيه سنين ثم تجافت عنه الدولة من بعد ذلك وأطلقته ثم رجع من المشرق فتقبض عليه الوزير أبو بكر بن غازي المستبد بالمغرب على ولد السلطان عبد العزيز وأودعه السجن ونقلوا الرياسة عن بيته الى غيرهم والله تعالى مقلب الامور وقد يزعم كثير من الناس ان ورديغة من بني جابر ليسوا من جشم وانهم بطن من بطون سدراتة احدى شعوب لواتة من البربر ويستدلون على ذلك بموطنهم وجوارهم البربر والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك

(وأما سفيان) فهم الذين كانت لهم الرياسة والشوكة عند دخول العرب الى المغرب كانت رياستهم يومئذ في أولاد جرمون على سائر بطون جشم واستمروا على ذلك سائر أيام الموحدين ولما ضعف أمر بني عبد المؤمن استكثروا بهم في حروبهم فكانت لهم عزة ودالة على الدولة بسبب الكثرة وقرب العهد بالبداوة وخبوا ووضعوا في الفتن مع أعقاب الملوك من بني عبد المؤمن المتنازعين على الملك وظاهروا البعض منهم على البعض وساءت آثارهم بالمغرب وكان شيخهم المشهور على عهد يحيى بن الناصر الموحدي جرمون بن عيسى السفياني وكانت بينهم وبين الخلط عداوة فصارت الخلط شيعة للمأمون وبنيه وصارت سفيان بسبب ذلك شيعة ليحيى بن الناصر منازعه في الخلافة بمراكش ثم قتل الرشيد بن المأمون مسعود ابن حميدان شيخ الخلط كما نذكر بعد فصاروا الى يحيى بن الناصر وصارت سفيان الى الرشيد ثم ظهر بنو مرين بالمغرب واتصلت حروبهم مع الموحدين ونزع جرمون سنة ثمان وثلاثين وستمائة عن الرشيد ولحق بمحمد بن عبد الحق المريني حياء مما وقع له مع الرشيد وذلك انه نادمه ذات ليلة حتى سكر فقام يرقص طربا ثم حمل عليه وهو سكران وعربد وأساء الادب ثم أفاق فندم وفر الى محمد بن عبد الحق وهلك سنة تسع وثلاثين بعدها وعلا كعب ابنه كانون بن جرمون عند السعيد بن المأمون ثم خالف عليه عند نهوضه الى بني مرين سنة ثلاث وأربعين وستمائة ورجع الى آزمور فملكها وفت ذلك في عضد السعيد فرجع عن حركته وقصد كانون بن جرمون نفر أمامه ثم حضر معه بعد ذلك حركته الى تلمسان وقتل بحصن تامزردكت قبل مقتل السعيد بيوم واحد قتلته الخلط في فتنة وقعت بينهم في محلة السعيد وهي التي جرت عليها تلك الواقعة وقام بامر سفيان من بعده أخوه يعقوب بن جرمون وقتل ابن أخيه محمد بن كانون وحضر مع عمر المرتضى الموحدي حركة امان ايملولين سنة تسع وأربعين وستمائة فرحل يعقوب عن

السلطان واختل عسكره بسبب ذلك فرجع واتبعه بنو مرين فكانت الهزيمة ثم عفا له المرتضى عنها ثم قتله مسعود وعلي ابنا أخيه كانون بثار أخيهما محمد سنة تسع وخمسين وستمائة ولحقا بيعقوب بن عبد الحق المريني وقدّم المرتضى ابنه عبد الرحمن فعجز عن القيام بأمره فقدم عمه عبد الله بن جرمون فعجز أيضا فقدم مسعود بن كانون فأقام شيخا على سفيان واستمرت حالهم مع الموحدين وبني مرين على هذا النحو من اخلاص الطاعة والنصرة تارة والتمريض فيهما أخرى ﴿قال ابن خلدون﴾ واتصلت الرياسة على سفيان في بني جرمون هؤلاء الى عهدنا قال وأدركت شيخا عليهم لعهد السلطان أبي عنان يعقوب بن علي بن منصور بن عيسى بن يعقوب بن جرمون بن عيسى وكانت سفيان هؤلاء أحياء حلولا باطراف تامسنا مما يلي آسفي وغلبتهم الخلط على بسائطها الفسيحة وبقي من أحيائهم الحارث والكلابية ينتجعون أرض السوس وقفاره ويطلبون ضواحي بلاد حاحة من المصامدة فبقيت فيهم لذلك شدة وبأس ورياستهم في أولاد مطاع من الحارث وطال عيثهم في ضواحي مراكش وافسادهم فلما استبد سلطان مراكش الامير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن المريني سنة ست وسبعين وسبعمائة كما نذكر استخلصهم ورفع منزلتهم ثم استقدمهم في بعض أيامه للعرض بخيلهم ورجلهم على العادة وشيخهم يومئذ منصور بن يعيش من أولاد مطاع فقبض عليهم أجمعين وقتل من قتل منهم وأودع الآخرين سجونه فذهبوا امثالا للآخرين وخضضت شوكتهم والله قادر على ما يشاء ﴿وأما الخلط﴾ فقد كانوا ابسيط تامسنا أولي عدد وقوة وكان شيخهم هلال بن حميدان بن مقدم ولما ولي العادل بن المنصور الموحدي خالفوا عليه وهزموا عساكره وبعث هلال بيعته الى المأمون بن المنصور سنة خمس وعشرين وستمائة وتبعه الموحدون على ذلك ثم جاء المأمون فظاهروه على أمره وتحيزت أعداؤهم الى يحيى بن الناصر منازعه ولم يزل هلال بن حميدان مع المأمون الى ان هلك في حركته سنته وبايع بعده لابنه الرشيد وجاء به الى مراكش وهزم سفيان واستباحهم ثم هلك هلال بن حميدان فولي مكانه أخوه مسعود بن حميدان ثم خالف على الرشيد فاحتال الرشيد عليه حتى وفد عليه بمراكش فقتله في جماعة من قومه سنة ثنتين وثلاثين وستمائة وولي أمر الخلط بعده يحيى بن هلال وفر بقومه الى يحيى بن الناصر وحاصروا مراكش ثم استولوا عليها وعاثوا فيها وخرج الرشيد الى سجلماسة ثم عاد اليهم سنة ثلاث وثلاثين بعدها وغلبهم عليها ثم راجعوا طاعة الرشيد وطردوا يحيى بن الناصر الى بني معقل عرب الصحراء فقبض الرشيد على وشاح وعلى ابني هلال وسجنهم بآزمور سنة خمس وثلاثين وستمائة ثم أطلقهم ثم بعد ذلك غدر بمشيختهم بعد الاستدعاء والتأنيس وقتلهم أجمعين ثم بعد ذلك حضروا مع السعيد بن المأمون حركته الى بني عبد الواد أصحاب تلمسان وجروا عليه الواقعة حتى قتل فيها بسبب فتنتهم مع سفيان يومئذ فلم يزل المرتضى يعمل الحيلة فيهم الى ان تقبض على أشياخهم سنة ثنتين وخمسين وستمائة فقتلهم ولحق عوّاج بن هلال بن حميدان ببني مرين وقدم المرتضى عليهم علي بن أبي علي من بيت الرياسة فيهم ثم رجع عوّاج الى الموحدين سنة أربع وخمسين وستمائة فأغزاه علي بن أبي علي فقتل في غزاته تلك ثم كانت واقعة أم الرجلين لبني مرين على المرتضى سنة ستين وستمائة فنزع علي بن أبي علي الى بني مرين ثم صار الخلط كلهم الى بني مرين وكانت الرياسة فيهم أول دولة بني مرين لابي عطية مهلهل بن يحيى الخلطي واصهر اليه السلطان يعقوب بن عبد الحق فانكحه مهلهل ابنته عائشة التي كان منها ابنه السلطان أبو سعيد بن يعقوب ولم يزل مهلهل كبيرا عليهم الى ان هلك سنة خمس وتسعين وستمائة ثم قام بامر الخلط ابنه عطية وكان لعهد السلطان أبي سعيد وابنه السلطان أبي الحسن وبعثه السلطان أبو الحسن سفيرا عنه الى سلطان مصر الملك الناصر محمد بن قلاوون ولما هلك عطية قام بامر الخلط ابنه عيسى بن عطية ثم ابن أخيه زمام بن ابراهيم بن عطية وهو الذي بلغ المبالغ من العز والترف والدالة على السلطان والقرب من مجلسه الى ان هلك فولي أمر الخلط بعده أخوه أحمد بن

ابراهيم ثم أخوهما سليمان بن ابراهيم ثم أخوهم مبارك بن ابراهيم على مثل حالهم أيام السلطان أبى عنان المرينى ومن بعده الى ان كانت الفتنة بالمغرب بعد مهلك السلطان أبى سالم المرينى واستولى على المغرب أخوه السلطان عبد العزيز وأقطع ابنه أبا الفضل ناحية مراكش فكان مبارك بن ابراهيم بن عطية هذا معه ولما تقبض على أبى الفضل تقبض على مبارك المذكور وأودع السجن الى ان غلب السلطان عبد العزيز على عامر بن محمد الهنتاتى وقتله فقتل معه مبارك بن ابراهيم هذا لما كان يعرف به من صحبته ومداخلته فى الفتن كما يذكر فى أخبار بنى مرين وولى ابنه محمد بن مبارك على قبيل الخلط ﴿قال ابن خلدون﴾ الا ان الخلط اليوم دثرت كأن لم تكن بما أصابهم من الخصب والترف منذ مائتين من السنين بذلك البسيط الافيح زيادة على العز والدعة فأكلتهم السنون وذهب بهم الترف والله غالب على أمره اهـ ولما انقرضت الدولة المرينية من المغرب وجاءت دولة الشرفاء السعديين وقام منهم أبو عبد الله محمد الشيخ المعروف بالمهدى انحاشت الخلط اليه وأظهروا الخدمة والنصيحة وغلب محمد الشيخ المذكور على فاس وأخرج أبا حسون الوطاسى عنها فذهب أبو حسون المذكور الى دولة الترك بالجزائر واستنصر بهم على السعديين فلبوا دعوته وقدم معه منهم عسكر جرار الى فاس فاخرجوا محمد الشيخ السعدى عنها بعد حروب عظيمة جرت الخلط هؤلاء عليه فيها الهزيمة فلما استقل بالامر محمد الشيخ المذكور خلع الخلط من الجندية ووظف عليهم الخراج ومحى اسمهم من ديوان الخدمة ونقل أعيانهم الى مراكش واتخذهم رهائن عنده ولم يزل الامر على ذلك الى دولة السلطان أبى العباس أحمد المنصور السعدى المعروف بالذهبى فرأى جلاد الخلط وقتالهم يوم وادى المخازن وابلاءهم البلاء الحسن فاختار النصف منهم ورده الى الجندية وأبقى النصف الآخر فى غمار الرعية ونقلهم الى أزغار فاستوطنوه فعاثوا فى تلك البلاد وأكثروا فيها الفساد ومدوا أيديهم الى أولاد مطاع فنهبوهم وضايقوا بنى حسن فكثرت الشكاية بهم الى المنصور السعدى فضرب عليهم مغرما سبعين ألفا فلم يزيدوا الا شدة فضرب عليهم بعثا الى تكرارين من أرض الصحراء فامتنعوا من ذلك فبعث اليهم القائد موسى بن أبى جمادة العمرى فانتزع منهم الخيل وأبقاهم رجالة ثم حكم فيهم السيف فمزقهم كل ممزق ومن ثم خمدت شوكتهم ولانت العامر قناتهم ثم ختموا أعمالهم بفعلتهم الشنعاء التى ملأت الافواه وأسالت من الجفون الامواه وهى قتلهم ولى الله تعالى المجاهد فى سبيله أبا عبد الله سيدى محمد العياشى المالكى رحمه الله فما زلنا نسمع ان قبيلة الخلط انما سلبوا العز منذ قتلهم للولى المذكور وكان ذلك فى المحرم سنة احدى وخمسين وألف والله تعالى أعلم

﴿الخبر عن بنى معقل عرب الصحراء من أرض المغرب وتحقيق نسبهم وبيان شعوبهم وبطونهم﴾

﴿قال ابن خلدون﴾ هذا القبيل لهذا العهد من أوفر قبائل العرب ومواطنهم بقفار المغرب الاقصى مجاورون لبنى عامر من زغبة الهلاليين فى مواطنهم بقبلة تلمسان وينتهون الى البحر المحيط من جهة الغرب وهم ثلاثة بطون ذوى عبيد الله وذوى منصور وذوى حسان فذوى عبيد الله منهم هم المجاورون لبنى عامر ومواطنهم بين تلمسان وتاوريرت فى التل وما يواجهها من القبلة ومواطن ذوى منصور من تاوريرت الى بلاد درعة فيستولون على ملوية كلها الى سجلماسة وعلى درعة وما يحاذيها من التل مثل تازا وغساسة ومكناسة وفاس وبلاد تادلا والمعدن ومواطن ذوى حسان من درعة الى البحر المحيط وينزل شيوخهم بلاد نول قاعدة السوس فيستولون على السوس الاقصى وما اليه وينتجعون كلهم فى الرمال الى مواطن الملثمين من كدالة ومسوفة ولمتونة وكان دخولهم الى المغرب مع الهلاليين فى عدد قليل يقال انهم لم يبلغوا المائتين واعترضتهم بنو سليم فاعجزوهم وتحيزوا الى الهلاليين منذ عهد قديم ونزلوا بآخر مواطنهم مما يلى ملوية ورمال تافيلالت وجاوروا زناتة فى القفار فعفوا وكثروا وأثروا فى صحارى المغرب الاقصى فعمروا رماله وتغلبوا فى فيافيه وكانوا هنالك أحلافا لزناتة سائر أيامهم وبقى منهم بافريقية جمع

قليل اندرجوا فى جملة بنى كعب بن سليم وداخلوهم حتى كانوا وزراءهم فى الاستخدام للسلطان واستئلاف العرب فلما ملكت زناتة بلاد المغرب ودخلوا الى الامصار والمدن أقام بنو معقل هؤلاء فى القفار وتفردوا فى البيداء فنموا نموّا لا كفاء له وملكوا قصور الصحراء التى اختطها زناتة بالقفر مثل قصور السوس غربا ثم توات ثم بودة ثم تامنطيت ثم واركالان ثم تاسبيبت ثم تيكرارين شرقا وكل واحد من هذه وطن منفرد يشتمل على قصور عديدة ذات نخيل وأنهار وأكثر سكانها من زناتة وبينهم فتن وحروب على رياستها فجازت عرب معقل هذه الاوطان فى مجالاتهم ووضعوا عليها الاتاوات والضرائب وصارت لهم جباية يعتدون فيها ملكا وكانوا فى تلك المدّة السالفة يعطون الصدقات لملوك زناتة ويأخذونهم بالدماء والطوائل ويسمونها اجل الرحيل وكان لهم الخيار فى تعيينها ولم يكن هؤلاء العرب يحمون من أطراف المغرب وتلوله حمى ولا يعرضون لسابلة سجلماسة ولا غيرها من بلاد الصحراء بأذية ولا مكروه لما كان بالمغرب من اعتزاز الدين وسدّ الثغور وكثرة الحامية أيام الموحدين وزناتة من بعدهم وكان لهم بازاء ذلك اقطاع من الدول يعدّون الى أخذه اليد السفلى وعددهم قليل كما قلنا وانما كثروا بمن اجتمع اليهم من القبائل من غير نسبهم فان فيهم من فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر وفيهم من أشجع بن ريث بن غطفان احياء كبيرة يظعنون مع بنى معقل بجهات سجلماسة ووادى ملوية ولهم عدد وذكر وفيهم الصباح من الاخضر ويقولون انهم من ولد اخضر بن عامر وعامر هذا هو والله أعلم من ولد رياح الهلاليين وفيهم المهاية من عياض احدى بطون الاثبج الهلاليين وفيهم العمور من الاثبج أيضا وفيهم بطون أخر من بنى هلال وبنى سليم وغيرهم * وأما أنسابهم عند الجمهور فخفية ومجهولة والنسابون من عرب هلال يعدّونهم من بطونهم وهو غير صحيح وهم أعنى بنى معقل يزعمون ان نسبهم فى أهل البيت الى جعفر بن أبى طالب وليس ذلك أيضا بصحيح لان الطالبيين والهاشميين لم يكونوا أهل بادية ونجعة هكذا ذكر ابن خلدون لكنه لما تكلم على جهينة احدى بطون قضاعة وذكر انهم نزلوا بلاد الصعيد وملؤها قال ونزل معهم فى تلك المواطن من اسوان الى قوص بنو جعفر بن أبى طالب حين غلبهم بنو الحسن على نواحى المدينة وأخرجوهم منها فهم يعرفون بينهم بالشرفاء الجعافرة ويحترفون فى غالب أحوالهم بالتجارة اهـ كلامه فعلى هذا لا يبعد ان تكون طائفة من هؤلاء الجعافرة قد انتقلوا من أرض الصعيد ودخلوا مع بنى هلال الى بلاد المغرب وأوطنوا صحراءه وهم بنو معقل المذكورون والناس مصدقون فى أنسابهم والله تعالى أعلم بحقائق الامور * ثم قال ابن خلدون * والصحيح والله أعلم من أمرهم انهم من عرب اليمن فان فى اليمن بطنين يسمى كل واحد منهما معقل ذكرهما ابن الكلبى وغيره فاحدهما من قضاعة بن مالك بن حمير وهو معقل بن كعب بن عليم بن جناب وينتهى نسبه الى قضاعة والآخر من بنى الحرث بن كعب أصحاب نجران الذين كان منهم بنو عبد المدان ملوك نجران فى الجاهلية والاسلام وهو معقل بن كعب بن ربيعة بن كعب بن الحرث بن كعب وينتهى نسبه الى كهلان قال والانسب ان يكونوا من هذا البطن الآخر وقد عدّه الاخباريون فى بطون هلال الداخلين الى افريقية لمجاورتهم فى الوطن قال ومن املاء نسابهم ان معقلا جدّهم له من الولد سجير ومحمد فولد سجير عبيد الله وثعلب فمن عبيد الله ذوى عبيد الله البطن الكبير منهم ومن ثعلب الثعالبة الذين كانوا ببسيط متيجة من نواحى الجزائر وولد محمد مختارا ومنصورا وجلالا وسالما وعثمان فولد مختار بن محمد حسان وشبانة فمن حسان ذوى حسان البطن المذكور أهل السوس الاقصى ومن شبانة الشبانات جيرانهم هنالك ومن جلال وسالم وعثمان الرقيطات بادية فى ذوى حسان ينتجعون معهم وولد منصور بن محمد حسينا وأبا الحسين وهما شقيقان وعمران ومنبا وهما شقيقان أيضا وهما الاحلاف ويقال لعمران العمارنة ولمنبا المنبات ثم يقال لجميع البطون الاربعة ولد منصور بن محمد ذوى منصور وهم احدى بطونهم الثلاث

المذكورة والله تعالى أعلم بغيبه فهذه أصول عرب المغرب الاقصى وكيفية دخولهم اليه واستيطانهم اياه وبعض فصولهم قد ذكرناها ملخصة من تاريخ امام الفن أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون ومن جمهرة الانساب لابن حزم وزدنا ما يحتاج منها الى البيان بيانا والله تعالى الموفق ﴿وانرجع﴾ الى ما كنا بسبيله من أخبار أمير المؤمنين يعقوب المنصور رحمه الله فانه لما رجع من افريقية الى مراكش سنة أربع وثمانين وخمسمائة رفع اليه ان أخاه السيد أبا حفص صاحب مرسية الملقب بالرشيد وعمه السيد أبا الربيع صاحب تادلا عندما بلغهما خبر الوقعة التي كانت على مقدمة المنصور بافريقية حدثا أنفسهما بالتوثب على الخلافة فلما قدما عليه للتهنئة أمر باعتقالهما خلال ما استجلى أمرهما ثم قتلهما وعقد للسيد أبي الحسن ابن السيد أبي حفص على بجاية وفي سنة خمس وثمانين وخمسمائة شرع المنصور في ادخال ساقية الماء الى مراكش ثم تاقت نفسه الى الجهاد فكان منه ما نذكره

﴿الجواز الاول ليعقوب المنصور رحمه الله الى الاندلس بقصد الجهاد﴾

﴿قال ابن أبي زرع﴾ وفي سنة خمس وثمانين وخمسمائة تحرك أمير المؤمنين يعقوب المنصور الى الاندلس برسم غزو بلاد غربها وهي أولى غزواته فعبر من قصر المجاز الى الخضراء يوم الخميس الثالث من ربيع الاول من السنة المذكورة ثم نهض من الخضراء حتى نزل شنترين وشن الغارات على مدينة اشبونة وأنحائها فقطع الثمار وحرق الزروع وقتل وسبا وأضرم النيران في القرى وأبلغ في النكاية وانصرف الى العدوة بثلاثة عشر ألفا من السبي فدخل فاسا في آخر رجب من السنة المذكورة

﴿مراسلة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر ليعقوب﴾
﴿المنصور رحمهما الله والتماسه منه الاساطيل للجهاد﴾

كانت الفرنج قد ملكوا سواحل الشام في آخر الدولة العبيدية منذ تسعين سنة قبل هذا التاريخ وملكوا معها بيت المقدس شرفه الله فلما استولى السلطان صلاح الدين رحمه الله على ديار مصر والشام اعتزم على جهادهم وصار يفتتح حصونهم واحدا بعد واحد حتى أتى على جميعها وافتتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وهدم الكنيسة التي بنواحيه وانقضت أمم النصرانية من كل جهة وتتابعت أساطيلهم الكفرية بالمدد من كل ناحية لتلك الثغور القريبة من بيت المقدس واعترضوا اسطول صلاح الدين في البحر ولم تقاومهم أساطيل الاسكندرية لضعفها بوشذ عن مقاومتهم فبعث صلاح الدين صريخه الى المنصور سنة خمس وثمانين وخمسمائة يطلب اعانته بالاساطيل لمنازلة عكا وصور وطرابلس الشام وأوفد عليه أبا الحرث عبد الرحمن بن منقذ من بيت بني منقذ ملوك شيزر من حصون الشام وكان صلاح الدين قد ملكها من أيديهم وأبقى عليهم في دولته فبعث صلاح الدين عبد الرحمن هذا الى يعقوب المنصور طالبا مدد الاساطيل لتحول في البحر بين أساطيل الفرنج وبين امداد النصرانية بالشام ولمنازلة الثغور التي ذكرنا وبعث معه الى المنصور بهدية تشتمل على مصحفين كريمين منسوبين ومائة درهم من دهن البلسان وعشرين رطلا من العود وستمائة مثقال من المسك والعنبر وخمسين قوسا عربية باوتارها وعشرين من النصول الهندية وسروج عدة مثقلة فوصل الى المغرب فصادف المنصور بالاندلس فانتظره بفاس الى ان رجع فلقيه وأدى الرسالة وقدم الهدية وكان الكتاب الذي بعث به صلاح الدين من انشاء الاديب عبد الرحيم البيساني المعروف بالقاضي الفاضل وكان عنوان الكتاب من صلاح الدين الى أمير المسلمين وفي أوله الفقير الى الله تعالى يوسف بن أيوب وبعده الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنيفية من استعمر الارض وأغنى من أهلها من سأله القرض وأجرى من أجرى على يده النافلة والفرض وزين سماء الملة بدراري الذراري التي بعضها من بعض وهو كتاب طويل ولما وقف

عليه المنصور ورأى تجافيهم فيه عن خطابه بامير المؤمنين لم يجبه ذلك وأسرها في نفسه وحمل الرسول على مناهج البر والكرامة ورده الى مرسله ولم يجبه الى حاجته ويقال انه جهزله بعد ذلك مائة وثمانين اسطولا ومنع النصارى من سواحل الشام والله تعالى أعلم ﴿قال ابن خلدون﴾ وفي هذا دليل على اختصاص ملوك المغرب يومئذ بالاساطيل الجهادية وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد بها وكان ابن منقذ المذكور قد مدح المنصور بقصيدة يقول فيها

سأشكر بحرا ذا عباب قطعته * الى بحر جود ما لاخراه ساحل

الى معدن التقوى الى كعبة الندى * الى من سمت بالذكر منه الاوائل

اليك أمير المؤمنين ولم تزل * الى بابك المأمول ترجى الرواحل

قطعت اليك البر والبحر موقنا * بان نداك الغمر بالنجح كافل

وحزت بقصديك العلى فبلغتها * وأدنى عطاياك العلى والفواضل

فلا زلت للعلياء والجود بانيا * تبلغك الآمال ما أنت آمل

وعدتها أربعون بيتا فاعطاه بكل بيت ألفا وقال له انما أعطيناك لفضلك ولبيتك يعني لا لاجل صلاح الدين

﴿عود المنصور الى افريقية والسبب في ذلك﴾

لما قدم المنصور من الاندلس الى فاس وفرغ من شأن ابن منقذ تواترت لديه الاخبار بان ابن غانية قد ظهر بافريقية فنهض اليها من فاس في ثامن شعبان من تلك السنة فدخل تونس في أول ذي القعدة منها فالفى بلاد افريقية ساكنة وقد فر ابن غانية عنها الى الصحراء حين سمع بقدومه وفي سنة ست وثمانين وخمسمائة استولى الفرنج على مدينة شلب وباجة ويابورة من غرب الاندلس وذلك لما علموا ان المنصور قد أبعد عنهم واشتغل بامر افريقية فاغتنموا الفرصة فيها واتصل الخبر بالمنصور فغاظه ذلك وأعظمه وكتب الى قواد الاندلس يوبخهم ويأمرهم بغزو بلاد الفرنج ويعلمهم انه قادم عليهم في أثر كتابه فاجتمع قواد الاندلس الى محمد بن يوسف والى قرطبة فخرج بهم في جيش كثيف من الموحدين والعرب وأهل الاندلس حتى نزل على شلب فشدد عليها الحصار وتابع عليها القتال حتى فتحها وفتح قصر أبي دانس ومدينة باجة ويابورة ورجع الى قرطبة فدخلها بخمسة عشر ألفا من السبي وثلاثة آلاف أسير قدمهم بين يديه في القطائن خمسون علجا في كل قطينة وذلك في شوال سنة سبع وثمانين وخمسمائة وفي هذا الشهر رجع المنصور من افريقية فانتهى الى تلمسان فاقام بها الى آخر السنة المذكورة وفي فاتح محرم من سنة ثمان وثمانين وهي سنة آكرواو خرج المنصور من تلمسان الى فاس وهو مريض فكان يركب في آكرواو فدخل فاسا وأقام بها مريضا سبعة أشهر حتى أبل من علته ثم نهض الى مراكش فاقام بها الى سنة احدى وتسعين وخمسمائة ثم نهض منها الى الاندلس بقصد الجهاد وكان ما نذكره ان شاء الله

﴿الغزوة الكبرى بالارك من بلاد الاندلس﴾

﴿قال ابن خلكان﴾ كان يعقوب المنصور رحمه الله قد خافه الفنش صاحب طليطلة وسأله الصلح فصالحه الى خمس سنين فلما انقضت مدة الهدنة ولم يبق منها الا القليل خرجت طائفة من الفرنج في جيش كثيف الى بلاد المسلمين فنهبوا وسبوا وعاثوا عيثا فظيعا فانتهى الخبر الى أمير المؤمنين يعقوب المنصور وهو بمراكش فتجهز لقصدهم في جيش عرمرم من قبائل الموحدين والعرب واحتفل في ذلك وعبر البحر الى الاندلس سنة احدى وتسعين وخمسمائة واتصل بالفرنج عبوره اليهم فجمعوا خلقا كثيرا من أقاصي بلادهم وأدانيها وأقبلوا نحوه ﴿قال ابن خلكان﴾ وقد رأيت بدمشق جزأ بخط الشيخ الحافظ تاج الدين عبد الله بن حمويه السرخسي وكان قد سافر الى مراكش وأقام بها مدة وكتب فصولا تتعلق بتلك الدولة

فن ذلك فصل يتعلق بهذه الوقعة فينبغي ذكره ههنا قال لما انقضت الهدنة بين أمير المؤمنين يعقوب المنصور وبين الاذفونش الفرنجي صاحب غرب جزيرة الاندلس وقاعدة مملكته يومئذ طليطلة وذلك في أواخر سنة تسعين وخمسمائة عزم يعقوب المنصور وهو يومئذ بمراكش على التوجه الى جزيرة الاندلس لمحاربة الفرنج وكتب الى ولاة الاطراف وقواد الجيوش بالحضور وخرج الى مدينة سلا ليكون اجتماع العساكر بظاهرها فاتفق انه مرض مرضا شديدا حتى أيس منه أطباؤه فتوقف الحال عن تدبير تلك الجيوش وحمل يعقوب المنصور الى مراكش وهو مريض فطمع المجاورون له من العرب وغيرهم في البلاد وعاثوا فيها وأغاروا على النواحي والاطراف وكذلك فعل الاذفونش فيما يليه من بلاد المسلمين بالاندلس واقتضى الحال تفرقة الجيوش التي جمعها يعقوب المنصور شرقا وغربا واشتغلوا بالمدافعة والممانعة فكثر طمع الاذفونش في البلاد وبعث رسولا الى أمير المؤمنين يعقوب المنصور يتهدد ويتوعد ويطلب بعض الحصون المتاخمة له من بلاد الاندلس وكتب اليه رسالة من انشاء وزير له من ضعفاء المسلمين يعرف بابن الفخار وهي باسمك اللهم فاطر السموات والارض وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح (أما بعد) فانه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب انك أمير الملة الحنيفية كما اني أمير الملة النصرانية وقد علمت الآن ما عليه رؤساء الاندلس من التخاذل والتواكل واهمال أمر الرعية واخلادهم الى الراحة وأنا أسومهم بحكم القهر وخلاء الديار وأسبي الذراري وأمثل بالرجال ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم اذا أمكنتك يد القدرة وأنتم تزعمون ان الله فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم فالآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا لا تستطيعون دفاعا ولا تملكون امتناعا وقد حكي لي عنك انك أخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال وتماطل نفسك عاما بعد عام تقدم رجلا وتؤخر أخرى فلا أدري أكان الجبن قد أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربك ثم قيل لي انك لا تجد الى جواز البحر سبيلا لعلة لا يسوغ لك التقحم معها وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك واعتذر لك وعنك على ان تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان وترسل الي جملة من عبيدك بالمراكب والشواني والطرائد والمسطحات وأجوز بجملتي اليك فأقاتلك في أعز الاماكن لديك فان كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت اليك وهدية عظيمة مثلت بين يديك وان كانت لي كانت يدي العليا عليك واستحققت امارة الملتين والحكم على البرين والله تعالى يوفق للسعادة ويسهل الارادة لا رب غيره ولا خير الا خيره فلما وصل كتابه الى أمير المؤمنين يعقوب المنصور مزقه وكتب على ظهر قطعة منه وكان المنصور يضرب به المثل في حسن التوقيع كما يأتي في بقية أخباره ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ثم كتب الجواب ما ترى لا ما تسمع فهو أول من تكلم به فأرسله مثلا وأنشد متمثلا

ولا كتب الا المشرفية والقنى * ولا رسل الا الخميس العرمرم

ثم أمر بالاستنفار واستدعاء الجيوش من الامصار وضرب السرادقات بظاهر البلد من يومه وجمع العساكر وسار الى البحر المعروف بزقاق سبتة يريد الاندلس *وقال ابن أبي زرع* خرج أمير المؤمنين يعقوب المنصور من حضرة مراكش يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الاولى سنة احدى وتسعين وخمسمائة يوالي السير ويطوي المناهل ولا يلوي على فارس ولا راجل والجيوش تتابع في أثره من سائر الاقطار فلما انتهى الى قصر المجاز أخذ في اجازة الجيوش الواردة عليه لا يفرغ من طائفة الا وقد لحقت بها أخرى فأجاز أولا قبائل العرب ثم زناتة ثم المصامدة ثم غمارة ثم المتطوعة من قبائل المغرب ثم الاغزاز والرماة ثم الموحدون ثم العبيد ثم أجاز أمير المؤمنين في أثرهم في موكب عظيم من أشياخ الموحدين وأهل النجدة والزعامة ومعه فقهاء المغرب وصلحاؤه واستقر بالجزيرة الخضراء بعد صلاة الجمعة

الموفى عشرين من رجب من السنة المذكورة فأقام بها يوما واحدا ثم نهض الى العدو وقبل ان تخمد قرائح المجاهدين وتضعف نياتهم فسار حتى بقى بينه وبين حصن الارك الذى كان العدو نازلا بازائه نحو مرحلتين فنزل هنالك وذلك يوم الخميس ثالث شعبان من السنة فجمع الناس ذلك اليوم وفاوضهم ووعظهم ثم اختص أهل الاندلس بمزيد المشورة وقال لهم ان جميع من استنفرته وان كانوا أولى بأس ومعرفة بالحرب لكنهم لا يعرفون من قتال الفرنج ما تعرفونه أنتم لتمرسكم بهم وتمرسهم بكم فأحالوه فى الرأى على القائد أبى عبد الله بن صناديد فعوّل المنصور رحمه الله فى ذلك على رأيه ❊وقال ابن الخطيب فى رقم الحلل❊ ان أمير المؤمنين المنصور رحمه الله عرض جيشه وأخذ فى تقريب القرب الى الله تعالى بين يدى جهاده فسرّح المسجون وأدرّ الارزاق وعين الصدقات ورحل فنزل الارك وقد خيمت باحوازه محلات العدوّ يضيق عنها المتسع وقام المنصور بعد ان اجتمع الناس فتحال من المسلمين وقال أيها الناس اغفروا الى فيما عسى أن يكون صدر منى فبكى الناس وقالوا امنكم يطلب الرضى والغفران وخطب الخطباء بين يديه محرضين ومذكرين فنشط الناس وطابت النفوس ومن الغد صدع المنصور بالنداء وأمر بأخذ السلاح والبروز الى اللقاء فكانت التعبية تحت الغلس ❊وحكى ابن أبى زرع❊ ان المنصور بات تلك الليلة عاكفا بصلاه على الركوع والسجود وانه أغفى اغفاءة فرأى ملكا نزل من السماء فى صورة بشر وبيده راية خضراء وبشره بالفتح وأنشده فى ذلك أبياتا بقيت على ذكر المنصور الى ان استيقظ وقص رؤياه على وجوه الجند فازداد الناس طمأنينة وبصيرة فلما كان يوم السبت خامس شعبان جلس المنصور فى قبته الحمراء المعدّة للجهاد ثم دعا بكبير وزرائه الشيخ أبى يحيى بن أبى حفص وقدمه على ذلك الجيش وعقد له رايته وقدمه بين يديه فرفرفت على رأسه الرايات وقرعت بين يديه الطبول وسار فى قبيل هنتاتة وبين يديه القائد ابن صناديد فى جيش الاندلس ثم عقد المنصور لجرمون بن رياح على قبائل العرب ولمنديل ابن عبد الرحمن المغراوى على قبائل مغراوة ولمحيو ابن أبى بكر بن حمامة المرينى جد الملوك المرينيين على قبائل بنى مرين ولجابر بن يوسف العبد الوادى على قبائل بنى عبد الواد وللعباس بن عطية التوجينى على قبائل بنى توجين ولتلجين بن على على قبائل هسكورة وسائر المصامدة ولمحمد بن منغفاد على قبائل غمارة وعقد للفقيه الصالح أبى خزر يخلف بن خزر الاوربى على المتطوّعة ❊وقال ابن خلدون❊ ان الذى كان على المتطوّعة يومئذ هو الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص والكل الى نظر الشيخ أبى يحيى بن أبى حفص وبقى المنصور رحمه الله فى جيش الموحدين والعبيد وأمر الشيخ أبا يحيى بالرحيل والتقدم أمامه الى جهة العدوّ وكان المنصور قد ظفر مع ابن صناديد من الرأى ان يبقى هو متأخرا فى الموحدين والعبيد والحشم على مسافة يخفى بها عن أعين العدوّ ويقدم الشيخ أبا يحيى ببعض الرايات والطبول فى هيئة السلطان فيلقى العدوّ فان كانت للمسلمين فهو المطلوب وان كانت عليهم كان المنصور ردأ لهم ثم يستأنف القتال مع العدوّ وقد انفل حدّه ولانت شوكته فسار الشيخ أبو يحيى على هذا الترتيب وابن صناديد أمامه فى فرسان الاندلس وحماتها فكان الشيخ أبو يحيى اذا أقلع بجيشه عن موضع صباحا خلفه المنصور فيه بجيشه مساء حتى أشرف الشيخ أبو يحيى على جموع الفرنج وهى يومئذ الى جنب حصن الارك ويقال الاركو بزيادة الواو فى آخره قد ضربت أخبيتها على ربوة عالية ذات مهاو وأحجار كبار قد ملأت السهل والوعر ونزل الشيخ أبو يحيى بجيشه فى البسيط ضحوة يوم الاربعاء التاسع من شعبان سنة احدى وتسعين وخمسمائة وعند ابن خلكان ان ذلك كان يوم الخميس قال واقتفى المنصور فى ذلك طريقة أبيه وجدّه فانهم أكثر ما كانوا يصافون يوم الخميس ومعظم حركاتهم فى صفر فعبأ الشيخ أبو يحيى عساكره تعبية الحرب وعقد الرايات لامراء القبائل وأوقف كل قبيلة فى مركزها الذى عين لها فجعل عسكر الاندلس فى الميمنة وجعل زناتة والمصامدة والعرب وسائر قبائل المغرب فى الميسرة وجعل المتطوّعة

والاغزاز والرماة في المقدمة وبقي هو في القلب في قبيل هنتاتة ولما أخذ الناس مراكزهم من حومة القتال خرج جرمون بن رياح يمشي في صفوف المسلمين ويحضهم على الثبات والصبر وبينما الناس على ذلك اذ انفصلت من جيش العدو كتيبة عظيمة من نحو عشرة آلاف فارس كلهم مدجج في الحديد وكانت هذه الكتيبة هي شوكة ذلك الجيش وحده كان الفنش لعنه الله قد انتخبهم وصلت أقستة عليهم صلاة النصر ورشوهم بماء المعمودية وتحالفوا عند الصلبان أن لا يبرحوا حتى يقتلوا المسلمين أو يهلكوا دونهم فلما برزت هذه الكتيبة نادى منادي الشيخ أبي يحيي معشر المسلمين اثبتوا في مصافكم واخلصوا لله تعالى نياتكم واذكروا الله عز وجل في قلوبكم وبرز عامر الزعيم من أمراء العرب فحض الناس على الصبر وثبتهم وحملت كتيبة العدو حتى اندقت رماح المسلمين في صدور خيلها أو كادت ثم تقهقرت قليلا ثم عاودت الحملة فكانت كالاولى ثم تهيأت للحملة الثالثة فدفعت حتى خالطت صفوف المسلمين وخلص البعض منها الى الشيخ أبي يحيي يظنونه المنصور فاستشهد رحمه الله بعد ما أحسن البلاء وقاتل قتالا شديدا واستشهد معه جماعة من المسلمين من هنتاتة والمتطوعة وغيرهم وسمي بنو الشيخ أبي يحيي بني الشهيد وعرفوا به من يومئذ وأظلم الجو بالغبار واختلطت الرجال بالرجال وانفرد كل قرن بقرنه وأقبلت العرب والمتطوعة فأحاطوا بالكتيبة التي دفعت الى الشيخ أبي يحيي وزحفت زناتة والمصامدة وغمارة الى الربوة التي فيها الفنش وجموعه وكانت على ما قيل تنيف على ثلاثمائة ألف بين فارس وراجل فتوغل المسلمون في تلك الاوعار اليهم وخالطوهم بها واشتد القتال واستحر القتل في الكتيبة التي دفعت أولا وانقضت عليهم العرب والمتطوعة وهنتاتة فطحنوهم طحنا وانكسرت شوكة الفنش بهلاكهم اذ كان اعتماده ومعوله عليهم وأسرعت خيل من العرب الى أمير المؤمنين المنصور فأعلموه بان الله تعالى قد فل شوكة العدو وأشرف على الانهزام فعندها أمر المنصور بالرايات فرفعت وبالطبول فقرعت ورفع المسلمون أصواتهم بالتكبير وتسابقوا الى قتال العدو وخفقت البنود وزحف أمير المؤمنين نحو المعركة فلم يرع الفنش اللعين الا الرايات قد أقبلت تخفق من كل جهة وزعقات الطبول والابواق وأصوات المجاهدين بالتكبير قد زلزلت الارض فقال ما هذا فقيل هذا المنصور قد أقبل في جيشه وما قاتلك سائر اليوم الا طلائعه ومقدماته فقذف الله الرعب في قلبه وخشعت نفوس جموعه وزلزلت بهم الارض زلزالها فولوا الادبار لا يلوون على شئ وأسعدهم يومئذ من وجد في فرسه بقية تنجيه واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وأحاط بعضهم بحصن الارك يظنون ان الفنش قد تحصن به وكان عدو الله قد دخل على باب وخرج على آخر من الناحية الاخرى واقتحم المسلمون الحصن عنوة وأضرموا النيران في أبوابه واحتووا على جميع ما كان فيه وفي محلة العدو من الاموال والذخائر وأنواع السلاح التي تفوت الحصر ﴿وقال ابن خلدون﴾ كان ملوك الفرنج الذين قاتلوا المنصور يومئذ ثلاثة ابن اذفونش وابن الرند والبيبوج قال واعتصم فلهم بحصن الارك وكانوا خمسة آلاف من زعمائهم فاستنزلهم المنصور على حكمه حتى فودي بهم عددهم من المسلمين ﴿وفي القرطاس﴾ ان عدد أسارى الارك كانوا أربعة وعشرين ألفا فمن عليهم المنصور وأطلقهم قال فعز ذلك على جميع الموحدين وسائر المسلمين وعدت للمنصور سقطة من سقطات الملوك ﴿وقال ابن الاثير﴾ كانت الدائرة يوم الارك أولا على المسلمين ثم عادت على الفرنج وانهزموا أقبح هزيمة وكان عدد من قتل من الفرنج أزيد من مائة ألف وغنم المسلمون منهم شيأ كثيرا فمن الخيام مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفا ومن الخيل ستة وأربعون ألفا وقيل ثمانون ألفا ومن البغال مائة ألف ومن الحمير أربعمائة ألف ﴿قال في نفح الطيب﴾ جاء بها الكفار لحمل أثقالهم لانهم لا ابل لهم قال وأما الجواهر والاموال فلا تحصى وبيع الاسير بدرهم والسيف بنصف درهم والفرس بخمسة دراهم والحمار بدرهم وقسم المنصور الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع كذا في نفح الطيب ﴿وفي كامل ابن الاثير﴾ ان يعقوب المنصور رحمه الله

نادى فى عسكره من غنم شيأ فهوله سوى السلاح وأحصى ماحمل اليه منه فكان زيادة على سبعين ألف لبس واستشهد من المسلمين نحو عشرين ألفا ثم تقدم المنصور بجيوشه الى بلاد الفرنج وأخذ يخرب المدن والقرى ويفتح الحصون والمعاقل ويقتل ويسبي ويأسر حتى وصل الى جبل سليمان ثم ثنى عنانه راجعا وقد امتلأت أيدى المسلمين من الغنائم ولم يعارضه من الفرنج معارض حتى وصل الى اشبيلية فاستقربها وأما الفنش فانه لما انهزم وصل الى طليطلة فى أسوأ حال فحلق رأسه ولحيته ونكس صليبه وركب حمارا وأقسم أن لا يركب فرسا ولا بغلا ولا ينام على فراش ولا يقرب النساء حتى تنصر النصرانية فجمع جموعا عظيمة وبلغ الخبر بذلك الى المنصور فبعث الى بلاد المغرب مراكش وغيرها يستنفر الناس من غير اكراه فأتاه من المتطوعة والمرتزقة جمع عظيم ثم نهض الى الفنش فالتقوا فى ربيع الاول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة وغنم المسلمون مامعهم من الاموال والسلاح والدواب وغيرها ثم تقدم المنصور الى مدينة طليطلة فحاصرها وقاتلها قتالا شديدا وقطع أشجارها وشن الغارات على ماحولها من البلاد وفتح فيها عدة حصون مثل قلعة رباح ووادى الحجارة ومجريط وجبل سليمان واقليج وكثير من أحواز طليطلة ثم ارتحل عن طليطلة الى مدينة طلمنكة فدخلها عنوة بالسيف فقتل المقاتلة وسبا النساء والذرية وغنم أموالها وهدم أسوارها وأضرم النيران فى جوانبها وتركها قاعا صفصفا وثنى عنانه الى اشبيلية فدخلها غرة صفر سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة فرفع اليه فى القاضى أبى الوليد بن رشد المعروف بالحفيد مقالات نسب فيها الى المرض فى دينه ومعتقده وكان أحد فلاسفة الاسلام وربما ألفى بعضها بخط يده فحبس ثم أطلق وأشخص الى مراكش وبها كانت وفاته رحمه الله ثم خرج المنصور من اشبيلية غازيا بلاد ابن اذفونش فسار حتى احتل بساحة طليطلة وبلغه ان صاحب برشلونة قد أمد ابن اذفونش بعساكره وانهم جميعا بحصن مجريط فنهض اليهم ولما أطل عليهم انفضت جموع ابن اذفونش من قبل القتال ثم انكفأ المنصور راجعا الى اشبيلية ثم اجتمع ملوك الفرنج وأرسلوا يطلبون الصلح فأجابهم اليه وصالحهم على مدة خمس سنين بعد ان كان عازما على الامتناع مريدا الملازمة الجهاد الى ان يفرغ منهم فأتاه خبر على بن اسحق المسوفى المعروف بابن غانية وانه دخل افريقية وأراد الاستيلاء عليها ففت ذلك فى عزمه وصالحهم على المدة التى ذكرنا وعقد على اشبيلية للسيد أبى زيد بن الخليفة وعلى مدينة بطليوس للسيد أبى الربيع ابن السيد أبى حفص وعلى المغرب للسيد أبى عبد الله ابن السيد أبى حفص ثم عبر البحر الى المغرب فوصل الى مراكش فى شعبان سنة أربع وتسعين وخمسمائة

﴿وفى نفح الطيب﴾ ان يعقوب المنصور لما حاصر طليطلة وضيق عليها ولم يبق الا فتحها خرجت اليه والدة الاذفونش وبناته ونساؤه وبكين بين يديه وسألنه ابقاء البلد عليهن فرق لهن ومن عليهن به ووهب لهن من الاموال والجواهر ماجل وردهن مكرمات وعفا بعد القدرة والله تعالى أعلم ﴿لطيفة﴾ قال الشيخ محيى الدين بن عربى الحاتمى رحمه الله فى كتاب الفتوحات المكية مانصه ولقد كنت بمدينة فاس سنة احدى وتسعين وخمسمائة وعساكر الموحدين قد عبرت الى الاندلس لقتال العدو حين استفحل أمره على الاسلام فلقيت رجلا من رجال الله ولا أزكى على الله أحدا وكان من أخص أودائى فسألنى ماتقول فى هذا الجيش هل يفتح له وينصر فى هذه السنة أم لا فقلت له ماعندك فى ذلك فقال ان الله تعالى قد ذكره فى كتابه ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم بهذا الفتح فى هذه السنة وبشر نبيه صلى الله عليه وسلم بذلك فى كتابه الذى أنزله عليه وهو قوله انا فتحنا لك فتحا مبينا فموضع البشرى فتحا مبينا من غير تكرار والالف فانها للاطلاق الوقوف فى تمام الآية فانظر أعدادها بحساب الجمل فنظرت فوجدت الفتح يكون فى سنة احدى وتسعين وخمسمائة ثم جزت الى الاندلس وقد نصر الله جيش المسلمين وفتح الله به قلعة رباح والاركو وكركرا وما انضاف الى هذه القلاع من الولايات هذا عاينته من الفتح من هذه صفته فأخذت

للفاء ثمانين وللتاء أربعمائة وللحاء المهملة ثمانية وللالف واحدا وللميم أربعين وللباء اثنين وللياء عشرة وللنون خمسين وأما الالف فقد أخذ عددها وكان المجموع احدى وتسعين وخمسمائة وهى سنو الهجرة الى هذه السنة فهذا من الفتح الالهى لهذا الشخص انتهى

﴿ذكر ما شيده المنصور رحمه الله من الآثار بالمغرب والاندلس﴾

كان يعقوب المنصور رحمه الله لما عزم على المسير الى الاندلس بقصد الجهاد أوصى الى نوابه ووكلائه ببناء قصبة مراكش والاعتناء بتشييد قصورها فمن آثاره الباقية بها الى الآن بابها المعروف بباب آكناو ولا مزيد على ضخامته وارتفاعه وأمرهم ببناء الجامع الاعظم بها المنسوب اليه الى اليوم وتشييد منارة المماثل به ومنار جامع الكتبيين المضروب به المثل فى الارتفاع وعظم الهيكل ﴿قال ابن سعيد﴾ طول صومعة الكتبيين بمراكش مائة ذراع وعشر أذرع ولما اجتاز المنصور فى سفره هذا بأرض سلا أمر أيضا ببناء مدينة رباط الفتح فأسست سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة وأكمل سورها وركبت أبوابها وأمر ببناء المسجد الاعظم بطالعة سلا ومدرسته الجوفية منه ﴿قال صاحب الروض المعطار﴾ كان يعمل فى بنائه ونقل حجارته وترابه سبعمائة أسير من أسارى الفرنج فى قيودها وأمر ببناء جامع حسان ومناره الاعظم المضروب به المثل فى الضخامة وحسن الصنعة قالوا ولم يتم بناؤه ولما فرغ المنصور من وقعة الارك واحتل بمدينة اشبيلية أخذ فى اتمام بناء جامعها الاعظم وتشييد مناره المشاكل للمنارين المتقدمين فهو ثالثة الاثافى بالنسبة لهما بل قيل انه ليس فى بلاد الاسلام منار أعظم منه وعمل لهذا المنار تفافيح من أملح ما يكون ﴿قال فى القرطاس﴾ بلغت من العظم الى ما يعرف قدره الان الوسطى منها لم تدخل على باب المنار حتى قلعت الرخامة من أسفله وزنة العمود الذى ركبت عليه أربعون ربعا من الحديد وكان الذى صنعها ورفعها فى أعلى المنار المذكور المعلم أبو الليث الصقلى وموهت تلك التفافيح بمائة ألف دينار ذهبا ولما كمل جامع اشبيلية وصلى فيه أمر ببناء حصن البرج على وادى اشبيلية وقد تقدم لنا فى أخبار عبد المؤمن انه هدم أسوار مدينة فاس وان حافده المنصور هذا شرع فى بنائها ثم أتمها ابنه الناصر من بعده ولما رجع المنصور من الاندلس الى مراكش وجد كل ما أمر به من البناآت قد تم على أكمل حال وأحسنه مثل القصبة والقصور والجامع والصوامع وأنفق على ذلك كله من أخماس الغنائم وكان قد تغير على الوكلاء والصناع الذين تولوا بناء ذلك لانه سعى اليه بانهم احتجنوا الاموال وصنعوا للجامع سبعة أبواب على عدد أبواب جهنم فلما دخله المنصور وتطوف به أعجبه فسأل عن عدد أبوابه فقيل انها سبعة أبواب والثامن هو الذى يدخل منه أمير المؤمنين فقال المنصور عند ذلك لا بأس بالغالى اذا قيل حسن واتخذ المنصور رحمه الله فى جامعه هذا لصلاته مقصورة عجيبة كانت مدبرة بحيل هندسية بحيث تنصب اذا استقر المنصور ووزراؤه بمصلاه منها وتختفى اذا انفصلوا عنها ﴿حكى﴾ الشريف الغرناطى شارح الخازمية عن الكاتب البارع أبى الحسن عبد الملك بن عياش أحد كتاب المنصور قال كانت لابى بكر يحيى بن مجبر الشاعر المشهور وفادة على المنصور فى كل سنة فصادف فى احدى وفاداته فراغه من احداث المقصورة التى كان أحدثها بجامعه المتصل بقصره فى حضرة مراكش وكانت قد وضعت على حركات هندسية ترتفع بها لخروجه وتنخفض لدخوله وكان جميع من بباب المنصور يومئذ من الشعراء والادباء قد نظموا أشعارا أنشدوه اياها فى ذلك فلم يزيدوا على شكره وتجزيته الخير فيما جدده من معالم الدين وآثاره ولم يكن فيهم من تصدى لوصف الحال حتى قدم أبو بكر بن مجبر فأنشد قصيدته التى أولها

أعلمتنى ألقى عصا التسيار * فى بلدة ليست بدار قرار

واستمر فيها حتى ألم بذكر المقصورة فقال يصفها

طورا تكون بمن حوته محيطة * فكأنها سور من الاسوار

وتكون

وتكون حينا عنهم مخبوءة * فكأنها سر من الاسرار
وكأنها علمت مقادير الورى * فتصرفت لهم على مقدار
فاذا أحست بالامام يزورها * في قومه قامت الى الزوار
يبدو فتبدو ثم تخفى بعده * كتكون الهالات للاقمار

فطرب المنصور لسماعها وارتاح لاختراعها *قال أبو العباس المقرى في نفح الطيب* وقد بطلت حركات هذه المقصورة الآن وبقيت آثارها حسبما شاهدته سنة عشر وألف والله وارث الارض ومن عليها ومن شعر ابن مجبر يصف خيل المنصور من قصيدة مدحه بها قوله

له حلبة الخيل العتاق كأنها * نشاوى تهادت تطلب العزف والقصفا
عرائس أغنتها الحجول عن الحلى * فلم تبغ خلخالا ولا التمست وقفا
فمن يقق كالطرس تحسب انه * وان جردوه في ملاءته التفا
وأبلق أعطى الليل نصف اهابه * وغار عليه الصبح فاحتبس النصفا
وورد تغشى جلده شفق الدجا * فاذ حازه دلى له الذيل والعرفا
وأشقر مج الراح صرفا أديمه * وأصفر لم يمسح بها جلده صرفا
وأشهب فضى الاديم مدنر * عليه خطوط غير مفهمة حرفا
كما خطط الراهي بمهرق كاتب * فجر عليه ذيله وهو ما جفا
تهب على الاعداء منها عواصف * ستنسف أرض المشركين بها نسفا
ترى كل طرف كالغزال فتمترى * أظبيا ترى تحت العجاجة أم طرفا
وقد كان في البيداء يألف سربه * فربته مهرا وهي تحسبه خشفا
تناوله لفظ الجواد لانه * اذا ما أردت الجرى أعطاكه ضعفا

ومما مدح به المنصور رحمه الله قول بعض شعراء عصره حين طلب منه الفنش الصلح فأجابه اليه

أهل بان يسعى اليه ويرتجى * ويزار من أقصى البلاد على الرجا
من قد غدا بالمكرمات مقلدا * وموشحا ومختما ومتوجا
عمرت مقامات الملوك بذكره * وتعطرت منه الرياح تأرجا

ودخل عليه الاديب أبو اسحق ابراهيم بن يعقوب الكانمي الاسود الشاعر فأنشده

أزال حجابه عنى وعينى * تراه من المهابة في حجاب
وقربني تفضله ولكن * بعدت مهابة عند اقترابي

وكانم بكسر النون جنس من السودان وهم بنو عم تكرور وليس اسمهما للانتساب لاب أو لام وانما كانم اسم بلدة بنواحي غانة فسمي هذا الجنس بها وكذلك تكرور اسم للارض التي هم بها فسموا بها والله أعلم

بقية أخبار المنصور وسيرته

قال ابن أبي زرع كان المنصور رحمه الله ذا رأى وحزم ودين وسياسة قال وهو أول من كتب العلامة بيده من ملوك الموحدين الحمد لله وحده فجرى عملهم على ذلك وقد تقدم لنا ان ذلك كان في دولة أبيه فالله أعلم وهو واسطة عقد ملوك الموحدين الذى ضخم الدولة وشرفها وكانت أيامه أيام دعة وأمن ورخاء ورفاهية وبهجة صنع الله عز وجل في أيامه الأمن بالمشرق والمغرب والاندلس فكانت الظعينة تخرج من بلاد نول فتنتهي الى برقة وحدها لا ترى من يعرض لها ولا من يسومها بسوء ضبط الثغور وحصن البلاد وبنى المساجد والمدارس في بلاد افريقية والمغرب والاندلس وبنى المارستانات للمرضى والمجانين وأجرى عليهم الانفاق في جميع أعماله وأجرى المرتبات على الفقهاء وطلبة العلم كل على قدر مرتبته وبنى الصوامع والقناطر وحفر الآبار للماء في البرية واتخذ عليها المنازل من السوس

الاقصى الى سويقة ابن مصكوك فكانت أيامه زينة الدهر وشرفا للاسلام وأهله ﴿وقال ابن خلكان﴾ كان يعقوب المنصور رحمه الله صافى السمرة جدا الى الطول ماهو جميل الوجه أفوه أعين شديد الكحل ضخم الاعضاء جهورى الصوت جزل الالفاظ من أصدق الناس لهجة وأحسنهم حديثا وأكثرهم اصابة بالظن مجربا للامور ولى وزارة أبيه فبحث عن الاحوال بحثا شافيا وطالع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات الامور فلما مات أبوه اجتمع رأى أشياخ الموحدين على تقديمه فقام بالامر أحسن قيام ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ونظر فى أمور الدين والورع وأقام الحدود حتى فى أهله وعشيرته الاقربين كما أقامها فى سائر الناس أجمعين فاستقامت الاحوال فى أيامه وعظمت الفتوحات وكان قد أمر لاول دولته بقراءة البسملة فى أول الفاتحة فى الصلوات وأرسل بذلك الى سائر بلاد الاسلام التى فى مملكته فاجاب قوم وامتنع آخرون وكان ملكا جوادا عادلا متمسكا بالشرع المطهر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما ينبغى من غير محاباة ويصلى بالناس الصلوات الخمس ويلبس الصوف ويقف للمرأة والضعيف ويأخذ لهم بالحق ﴿قال ابن خلكان﴾ وسمعت عنه حكاية يليق أن نذكرها هنا وهى ان الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبى حفص كان قد تزوج أخت يعقوب المنصور فاقامت عنده ثم جرت بينهما منافرة فجاءت الى بيت أخيها يعقوب المنصور فسير الشيخ عبد الواحد فى طلبها فامتنعت عليه فشكى الشيخ عبد الواحد ذلك الى قاضى الجماعة بمراكش وهو أبو عبد الله محمد بن على بن مروان فاجتمع القاضى المذكور بامير المؤمنين يعقوب المنصور وقال له ان الشيخ أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله فسكت عنه المنصور ومضت أيام ثم ان الشيخ أبا محمد اجتمع بالقاضى المذكور فى قصر المنصور بمراكش وقال له أنت قاضى المسلمين وقد طلبت أهلى فما جاؤنى فاجتمع القاضى بالمنصور وقال له يا أمير المؤمنين الشيخ عبد الواحد قد طلب أهله مرة وهذه الثانية فسكت المنصور ثم بعد ذلك بمدة لقى الشيخ عبد الواحد القاضى بالقصر المذكور فقال له يا قاضى المسلمين قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة أنا أطلب أهلى وقد منعونى منهم فاجتمع القاضى بالمنصور وقال له يا مولانا ان الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لاهله فاما ان تسير اليه أهله واما ان تعزلنى عن القضاء فسكت المنصور وقيل انه قال له يا أبا عبد الله ماهذا الاجد كبير ثم استدعى خادما وأمره سرا بان تحمل أهل الشيخ عبد الواحد اليه فحملت اليه فى ذلك اليوم ولم يتغير على القاضى ولا قال له شيأ يكرهه وتبع فى ذلك حكم الشرع المطهر وانقاد لامره وهذه حسنة تعد له وللقاضى أيضا فانه بالغ فى اقامة منار الشرع والعدل وكان المنصور يشدد فى الزام الرعية باقامة الصلوات الخمس وقتل فى بعض الاحيان على شرب الخمر وقتل العمال الذين تشكوهم الرعايا وأمر برفض فروع الفقه واحراق كتب المذاهب وان الفقهاء لا يفتون الا من الكتاب والسنة النبوية ولا يقلدون أحدا من الائمة المجتهدين بل تكون أحكامهم بما يؤدى اليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والحديث والاجماع والقياس ﴿قال ابن خلكان﴾ ولقد أدركنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا الينا وهم على ذلك الطريق مثل أبى الخطاب بن دحية وأخيه أبى عمرو ومحيى الدين بن عربى نزيل دمشق وغيرهم وكان يعاقب على ترك الصلوات ويأمر بالنداء فى الاسواق بالمبادرة اليها فمن غفل عنها أو اشتغل بمعيشته عزره تعزيرا بليغا وكان قد عظم ملكه واتسعت دائرة سلطنته حتى انه لم يبق بجميع أقطار بلاد المغرب من البحر المحيط الى برقة الامن هو فى طاعته وداخل فى ولايته الى غير ذلك من جزيرة الاندلس وكان محسنا محبا للعلماء مقربا للادباء مصغيا الى المدح مثيبا عليه وله ألف أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوى كتابه الذى سماه صفوة الادب وديوان العرب فى مختار الشعر وهو مجموع مليح أحسن فى اختياره كل الاحسان وكان المنصور يضرب به المثل فى حسن التوقيع واجادته

وقد تقدم لنا ما وقع به على كتاب الفنش ﴿وحكى ابن الخطيب في رقم الحلل﴾ ان المنصور طلب يوما من قاضيه أن يختار له رجلين لغرضين من تعليم ولده وضبط أمر فعرفه برجلين قال في أحدهما وهو بحر في علمه وقال في الآخر وهو بر في دينه ولما خرج المنصور أحضرهما واختبرهما فقصرا بين يديه وأكذبا الدعوى فوقع المنصور على رقعة القاضي أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ظهر الفساد في البر والبحر قال ابن الخطيب وهذا من التوقيع العريق في الاجادة والصنعة وكان مجلس المنصور رحمه الله مجالس الفضلاء والادباء وأرباب المعارف والفنون (حكى) أبو الفضل التيفاشي قال جرت مناظرة بين يدى ملك المغرب يعقوب المنصور وكانت بين الفقيه أبي الوليد بن رشد المعروف بالحفيد والرئيس الوزير أبي بكر بن زهر بضم الزاي وكان الاول قرطبيا والثاني اشبيليا فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة ما أدرى ما تقول غير انه اذا مات عالم باشبيلية فاريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها وان مات مطرب بقرطبة فاريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية وهذا الوزير ابن زهر هو أحد أعيان وزراء الدولة الموحدية وزر للمنصور ولابيه من قبله ﴿قال ابن خلكان﴾ كان ابن زهر من أهل بيت كلهم علماء رؤساء حكماء وزراء نالوا المراتب العلية وتقدموا عند الملوك ونفذت أوامرهم وكان يتكرر وروده على الحضرة بمراكش فيقيم بها أو يرجع الى الاندلس ومما قاله بمراكش يتشوق الى ولد له صغير تركه باشبيلية

ولى واحد مثل فرخ القطا * صغير تخلف قلبى لديه
نأت عنه دارى فيا وحشتى * لذاك الشخيص وذاك الوجيه
تشوقنى وتشوقته * فيبكى على وأبكى عليه
لقد تعب الشوق ما بيننا * فمنه الى ومنى اليه

﴿قال العلامة الاديب أبو العباس المقرى في نفح الطيب﴾ أخبرنى الطبيب الماهر الثقة الصالح العلامة سيدى أبو القاسم بن محمد الوزير الغساني الاندلسي الاصل الفاسي المولد والنشأة حكيم حضرة السلطان أبي العباس المنصور بالله السعدى ان ابن زهر لما قال هذه الابيات وسمعها يعقوب المنصور رحمه الله أرسل المهندسين الى اشبيلية يعنى من غير علم من ابن زهر وأمرهم أن يحيطوا علما ببيوت ابن زهر وحارته ثم يبنوا مثلها بحضرة مراكش ففعلوا ما أمرهم به في أقرب مدة وفرشها بمثل فرشه وجعل فيها مثل آلاته ثم أمر بنقل عيال ابن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه الى تلك الدار ثم احتال عليه حتى جاء الى ذلك الموضع فرآه أشبه شئ ببيوته وحارته فاحتار لذلك وظن انه نائم وان ذلك أحلام فقيل له ادخل البيت الذى يشبه بيتك فدخله فاذا ولده الذى يتشوق اليه يلعب في البيت فحصل له من السرور ما لا مزيد عليه ولا يعبر عنه *هكذا هكذا والا فلالا* ومن أطباء المنصور الوزير الطبيب الشهير أبو بكر بن طفيل من أهل وادى آش كان حاذقا بصناعة الطب والجراحات ومن أطبائه أيضا الحفيد بن رشد المتقدم الذكر ومن كتابه الكاتب البارع أبو الحسن عبد الملك بن عياش القرطبي النشأة اليابورى الاصل والفقيه البارع أبو الفضل بن طاهر من أهل بجاية ومن الفقهاء الذين كانوا يجالسونه ويسامرونه الفقيه الحافظ أبو بكر بن الجد والفقيه القاضي أبو عبد الله بن الصقر وغيرهم رحم الله الجميع

﴿وفاة يعقوب المنصور رحمه الله﴾

﴿قال ابن أبي زرع﴾ لما رجع المنصور من الاندلس الى مراكش أخذ البيعة لولده أبي عبد الله محمد الملقب بالناصر لدين الله فبايعه كافة الموحدين وسائر أهل الامصار والاقطار فلما تمت البيعة للناصر المذكور وجلس في محل الخلافة وجرت الاحكام والاوامر باسمه وعلى يديه في حياة أبيه دخل المنصور قصره فلزمه ﴿وقال ابن خلكان﴾ لما وصل المنصور الى مراكش بنى بعد قدومه من الاندلس أمر باتخاذ الاحواض والزوايا وآلات السفر للتوجه الى بلاد افريقية فاجتمع اليه مشائخ الموحدين وقالوا له

باسيدنا قد طالت غيبتنا بالاندلس فنامن له خمس سنين وغير ذلك فتنعم علينا بالمهلة هذا العام وتكون الحركة فى أوّل سنة خمس وتسعين وخمسمائة فأجابهم الى سؤالهم وانتقل الى مدينة سلا وشاهد مافيها من المتنزهات المعدّة له وكان قد بنى بالقرب من المدينة المذكورة مدينة عظيمة سماها رباط الفتح على هيئة الاسكندرية فى الاتساع وحسن التقسيم واتقان البناء وتحصينه وتحسينه وبناها على البحر المحيط الذى هنالك وهو على نهر سلا مقابلة لها من البر القبلى وطاف تلك البلاد وتنزه فيها ثم رجع الى مراكش ❊قال ابن خلكان❊ وبعد هذا اختلفت الروايات فى أمره فمن الناس من يقول انه ترك ما كان فيه وتجرد وساح فى الارض حتى انتهى الى بلاد الشرق وهو مستخف لا يعرف ومات خاملا ومنهم من يقول انه لما رجع الى مراكش كما ذكرناه توفى فى غرة جمادى الاولى وقيل فى ربيع الآخر فى سابع عشرة وقيل فى غرة صفر ولم ينقل شئ من أحواله بعد ذلك الى حين وفاته وقيل توفى بمدينة سلا ❊قال ابن خلكان❊ ثم حكى لى جمع كثير بدمشق ان بالقرب من المجدل البليدة التى من أعمال البقاع العزيزى قرية يقال لها حمارة والى جانبها مشهد يعرف بقبر الامير يعقوب ملك المغرب وكل أهل تلك النواحى متفقون على ذلك وليس عندهم فيه خلاف وهذا القبر بينه وبين المجدل مقدار فرسخين من جهتها القبلية بغرب قال وكان أوصى أن يدفن على قارعة الطريق ليترحم عليه من يمر به ❊قال المقرى فى نفح الطيب❊ هذه مقالة عامّية لا يثبتها علماء المغرب وسبب هذه المقالة تولع العامّة به فكذبوا فى موته وقالوا انه ترك الملك وحكوا ماشاع الى الآن وذاع مما ليس له أصل ثم نقل عن الشريف الغرناطى مثل ذلك فانظره ❊قال مؤلفه عفا الله عنه❊ وعندى ان انكار ما حكاه ابن خلكان ليس ببعيد وهب ان أهل المغرب قالوا ذلك تولعا به فما بال أهل المشرق يتولعون به ويتخذون له المشهد ثم يتفق كبيرهم وصغيرهم على انه قبر يعقوب ملك المغرب من غير أصل ولا مستند هذا بعيد فى العادة بل لا بد أن يكون لذلك أصل والله أعلم بحقيقته ❊نعم❊ ما تزعمه عامّة المغرب فى حمة أبى يعقوب التى بقرب مدينة فاس انها منسوبة ليعقوب المنصور هذا وانه رصد لها عفريتين يوقدان عليها الى الابد وان حرارة مائها بسبب ذلك الايقاد وان الشفاء الذى يحصل للمستحمين بها انما هو ببركة يعقوب المنصور وجعلوا له زوجة أو بنتا اسمها شافية اشتقاقا من لفظ الشفاء الحاصل بتلك العين كله باطل وانما حرارة العين لخاصية أودعها الله فى أصلها ومنبعها وكذا الشفاء الحاصل بها انما هو بخاصية فى ذلك الماء ولعلها مافيه من الكبريتية فانا نرى أصحاب الجرب يلتطخون بالكبريت المعالج فيشفون وكم من عين على وجه الارض فى المشرق والمغرب وبلاد المسلمين والكفار على هذه الحالة كما أخبر بذلك غير واحد ❊وقال الجوهرى فى الصحاح❊ الحمة العين الحارة يستشفى بها الاعلاء والمرضى ❊وفى الحديث❊ العالم كالحمة اهـ ومثله فى القاموس بل ذكر فيه ان مدينة تفليس وهى قصبة كرجستان عليها سور ان قال وحماماتها تنبع ماء حارا بغير نار ❊وقد ذكر ابن أبى زرع فى القرطاس حمة أبى يعقوب هذه وذكر معها حمتين أخريين فقال وبالقرب أيضا من مدينة فاس على مسيرة أربعة أميال منها حمة عظيمة تعرف بحمة خولان ماؤها فى أشد ما يكون من السخونة وبالقرب أيضا منها حمة وشنانة وحمة أبى يعقوب وهى من الحمات المشهورة بالمغرب اهـ كلامه فقد ذكر أبا يعقوب بلفظ الكنية فهو غير يعقوب المنصور قطعا ولعله أبو يعقوب الاشقر الآتى ذكره فى احداث المائة السابعة ❊ولنرجع❊ الى الكلام على وفاة المنصور عند علماء المغرب فنقول ❊قال ابن الخطيب فى رقم الحلل❊ توفى يعقوب المنصور رحمه الله فى الثانى والعشرين من شهر ربيع الاوّل سنة خمس وتسعين وخمسمائة ودفن بمجلس سكناه من مراكش وكذب العامة بموته ولوعا وتمسكا به فادعوا انه ساح فى الارض اهـ ❊وقال ابن أبى زرع❊ لما حضرت المنصور الوفاة قال ماندمت على شئ فعلته فى خلافتى الا على ثلاث، وددت انى لم أفعلها (الاولى) ادخال العرب من افريقية الى المغرب مع انى أعلم انهم أهل فساد (والثانية)

بناء رباط الفتح أنفقت فيه بيت المال وهو بعد لا يعمر (والثالثة) اطلاق أسارى الارك ولا بد لهم ان يطلبوا ابثارهم ﴿قلت﴾ ماذكره رحمه الله فى رباط الفتح من انه لا يعمر قد تخلف ظنه فيه فهو اليوم من أعمر أمصار المغرب وأحضرها حرسه الله وحرس سائر أمصار المسلمين من آفات النقصان وطوارق الحدثان ﴿ولنذكر﴾ ما كان فى هذه المدة من الاحداث فنقول ﴿فى سنة أربعين وخمسمائة﴾ هدم على ابن عيسى بن ميمون وكان من رؤساء البحر فى دولة اللمتونيين صنم قادس وقادس هذه هى الجزيرة المسماة فى لسان العامة اليوم بقالص وكان بها صنم عظيم على صورة رجل وبيده مفتاح يقال ان حكماء اليونان اتخذوه طلسما هنالك كان من خاصيته ان يمنع هبوب الريح فيما جاوره من البحر المحيط فكانت السفن لا تجرى هنالك على ماقيل فلما ثار ابن ميمون المذكور بالجزيرة المذكورة ظن ان تحت الصنم مالا فهدمه فلم يجد شيأ ﴿وفى السنة المذكورة﴾ توفى أبو على منصور بن ابراهيم المسطاسى دفين آزمور وكان كبير الشأن من أهل العلم والعمل ومن أشياخ أبى شعيب السارية ﴿وفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة﴾ توفى الامام الهمام الحافظ البارع أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبى ﴿قال ابن خلكان﴾ توفى بمراكش يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة وقيل فى شهر رمضان من السنة المذكورة ودفن بباب أيلان داخل المدينة وذلك فى دولة عبد المؤمن بن على ﴿وفى سنة تسع وخمسين وخمسمائة﴾ توفى الشيخ أبو الحسن على بن اسمعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم ينتهى نسبه الى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وهو من أهل مدينة فاس وبها توفى آخريات شعبان من السنة المذكورة وكان فقيها زاهدا صوفيا قال أبو الحسن المذكور اعتكفت على قراءة الاحياء سنة فجردت المسائل التى تنتقد عليه وعزمت على احراق الكتاب فنمت فرأيت قائلا يقول جردوه واضربوه حد الفرية فضربت ثمانين سوطا فلما استيقظت جعلت أقلب ظهرى ووجدت الالم الشديد من ذلك فتبت الى الله ثم تأملت تلك المسائل فوجدتها موافقة للكتاب والسنة وقد تقدم لنا ما اتفق له مع السلطان فى جنازة أبى الحكم بن برجان ﴿وفى سنة احدى وستين وخمسمائة﴾ توفى الشيخ القدوة أبو شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجى الملقب بسارية من أهل مدينة آزمور وبها توفى يوم الثلاثاء عاشر ربيع الثانى من السنة المذكورة وكان رضى الله عنه شديد المراقبة والورع والخوف من الله تعالى وكان اذا وقف فى صلاته يطيل القيام فلذلك لقب بالسارية ونقلت عنه فى الورع والخوف حكايات انظر التشوف ﴿قال مؤلفه عفا الله عنه﴾ كنت زرت ضريح هذا الشيخ سنة ثمانين ومائتين وألف ومدحته بقصيدة سلكت فيها مسلك الادباء من النسيب وغيره وأنشدتها عند ضريحه فرأيت لها بركة والحمد لله فأحببت أن أذكرها هنا وهى هذه

لله يا ربع ما هيجت من شجن * على الفؤاد ومن ضنى على البدن
وقفت فيك ركابا طالما وقفت * على القصور وعلى الاطلال والدمن
أيام فيك حسان ما أشبهها * بالشمس حسنا ولا فى اللين بالغصن
وفيك أسد من الملوك عادتها * بذل النضار وصون البيض والحصن
يحمون منك عراصا كنت أعهدها * مأوى السرور فعادت موقف الحزن
عاثت يد الدهر فيهم منذ أزمنة * كأن بأسهم المحذور لم يكن
قوم عرفت نداهم قبل معرفتى * نفسى وفاجأنى فى المهد بالمنن
ومذ ترعرعت لم أعلق بغيرهم * حتى كأنى رضعت الحب فى اللبن
قضيت حق الشباب فى منازلهم * أيام عيش لنا أحلى من الوسن
من ظن بالدهر خيرا فهو منخدع * فوده هدنة تبنى على دخن
لا أنتحى منهلا الا شرقت به * ولا أحل مكانا ليس بالخشن

ولا أصاحب من هذا الورى بشرا * الا حصلت على زق من الاحن
حتى توهمت انى جنيت لهم * حرب البسوس وانى أبو الفتن
ومالذى الفضل من ذنب يلام به * سوى فضيلته فى دهره الزمن
فعذيا قلب عن شكوى أضيق بها * ذرعا فشكواك لى ضرب من الوهن
ولست أحسب هذا الدهر مرعويا * ولو تعلقت منه بابن ذى يزن
حلا لقد علقت يدى بمن علقت * أيدى العفاة به فى الشام واليمن
بأعظم الناس منزلا ومنزلة * وأسمح الناس كفا بالندى الهتن
وأشمخ الناس قدرا فى الورى وعلا * وأحكم الناس للفروض والسنن
ذاك الولى الذى كل الانام غدا * يتلو مناقبه فى السر والعلن
أبو شعيب الذى من بحره انشعبت * جداول اليمن فى الاحياء والمدن
بدر غدا فى سماء المجد مكتملا * به علا ذكر آزمور فى الوطن
أرض اذا الضرع المحروم يممها * ألفى بها بذل الاهلين والسكن
أود من أجل ثاويها مجاورتها * وأجعل الترب لى مسكا بلا ثمن
وكيف لا تطبى قلبى منازل من * به أكون من الاحداث فى حصن
مجلى الغياهب مبذول المواهب مقـ * ـفو المذاهب بالجنيد والقرن
بحر الحقيقة والغوث الذى لهجت * به القبائل فى المقام والظعن
مازال يرقى الذرا من كل صالحة * حتى اكتسى شهرة النيران فى القنن
يا خير من أممه العافى ولاذ به * أهل الجرائم والاوزار والمحن
انى خدمتك فى شعر عنيت به * وليس لولا حلاك الزهر بالحسن
أشكو اليك سقاما أنت مبرئه * ولست أرجو سواك منه ينعشنى
وشد أزرى فانى كنت معتقدا * اذا بلغتك قدت الدهر بالرسن
وانظر بفضلك من وافاك معتفيا * فان نظرت فكل الخير يشملنى
وأعظم السول منك النفس تصلحها * وطهر القلب مالامراض والدرن
وامنحه نورا وتوفيقا ومعرفة * أرى بها عملى والبر فى قرن
لجد بارمت من جدواك يا أملى * فبحر جودك عذب ليس بالآجن
سقى ضريحك غيث مايزال به * بستان أنسك وهو مورق الفنن
بجاه أفضل خلق الله كلهم * محمد ذى المزايا الغر والمنن
عليه أزكى صلاة الله ماتليت * صحف وما نسج القريض ذو لسن
والآل والصحب والازواج قاطبة * ومن قفا نهجهم فى كل مازمن

﴿واعلم﴾ ان التعلق بأولياء الله رضى الله عنهم يجب أن يكون مع استحضار ان الله تعالى هو المطلوب على الحقيقة والفاعل للاشياء كلها لا معبود غيره ولا مرجو سواه وانما التمسك بأهل الله لاجل التبرك بهم والاستشفاع بهم الى الله تعالى لانهم أبواب الله والدالون عليه نفعنا الله بهم وأفاض علينا من مددهم آمين ﴿وفى سنة تسع وستين وخمسمائة﴾ توفى الشيخ الفقيه العالم أبو اسحق ابراهيم بن يوسف المعروف بابن قرقول صاحب كتاب مطالع الانوار الذى وضعه على مثال كتاب مشارق الانوار للقاضى عياض كان من الافاضل وصحب جماعة من علماء الاندلس وتوفى بمدينة فاس يوم الجمعة أول وقت العصر سادس شوال من السنة المذكورة وكان قد صلى الجمعة فى الجامع ذلك اليوم فلما حضرته الوفاة تلى سورة

الاخلاص

الاخلاص وجعل يكررها بسرعة ثم تشهد ثلاث مرات وسقط على وجهه ساجدا فوقع ميتا رحمه الله ﴿وفى سنة سبعين بعدها﴾ توفى الفقيه أبو الحسن على بن عبد الله بن ابراهيم بن محمد الانصارى المعروف بالمتيطى ومتيطة قرية باحواز الجزيرة الخضراء وهو الموثق المشهور ولازم بمدينة فاس خاله أبا الحجاج المتيطى و بين يديه تعلم عقد الشروط وله كتاب كبير فى الوثائق سماه النهاية والتمام فى معرفة الوثائق والاحكام ثم انتقل الى سبتة فاستوطنها ولازم مجالس علمائها بالمناظرة والتفقه ومهر فى كتابة الشروط واشتغل بها حتى لم يكن فى وقته أقدر منه عليها وكان له فى السجلات اليد الطولى وطبع عليها حتى كاد طبعه لا يواتيه فى سواها بل كان طبعه فى ذلك أكثر من فقهه ثم ولى القضاء بشريش وأصابه خدر لازمه نحو السنتين ثم توفى مستهل شعبان من السنة المذكورة ﴿وفى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة﴾ توفى وحيد عصره وأعجوبة دهره الولى العارف الشيخ أبو يعزى يلنور بن ميمون قال قوم انه من هزميرة ايرجان وقيل من بنى صبيح من هسكورة مات وقد نيف على المائة بنحو الثلاثين سنة ودفن بجبل ايرجان فى أوائل شوال من السنة المذكورة كان الشيخ أبو مدين رضى الله عنه يقول رأيت أخبار الصالحين من زمن أويس القرنى الى زماننا هذا فما رأيت أعجب من أخبار أبى يعزى قال ونظرت فى كتب التصوف فما رأيت مثل الاحياء للغزالى وكان لباس الشيخ أبى يعزى برنسا أسود مرقوعا الى أسفل من ركبتيه وجبة من تليس مطرف وشاشية من عزف وكان يتعيش من نبات الارض ولا يشارك الناس فى معائشهم وكان طويلا رقيقا أسود اللون وكان اذا جنه الليل دخل غيضة كثيرة السباع يتعبد فيها فاذا قرب الفجر أعلم أصحابه وأحواله رضى الله عنه وكراماته كثيرة ﴿وفى سنة ثلاث وسبعين بعدها﴾ توفى الشيخ العارف أبو الحسن على بن خلف بن غالب القرشى دفين قصر كتامة نشأ بشلب من بلاد الاندلس وقرأ بقرطبة واستقر آخرا بقصر كتامة وبه توفى فى السنة المذكورة وقيل ان وفاته كانت سنة ثمان وستين قبل هذا التاريخ والله أعلم وكان رضى الله عنه متمكنا فى علوم القوم وكان الاولياء يحضرون مجلسه وهو من تلامذة أبى العباس بن العريف المتقدم الذكر ﴿وفى سنة ثمانين وخمسمائة﴾ توفى الشيخ أبو عبد الله التاودى المعلم من أهل مدينة فاس ومن أصحاب الشيخ أبى يعزى وكان يعلم الصبيان فيأخذ الاجر من أولاد الاغنياء فيرده على أولاد الفقراء ومات بفاس فى السنة المذكورة وهذه النسبة الى بنى تاودى وهى قبيلة بقرب فاس ﴿وفى سنة احدى وثمانين بعدها﴾ توفى الامام المشهور أبو زيد عبد الرحمن بن الخطيب أبى محمد عبد الله بن أحمد السهيلى الخثعمى صاحب كتاب الروض الانف وغيره من التآليف الحسان وصاحب الابيات المشهورة فى الدعاء وهى

يامن يرى مافى الضمير ويسمع * أنت المعد لكل مايتوقع
يامن يرجى للشدائد كلها * يامن اليه المشتكى والمفزع
يامن خزائن رزقه فى قول كن * امنن فان الخير عندك أجمع
مالى سوى فقرى اليك وسيلة * فبالافتقار اليك فقرى أدفع
مالى سوى قرعى لبابك حيلة * فلئن رددت فأى باب أقرع
ومن الذى أدعو وأهتف باسمه * ان كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشى لجدك أن تقنط عاصيا * الفضل أجزل والمواهب أوسع

كان بلدته سهيل وهى قرية بالقرب من مالقة يتسوغ بالعفاف ويتبلغ بالكفاف حتى نمى خبره الى السلطان بمراكش فطلبه اليها وأحسن اليه وأقبل بوجهه غاية الاقبال عليه فأقام بها نحو ثلاث سنين ثم توفى بها يوم الخميس السادس والعشرين من شعبان من السنة المذكورة ودفن وقت الظهر خارج باب الرب أحد أبواب مراكش وكان رحمه الله ضريرا نفعنا الله تعالى به ﴿وفى سنة تسعين

وخمسمائة ﴿ توفي ولي الله تعالى أبو محمد عبد الحليم بن عبد الله المراسي المعروف بالغماد من صلحاء سلا كان رحمه الله عبدا صالحا يدور على المكاتب ويستوهب الدعاء من الصبيان ويبكي على نفسه وله كرامات وتوفي ببلده المذكور وقبره معروف ملاصق للمسجد الاعظم قرب بابه الكبير من جهة القبلة ﴿ وفي سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ﴿ توفي الشيخ أبو يعقوب يوسف بن علي المبتلى المعدود في سبعة رجال من صلحاء مراكش كان رضي الله عنه كبير الشأن فاضلا صابرا راضيا على ربه فيما ابتلاه به من داء الجذام سقط بعض جسده ذات يوم فصنع طعاما كثير الافقراء شكرا لله تعالى على ذلك وكان يسكن بحارة الجذمى العتيقة قبلي مراكش وبها مات في شهر رجب من السنة المذكورة ودفن خارج باب اغمات عند رابطة الغار واحتفل الناس لجنازته رضي الله عنه ﴿ وفي سنة أربع وتسعين بعدها ﴿ توفي الشيخ العارف بالله تعالى أبو مدين شعيب بن الحسن الانصاري الولي الكبير المشهور وأصله من حصن قطنيانة من عمل اشبيلية ثم انتقل الى العدوة فأخذ عن الشيخ أبي الحسن بن حرزهم وعن الشيخ أبي يعزى وبه انتفع وعليه تخرج وكان الشيخ أبو مدين رضي الله عنه من العارفين الراسخين قد خاض من الاحوال بحارا ومن المعارف أسرارا وجال في حداثة سنه في بلاد المغرب من سبتة ومراكش وفاس ولازم بفاس الشيخ ابن حرزهم كما قلنا ثم سمع بخبر الشيخ أبي يعزى فقصده وأخذ عنه وظهرت عليه بركته ﴿ قال الشيخ أبو مدين ﴿ لما قدمت فاسا لقيت بها الاشياخ فسمعت رعاية المحاسبي على أبي الحسن بن حرزهم وكتاب السنن للترمذي على أبي الحسن بن غالب وأخذت طريقة التصوف على أبي عبد الله الدقاق وأبي الحسن السلاوي قال وكنت أزور الشيخ أبا يعزى مرارا فقال لي جماعة من الفقهاء المجاورين لابي يعزى قد ثبتت عندنا ولاية أبي يعزى ولكنا نشاهده يلمس بطون النساء وصدورهن ويتفل عليهن فيبرأن ونحن نرى ان لمسهن حرام فان تكلمنا في هذا اهلكنا وان سكتنا حرنا فقلت لهم أرأيتم لو ان ابنة أحدكم أو أخته أصابها داء لا يطلع عليه الا الزوج ولم يوجد من يعانيه الا طبيب يهودي أو نصراني ألستم تجيزون ذلك مع ان دواءه مظنون ودواء أبي يعزى أنتم على يقين منه فبلغ كلامي أبا يعزى فاستحسنه ﴿ قال محمد بن ابراهيم الانصاري ﴿ خرج الشيخ أبو مدين ألف تلميذ وجاءه رجل ليعترض عليه فجلس في الحلقة فقال له أبو مدين لم جئت قال لأقتبس من نورك فقال له ما الذي في كمك فقال له مصحف فقال له افتحه واقرأ أول سطر يخرج لك ففعل فخرج له قوله تعالى الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين فقال له أبو مدين أما يكفيك هذا فاعترف الرجل وتاب وكراماته رضي الله عنه كثيرة وكان استوطن في آخر عمره بجاية وكثر عليه الناس وظهرت على يده كرامات فوشى به بعض علماء الظاهر عند يعقوب المنصور وقال له انا نخاف منه على دولتكم فان له شبها بالامام المهدي وأتباعه كثيرون بكل بلد فوقع منه ذلك فكتب لصاحب بجاية يبعثه اليه وأوصاه بالاعتناء به وان يحمله اليه خير محمل ففعل ولما كان الشيخ أبو مدين رضي الله عنه بالطريق مرض مرض موته فلما وصل وادي يسر قرب تلمسان اشتد به مرضه فنزلوا به هنالك فكان آخر كلامه الله الحق فتوفي ودفن برابطة العباد قرب تلمسان وسمع أهل تلمسان بجنازته فحضروها وكانت من المشاهد العظيمة ﴿ وفي سنة خمس وتسعين وخمسمائة ﴿ توفي الشيخ الفقيه الصالح أبو عبد الله محمد بن ابراهيم المهدوي صاحب كتاب الهداية أقام نحو أربعين سنة لم تفته صلاة في جماعة الا يوما واحدا لعذر عاقه عن ذلك دخل مدينة فاس ومعه نحو من أربعين ألفا من المال فما زال ينفقها في سبيل الخير حتى لم يبق له الا دار سكناه فباعها من بعض أهل فاس وأعمره المشتري لها فلما خرجت منها جنازته حازها المشتري المذكور وكانت وفاته يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الاولى من السنة المذكورة (واعلم) انا قد قدمنا ان الشيخ أبا مدين كان تلميذ الشيخ أبي يعزى وكان الشيخ أبو يعزى تلميذ الشيخ أبي شعيب السارية وكان الشيخ أبو شعيب تلميذ الشيخ أبي يعنور الدكالي نفعنا الله

بجميعهم وأفاض علينا من مددهم آمين ولنرجع الى أخبار الدولة الموحدية فنقول

﴿الخبر عن دولة أمير المؤمنين أبى عبد الله محمد الناصر لدين الله بن يعقوب المنصور بالله﴾

بويع لأبى عبد الله محمد الناصر لدين الله فى حياة والده يعقوب المنصور ثم جددت له البيعة بعد وفاته وذلك يوم الجمعة الثانى والعشرين من ربيع الاول سنة خمس وتسعين وخمسمائة وهو اليوم الذى توفى فيه أبوه فاقام بمراكش بقية ربيع الاول وجميع الثانى ثم نهض فى فاتح جمادى الاولى الى فاس فاقام بها بقية السنة المذكورة ثم غزا جبال غمارة من أجل علودان الغمارى الثائر بها ففتحها ثم رجع الى فاس فاتم بناء سورها الذى كان خربه عبد المؤمن وبنى قصبتها ورتب أمورها وأقام بها الى سنة ثمان وتسعين وخمسمائة فعاد الى مراكش وأقام بها الى ان كان ما نذكره

﴿غزو الناصر بلاد افريقية وولاية الشيخ أبى محمد بن أبى حفص عليها والسبب فى ذلك﴾

لما هلك المنصور رحمه الله قوى أمر يحيى بن اسحق المسوفى المعروف بابن غانية بافريقية واستولى على اعمال قراقوش الغزى صاحب طرابلس وعلى المهدية وتغلب على بلاد الجريد ثم نازل تونس سنة تسع وتسعين وخمسمائة وافتتحها عنوة لاربعة أشهر من حصارها فى ختام المائة السادسة وقبض على السيد أبى زيد وابنه ومن كان معه من الموحدين وطالب أهل تونس بالنفقة التى أنفق وبسط عليهم العذاب حتى هلك فى الامتحان كثير من بيوتاتهم ثم دخل فى دعوته أهل القيروان وغيرها من البلاد وانتظمت له اعمال افريقية وفرق العمال وخطب للخليفة العباسى واتصل بالناصر وهو بمراكش هذا كله فامتعض لذلك وشاور الموحدين فى أمر افريقية فاشاروا عليه بمسالمة ابن غانية وأشار الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص بالنهوض اليها والمدافعة عنها فعمل على رأيه ونهض اليها سنة ستمائة وبعث الاسطول فى البحر لنظر يحيى بن أبى زكريا الهزرجى واتصل ذلك بابن غانية فبعث ذخائره وحرمه الى المهدية مع على بن الغانى من قرابته وولاه عليها ولما قرب الناصر من افريقية خرج ابن غانية من تونس الى القيروان ثم الى قفصة واجتمع اليه العرب وأعطوه الرهائن على المظاهرة والدفاع وسار الى حامة مطماطة ثم الى جبل بنى دمر فتحصن به ووصل الناصر الى تونس ثم سار فى اتباع ابن غانية الى قفصة ثم الى قابس ثم عاد الى المهدية فعسكر عليها واتخذ الآلة لحصارها وسرح الشيخ أبا محمد عبد الواحد لقتال ابن غانية فى أربعة آلاف من الموحدين سنة اثنتين وستمائة فلقيه بجبل تاجورة من نواحى قابس وأوقع به وقتل أخاه جبارة بن اسحق واستنقذ السيد أبا زيد من معتقله وأما الناصر فانه استمر محاصرا للمهدية وبها يومئذ على بن الغانى وكان يدعى بالحاج وكان شهما محربا فامتنع على الناصر وأبدى من مكائد الحرب وخدعه ما يقصر عنه الوصف وأشجى الموحدين وبالغ فى نكايتهم فكانوا يسمونه الحاج الكافر ثم نزل على الامان وأحسن اليه الناصر احسانا تاما وسماه بالحاج الكافى بالياء بدل الراء لما رأى من مراعاته لصاحبه وحسن عهده معه واستشهد الحاج الكافى هذا فى وقعة العقاب الآتية وكان فتح المهدية فى السابع والعشرين من جمادى الاولى سنة ثنتين وستمائة وولى الناصر عليها محمد بن يغمور الهرغى وارتحل عنها فى عشرين من جمادى الثانية فدخل تونس غرة رجب وأقام بها بقية السنة وأكثر التى بعدها ولما كان رمضان من سنة ثلاث وستمائة أشاع الناصر الحركة الى المغرب واستخلف على افريقية ثقته ووزيره الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبى حفص الهنتاتى جد الملوك الحفصيين بعد مراجعة وامتناع ﴿قال ابن خلدون﴾ امتنع الشيخ أبو محمد الى ان بعث اليه الناصر فى ذلك بابنه يوسف فاكبر مجيئه وأذعن ويقال ان الناصر قال له يا أبا محمد أنت تعلم ما تجشمناه من المشاق والصوائر فى استنقاذ هذا القطر ولا آمن عليه من عدو متوثب ولا يقوم بحمايته الا أنا أو أنت فامض الى حفظ

عمه الكماة المغربية وأقيم أنا أو أقيم أنت وأرجع أنا فقنعه الحياء حينئذ وأذعن للاقامة واشترط شروطه المعروفة وهى ان يقيم ثلاث سنين ريثما تترتب الاحوال ثم يعود الى وطنه وأن يحكمه الناصر فيمن يحبسه معه من الجند ويرضاه من أهل الكفاية وأن لا يتعقب أمره فى ولاية ولا عزل فقبل الناصر شروطه ولما عزم الناصر على النهوض الى المغرب خرج اليه أهل تونس رافعين أصواتهم بين يديه اشفاقا من عود ابن غانية اليهم فاستدعى وجوههم وكلمهم بنفسه وقال انا قد اخترنا لكم من يقوم مقامنا فيكم وآثرناكم به على شدة حاجتنا اليه وهو فلان فتباشر الناس بولايته وشيع الناصر الى باجة ورجع واليا على جميع بلاد افريقية واستقل بامرها ونهيها * فمن هنا ورثت الملوك الحفصيون سلطنة تونس وافريقية وقفل الناصر الى المغرب فدخل مراكش فى ربيع سنة أربع وستمائة ولما استقر بالحضرة وفدت عليه الوفود وهنأته الشعراء بالفتح فكان من ذلك ما أنشده ابن مريح الكحل وهو قوله

ولما توالى الفتح من كل وجهة * ولم تبلغ الاوهام فى الوصف حده
تركنا أمير المؤمنين لشكره * بما أودع السر الالهى عنده
فلا نعمة الا تؤدى حقوقها * علامته بالحمد لله وحده

فاستحسن الكتاب منه ذلك ووقع أحسن موقع وأشار بذلك الى العلامة السلطانية عند الموحدين فانها كانت ان يكتب السلطان بيده بخط غليظ فى رأس المنشور الحمد لله وحده وقد تقدم ذلك والله أعلم

﴿فتح جزيرة ميورقة﴾

كانت جزيرة ميورقة لبنى غانية المسوفيين من عهد على بن يوسف بن تاشفين اللمتونى وكان يعقوب المنصور قد بعث اليها اسطوله مرارا فامتنعت عليه ولما ولى ابنه الناصر وغزا افريقية وجه اليها من ثغر الجزائر اسطولا مع عمه السيد أبى العلاء والشيخ أبى سعيد بن أبى حفص فنازلوها ثم اقتحموها عنوة وقتلوا صاحبها عبد الله بن اسحق المسوفى وانصرف السيد الى مراكش بعد ان ولى عليها عبد الله ابن طاع الله الكومى ووفد أهلها على الناصر فأكرم وفادتهم وولى القضاء عليهم الفقيه الجليل المحدث أبا محمد عبد الله بن سليمان الانصارى المعروف بابن حوط الله ذكره ابن الخطيب فى الاحاطة فقال كان مشهورا بالعقل والفضل معظما عند الملوك معلوم القدر لديهم يخطب فى مجالس الامراء والمحافل الجمهورية مقدما فى ذلك ذا بلاغة وفصاحة الى أبعد مضمار ولى قضاء اشبيلية وقرطبة ومرسية وسبتة وسلا وميورقة فتظاهر بالعدل وعرف بما أبطن من الدين والفضل وكان من العلماء العاملين مجانبا لاهل البدع والاهواء بارع الخط حسن التقييد الى غير ذلك ثم ولى الناصر على ميورقة عمه السيد أبا زيد وجعل ابن طاع الله على قيادة البحر وبعد السيد أبى زيد وليها السيد أبو عبد الله بن أبى حفص بن عبد المؤمن ثم أبو يحيى بن على بن أبى عمران التينملى ومن يده أخذها النصارى سنة سبع وعشرين وستمائة وكان الحادث بها عظيما

﴿ثورة ابن الفرس وما كان من أمره﴾

كان عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الفرس من طبقة العلماء بالاندلس ويعرف بالمهر وحضر مجلس يعقوب المنصور فى بعض الايام وتكلم بما اختشى عاقبته فى عقده فخرج من المجلس واختفى مدة ثم بعد مهلك المنصور ظهر فى بلاد جزولة وانتحل الامامة وادعى انه القحطانى المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه يملأها عدلا كما ملئت جورا الحديث وكان مما نسب اليه من الشعر قوله

قولا لابناء عبد المؤمن بن على * تأهبوا لوقوع الحادث الجلل

قد جاء سيد قحطان وعالمها * ومنتهى القول والغلاب للدول
والناس طوع عصاه وهو سائقهم * بالامر والنهى بحر العلم والعمل
وبادروا أمره فالله ناصره * والله خادع أهل الزيغ والميل

فبعث الناصر اليه الجيوش فهزموه وقتل وسيق رأسه الى مراكش فنصب بها وسكنت الفتنة وقد ثار أيضا فى سنة ستمائة رجل من آل البيت من العبيديين واسمه محمد بن عبد الله بن العاضد وهذا العاضد هو آخر خلفاء الشيعة بمصر فثار حافده محمد بن عبد الله المذكور بجبال ورغة من أحواز فاس فظفر به وقتل وعلق رأسه بباب الشريعة أحد أبواب فاس وأحرق جسده فى وسط الباب المذكور وكان ذلك فى اليوم الذى كمل فيه بناء سور فاس وبناء الباب المذكور وركبت مصارعه فسمى الباب باب المحروق بعد ان كان يسمى باب الشريعة ثم فى سنة عشر وستمائة ثار ولد هذا المحروق بجبال غمارة وادعى انه الفاطمى وتابعه خلق كثير من أهل الجبل والبادية فبعث اليه الناصر جيشا فظفر به وقتل وفى سنة احدى وستمائة بنى عامل الريف من قبل الناصر واسمه يعيش سور بادس والمدية ومليلة حياطة وتحصينا من بجاة العدو وفى سنة أربع وستمائة أمر الناصر بتجديد سور مدينة وجدة واصلاحها فشرع فى ذلك فى فاتح رجب من السنة المذكورة وفيها أيضا أمر الناصر ببناء دار الوضوء والسقاية بازاء جامع الاندلس بفاس فبنيت وجلب اليها الماء من العين التى خارج باب الحديد وأمر ببناء الباب الكبير المدرج الذى بصحن الجامع المذكور وأنفق فى ذلك كله من بيت المال وفيها أيضا أمر ببناء مصلى القرويين وأمر أن لا يصلى بمصلى الاندلس فاقام الناس يصلون بعدوة القرويين ثلاث سنين ثم عادوا يصلون بالاندلس والقرويين معا كما كانوا أولا بعد ان شهد أنها قديمة وفى شوال من السنة المذكورة نهض الناصر من فاس الى مراكش فاقام بها الى ان كان ما نذكره

السبب فى تسمية باب المحروق

غزوة العقاب التى محص الله فيها المسلمين

ثم اتصلت الاخبار بالناصر وهو بمراكش أن الفنش لعنه الله قد استطال على ثغور المسلمين بالاندلس وأنه يغير على قراها وينتهب الاموال ويسبى النساء والذرية فأهمه ذلك وأقلقه وكتب الى الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص صاحب افريقية يستشيره فى الغزو فأبى عليه فخالفه وأخذ فى الحركة للجهاد وكان الناصر معجبا برأيه مستبدا بأموره ففرق الاموال على القواد والاجناد وكتب الى جميع بلاد افريقية والمغرب وبلاد القبلة يستنفر المسلمين لغزو الكفار فأجابه خلق كثير وألزم كل قبيلة من قبائل المغرب بحصة من الخيل والرجل تخرج للجهاد فقدمت عليه الجيوش من سائر الاقطار وتسارع الناس اليه خفافا وثقالا من البوادى والامصار فلما تكاملت لديه الحشود وتوافت بحضرته الجنود خرج من مراكش فى تاسع عشر شعبان سنة سبع وستمائة فانتهى الى قصر المجاز فأقام به وشرع فى اجازة الجيوش من أوائل شوال الى أواخر ذى القعدة من السنة المذكورة ثم عبر فى آخرهم واحتل بطريف يوم الاثنين الخامس والعشرين من ذى القعدة المذكور فتلقاه هنالك قواد الاندلس وفقهاؤها وروساؤها وأقام بطريف ثلاثا ثم نهض الى اشبيلية فى أمم لا تحصى وجيوش لا تستقصى قد ملأت السهل والوعر *حكى بعض الثقات من مؤرخى المغرب* انه اجتمع مع الناصر فى هذه الغزوة من أهل المغرب والاندلس ستمائة ألف مقاتل وكان الناصر رحمه الله قد أعجبه ما رأى من كثرة جنوده وأيقن بالظفر فقسم الناس على خمس فرق فجعل العرب فرقة وزناتة وصنهاجة والمصامدة وغمارة وسائر أصناف قبائل المغرب فرقة وجعل المتطوعة فرقة وجعل جند الاندلس فرقة والموحدين فرقة وأمر كل فرقة ان تنزل ناحية واهتزت جميع بلاد الفرنج لجوازه وتمكن رعبه من قلوبهم فأخذوا فى تحصين بلادهم واخلاء ما قرب من المسلمين من قراهم وحصونهم وكتب اليه أكثر أمرائهم يسألونه السلم ويطلبون منه العفو

ووفد عليه منهم ملك بنبلونة مستسلما خاضعا طالبا للصلح فيقال انه قدم بين يديه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الذى كتبه الى هرقل ملك الروم يستشفع به وقد كان هذا الكتاب وقع اليه وراثة من بعض سلفه فاحتفل الناصر لقدومه وصف له الجيوش من باب مدينة قرمونة الى باب اشبيلية أربعين ميلا ثم عقد له الصلح مادامت دولة الموحدين وصرفه الى بلاده مكرما مسعفا بجميع مطالبه ﴿وعند ابن خلدون﴾ ان الذى وفد على الناصر فى هذه الغزوة هو البيبوج أحد الملوك الثلاثة الذين شهدوا وقعة الارك قال وهو الذى مكر بالناصر يوم العقاب قدم عليه وأظهر له التنصح وبذل له أموالا ثم غدر به وجر عليه الهزيمة والله أعلم ثم خرج الناصر من اشبيلية غازيا بلاد قشتالة فى أوائل صفر سنة ثمان وستمائة فسار حتى نزل حصن سلبطرة وهو حصن منيع وضع على قنة جبل وقد تعلق باكناف السحاب ليس له مسلك الا من طريق واحد فى مضايق وأوعار فنزل عليه الناصر وأدار به الجيوش ونصب عليه أربعين منجنيقا فهتك أرباضه ولم يقدر منه على شئ قالوا وكان وزيره أبو سعيد بن جامع قد تمكن من الناصر فاقصى شيوخ الموحدين وأعيانهم وذوى الحنكة والرأى منهم عن بساطه وانفرد هو به فكان يشير على الناصر فى غزوته هذه بآراء كانت سبب الضعف والوهن وجلبت الكرة على المسلمين من ذلك ان الناصر لما أعياه أمر الحصن عزم على النهوض عنه الى غيره فأشار عليه ابن جامع بان لا يتجاوزه حتى يفتحه فيقال انه أقام على ذلك الحصن ثمانية أشهر فنيت فيها أزواد الناس وقلت علوفاتهم ونفدت نفقاتهم وكلت عزائمهم وفسدت نياتهم وانقطعت الامداد عن المحلة فغلت بها الاسعار ودخل فصل الشتاء فاشتد البرد وأصاب المسلمين كل ضر ويقال انه من طول مقام الناصر على ذلك الحصن عشش خطاف فى جانب خبائه وباض وأفرخ وطارت فراخه وهو مقيم على حاله واتصل بالفنش لعنه الله ما آل اليه أمر المسلمين من الضجر وقلة المادة وتشوش البواطن واختلاف الرأى فاغتنم الفرصة وبعث الحاشرين فى مدائنه ودعا كل من قدر على حمل السلاح من رعيته فاجتمع له من ذلك ما لا حصر له ثم خالف الناصر الى قلعة رباح فنازلها وبها يومئذ أبو الحجاج يوسف بن قادس من قواد الاندلس وزعمائها كان قد ترتب فى ذلك الحصن فى جماعة من الخيل لحمايته وضبطه فحاصره الفنش وبالغ فى التضييق عليه فكان ابن قادس يكتب لامير المؤمنين الناصر يعلمه بحاله ويستمده على عدوه وهو على حصن سلبطرة فكان الوزير ابن جامع اذا وصلت اليه كتب ابن قادس أخفاها عن الناصر لئلا يرحل عن الحصن قبل فتحه فلما طال الحصار على ابن قادس وفنى ما عنده من الاقوات والسلاح ويئس من امداد الناصر اياه وخشى على من فى الحصن من النساء والذرية صالح الفنش على تسليم الحصن له وخروج المسلمين آمنين على أنفسهم ففعل واستولى الفنش على قلعة رباح وسار ابن قادس الى الناصر ليجتمع به ويعلمه بالامر على وجهه وسار معه صهر له بعد ان عزم ابن قادس عليه أن يرجع فأبى وقال ان قتلت قتلت معك ولما وصلا الى الوزير ابن جامع أمر بحبسه وحبس صهره معه ثم دخل على الناصر فقال له ان ابن قادس قد دفع الحصن الى العدو ثم قدم عليك وأراد الدخول عليك وكان الناصر قد تغير باطنه على أهل الاندلس واتهمهم بكتمان أمر العدو عنه حين كان بمراكش فلما قدم ابن قادس فى هذه المرة وقال له ابن جامع ما قال أمر بقتله فقتل هو وصهره قعصا بالرماح رحمهما الله فحقدت جيوش الاندلس على ابن جامع وفسدت نياتهم على الناصر وأحس ابن جامع بذلك فأمر باحضار قوادهم فحضروا بين يديه فقال اعتزلوا جيش الموحدين فلا حاجة لنا بكم كما قال الله تعالى لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا وسننظر بعد هذا فى أمر كل فاجر ولما علم الناصر بحال الفنش وما هو عليه من القوة وكثرة الجموع واستيلائه على قلعة رباح التى هى أمنع ثغور المسلمين شق ذلك عليه وامتنع من الطعام والشراب حتى مرض من شدة الوجد ثم شدد فى قتال سلبطرة وبذل الاموال الجليلة حتى فتحها صلحا وذلك فى أواخر ذى الحجة من سنة ثمان وستمائة ثم زحف الفنش الى

الناصر ونهض الناصر اليه فالتقى الجمعان بموضع يعرف بحصن العقبان فضرب المصاف وضرب للناصر قبته الحمراء المعدة للقتال على رأس ربوة وقعد أمامها على درقته وفرسه قائم بازائه ودارت العبيد بالقبة من كل ناحية ومعهم السلاح التام ووقفت الساقات والبنود والطبول أمام العبيد مع الوزير ابن جامع وأقبلت جموع الفرنج على مصافها كأنها الجراد المنتشر فتقدمت اليهم المتطوعة وحملوا عليهم أجمعون وكانوا مائة وستين ألفا فغابوا في صفوفهم وانطبقت عليهم جموع الفرنج فاقتتلوا قتالا شديدا فاستشهد المتطوعة عن آخرهم هذا وعساكر الموحدين والعرب والاندلس ينظرون اليهم لم يتحرك اليهم منهم أحد ولما فرغ الفرنج من المتطوعة حملوا بجمعهم على عساكر الموحدين والعرب حملة منكرة فلما انتشب القتال بين الفريقين فرت قواد الاندلس وجيوشها لما كانوا اقد حقدوه على ابن جامع في قتل ابن قادس أولا وتهديدهم وطرده لهم ثانيا لجرّوا الهزيمة على المسلمين ولا حول ولا قوة الا بالله وتبعهم قبائل البربر والموحدون والعرب وركبتهم الفرنج بالسيف وكشفوهم عن الناصر حتى انتهوا الى الدائرة التي دارت عليه من العبيد والحشم فالقوها كالبنيان المرصوص لم يقدروا منها على شئ ودفع الفرنج بخيلهم المدرعة على رماح العبيد وهى مشرعة اليهم فدخلوا فيها والناصر قاعد على درقته أمام خبائه يقول صدق الرحمن وكذب الشيطان حتى كادت الفرنج تصل اليه وحتى قتل حوله من عبيد الدائرة نحو عشرة آلاف ثم أقبل اليه بعض فرسان العرب على فرس له أنثى فقال له الى متى قعودك يا أمير المؤمنين وقد نفذ حكم الله وتم أمره وفنى المسلمون فعند ذلك قام الناصر الى جواد له سابق كان أمامه فأراد أن يركبه فترجل العربى عن فرسه وقال له اركب هذه الحرّة فانها لا ترضى بعار فلعل الله ينجيك عليها فان فى سلامتك الخير كله فركبها الناصر وركب العربى جواده وتقدم أمامه فى كبكبة عظيمة من العبيد محيطة بهم والفرنج فى أعقابهم تقتلهم ونادى منادى الفنش يومئذ الالا أسر الا القتل ومن أتى باسير قتل هو وأسيره فحكمت سيوف الفرنج فى المسلمين الى الليل وكانت هذه الرزية العظيمة يوم الاثنين خامس عشر صفر سنة تسع وستمائة فذهبت قوة المسلمين بالمغرب والاندلس من يومئذ ولم تنصر لهم بعدها راية مع الفرنج الى ان تدارك الله رمق الاندلس بالسلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق المرينى رحمه الله كما سنقص خبر ذلك مستوفى عند الوصول اليه ان شاء الله ﴿قال ابن الخطيب﴾ لما لحق الناصر باشبيلية جل السيف على طائفة كبيرة ممن توجهت اليهم الظنة ﴿وقال ابن خلدون﴾ ثم رجعت الفرنج الى الاندلس بعد الكائنة للاغارة على بلاد المسلمين فلقيهم السيد أبو زكريا ابن أبى حفص بن عبد المؤمن قريبا من اشبيلية فهزمهم وانتعش المسلمون بها واتصلت الحال على ذلك

﴿وفاة الناصر رحمه الله﴾

﴿قال ابن أبى زرع﴾ لما قدم الناصر الى مراكش منصرفا من وقعة العقاب أخذ البيعة لولده يوسف الملقب بالمنتصر فبايعه كافة الموحدين وخطب له على جميع منابر المغرب والاندلس فى العشر الاواخر من ذى الحجة سنة تسع وستمائة ولما تمت له البيعة دخل الناصر قصره واحتجب فيه عن الناس وانغمس فى لذاته مصطبحا ومغتبقا الى شعبان من سنة عشر وستمائة فمات مسموما بتدبير وزرائه عليه فى ذلك قال وكانت وفاته يوم الاربعاء الحادى عشر من شعبان المذكور ﴿وقال ابن خلكان﴾ تقول المغاربة ان الناصر رحمه الله كان قد أوصى الى عبيده المشتغلين بحراسة بستانه بمراكش ان كل من ظهر لهم بالليل فهو مباح الدم لهم ثم أراد أن يختبر قدر أمره عندهم فتنكر وجعل يمشى فى البستان ليلا فعند ما رأوه جعلوه غرضا لرماحهم فجعل يقول أنا الخليفة أنا الخليفة فما تحققوه حتى فرغوا منه والله أعلم بصحة ذلك ﴿قلت﴾ الصحيح فى وفاة الناصر ماذكره الوزير ابن الخطيب فى رقم الحلل قال ثم صرف الناصر وجهه الى غزو الاندلس فى عزم لم يبلغ اليه ملك قبله ولما احتل رباط الفتح من سلا نزل به

الموت فتوفي ليلة الثلاثاء عاشر شعبان سنة عشر وستمائة فانحل العزم وتفرقت الجموع والبقاء لله وحده

﴿الخبر عن دولة أمير المؤمنين يوسف المنتصر بالله ابن الناصر بن المنصور رحمه الله﴾

لما هلك محمد الناصر لدين الله بويع ابنه أبو يعقوب يوسف بن محمد بن يعقوب المنصور وهو ابن ست عشرة سنة ولقب بالمنتصر بالله وغلب عليه الوزير أبو سعيد بن جامع ومشيخة الموحدين فقاموا بأمره واستبدوا عليه وتأخرت بيعة الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص من افريقية لصغر سن المنتصر ثم وقعت المحاولة من الوزير ابن جامع وصاحب الاشغال عبد العزيز بن أبي زيد فوصلت بيعته حينئذ واشتغل المنتصر عن تدبير الامر والجهاد بما يقتضيه الشباب وعقد للسادات على عمالات ملكه فعقد للسيد أبي ابراهيم اسحق بن يوسف بن عبد المؤمن ويلقب بالظاهر على فاس وأعمالها وهو أخو المنصور ووالد عمر المرتضى الآتي ذكره وعقد لعمه السيد أبي اسحق بن المنصور على اشبيلية وما أضيف اليها ولعمه أبي عبد الله محمد بن المنصور على بلنسية وشاطبة وأعمالهما ولعمه أبي محمد عبد الله بن المنصور على مرسية ودانية وأعمالهما وبعث معه الشيخ أباز يد بن يرجان وكان من أشياخ الموحدين ودهاتهم وفي دولة المنتصر هذا فشل أمر الموحدين وذهبت ريحهم وأشرفت دولتهم على الهرم واستولى الفنش على المعاقل التي أخذها المسلمون وهزم حامية الاندلس في كل جهة واستبدت السادة بالاطراف والتاثت الامور بالاندلس والمغرب أجمع أما الاندلس فبتكالب العدو عليها وفناء حاميتها وأما المغرب فبخلاء كثير من قراه وأمصاره من وقعة العقاب ثم ظهرت بنو مرين بجهة فاس سنة ثلاث عشرة وستمائة وكانوا موطنين بصحراء فجيج وماوالاها فاقتحموا المغرب في هذه السنين لخلائه من الحامية واكتسحوا بسائطه بالغارات وانحازت رعاياه الى المعاقل والحصون وكثرت الشكايات بهم الى المنتصر وهو مقيم بمراكش فكتب الى السيد أبي ابراهيم صاحب فاس يأمره بغزوهم فخرج اليهم وهم ببلاد الريف فاوقعوا به وقعة شنعاء كانت بأكورة فتحهم وعاد السيد مفلولا الى فاس وأصحابه عراة بين يديه يخصفون عليهم من ورق النبات المعروف بالمشعلة فسميت السنة سنة المشعلة وكانوا قد أسروا السيد أبا ابراهيم ثم عرفوه فاطلقوه ثم صمدت بنو مرين بعدها الى تازا فغلوا حاميتها وعظمت شوكتهم بالمغرب على مانذكره بعد ان شاء الله (وفي سنة أربع عشرة وستمائة) هزم المسلمون بقصر أبي دانس من الاندلس وهي من الهزائم الكبار التي تقرب من هزيمة العقاب لان العدو كان قد نزل قصر أبي دانس وحاصره فخرج اليه جيش اشبيلية وجيش قرطبة وجيش جيان وحشود بلاد غرب الاندلس لاستنقاذ قصر أبي دانس وكان ذلك بأمر المنتصر فساروا ايؤمون العدو فلم تقع عينهم على عينه الا وقد خامر قلوب المسلمين الرعب وولوا الادبار لما كان قد رسخ في نفوسهم من بأسه يوم العقاب فتكالب العدو بعدها على المسلمين وتمرس بهم وهان عليه أمرهم وخشعت نفوسهم له ولما فروا امنه في هذه الخرجة ركبهم بالسيف وقتلهم عن آخرهم ورجع الفنش الى قصر أبي دانس فحاصره حتى اقتحمه عنوة وقتل جميع من به من المسلمين ﴿وفي سنة ثمان عشرة وستمائة﴾ توفي صاحب افريقية الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص فبايع الموحدون بافريقية ابنه أبا زيد عبد الرحمن فقام بالامر وأطفأ النائرة وأفاض العطاء ومهد النواحي ورتب الامور حتى ورد كتاب المنتصر من مراكش لثلاثة أشهر من ولايته بتأخيره وتولية السيد أبي العلاء الاكبر مكانه وهو ادريس بن يوسف بن عبد المؤمن فقدم افريقية في ذي القعدة سنة ثمان عشرة وستمائة ووالى الهزائم على ابن غانية الثائر بافريقية حتى شرده الى الصحراء وأبو العلاء هذا هو الذي بنى البرجين اللذين على باب المهدية وحصنهما وهو الذي بنى برج الذهب باشبيلية أيام ولايته عليها في دولة أبيه وأقام أبو العلاء بافريقية الى ان توفي بتونس منها في شعبان سنة عشرين وستمائة واستولى على افريقية بعده ابنه أبو زيد بن ادريس وساءت سيرته في الناس وأقام على ذلك الى دولة العادل عبد الله بن المنصور صاحب

مراكش فعزله وولى مكانه عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص ثم غلب عليه أخوه أبو زكريا يحيى ابن عبد الواحد بن أبي حفص وتداول ملك افريقية بنوه من بعده واستبدوا بها واقتطعوها عن نظر بني عبد المؤمن أصحاب مراكش فلم تعد اليهم بعد وأما يوسف المنتصر فانه استمر مقيما بمراكش على لذاته الى ان توفي وكان من خبر وفاته انه كان مولعا باتخاذ الحيوان واستنتاجه فكان يؤتى اليه باصناف البقر من الاندلس فيرسلها في بستانه الكبير من حضرة مراكش ويحمل بعضها على بعض للتناسل فخرج ذات يوم للتطوّف على تلك البقر والنظر اليها فتوسط قطيعا منها وقد ركب فنشيا فانكرته بقرة شرود كانت في ذلك القطيع فطعنته في صدره طعنة أتت عليه من حينه وذلك في عشي يوم السبت الثاني عشر من ذي الحجة سنة عشرين وستمائة ولم يخلف الاحملا من جارية له ﴿قال ابن خلكان﴾ لم يكن في بني عبد المؤمن أحسن وجها من المنتصر ولا أبلغ في المخاطبة الا انه كان مشغوفا براحته فلم يبرح عن حضرته فضعفت الدولة في أيامه والله تعالى أعلم

﴿الخبر عن دولة أمير المؤمنين عبد الواحد المخلوع ابن يوسف بن عبد المؤمن رحمه الله﴾

لما هلك المنتصر في التاريخ المتقدم اجتمع الوزير ابن جامع والموحدون وبايعوا للسيد أبي محمد عبد الواحد ابن يوسف وهو أخو المنصور ﴿قال ابن أبي زرع﴾ بايعوه على كره منه بقبة المنصور من قصبة مراكش وهو يومئذ في سن الشيخوخة وكان عالما فاضلا متورعا فاستقام له الامر نحو شهرين وخطب له في جميع أعمال الموحدين ماعدا مرسية فان ابن أخيه السيد أبا محمد عبد الله بن المنصور الملقب بالعادل كان واليا عليها وكان وزيره بها الشيخ أبا زيد بن يرجان المعروف بالاصفر وكان من دهاة الموحدين وكان المنصور رحمه الله اذا رآه يستعيذ بالله من شره ويقول ماذا يجري على يديك من الفتن يا أصفر وكان من خبره انه لما بويع المخلوع أمر باطلاق ابن يرجان لانه كان محبوسا على ماعند ابن خلدون فاطلق ثم صده ابن جامع عن ذلك وأنفذ أخاه أبا اسحق في الاسطول ليغربه الى ميورقة فلاذ ابن يرجان حينئذ بعبد الله بن المنصور صاحب مرسية ونزل منه منزلة الوزير وأغراه بالتوثب على الامر وشهد له انه سمع من المنصور رحمه الله العهد له بالخلافة من بعد الناصر وقال له فيما قال انك أحق بالخلافة من عبد الواحد أنت ولد المنصور وأخو الناصر وعم المنتصر ولك الرأي وحسن السياسة والحزم ولو دعوت الموحدين الى بيعتك لم يختلف عليك اثنان وكان الناس على كره من ابن جامع وولاة الاندلس يومئذ كلهم بنو المنصور فاصغى اليه عبد الله هذا وكان مترددا في بيعة عمه فبرز الى مجلس حكمه واستدعى من بمرسية وأعيانها من الموحدين والفقهاء والاشياخ فدعاهم الى بيعته فبايعوه وتسمى بالعادل وكان اخوته أبو العلاء الاصغر صاحب قرطبة وأبو الحسن صاحب غرناطة وأبو موسى صاحب مالقة فبايعوه سرا وكان أبو محمد بن أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن المعروف بالبياسي صاحب جيان وقد عزله المخلوع بعمه أبي الربيع بن أبي حفص فانتقض وبايع العادل وزحف مع أبي العلاء صاحب قرطبة وهو أخو العادل الى اشبيلية وبها عبد العزيز أخو المنصور والمخلوع فدخل في دعوتهم وامتنع السيد أبو زيد ابن أبي عبد الله أخو البياسي عن بيعة العادل وتمسك بطاعة المخلوع وخرج العادل من مرسية الى اشبيلية فدخلها مع أبي زيد بن يرجان وبلغ الخبر الى مراكش فاختلف الموحدون على المخلوع وبادروا بعزل ابن جامع وتغريبه الى هسكورة لكراهيتهم له وجرت خطوب أفضت الى خلع عبد الواحد وقتله ﴿وفي القرطاس﴾ ان عبد الله العادل كتب الى أشياخ الموحدين الذين بحضرة مراكش يدعوهم الى بيعته وخلع عبد الواحد ووعدهم على ذلك الاموال الجزيلة والمنازل الرفيعة والولايات الجليلة فسارعوا الى ذلك ودخلوا على عبد الواحد وتهددوه بالقتل الان يخلع نفسه ويبايع للعادل فاجابهم الى ذلك فخرجوا عنه ووكلوا بالقصر من يحفظه وكان ذلك يوم السبت الحادي والعشرين من شعبان سنة احدى

وعشرين وستمائة فلما كان يوم الاحد بعده دخلوا على عبد الواحد القصر وأحضروا القاضي والفقهاء والاشياخ فاشهد على نفسه بالخلع وبايع للعادل ثم دخلوا عليه بعد مضي ثلاث عشرة ليلة من خلعه فخنقوه حتى مات وانتهبوا قصره واستولوا على أمواله وحريمه فكان عبد الواحد هذا أوّل من خلع وقتل من بني عبد المؤمن وصار أشياخ الموحدين لخلفائهم كالاتراك لبني العباس فكان فعلهم ذلك سببا لذهاب ملكهم وانقراض دولتهم والله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وكانت وفاة عبد الواحد المخلوع خامس رمضان المعظم سنة احدى وعشرين وستمائة

﴿الخبر عن دولة أبي محمد عبد الله العادل ابن المنصور رحمه الله﴾

بويع له البيعة الاولى بمرسية من بلاد الاندلس منتصف صفر سنة احدى وعشرين وستمائة وتلقب بالعادل في أحكام الله ثم خلص له الامر وبايعه كافة الموحدين وخطب له بحضرة مراكش أواخر شعبان من السنة المذكورة وتوقف عن بيعته السيد أبو زيد بن أبي عبد الله أخو البياسي كما ذكرنا آنفا وكان والياعلى بلنسية وشاطبة ودانية ولما رأى السيد أبو محمد البياسي أخاه السيد أبا زيد توقف عن بيعة العادل وضبط بلاده ثار هو ببياسة وما انضاف اليها من قرطبة وجيان وقيجاطة وحصون الثغر الاوسط وتلقب بالظافر وانما دعي البياسي لقيامه من بياسة فوصلت بيعة الموحدين من مراكش الى العادل ومعها كتاب أبي زكريا يحيى بن الشهيد شيخ هنتاتة بقصة المخلوع وما كان من أمره فصادف وصولها هيجان هذه الفتنة فشغل العادل بها عن مراكش وبعث أخاه السيد أبا العلاء الاصغر وهو ادريس ابن المنصور في جيش كثيف الى البياسي فحاصره ببياسة ولما اشتد عليه الحصار أظهر الطاعة والانقياد وبايع للعادل حتى اذا أفرج عنه أبو العلاء عاد الى النكث وبعث الى الفنش يستنصره على العادل وضمن له ان ينزل له عن بياسة وقيجاطة فكان أوّل من سنّ اعطاء الحصون والبلاد للفرنج فوجه اليه الفنش بجيش من عشرين ألفا ولما توافت لديه جموع الفرنج نهض من قرطبة يريد اشبيلية حتى اذا دنا منها خرج اليه السيد أبو العلاء الاصغر وهو الذي دعي بعد بالمأمون فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم السيد أبو العلاء واستولى البياسي والفرنج على محلته بما فيها من أثاث وسلاح ودواب وغير ذلك ولما رأى العادل ما وقع باخيه وجنده خشي أن يتفاقم داء البياسي ويتسع باب فتنته الى مراكش فترك أخاه أبا العلاء قبالته وعبر البحر الى العدوة ولما احتل بقصر المجاز دخل عليه عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص المدعو بعبو فقال له العادل كيف حالك فانشده

حال متى علم ابن منصور بها * جاء الزمان اليّ منها تائبا

فاستحسن ذلك منه وولاه افريقية وهذا البيت لابي الطيب المتنبي وانما تمثل به عبو الموافقة اسم منصور فيه لاسم والد العادل فحسن التمثيل به وانتهى العادل في سيره الى سلا فاقام بها وبعث عن شيوخ جشم عرب تامسنا وكان لابن يرجّان عناية واختصاص بهلال بن حميدان أمير الخلط فتثاقل جرمون ابن عيسى أمير سفيان عن الوصول الى العادل ثم بادر العادل الى مراكش وقاسى في طريقه اليها من العرب شدائد ثم دخلها واستوزر أبا زيد بن عبد الواحد بن أبي حفص وتغير لابن يرجان ففسد باطنه وسعى في افساد الدولة وغلب أبو زكريا ابن الشهيد شيخ هنتاتة ويوسف بن علي شيخ تينملل على أمر العادل ثم خالفت عليه عرب الخلط وهسكورة وعاثوا في نواحي مراكش وخربوا بلادد كالة فخرج اليهم ابن يرجان فلم يغن شيأ فانفذ اليهم العادل عسكرا من الموحدين لنظر ابراهيم بن اسمعيل ابن الشيخ أبي حفص فانهزم وقتل واضطربت الاحوال على العادل وخرج ابن الشهيد ويوسف بن علي الى قبائلهما للحشد ومدافعة هسكورة والعرب فاتفقا أيضا على خلع العادل واضطربت الامور ولما انتهى الى أبي العلاء صاحب الاندلس خبر أخيه العادل بمراكش وما هو فيه من الاضطراب دعا لنفسه باشبيلية

فبويع بها وأجابه أكثر أهل الاندلس وتلقب بالمأمون وبايع له السيد أبو زيد صاحب بلنسية وهو أخو البياسي وكان ذلك في أوائل شوال سنة أربع وعشرين وستمائة ولما تمت بيعته كتب الى الموحدين الذين بمراكش يدعوهم الى بيعته ويعلمهم باجتماع أهل الاندلس والموحدين الذين بها عليه ووعدهم في ذلك ومناهم فكان منهم بعض توقف ثم أجمع رأيهم على مبايعته وخلع أخيه العادل فدخلوا عليه قصره وسألوه أن يخلع نفسه فامتنع فوثبوا عليه ودسوا رأسه في خصة ماء كانت هنالك وقالوا له لا نفارقك أو تشهد على نفسك بالخلع فقال اصنعوا ما بدا لكم والله لا أموت الا أمير المؤمنين فوضعوا عمامته في عنقه وخنقوه ورأسه في الخصة حتى فاظ وكان خيرا فاضلا رحمه الله وكانت وفاته في الحادي والعشرين من شوال سنة أربع وعشرين وستمائة وكتبوا ببيعتهم الى أبي العلاء المأمون وبعثوا بها اليه مع البريد ثم بدا لهم في بيعة المأمون بعد انفصال البريد عنهم فنكثوها وبايعوا يحيى بن الناصر بن المنصور واضطربت الاحوال بالمغرب والاندلس وطما عباب الفتن بهما وكان ما نذكره

﴿الخبر عن دولة المأمون بن المنصور ومزاحمة يحيى بن الناصر له﴾

كان المأمون وهو أبو العلاء ادريس بن يعقوب المنصور لما بلغه انتقاض الموحدين والعرب بالحضرة على أخيه وتلاشي أمره دعا لنفسه باشبيلية وبايعه أهل الاندلس والموحدون بالحضرة كما قلنا ثم لما انفصل البريد ببيعته من الحضرة ندم الموحدون على ذلك لما يعلمون من شهامته وصرامته وتخلقه بأخلاق الحجاج بن يوسف وتخوفوا ان يأخذهم بدم عمه عبد الواحد المخلوع ثم أخيه عبد الله العادل فاتفق رأيهم على مبايعة يحيى بن الناصر بن المنصور وهو شاب غر كابقل عذاره واغا وقع اختيارهم عليه ليكون أطوع لهم فان سنه يومئذ كانت ست عشرة سنة فبايعوه بجامع المنصور من قصبة مراكش بعد صلاة العصر من يوم الاربعاء الثامن والعشرين من شوال سنة أربع وعشرين وستمائة وامتنع عرب الخلط وقبائل هسكورة من بيعته وقالوا قد بايعنا المأمون فلا ننكث بيعته وتأخر قدوم المأمون الى مراكش وبقي بالاندلس لاسباب يأتي شرحها وأقام يحيى بمراكش واستتب أمره بها بعض الشيء وجهز جيشا من الموحدين والجند الى قتال الخلط وهسكورة وهم يومئذ في طاعة المأمون فانهزم جيش يحيى وقتل منه خلق كثير وعاد مفلولا الى مراكش ثم اطلع يحيى على مداخلة أبي زيد بن يرجان للعرب وهسكورة في الغارة على مراكش وأطلع على ذلك أيضا أبو زكريا يحيى بن الشهيد فقتل أبا زيد بن يرجان وابنه عبد الله ونصب رؤسهما على باب الكحل وطوف أجسادهما باسواق المدينة ثم اضطربت الاحوال على يحيى وانتقضت البلاد وغلت الاسعار وعم الخراب والفساد بلاد المغرب واستحوذ بنو مرين على ضواحيه وضايقوا الموحدين في كثير من أمصاره واقتضوا جبايته ونبغت الثوار في الاقطار على ما نذكره

﴿ثورة محمد بن أبي الطواجين الكتامي بجبال غمارة﴾

ولما كانت سنة خمس وعشرين وستمائة ثار بجبال غمارة محمد بن أبي الطواجين الكتامي المتنبي وكان أبوه من قصر كتامة منقبضا عن الناس وكان ينتحل صناعة الكيمياء فكان يلقب بابي الطواجين لكثرة الظروف التي كان يستعملها في ذلك بزعمه وتلقن ذلك عنه ابنه محمد هذا ثم ارتحل الى سبتة ونزل على بني سعيد باحوازها وادعى صناعة الكيمياء فتبعه الغوغاء ثم ادعى النبوة وشرع الشرائع وأظهر أنواعا من الشعبذة فكثر تابعوه ثم اطلعوا على خبثه فنبذوا اليه عهده وزحفت اليه عساكر سبتة ففر عنهم ثم قتله بعض البرابرة غيلة بوادي لاو بين بلاد بني سعيد وبلاد بني زيات وابن أبي الطواجين هذا هو الذي تسبب في قتل الشيخ أبي محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه على ما نذكره بعد ان شاء الله

﴿أخبار الثوار بالاندلس وما آل اليه أمر الموحدين بها﴾

لما ضعف أمر الموحدين بالمغرب وكثرت الفتن في أقطاره ونواحيه وانتزى السادة منهم بنواحي الاندلس كل في عمله واستظهر كل واحد منهم على أمره بالطاغية وتزلوا له عن كثير من الحصون فسدت من أجل ذلك ضمائر أهل الاندلس عليهم وتصدى للثورة على الموحدين محمد بن يوسف بن هود من أعقاب بني هود الجذاميين ملوك الطوائف بسرقسطة وكان يؤمل لها ويرتقبها امتحنه الموحدون لذلك مرات فخرج في نفر من الاجناد سنة خمس وعشرين وستمائة وجهز اليه والى مرسية يومئذ السيد أبو العباس بن أبي عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن عسكرا فهزمهم وزحف الى مرسية فدخلها واعتقل السيد بها وخطب للخليفة المستنصر العباسي صاحب بغداد وفي ذلك يقول ابن الخطيب في رقم الحلل عند ذكره لبني هود هؤلاء

وكان من أعقابه الامير * محمد بن يوسف الاخير
وكان باسلا شديد الباس * وبايع المستنصر العباسي

ثم زحف اليه السيد أبو زيد بن محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن وهو أخو البياسي المتقدم ذكره من شاطبة وكان واليا بها كما مر فهزمه ابن هود ورجع الى شاطبة واستجاش بالمأمون وهو يومئذ باشبيلية فخرج في العساكر ولقيه ابن هود فانهزم واتبعه المأمون الى مرسية فحاصره مدة وامتنعت عليه فاقلع عنه ورجع الى اشبيلية ثم انتقض على السيد أبي زيد ببلنسية زيان بن أبي الحملات مدافع بن أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش وخرج عنه الى أبدة وذلك سنة ست وعشرين وستمائة وكان بنو مردنيش هؤلاء أهل عصابة وأولي بأس وقوة فتوقع أبو زيد اختلال أمره وبعث اليه ولاطفه في الرجوع فأبى فخرج أبو زيد من بلنسية ولحق بطاغية برشلونة ودخل في دين النصرانية والعياذ بالله وبايع أهل شاطبة لابن هود ثم تتابعت بلاد الاندلس على بيعته ودخل في طاعته أهل قرطبة واشبيلية بعد رحيل المأمون عنهم الى مراكش ولم يبق للموحدين بالاندلس سلطان ثم في سنة تسع وعشرين وستمائة ثار محمد ابن يوسف بن نصر المعروف بابن الاحمر بحصن ارجونة من أعمال قرطبة ودعا لابي زكريا الحفصي صاحب افريقية ثم دخل في طاعته أهل قرطبة وتنازع ابن الاحمر وابن هود رئاسة الاندلس وتجاذبا حبل الملك بها وكانت خطوب استولى الطاغية فيها على كثير من حصون الاندلس ثم استقر قدم ابن الاحمر في الملك وأورثه بنيه من بعده والله غالب على أمره

﴿قدوم أبي العلاء المأمون بن المنصور من الاندلس الى مراكش وما اتفق له في ذلك﴾

قد تقدم لنا ان الموحدين بمراكش خنقوا العادل وبايعوا أخاه المأمون وبعد انفصال البريد بالبيعة ندموا وبايعوا ابن أخيه يحيى بن الناصر فوصلت بيعة الموحدين الى المأمون وهو يومئذ باشبيلية فسربها وأمر باقرائها على منابر الاندلس ثم أخذ في التجهيز والحركة الى مراكش دار ملكهم فسار حتى اذا وصل الى الجزيرة الخضراء اتصل به الخبر ان الموحدين قد نكثوا بيعته وبايعوا ابن أخيه يحيى فوجم لذلك وأطرق مليا ثم أنشد متمثلا بقول حسان رضي الله عنه

لتسمعن وشيكا في ديارهم * الله أكبر يا ثارات عثمانا

ثم كتب من حينه الى ملك قشتالة يستنصره على الموحدين ويسأله أن يبعث له جيشا من الفرنج يجوز بهم الى العدوة لقتال يحيى ومن معه من الموحدين فشرط عليه صاحب قشتالة أن يعطيه عشرة حصون مما يلي بلاده يختارها هو وأن يبني بمراكش اذا دخلها الجيش النصارى الذين معه كنيسة يظهرون بها دينهم ويضربون فيها نواقيسهم لصلواتهم وان من أسلم منهم لا يقبل منه اسلامه ويرد الى اخوانه فيحكمون فيه باحكامهم الى غير ذلك فأسعفه المأمون في جميع ما طلب منه وكان يحيى بن الناصر صاحب مراكش لما رأى اختلال أحواله بها كما قلناه ومبايعة أكثر أهل المغرب لعمه المأمون خرج فارا بنفسه الى تينمل وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين وستمائة ولما فر يحيى عن الحضرة قدم أشياخ

الموحدين الذين بها والباي ضبطها للمأمون ريثما يقدم عليهم وجدّدوا له البيعة وكتبوا اليه يخبرونه بفرار يحيى الى الجبل ويرغبون اليه فى القدوم عليهم وكتب اليه أيضا هلال بن حميدان أمير الخلط واستمر يحيى معتصما بالجبل أربعة أشهر ثم بدا له فعاد الى مراكش وقتل عامل المأمون الذى قدمه الموحدون بها واستمر بها نحو سبعة أيام ثم خرج الى جبل جليز وعسكر به وأقام منتظرا لقدوم المأمون ودفاعه عن مراكش ثم بعث صاحب قشتالة الى المأمون جيشا من اثنى عشر ألف فارس برسم الخدمة معه والمقاتلة دونه على الشروط المتقدمة وكان وصولهم اليه فى رمضان سنة ست وعشرين وستمائة ثم عبر بهم من الجزيرة الخضراء الى سبتة فى ذى القعدة من السنة المذكورة وهو أول من أدخل عسكر الفرنج أرض المغرب واستخدمهم بها فأراح بسبتة أياما ثم نهض الى مراكش حتى اذا دنا منها لقيه يحيى بجيوش الموحدين وذلك عشى يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الاول من السنة الداخلة فانهزم يحيى وفر الى الجبل وقتل كثير من جيشه ودخل المأمون حضرة مراكش وبايعه الموحدون وصعد المنبر بجامع المنصور وكان علامة أديبا بليغا فخطب الناس ولعن المهدى على المنبر وقال لاتدعوه بالمهدى المعصوم وادعوه بالغوى المذموم ألا لامهدى الا عيسى وانا قد نبذنا أمره النحس ولما انتهى الى آخر خطبته قال معشر الموحدين لاتظنوا انى أنا ادريس الذى تندرس دولتكم على يده كلا انه سيأتى بعدى ان شاء الله ثم نزل وأمر بالكتب الى جميع البلاد بمحو اسم المهدى من السكة والخطبة وتغيير سننه التى ابتدعها للموحدين وجرى عليها أسلافهم ونعى عليه النداء للصلاة باللغة البربرية وزيادته فى أذان الصبح أصبح ولله الحمد وغير ذلك من السنن التى اختص بها المهدى وأمر بتدوير الدراهم التى ضربها المهدى مربعة وقال كل مافعله المهدى وتابعه عليه أسلافنا فهو بدعة ولاسبيل الى ابقائه وأبدأ فى ذلك وأعاد ثم دخل قصره فاحتجب عن الناس ثلاثا ثم خرج فى اليوم الرابع فأمر بأشياخ الموحدين وأعيانهم فحضروا بين يديه فقال لهم يامعشر الموحدين انكم قد أظهرتم علينا العناد وأكثرتم فى الارض الفساد ونقضتم العهود وبذلتم فى حربنا المجهود وقتلتم الاخوان والاعمام ولم ترقبوا فيهم الا ولاذمام ثم أخرج كتاب بيعتهم الذى بعثوا به اليه واحتج عليهم بنكثهم الذى نكثوا بعده فقامت الحجة عليهم فبهتوا وسقط فى أيديهم والتفت الى قاضيه المكيدى وكان بازائه قد قدم معه من اشبيلية فقال له ماترى أيها القاضى فى أمر هؤلاء الناكثين فقال ياأمير المؤمنين ان الله تعالى يقول ومن نكث فانما ينكث على نفسه الآية فقال المأمون صدق الله العظيم فانا نحكم فيهم بحكم الله ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ثم أمر بجميع أشياخ الموحدين وأشرافهم فسحبوا الى مصارعهم وقتلوا من عند آخرهم ولم يبق على كبيرهم ولا صغيرهم حتى انه أتى بابن أخت له صغير يقال ان سنه كان ثلاث عشرة سنة وكان قد حفظ القرآن فلما قدم للقتل قال له ياأمير المؤمنين اعف عنى لثلاث قال ماهن قال صغر سنى وقرب رحمى وحفظى لكتاب الله العزيز فيقال ان المأمون نظر الى القاضى كالمستشير له وقال له كيف ترى قوة جاش هذا الغلام واقدامه على الكلام فى هذا المقام فقال القاضى ياأمير المؤمنين انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا فأمر به فقتل رحمه الله ثم أمر بالرؤس فعلقت بدائر سور المدينة (ذكر ابن أبى زرع) انها كانت تنيف على أربعة آلاف رأس وكان الزمان زمان قيظ فنتنت بها المدينة وتأذى الناس بريحها فرفع اليه ذلك فقال ان ههنا مجانين وان تلك الرؤس حروزهم لايصلح حالهم الا بها وانها العطرة عند المحبين ونتنة عند المبغضين ثم أنشد

أهل الحرابة والفساد من الورى * يعزون فى التشبيه للذكار
ففساده فيه الصلاح لغيره * بالقطع والتعليق فى الاشجار
فرؤسهم ذكرى اذا ما أبصرت * فوق الجذوع وفى ذرى الاسوار

وكذا القصاص حياة أرباب النهى * والعدل مالوف بكل جوار
لو عم حلم الله سائر خلقه * ما كان أكثرهم من اهل النار

وهذه الفتكة التي ارتكبها المأمون من الموحدين أنست فتكة الحارث بن ظالم والبراض الكناني والجحاف بن حكيم وهي التي استأصلت جمهورهم وأماتت نخوتهم وأذن المأمون للنصارى القادمين معه في بناء الكنيسة وسط مراكش على شرطهم المتقدم فضربوا بها نواقيسهم وكانت الكنيسة في الموضع المعروف بالسجينة وقبض على قاضي الجماعة بمراكش وهو أبو محمد عبد الحق بن عبد الحق فقيده ودفعه الى هلال بن حميدان الخلطي فحبسه حتى افتدى منه بستة آلاف دينار وأقام المأمون بمراكش خمسة أشهر ثم نهض الى الجبل لقتال يحيى بن الناصر ومن معه من الموحدين وذلك في رمضان سنة سبع وعشرين وستمائة فالتقى معه على الموضع المعروف بالكاغة فانهزم يحيى وقتل من عسكره ومن أهل الجبل خلق كثير سيق من رؤسهم الى مراكش أربعة آلاف رأس *وفي هذه السنة* استبد الامير أبو زكريا ابن الشيخ أبي محمد بن أبي حفص الهنتاتي بافريقية وخلع طاعة الموحدين *وفي سنة ثمان وعشرين بعدها* نفذت كتب المأمون الى سائر البلاد بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر وفيها خرجت بلاد الاندلس كلها من ملك الموحدين ونفاهم عنها ابن هود الثائر بها وقتلتهم العامة في كل وجه *وفي سنة تسع وعشرين بعدها* خرج على المأمون أخوه السيد أبو موسى عمران بن المنصور بمدينة سبتة وتسمى بالمؤيد فاتصل الخبر بالمأمون فخرج اليه وبلغه في طريقه ان قبائل بني فازاز ومكلاتة قد حاصروا مكناسة وعاثوا في نواحيها فسار اليهم وحسم مادة فسادهم وعاد الى سبتة فحاصر بها أخاه السيد أبا موسى مدة فلم يقدر منه على شيء وكانت سبتة من أحصن مدن المغرب ولما طالت غيبة المأمون عن الحضرة اغتنم يحيى بن الناصر الفرصة فنزل من الجبل واقتحمها مع عرب سفيان وشيخهم جرمون بن عيسى ومعهم أبو سعيد بن وانودين شيخ هنتاتة وعاثوا فيها وهدموا كنيسة النصارى التي بنيت بها وقتلوا كثيرا من يهودها وسبوا أموالهم ودخل يحيى القصر فحمل منه جميع ما وجده به الى الجبل واتصل الخبر بالمأمون وهو على حصار سبتة فارتحل عنها مسرعا الى مراكش وذلك في ذي الحجة من السنة المذكورة ولما أبعد عن سبتة عبر أبو موسى صاحبها الى الاندلس فبايع ابن هود وأعطاه سبتة فعوضه ابن هود عنها بالمرية فكان السيد أبو موسى بها الى ان مات وانتهى الخبر الى المأمون وهو في طريقه بان ابن هود قد ملك سبتة فتوالت عليه الفجائع فمرض أسفا ومات بوادي العبيد وهو قافل من حصار سبتة وكانت وفاته في آخر يوم من سنة تسع وعشرين وستمائة وكانت أيامه أيام شقاء وعناء ومنازعة افترقت دولة الموحدين فيها فرقتين فرقة معه وفرقة مع يحيى بن الناصر وكان محق دولة الموحدين واستئصال أركانها وذهاب نخوتها على يده قالوا ولولا ان الامور قد استحالت الى ما ذكر لكان المأمون موافقا لابيه المنصور في كثير من الخلال ومتبعا سننه في جل الاحوال وكان المأمون فصيح اللسان فقيها حافظا للحديث ضابطا للرواية عارفا بالقراآت حسن الصوت والتلاوة مقدما في علم اللغة والعربية والادب وأيام الناس كاتبا بليغا حسن التوقيع لم يزل سائر أيام خلافته يسرد كتب الحديث مثل البخاري والموطأ وسنن أبي داود وكان مع ذلك شهما حازما مقداما على عظائم الامور ولي الخلافة والبلاد تضطرم نارا والممالك قد توزعتها الثوار فكان المأمون اذا فكر في حال الثوار وما آل اليه حال الدولة معهم وما دهاه من كثرتهم ينشد متمثلا

تكاثرت الظباء على خداش * فما يدري خداش ما يصيد

يشير الى حاله معهم وانه لم يدر ما يتلافى من ذلك والله تعالى أعلم

الخبر عن دولة أبي محمد عبد الواحد الرشيد بن المأمون بن المنصور رحمه الله

لما هلك المأمون بويع ابنه عبد الواحد ولقب بالرشيد ﴿قال ابن أبي زرع﴾ بويع له بالخلافة بوادي العبيد ثاني يوم من وفاة أبيه وهو يوم الاحد فاتح محرم سنة ثلاثين وستمائة وسنه يومئذ أربع عشرة سنة وكان الذين أخذوا له البيعة كانون بن جرمون السفياني وشعيب بن اوقاريط الهسكوري وفرنسيل قائد جيش الفرنج فانه لما مات المأمون كتمت جاريته موته واسمها حباب وكانت فرنجية الاصل ومن دهاة النساء وعقلائهن وهي أم الرشيد فاستدعت هؤلاء النفر الثلاثة وكانوا اعمدة جيش المأمون يركب كل واحد منهم في أزيد من عشرة آلاف من قومه وأعوانه ولان أهل الحل والعقد من الموحدين قد أتت عليهم فتكة المأمون كما مر فجاؤا اليها فاعلمتهم بموت الخليفة ورغبت اليهم في بيعة ابنها الرشيد والقيام معه وبذلت لهم على ذلك أموالا جمة ووعدتهم مع ذلك انهم اذا فتحوا الحضرة وكان يحيى قد استولى عليها كما قلنا تجعلها لهم فيئا فبايعوه وأخذوا البيعة له على من سواهم فبايع الناس طوعا وكرها خوفا من سيوفهم ولما تم أمره جعل أباه في تابوت وقدمه أمامه وسار الى مراكش وسمع يحيى وأهل مراكش بما شرطته حباب للقواد الثلاثة من جعل مدينتهم فيئا فخرجوا لقتال الرشيد بأجمعهم واستخلف يحيى على مراكش أباسعيد بن وانودين والتقى الجمعان فاقتتلوا فانهزم يحيى وقتل أكثر من معه وصبح الرشيد مراكش فتحصن منه أهلها فأمنهم وصالح قائد الفرنج وأصحابه على فيئها بخمسة آلاف دينار ودخل الرشيد مراكش واستقر بها وكان قد وصل في صحبته عمه السيد أبو محمد سعد بن المنصور فحل من تلك الدولة بمكان وكان اليه التدبير والحل والعقد وبعد استقرار الرشيد بمراكش قدم عليه عمر ابن اوقاريط الهسكوري بصحبة أولاد المأمون الذين كانوا باشبيلية ونفاهم ابن هود عنها وكان ابن اوقاريط هذا منحرفا عن المأمون أيام حياته فتذمم بصحبة هؤلاء الاولاد وقدم على الرشيد فتقبله واتصل بالسيد أبي محمد وحسنت منزلته لديه ثم لما هلك السيد أبو محمد لحق ابن اوقاريط بقومه ومعتصمه وكشف وجه الخلاف وأخذ بدعوة يحيى بن الناصر واستنفر له قبائل الموحدين ونهض اليهم الرشيد سنة احدى وثلاثين وستمائة واستخلف على الحضرة صهره أبا العلاء ادريس وصمد اليهم الجبل فأوقع بيحيى وجموعه بمكانهم من هزرجة واستولى على معسكرهم ولحق يحيى ببلاد سجلماسة وانكفأ الرشيد راجعا الى حضرته واستأمن له كثير من الموحدين الذين كانوا مع يحيى فأمنهم ولحقوا بحضرته وكان كبيرهم أبو عثمان سعيد بن زكريا القدميوي وجاء الباقون على أثره بعد ان شرطوا عليه اعادة ما كان أزاله المأمون من رسوم المهدي وسننه فأعيدت واطمأنوا الى اعادة رسوم الدعوة المهدية واستقامت الاحوال في هذه الايام الى ان كان ما نذكره

﴿فتنة الخلط مع الرشيد واستيلاؤهم على حضرة مراكش﴾

كان مسعود بن حميد ان كبير الخلط قد أغراه عمر بن أوقاريط بالخلاف لصحبة بينهما وكان مدلا ببأسه وكثرة جموعه يقال ان الخلط كانوا يومئذ يناهزون اثني عشر الف فارس سوى الرجل والاتباع والحشود فرض مسعود في الطاعة وتثاقل عن الوفادة الى الحضرة ولما علم بعقد الموحدين واجتماع كلمتهم على الرشيد غاظه ذلك وأخذ في السعي للفرقة والشتات بينهم فاعمل الرشيد الحيلة في استدعائه وصرف عساكره الى بعض الجهات حتى خلا لمسعود الجو وذهب عنه الريب واستقدمه الرشيد فأسرع اللحاق بالحضرة وقدم معه معاوية عم عمر بن اوقاريط فقبض على معاوية وقتل لحينه واستدعى الرشيد ابن حميدان الى المجالس الخلافية للحديث فتقبض عليه وعلى خمسة وعشرين من أصحابه من كبار الخلط وقتلوا ساعتئذ بعد جولة وهيعة وقضى الرشيد حاجة في نفسه منهم ولما بلغ خبر مقتلهم الى قومهم قدموا عليهم يحيى ابن هلال بن حميدان وأجلبوا على سائر النواحي وأعلنوا بدعوة يحيى بن الناصر واستقدموه من مكانه بقاصية الصحراء وداخلهم في ذلك عمر بن اوقاريط وزحفوا الحصار مراكش وخرجت العساكر لقتالهم

ومعهم عبد الصمد بن يلولان فدفع ابن أوقاريط بجموعه في تلك العساكر فانهزموا وأحيط بجند النصارى فقتلوا وتفاقم الامر بالحضرة وعدمت الاقوات واعتزم الرشيد على الخروج الى جبال الموحدين فخرج اليها وسار منها الى سجلماسة فملكها واشتد الحصار على مراكش واقتحمها يحيى بن الناصر وأنصاره من الخلط وهسكورة فنهبوها وساء أثرهم فيها واضطربت أحوال الخلافة بها وتغلب على السلطان السيد أبو ابراهيم بن أبي حفص الملقب بابي حافة وهذه الفتن كانت سنة اثنتين وثلاثين وستمائة

﴿هجوم نصارى جنوة على مدينة سبتة وحصارهم اياها﴾

﴿وفي هذه السنة﴾ أعني سنة اثنتين وثلاثين وستمائة نازل الفرنج الجنويون سبتة باجفان لاتحصى ونصبوا عليها المنجنيقات والآلات المعدة للحصار واستمروا على ذلك الى ان دخلت سنة ثلاث وثلاثين بعدها فلم يقدروا منها على شئ ولما اشتد الحصار على أهل سبتة صالحوا الفرنج في الافراج عنهم بأربعمائة ألف دينار فقبلوا وأقلعوا عنهم بعد الحصار الشديد والتضييق العظيم

﴿عود الرشيد الى مراكش وفرار يحيى عنها الى بني معقل ومقتله بهم﴾

﴿وفي هذه السنة﴾ أعني سنة ثلاث وثلاثين وستمائة خرج الرشيد من سجلماسة بقصد مراكش وخاطب جرمون بن عيسى وقومه من سفيان فاجابوه وعبروا وادي أم الربيع وبرز اليه يحيى في جموعه والتقى الفريقان فانهزمت جموع يحيى واستحر القتل فيهم ودخل الرشيد الى الحضرة ظافرا وأشار ابن أوقاريط على الخلط بالاستصراخ بابن هود صاحب الاندلس والاخذ بدعوته فنكثوا بيعة يحيى وبعثوا وفدهم الى ابن هود صحبة ابن أوقاريط فاستقر هنالك ولم يرجع اليهم فولا فعلم الخلط انها حيلة من ابن أوقاريط وانه تخلص من الورطة وخرج الرشيد من مراكش وفر الخلط أمامه وسار الى فاس فأقام بها أياما وفرق في فقهائها وصلحائها أموالا وبراعا مغلة وسرح وزيره السيد أبا محمد الى غمارة وفازاز لجباية أموالهما وكان يحيى بن الناصر لما نكث الخلط بيعته لحق بعرب معقل فأجاروه ووعدوه النصرة واشتطوا عليه في المطالب فاسف بعضهم بالمنع فاغتاله في جهة تازا وسيق رأسه الى الرشيد بفاس فبعثه الى مراكش وأوعز الى نائبه بها أبي علي بن عبد العزيز بقتل العرب الذين كانوا في اعتقاله وهم حسن بن زيد شيخ العاصم وقائد وفائد ابنا عامر شيخا بني جابر فقتلهم وانكفأ الرشيد راجعا الى حضرته سنة أربع وثلاثين وستمائة وكان ابن أوقاريط لما فصل الى ابن هود صاحب الاندلس أقام عنده الى هذه السنة فركب البحر في اسطول من أساطيل ابن هود وقصد مدينة سلا وبها يومئذ السيد أبو العلاء صهر الرشيد فنازلها وكاد يغلب عليها ثم رجع عنها بلا طائل ﴿وفي سنة خمس وثلاثين بعدها﴾ بايع أهل اشبيلية للرشيد ونقضوا طاعة ابن هود وتولى كبر ذلك أبو عمرو بن الجد ووصل وفدهم الى الحضرة وهم وافي طريقهم بسبتة فاقتدى أهلها بهم في بيعة الرشيد وقدموا على الحضرة وولى عليهم الرشيد أبا علي بن خلاص منهم وانصرف وفد اشبيلية وسبتة راضين واستقدم الرشيد رؤساء الخلط وكانوا راجعوا طاعته بعد مقتل يحيى فقدموا عليه وتقبض عليهم وبعث عساكره فاستباحوا حللهم واحياءهم ثم أمر بقتل مشيختهم وقتل معهم ابن أوقاريط وكان أهل اشبيلية قد بعثوا به اليه فقطع دابرهم ﴿وفي سنة ست وثلاثين وستمائة﴾ وصلت بيعة محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الاحمر الثائر بالاندلس على ابن هود وكان قد بايع أولا أبا زكريا الحفصي صاحب افريقية ثم بدا له فرد البيعة الى الرشيد ﴿وفي هذه السنة﴾ كان استيلاء العدو دمره الله على مدينة قرطبة قاعدة بلاد الاندلس ودار مملكتها وذلك يوم الاحد الثالث والعشرين من شوال من السنة المذكورة ﴿وفي سنة سبع وثلاثين بعدها﴾ انتشر بنو مرين ببلاد المغرب واشتدت شوكتهم به وزحف اليهم الرشيد فهزموه ثم زحف ثانية وثالثة فهزموه وأقام في محاربتهم

استيلاء العدو على قرطبة

سنتين ورجع عنهم الى الحضرة فاشتد عدوانهم بالمغرب وألحوا على مكناسة حتى أعطوا الاتاوة لبني حمامة منهم واتصل غلبهم في نواحيها ﴿وفي سنة تسع وثلاثين وستمائة﴾ قتل الرشيد كاتبه ابن المومياني لمداخلة له مع بعض السادة وهو عمر بن عبد العزيز بن يوسف ووقف الرشيد على كتبه بخطه غلط الرسول بها فدفعها بدار الخلافة فوقعت الى الرشيد فقتله

﴿وفاة الرشيد رحمه الله﴾

مات الرشيد رحمه الله غريقا في بعض صهاريج بستانه بحضرة مراكش وذلك يوم الخميس تاسع جمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة ويقال انه أخرج من الماء حيا فحم لوقته ومات وذكر أبو عبد الله اكنسوس ان غرق الرشيد كان في البركة الكبرى التي بدار الهناء من أجدال اليوم قال وكان يقال لها البحر الاصغر لان ملوك بني عبد المؤمن الذين أنشأوها كانوا يرسلون فيها الزوارق والفلك الصغار بقصد النزهة والفرجة والله تعالى أعلم

﴿الخبر عن دولة أبي الحسن السعيد علي بن المأمون بن المنصور رحمه الله﴾

لما هلك الرشيد بويع أخوه لابيه أبو الحسن علي المدعو السعيد بتعيين أبي محمد بن وانودين وتلقب بالمعتضد بالله واستوزر السيد أبا اسحق ابن السيد أبي ابراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن ويحيى بن عطوش وتقبض على جملة من مشيخة الموحدين واستصفى أموالهم واصطنع لنفسه رؤساء العرب من جشم واستظهر بجموعهم على أمره وكان شيخ سفيان كانون بن جرمون كبير مجلسه وكان ضرر بني مرين قد تفاقم بالمغرب وداؤهم قد أعضل فخرج السعيد سنة اثنتين وأربعين وستمائة لتمهيد بلاد المغرب فانتهى الى سجلماسة وكان صاحبها عبد الله بن زكريا الهزرجي قد انتقض عليه فقتله واستولى عليها ثم رجع حتى نزل المقرمدة من أرض فاس وعقد المهادنة مع بني مرين وقفل الى مراكش فكانت هدنة على دخن فلم يلبث الا يسيرا حتى عاود النهوض اليهم سنة ثلاث وأربعين بعدها واستخلف السيد أبا زيد ابن السيد أبي ابراهيم أخا الوزير المذكور آنفا على مراكش واستعمل أخاهما السيد أبا حفص وهو المرتضى على سلا وسار نحو بني مرين فجمع له أميرهم أبو بكر بن عبد الحق جموع زناتة وصمد نحوه حتى اذا تراآ الجمعان وتهيأ القوم للقاء خالف كانون بن جرمون الى آزمور فاستولى عليها وغلب الموحدين عليها فرجع السعيد أدراجه في اتباعه ففر كانون عنها فاعترضه السعيد فاوقع به واستلحم كثيرا من قومه سفيان واستولى على ما كان لهم من مال وماشية ولحق كانون ببني مرين ورجع السعيد الى الحضرة ثم تقدم الامير أبو بكر بن عبد الحق المريني الى مكناسة فضايقها وخطب طاعة أهلها فثارت العامة بمكناسة على واليها من قبل السعيد فقتلوه وحذر شيوخها وكبراؤها من سطوته فحولوا الدعوة الى الامير أبي زكريا الحفصي صاحب افريقية وكان قد استبد على بني عبد المؤمن ورام التغلب حتى على كرسيهم بمراكش فبايعه أهل مكناسة بمواطأة الامير أبي بكر بن عبد الحق فانه كان يدعو اليه في أول أمره وكذا أخوه السلطان يعقوب بن عبد الحق من بعده ثم استقل بنفسه واستبد بامره عندما تم له ملك المغرب حسبما نقصه بعد ان شاء الله وفي هذه السنة بعث أهل اشبيلية وأهل سبتة بطاعتهم للامير أبي زكريا الحفصي أيضا وبعث أبو علي بن خلاص صاحب سبتة اليه بهدية مع ابنه في اسطول أنشأه لذلك فغرق عند اقلاعه من المرسى وقبل هذه المدة بيسير كان الامير أبو زكريا الحفصي قد تغلب على تلمسان وبايعه صاحبها يغمراسن بن زيان العبد الوادي وهو جد ملوك بني زيان أصحاب تلمسان والمغرب الاوسط فعظم قدر أبي زكريا بسبب هذه البيعات التي انثالت عليه من سائر الجهات وحدثته نفسه بالتوثب على كرسي الخلافة بمراكش وغص بنو عبد المؤمن بمكانه وعظم عليهم استبداده ثم طمعه في كرسيهم وقراره عزهم

مع انه ما كان الاجدولا من بحرهم وفرعا من دوحتهم والامر كله لله

﴿نهوض السعيد من مراكش الى غزو الثوار بالمغربين ومحاصرته يغمراسن﴾
﴿ابن زيان وما آل اليه الامر من مقتله رحمه الله﴾

لما بلغ السعيد وهو بمراكش استبداد الامير أبي زكريا بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي بافريقية ومبايعة أمراء الجهات له أعمل نظره في الحركة الى هؤلاء الثوار والنهوض لتدويخ هذه الاقطار وكان السعيد شهما حازما يقظا بعيد الهمة فنظر في اعطاف دولته وفاوض الملأ من الموحدين في تثقيف أطرافها وتقويم أودها وحرك هممهم وأثار حفائظهم وأراهم كيف اقتطع عنهم الامر شيأ فشيأ فابن أبي حفص اقتطع افريقية ويغمراسن بن زيان اقتطع المغرب الاوسط ثم أقام فيه الدعوة الحفصية وابن هود اقتطع الاندلس وأقام فيها دعوة بني العباس وابن الاحمر بالجانب الآخر منها مقيم للدعوة الحفصية أيضا وهؤلاء بنو مرين قد تغلبوا على ضواحي المغرب ثم سموا الى تملك أمصاره وان سكتنا على هذا فيوشك أن يختل الامر وتنقرض الدولة فتذامروا وتداعوا الى النهوض اليهم فحشد السعيد الجنود وجهز العساكر وأزاح عللهم واستنفر عرب المغرب وما يليه واحتشد كافة المصامدة ونهض من مراكش آخر سنة خمس وأربعين وستمائة يريد مكناسة وبني مرين أوّلا ثم تلمسان ويغمراسن ثانيا ثم افريقية وابن أبي حفص ثالثا ولما نزل بوادي بهت أخذ في عرض عساكره وتمييزها فخرج الامير أبو بكر بن عبد الحق من مكناسة ليلا وحده يتجسس الاخبار فاشرف على جموع السعيد فرأى ما لا قبل له به فعاد الى قومه وأفرج للسعيد عن البلاد وتلاحقت به بنو مرين من أماكنها التي كان الامير أبو بكر أنزلهم بها واجتمعوا عليه بحصن تازوطا من بلاد الريف وتقدم السعيد الى مكناسة فخرج اليه أهلها يطلبون منه العفو وقدموا بين أيديهم الشيخ الصالح أبا علي منصور بن حرزوز وتلقوه بالصبيان من المكاتب على رؤسهم الالواح وبين أيديهم المصاحف وخرج النساء حاسرات يطلبن العفو فعفا عنهم ثم ارتحل الى تازا في اتباع بني مرين وانتقل أبو بكر بن عبد الحق الى بني يزناسن ثم راجع نظره في مسالمة الموحدين والدخول في أمرهم فبعث بيعته الى السعيد وهو يومئذ بتازا مع جماعة من وجوه بني مرين فقبلها السعيد وعفا لهم عما سلف فسأله وفدهم ان يستكفي بالامير أبي بكر في أمر تلمسان وصاحبها يغمراسن بن زيان وقد كتب اليه الامير أبو بكر أيضا بذلك يقول يا أمير المؤمنين ارجع الى حضرتك وقوّني بالجيش وأنا أكفيك أمر يغمراسن وأفتح لك تلمسان فاستشار السعيد وزراءه فقالوا لا تفعل فان الزناتي أخو الزناتي لا يخذله ولا يسلمه فكتب اليه السعيد بان يبعث اليه جماعة من قومه يعسكرون معه فامده الامير أبو بكر بخمسمائة من قبائل بني مرين وعقد عليهم لابن عمه أبي عياد ابن أبي يحيى بن حمامة وخرجوا تحت رايات السعيد ونهض من تازا يريد تلمسان ﴿وعند ابن أبي زرع﴾ ان السعيد لما فرغ من أمر مكناسة عسكر بظاهر فاس وهنالك أتته بيعة بني مرين قال ثم ارتحل السعيد عن فاس في الرابع عشر من محرم سنة ست وأربعين وستمائة وخسف القمر تلك الليلة خسوفا كليا وأصبح السعيد غاديا يريد تلمسان فلما ركب فرسه انكسر لواؤه المنصوري فتطير ونزل ولم يرتحل الا في اليوم السادس عشر من الشهر المذكور ولما سمع يغمراسن باقبال السعيد اليه خرج من تلمسان في عشيرته وقومه من سائر بني عبد الواد وتحملوا باهاليهم وأولادهم الى قلعة تامزردكت قبلة وجدة فاعتصموا بها ووفد على السعيد الفقيه عبدون وزير يغمراسن مؤديا للطاعة وساعيا في مذاهب الخدمة ومتوليا من حاجات الخليفة بتلمسان ما يدعوه اليه ويصرفه في سبيله ومعتذرا عن تخلف يغمراسن عن الوصول الى حضرة السعيد فلج السعيد في شأنه ولم يعذره وأبى الا مباشرة طاعته بنفسه وساعده في ذلك كانون بن جرمون السفياني صاحب الشورى بمجلسه ومن حضر من الملا وردوا الفقيه عبدون الى يغمراسن ليستقدمه

فتثاقل يغمراسن عن القدوم خشية على نفسه واعتمد السعيد الجبل فى عساكره حتى أناخ بها فى ساحة القلعة وأخذ بمخنقهم ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع ركب مهجرا فى وقت القيلولة على حين غفلة من الناس ليطوف بالقلعة و يتقرى مكامنها فبصر به فارس من بنى عبد الواد يعرف بيوسف الشيطان كان أسفل الجبل بقصد الحراسة واتفق ان يغمراسن بن زيان وابن عمه يعقوب بن جابر كانا قريبين منه فعرفوا السعيد فانقضوا عليه من بعض الشعاب أمثال العقبان وطعنه يوسف الشيطان فكبه عن فرسه وعمد يعقوب ابن جابر الى وزيره يحيى بن عطوش فقتله ثم استلحموا لوقتهم مواليه ناصحا من العلوج وعنبرا من الخصيان وقائد جند النصارى وهو أخو القمط و وليدا يافعا من ولد السعيد و يقال انما كان ذلك يوم عبى السعيد العساكر وصعد الجبل للقتال وتقدم أمام الناس فاقتطعه بعض الشعاب المتوعرة فى طريقه فتواثب عليه هؤلاء الفرسان وكان ماذكرناه وذلك منسلخ صفر سنة ست وأربعين وستمائة وانتهى الخبر الى المحلة فارتجت وماجت وأخذ أهلها فى الفرار و بادر يغمراسن الى السعيد فنزل اليه وهو صريع على الارض فحياه وفداه وأقسم له على البراءة من دمه والسعيد رحمه الله واجم بصرعه يجود بنفسه الى ان فاظ وانتهب المعسكر بجملته واستولى بنوعبد الواد على ما كان به من الاخبية الحسنة والفازات الرفيعة واختص يغمراسن بفسطاط السلطان فكان له خالصة دون قومه واستولى على الذخيرة التى كانت فيه منها مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه يزعمون انه أحد المصاحف التى انتسخت لعهد خلافته وانه كان فى خزائن قرطبة عند ولد عبد الرحمن الداخل ثم صار فى ذخائر لمتونة فيما صار اليهم من ذخائر ملوك الطوائف بالاندلس ثم صار الى خزائن الموحدين من يد لمتونة ﴿قال ابن خلدون﴾ وهو لهذا العهد فى خزائن بنى مرين فيما استولوا عليه من ذخيرة آل زيان وذلك عند غلب السلطان أبى الحسن المرينى على تلمسان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة كما نذكره اهـ وقد تقدم لنا الخبر عن هذا المصحف العثمانى وفيه مخالفة لبعض ماهنا وسيأتى لنا فى دولة السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المرينى مايخالف ذلك كله والله أعلم بحقيقة الامر ومن الذخائر التى صارت ليغمراسن من فسطاط السعيد العقد المنتظم من خرزات الياقوت الفاخر والدر النفيس المشتمل على مين متعددة من حصبائه وكان يسمى بالثعبان ثم صار الى بنى مرين أيضا الى ان تلف فى البحر عند غرق الاسطول بالسلطان أبى الحسن بمرسى بجاية مرجعه من تونس حسبما نذكره بعد الى ذخائر من أمثاله وطرف من أشباههما مما يستخلصه الملوك لانفسهم و يعتدونه من ذخائرهم ولما سكنت الفتنة وركد عاصف تلك الهيعة نظر يغمراسن فى شأن مواراة الخليفة فجهزه و رفعه على أعواده فدفنه بالعباد بمقبرة الشيخ أبى مدين رضى الله عنه ثم نظر فى شأن حرمه وأخته تاعزونت الشهيرة الذكر بعد ان جاءها واعتذر اليها مما وقع وأصحبهن جملة من مشيخة بنى عبد الواد الى مأمنهن فالحقوهن بدرعة من تخوم طاعتهم فكان ليغمراسن بذلك حديث جميل فى الابقاء على الحرم ورعى حقوق الملك وأما أهل محلة السعيد فانهم بعد نهوضهم تداعوا واجتمعوا الى عبد الله بن السعيد وقفلوا قاصدين مراكش واتصل الخبر بالامير أبى بكر بن عبد الحق وهو يومئذ بنى يزناسن وقدمت عليه الحصة التى كان وجهها مع السعيد فتحقق الخبر وانتهز الفرصة فى الموحدين فاعترض عسكرهم بجهات تازا فقتل عبد الله بن السعيد واستلبهم واستولى على مابقى من أثاثهم ثم جد السير الى مكناسة فدخلها وملكها ولحق فل الموحدين بمراكش فبايعوا عمر المرتضى كما نذكره ان شاء الله

﴿الخبر عن دولة أبى حفص عمر المرتضى ابن السيد أبى ابراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن رحمه الله﴾

لما توفى أبو الحسن السعيد كان عمر المرتضى واليا من قبله بقصبة رباط الفتح من سلا كما قدمنا فاجتمع الموحدون بجامع المنصور من قصبة مراكش وعقدوا له البيعة وبعثوا بها اليه ونهض هو متوجها الى مراكش فلقيه وفدهم أثناء طريقه بتامسنا واجتمع عليه أشياخ العرب فبايعوه أيضا واستقام أمره

وتلقب بالمرتضى وعقد ليعقوب بن كانون على بنى جابر ولعمه يعقوب بن جرمون على عرب سفيان بعد ان كان قومه قدموه عليهم ودخل الحضرة واستوزر أبا محمد بن يونس من قرابته وقبض على حاشية السعيد ثم وصل أخوه السيد أبو اسحق الذى كان وزير السعيد من قبل ناجيا من وقعة تامزردكت آخذا على طريق سجلماسة فاستوزره أيضا وأسند اليه أمره واستولى أبو بكر بن عبد الحق أمير بنى مرين بعد مهلك السعيد على رباط تازا ومكناسة ثم استولى سنة سبع وأربعين وستمائة على فاس وأعمالها فاقتطع عن المرتضى بلاد الغرب كلها ولم يبق له الا بلاد الحوز من سلا الى السوس ولاول دولة المرتضى كان استيلاء العدو على اشبيلية احدى قواعد الاندلس فان طاغية قشتالة وهو الاصبنيول خذله الله حاصرها سنة خمس وأربعين وستمائة وفى يوم الاثنين الخامس من شعبان من السنة بعدها ملكها صلحا بعد منازلتها حولا كاملا وخمسة أشهر وانتقل كرسى المملكة الاسلامية بالاندلس الى غرناطة وذلك فى دولة بنى الاحمر *وفى سنة تسع وأربعين وستمائة* ملك الامير أبو بكر المرينى سلا ورباط الفتح ووفد على المرتضى بمراكش موسى بن زيان الونكاسى وأخوه على بن زيان من قبيل بنى مرين وأغروه بقتال بنى عبد الحق فاسعفهم ولما انتهى الى أمان ايملولين أشاع يعقوب بن جرمون السفيانى قضية الصلح بينهما وأصبح راحلا وقد استولى الجزع على قلوب الجيش فانفضوا ووقعت الهزيمة من غير قتال ووصل المرتضى الى الحضرة وأغضى ليعقوب عما صدر منه *وفى سنة خمسين وستمائة* استرجع المرتضى سلا ورباط الفتح من يد بنى مرين *وفى سنة احدى وخمسين بعدها* فر من حاشية المرتضى على بن يدر من بنى باداسن ولحق ببلاد السوس وتحصن ببعض جبالها ثم حاصر تارودانت قاعدة بلاد السوس فاستولى عليها واستخدم الشبانات وذوى حسان من عرب معقل وأطاعته قبائل جزولة واستفحل أمره واستولى على بسائط السوس فوجه اليه المرتضى عدة جيوش فهزم البعض وقتل البعض ثم جاء أبو دبوس من بعد المرتضى فنهض اليه وحاصره ببعض حصونه قرب تارودانت ولما اشتد عليه الحصار رغب فى الاقالة ومعاودة الطاعة فقبل ذلك منه أبو دبوس وأقلع عن حصاره وعاد الى الحضرة ولما استولى بنو مرين على مراكش سنة ثمان وستين وستمائة استبد على بن يدر هذا عليهم وتملك قطر السوس واستولى على تارودانت وسائر قراه ومعاقله وارهف حده للعرب وسامهم الهضيمة فزحفوا اليه وقتلوه فى السنة المذكورة ثم توارث قطر السوس من بعده جماعة من عشيرته واستمر ملكهم عليه الى زمان السلطان أبى الحسن المرينى فغلبهم عليه وانقرض أمرهم *رجع الى أخبار عمر المرتضى* *وفى سنة اثنتين وخمسين وستمائة* خرج أبو الحسن بن يعلو قائد المرتضى فى جيش من الموحدين الى تامسنا ليكشف أحوال العرب ومعه يعقوب بن جرمون السفيانى وعهد اليه المرتضى بالقبض على يعقوب بن محمد بن قيطون شيخ بنى جابر فتقبض عليه وعلى وزيره ابن مسلم وطير بهما الى الحضرة معتقلين *وفى سنة ثلاث وخمسين بعدها* خرج المرتضى من مراكش لاسترجاع فاس وأعمالها من يد بنى مرين المتغلبين عليها واحتفل فى الاحتشاد وبالغ فى الاستعداد فكان جيشه ثمانين ألف فارس من الموحدين والعرب والاغزاز وأهل الاندلس والفرنج فسار حتى نزل جبل بنى بهلول قبلة فاس وكانت هيبة بنى مرين وناموسهم قد تمكن من قلوب جيش المرتضى فكانوا منذ قربوا من أحواز فاس لا ينامون الاغرارا فانطلق ذات ليلة فرس لبعض الجنديين وجرى بين الاخبية وجرى الناس خلفه ليأخذوه فظن أهل المحلة ان بنى مرين قد أغاروا عليهم فركبوا خيولهم وماج بعضهم فى بعض وانقلبوا منهزمين لا يلوون على شئ واتصل الخبر بابى بكر بن عبد الحق وهو بفاس فخرج للوقت واحتوى على جميع ما فى محلة الموحدين من الاخبية والاثاث والسلاح والمال ومر المرتضى على وجهه فدخل مراكش فى جمع قليل من الاشياخ والفرنج وأقام بها وأعرض عن بنى مرين وتسلى عنهم سائر أيامه

وازدادت شوكة الموحدين ضعفا واستبد أبو القاسم العزفي بسبتة واستتب أمره بها وتوارث الرياسة بها عشيرته من بعده زمانا الى ان غلبهم عليها بنو مرين ﴿وفي سنة خمس وخمسين وستمائة﴾ استولى أبو بكر ابن عبد الحق على سجلماسة وتقبض على واليها عبد الحق بن اصكو ابداخلة خديم له يعرف بمحمد القطراني وشرط على الامير أبي بكر ان يكون هو الوالي عليها فأمضى له شرطه وأنزل معه بها جماعة من رجالات بني مرين حتى اذا هلك أبو بكر بن عبد الحق أخرجهم محمد القطراني واستبد بأمر سجلماسة وراجع دعوة المرتضى واعتذر اليه واشترط عليه الاستبداد فامضى له شرطه الا في أحكام الشريعة وبعث أبا عمر بن حجاج قاضيا من الحضرة وبعض السادة للنظر في القضية وقائدا من النصارى بعسكر للحماية فاعمل القاضي ابن حجاج الحيلة في قتل القطراني وتولى الفتك به قائد النصارى واستبد السيد بأمر سجلماسة بدعوة المرتضى واستفحل أمر بني مرين أثناء ذلك ونزل الامير يعقوب بن عبد الحق بسائط تامسنا فسرح اليهم المرتضى عساكر الموحدين لنظر يحيى بن عبد الله بن وانودين فأجفلوا الى وادي أم الربيع واتبعهم الموحدون وألحوا عليهم فعطف عليهم بنو مرين واقتتلوا ببطن الوادي فانهزمت عساكر الموحدين وغدر بهم بنو جابر وكان في مسيل الوادي كدى يحسر عنها الماء فتبددوا كأنها أرجل فسميت الواقعة من أجل ذلك بأم الرجلين وذلك في سنة ستين وستمائة وبقي المرتضى يعالج أمر علي بن يدر الثائر بالسوس الى سنة اثنتين وستين وستمائة فأقبل الامير يعقوب بن عبد الحق في جموع بني مرين حتى نزل على مراكش واتصلت الحرب بينه وبين الموحدين بظاهرها أياما هلك فيها عبد الله بن يعقوب ابن عبد الحق فبعث المرتضى الى أبيه يعقوب بالتعزية ولاطفه وضرب اتاوة يبعث بها اليه في كل سنة فرضي يعقوب وارتحل عنها وقيل ان مقتل عبد الله بن يعقوب كان سنة ستين قبل وقعة أم الرجلين والله تعالى أعلم

﴿انتقاض أبي دبوس على المرتضى واستيلاؤه على مراكش ومقتل المرتضى عقب ذلك﴾

لما ارتحل بنو مرين عن مراكش بعد مهلك عبد الله بن يعقوب فرّ من الحضرة قائد حروب المرتضى وابن عمه وهو السيد أبو العلاء ادريس الملقب بأبي دبوس ابن السيد أبي عبد الله محمد ابن السيد أبي حفص عمر ابن عبد المؤمن لسعاية تمكنت فيه عند المرتضى وانه يطالب الامر لنفسه فأحس أبو دبوس بالشر ولحق بيعقوب بن عبد الحق فادركه عند مقدمه الى فاس قافلا من منازلة مراكش فاقبل عليه الامير يعقوب وبالغ في اكرامه فطلب منه أبو دبوس الاعانة على حرب المرتضى وكان بطلا محربا وضمن له فتح مراكش واشترطت له المقاسمة فيما يغلب عليه من السلطان وما يستفيده من الذخيرة والمال فأمده الامير يعقوب بخمسة آلاف من بني مرين وبالكفاية من المال وبالمستجاد من آلة الحرب من طبول وبنود ونحو ذلك وكتب له مع ذلك الى عرب جشم وأميرهم يومئذ علي بن أبي علي الخلطي ان يكونوا معه يدا واحدة فسار أبو دبوس حتى وصل الى سلا فكتب منها الى العرب وأشياخ الموحدين والمصامدة الذين في طاعة المرتضى يدعوهم الى بيعته ويعدهم ويمنيهم فتلقته وفود العرب والهساكرة وصنهاجة آزمور ببعض الطريق فبايعوه وسار وامعه حتى نزل بلاد هسكورة ثم كتب الى خاصته من وزراء المرتضى ان يعلموه بحال البلد والدولة فراجعوه ان أسرع السير وأقبل ولا تخش شيأ فانا قد فرقنا الجند في أطراف البلاد وهذا وقت انتهاز الفرصة فزحف أبو دبوس الى مراكش حتى اذا انتهى الى اغمات وجد بها الوزير أبا زيد ابن يكيت في جيش من حاميتها فناجزه الحرب فانهزم ابن يكيت وقتل عامة أصحابه وسار أبو دبوس يؤم مراكش ومعه عرب سفيان وبني جابر وكبيرهم يومئذ علوش بن كانون السفياني فلما دنوا من مراكش أغار علوش على باب الشريعة منها والناس في صلاة الجمعة حتى ركز رمحه بمصراع الباب ودخلت سنة خمس وستين وستمائة والمرتضى بمراكش غافل عن شأن أبي ادريس والاسوار خالية من الحامية

والحراس فقصد أبو دبوس باب اغمات وتسوّر البلد من هنالك ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها وصعد الى القصبة فاقتحمها من باب الطبول واستولى عليها ﴿وقال ابن أبى زرع﴾ ان دخول أبى دبوس مراكش كان من باب الصالحة وذلك ضحى يوم السبت الثانى والعشرين من المحرم سنة خمس وستين وستمائة والصالحة التى أضيف اليها هذا الباب هى بستان كبير من جملة بساتين أجدال دار الخلافة بمراكش ولا زال هذا البستان مشهورا بهذا الاسم الى الآن وهو من انشاء عبد المؤمن بن على رحمه الله وقد ذكر الشيخ أبو عبد الله محمد بن عذارى الاندلسى فى كتاب البيان المعرب عن أخبار المغرب ان بستان المسرة الذى بظاهر جنان الصالحة أنشأه عبد المؤمن بن على كبير الموحدين قال وهو بستان طوله ثلاثة أميال وعرضه قريب منها فيه كل فاكهة تشتهى وجلب اليه الماء من اغمات واستنبط له عيونا كثيرة ﴿قال ابن اليسع﴾ وما خرجت أنا من مراكش فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة الا وهذا البستان الذى غرسه عبد المؤمن يبلغ مبيع زيتونه وفواكهه ثلاثين ألف دينار مؤمنية على رخص الفاكهة بمراكش اهـ ﴿قلت﴾ ولشهرة هذا البستان وموقعه من الناس لهجت به صبيانهم وسجعوا به فيقولون باجرادة مالحة أين بت سارحة فى جنان الصالحة فى اسجاع غير هذه تجرى على ألسنة الصبيان والله أعلم

﴿رجع الى خبر أبى دبوس﴾

﴿قال ابن أبى زرع﴾ لما اقتحم أبو دبوس مراكش سار حتى وقف بباب البنود من القصبة فغلقت الابواب دونه وقام عبيد المخزن عليها يقاتلونه ولما رأى المرتضى ان أبا دبوس قد التحف معه كساء دار الملك خرج من القصر ناجيا بنفسه من باب الفاتحة ومعه الوزير أبو زيد بن يعلوا الكومى وأبو موسى ابن عزوز الهنتاتى فلحق بهنتاتة ثم انتقل منها الى كدميوة ثم الى شفشاوة ثم لحق آخرا بآزمور ونزل على صهر له من بنى عطوش كان واليا عليها من قبله وكان ابن عطوش هذا قد أسره العدو فافتكه المرتضى بمال جسيم وزوجه ابنته وولاه آزمور فلما وقعت عليه الكائنة بمراكش ذهب اليه مستجيرا به ومطمئنا اليه فكان من جزائه له ان قبض عليه وقيده وكتب الى أبى دبوس يعلمه فكتب أبو دبوس اليه يستكشفه فى شأن الذخيرة فأنكر المرتضى ان يكون قد ذخر شيأ وحلف على ذلك ومت اليه بالرحم حتى عاد أبو دبوس يعطف عليه ثم أغراه حاصته به فوجه اليه من قتله فى الطريق وأتى اليه برأسه وصار ابن عطوش بفعلته هذه أظلم من الخيفقان وكان مقتل المرتضى فى العشر الاواخر من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وستمائة وكان رحمه الله ينتمى الى التصوّف والزهد والورع وتسمى بثالث العمرين وكان مولعا بالسماع لا يكاد يخلو منه ليلا ولا نهارا وكان فى أيامه رخاء مفرط لم ير أهل مراكش مثله ﴿وقال ابن الخطيب﴾ كان المرتضى فاضلا خيرا عفيفا مغمد السيف مائلا الى الهدنة رحمه الله تعالى

﴿الخبر عن دولة أبى العلاء ادريس الواثق بالله المعروف بأبى دبوس﴾

لما اقتحم أبو دبوس حضرة الخلافة على المرتضى وفر المرتضى عنها ملكها أبو دبوس واستتب أمره بها وبايعه كافة الموحدين وأهل العقد والحل من الوزراء والفقهاء والاشياخ وكان ذلك بجامع المنصور يوم الاحد الثالث والعشرين من المحرم سنة خمس وستين وستمائة واستقل أبو دبوس بمملكة مراكش وأعمالها وتلقب بالواثق بالله والمعتمد على الله وبذل العطاء ونظر فى الولايات ورفع المكوس عن الرعية ولما اتصل بالامير يعقوب بن عبد الحق ما كان من أبى دبوس واستيلائه على المملكة كتب اليه يهنئه بالفتح ويطلب منه ان يمكنه من الشرط الذى شرط له فلما وصل اليه الكتاب أدركته النخوة وغلب عليه الكبر وقال للرسول قل ليعقوب بن عبد الحق يغتنم سلامته و يبعث الى ببيعته حتى أقره على ما بيده

والاغزونه بجنود لاقبل له بها فعاد الرسول الى الامير يعقوب وأبلغه الخبر ودفع اليه كتاب أبي دبوس فاذا هو يخاطبه مخاطبة الخلفاء لعمالهم والرؤساء لخدمهم فتحقق الامير يعقوب نكثه وغدره فنهض اليه في جوع بني مرين وعساكر المغرب فلما أشرف على مراكش خام أبو دبوس عن اللقاء وتحصن بداره ولجأ الى أسواره فتقدم الامير يعقوب حتى نزل على مراكش وحاصرها أياما وعاث في نواحيها وانتسف ماحولها ولما رأى أبو دبوس مانزل به منه كتب الى قريعه يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان يطلب منه ان يشغل عنه الامير يعقوب بما وراءه من أعمال فاس والمغرب وأسنى له الهدية في ذلك وأكد العهد في الموالاة والمناصرة فاجابه يغمراسن الى ذلك ونهض من حينه فشن الغارات على ثغور المغرب وأضرم نار الفتنة بها واتصل ذلك بالامير يعقوب وهو محاصر لمراكش فرجع عوده على بدئه وسار الى يغمراسن فناجزه الحرب وانتصف منه على ماينبغي وحسم مادة فساده ثم كر راجعا الى مراكش في شعبان سنة ست وستين وستمائة ولما عبر وادي أم الربيع شن الغارات على النواحي وبث السرايا في الجهات وطال عيثه في البلاد وأبدأ في ذلك وأعاد حتى ضاقت صدور بني عبد المؤمن بمراكش وتكدر عيشهم فحرضهم أولياؤهم من عرب جشم وأغروهم باستنهاض أبي دبوس لمدافعة عدوه ووعدوهم النصرة من أنفسهم فتحرك أبو دبوس لذلك واشرأبت نفسه الى القتال فحشد وأبلغ وبرز من الحضرة في جيوش ضخمة وجموع وافرة ولما علم الامير يعقوب بخروجه ودنوه منه أظهر من نفسه العجز عن لقائه وكر راجعا الى جهة بلاده يستجره بذلك ليبعد عن الحضرة ومددها وتمادى أبو دبوس في اتباعه حتى انتهى الى وادي ودغفو افكر عليه الامير يعقوب والتحم القتال وقامت الحرب على ساق فلم تمض الا ساعة حتى انهزم الموحدون وأطلق أبو دبوس عنانه للفرار يريد مراكش فأدركته خيل بني مرين وتناولته رماحهم وخر صريعا لليدين وللفم واحتز رأسه وجيء به الى الامير يعقوب فسجد شكرا لله تعالى ثم بعث به الى فاس وتقدم هو الى مراكش فاستولى عليها في أوائل محرم سنة ثمان وستين وستمائة وفر الموحدون الذين كانوا بمراكش الى جبل تينملل فبايعوا اسحق بن أبي ابراهيم أخا المرتضى فبقي ذبالة هنالك الى سنة أربع وسبعين وستمائة فقبض عليه وجيء به الى السلطان يعقوب بن عبد الحق هو وابن عمه السيد أبو سعيد بن أبي الربيع ووزيره القبائلي وأولاده فقتلوا جميعا وانقرضت دولة بني عبد المؤمن من الارض وذهبت محاسن مراكش يومئذ بذهاب دولتهم والبقاء لله وحده لارب غيره ولا معبود سواه ﴿ولنذكر﴾ ما كان في هذه المدة من الاحداث ﴿ففي سنة احدى وستمائة﴾ توفي الشيخ أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي المعروف بالسبتي دفين مراكش وذلك يوم الاثنين الثالث من جمادى الآخرة من السنة المذكورة ودفن خارج باب تاغزوت وكان شيخه أبو عبد الله الفخار من أصحاب القاضي أبي الفضل عياض وكان الشيخ أبو العباس رضي الله عنه جميل الصورة أبيض اللون حسن الثياب فصيح اللسان قادرا على الكلام لا يناظره أحد الا أفحمه حتى كأن مواقع الحجج من الكتاب والسنة موضوعة على طرف لسانه وكان مع ذلك حليما صبورا عطوفا يحسن الى من يؤذيه ويحلم عمن يسفه عليه برا باليتامى والمساكين رحيما بهم يجلس حيث أمكنه الجلوس من الاسواق والطرقات ويحض الناس على الصدقة ويأتي بما جاء في فضلها من الآيات والآثار فتنثال عليه من كل جانب فيفرقها على المساكين وينصرف وكان له مع الله تعالى في التوكل عليه عقد أكيد ومقام حميد قد ظهر أثره على روضته المباركة بعد وفاته (حدث) أبو القاسم عبد الرحمن بن ابراهيم الخزرجي قال بعثني أبو الوليد ابن رشد من قرطبة وقال لي اذا رأيت أبا العباس السبتي بمراكش فانظر مذهبه وأعلمني به قال فجلست مع السبتي كثيرا الى ان حصلت مذهبه فأعلمته بذلك فقال لي أبو الوليد هذا رجل مذهبه ان الوجود ينفعل بالجود ﴿وقال الوزير ابن الخطيب﴾ كان سيدي أبو العباس السبتي رضي الله عنه مقصودا في حياته

مستغاثا به فى الازمات وحاله من أعظم الآيات الخارقة للعادة ومبنى أمره على انفعال العالم عن الجود وكونه حكمة فى تأثر الوجود له فى ذلك أخبار ذائعة وأمثال باهرة ولما توفى ظهر هذا الاثر على تربته وانصبت على مكانه عادة حياته ووقع الاجماع على تسليم هذه الدعوى وتخطى الناس مباشرة قبره بالصدقة الى بعثها الله من أماكنهم على بعد المدى وانقطاع الاماكن القصى تحملهم أجنحة نياتهم فتهوى اليه بمقاصدهم من كل فج عميق فيجدون الثمرة المعروفة والكرامة المشهورة ﴿وفى سنة عشر وستمائة﴾ كان الوباء العظيم بالمغرب والاندلس ﴿وفى سنة ست عشرة وستمائة﴾ توفى الشيخ الفقيه الصالح أبو اسحق ابراهيم بن محمد السلمى البلفيقى ينتهى نسبه الى العباس بن مرداس السلمى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أبو اسحق رحمه الله من كبار العلماء العاملين والزهاد المحققين مثابرا على الاجتهاد والانقطاع الى الله تعالى وظهرت عليه ببلده المرية من عدوة الاندلس كرامات واجتمع عليه خلق كثير وشاع ذكره هنالك فوشوا به الى الخليفة صاحب مراكش وهو يوسف المنتصر الموحدى فكتب الى عامله على المرية يأمره بتوجيه الشيخ أبى اسحق مكرما غير مروع ولما عزم العامل على توجيهه قام العامة والاتباع دون الشيخ وأرادوا أن يحولوا بينه وبين العامل فقال لهم الشيخ طاعة السلطان واجبة ولما انتهى الى مراكش ودخل على المنتصر هابه وأجله وندم على ما كان منه اليه ثم بالغ فى اكرامه وبعد ذلك مرض الشيخ أبو اسحق وتوفى فى السنة المذكورة واحتفل الناس لجنازته وحضرها الامراء والكبراء وكسر العامة نعشه واقتسموا أعواده تبركا به وقبره مشهور بمراكش بسوق الدقيق منها وبقرب ضريحه مسجد جامع ينسب اليه والعامة تقول جامع سيدى اسحق بدون لفظ الكنية وليس كذلك ﴿وفى سنة سبع عشرة وستمائة﴾ كان الجراد والقحط والغلاء الشديد بالمغرب وفيها ألف الفقيه أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلى المراكشى الدار عرف بابن الزيات كتابه المسمى بالتشوف الى رجال التصوف وذكر فيه انه لم يتعرض لذكر أحد من أولياء زمانه الاحياء غير انه ذكر ان من جملة أولياء زمانه الذين كانوا فى قيد الحياة الشيخ الصالح الصوفى أبا محمد صالح بن ينضارن بن غفيان الدكالى ثم الماجرى نزيل رباط آسفى قال وهو الآن لا يفتر من الاجتهاد والمحافظة على المواصلة والاوراد ومن كلامه الفقير ادس له نهاية الا الموت قال وحدثنى عنه تلامذته بعجائب من الكرامات والكلام على الخواطر وهو على سنن المشائخ الاول رضى الله عنه ﴿وفى سنة اثنتين وعشرين وستمائة﴾ توفى الشيخ أبو محمد عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه وقيل فيما بعد ذلك الى سنة خمس وعشرين وتوفى رضى الله عنه شهيدا بجبل العلم من جبال غمارة وقبره هنالك مشهور من أعظم مزارات المغرب وكان سبب شهادته ان محمد بن أبى الطواجين الكتامى كان قد ثار بتلك البلاد وانتحل صناعة الكيمياء ثم ادعى النبوة حسبما سلف وتبعه على ضلاله طغام غمارة والبربر فكان عدو الله يغص بمكان الشيخ رضى الله عنه لما آتاه الله من شرف التقوى والاستقامة المؤيد بشرف النسب الصميم والعنصر الكريم فسول له الشيطان انه لا يتم أمر مخرقته فى تلك الناحية الا بقتل الشيخ فدس له جماعة من أتباعه وأشياعه فرصدوا الشيخ حتى نزل من خلوته فى سحر من الاسحار الى عين هنالك قرب الجبل المذكور فتوضأ منها وولى راجعا الى محل عبادته وارتقاب فجره فعدوا عليه وقتلوه ومن الشائع انه ألقى عليهم ضباب كثيف أضلهم عن الطريق ودفعوا الى شواهق تردوا منها فى مهاوى سحيقة تمزقت فيها أشلاؤهم ولم يرجع منهم مخبر والشيخ عبد السلام هذا هو ابن مشيش بن أبى بكر بن على بن حرمة بن عيسى بن سلام بتشديد اللام ابن مزوار بفتح الميم وبالراء المهملة أخيرا ابن حيدرة واسمه على بن محمد بن ادريس بن ادريس بن عبد الله ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ﴿وفى هذه السنة أيضا﴾ استأسد العدو الكافر على المسلمين بالاندلس وتوالت له عليهم الهزائم بمواضع متعددة واستولى على كثير

الحصون واستلحم منهم عدة ألوف حتى خلت المساجد والاسواق ﴿وفى سنة أربع وعشرين وستمائة﴾ اشتد الغلاء بالمغرب والاندلس حتى بيع القفيز من القمح بخمسة عشر دينارا وعم الجراد بلاد المغرب ﴿وفى سنة ست وعشرين وستمائة﴾ كان السيل العظيم بفاس هدم من سورها القبلى نحو مسافتين وهدم من جامع الاندلس ثلاثة بلاطات وهدم دورا كثيرة وفنادق متعددة من عدوة الاندلس ﴿وفى سنة ثلاثين وستمائة﴾ كان الغلاء ببلاد المغرب وكثر بها الجوع والوباء حتى بلغ القفيز من القمح ثمانين دينارا وخلت الامصار من أهلها ﴿وفى سنة خمس وثلاثين وستمائة﴾ عاود الغلاء والوباء أرض المغرب فأكل الناس بعضهم بعضا وكان يدفن فى الحفير الواحد المائة من الناس ﴿وفى سنة ست وأربعين وستمائة﴾ وقع الحريق بأسواق فاس فاحترقت حارة باب السلسلة باسرها الى حمام الرحبة وبالله تعالى العصمة والتوفيق

تم

﴿تم الجزء الاول ويليه الجزء الثانى أوله ابتداء دولة بنى مرين﴾